تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

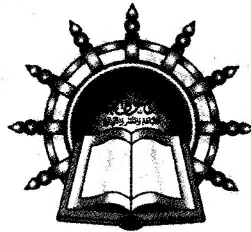
مكة المكرمة

المجلد الثاني والثلاثون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله والشكر على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، **أما بعد**: فلما فرغتُ من تفسير المجلد الحادي والثلاثين.. تفرغتُ للشروع في المجلد الثاني والثلاثين إن شاء الله تعالى بعونه وتوفيقه، فأقول مستمداً منه الفيض والإمداد والتوفيق لطريق السداد والرشاد، وقولي هذا:

سورة البلد

سورة البلد، ويقال لها: سورة لا أقسم، مكية بلا خلاف(١)، نزلت بعد سورة قٓ، وأخرج ابن الضّريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: عشرون آية، وكلماتها(٢): اثنتان وثمانون كلمة، وحروفها: ثلاث مئة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها:

١ ـ أنه تعالى ذم في السابقة من أحب المال وأكل التراث، ولم يحض على طعام المسكين، وذكر هنا الخصال التي تُطلب من صاحب المال من فك الرقبة والإطعام في يوم المسغبة.

٢ ـ ذكر هناك حال النفس المطمئنة، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان؛ وهو الإيمان والتواصي بالصبر.

وعبارة أبي حيان(٣): ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في السابقة ابتلاءه للإنسان بحالة التنعيم، وحالة التقدير، وذكر من صفاته الذميمة ما ذكر، وما آل إليه حاله وحال المؤمن.. أتبعه في هذه السورة بنوع من ابتلائه، ومن حاله السيىء، وما آل إليه في الآخرة. انتهى. وأيضاً سورة البلد فيها ذكر أحوال الدول

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

والأمم المتمدنة والتمدن في دين الإسلام لا يكون إلا باقتحام العقبة التي بينتها آيات سورة البلد، وسميت سورة البلد؛ لذكر لفظ البلد فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة البلد كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد.. أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمانة من غضبه يوم القيامة» وفيه مقال.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى
كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ
۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ
مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها قريباً، وأما قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ ...﴾ الآيات، فالمناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر أنه لا ينبغي للمفتونين بقوة أبدانهم المغرورين بواسع جاههم أن يتمادَوا في صلفهم وكبريائهم.. شرع يوبخهم على الاغترار بقوتهم الزائلة، ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ...﴾ الآيات، المناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر هؤلاء المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة، وحباً في حسن الأحدوثة، وأنَّبهم على افتخارهم بما صنعوا مع خلو بواطنهم من حسن النية، وبيّن لهم أن أفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق، والعقل المميز بين الخير والشر، والنفع والضر هو منه سبحانه وتعالى، وهو القادر على سلبه منهم.. أردفه ببيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم، ويختاروا طريق الخير، ويرجحوا سبيل السعادة، فيفيضوا على الناس بشيء مما أفاض به عليهم، وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين العوز وعزة الطعام، أو يطعموا المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أودهم؛

---

(١) المراغي.

لضعفهم وعجزهم، ثم هم مع ذلك يكونون صحيحي الإيمان صبورين على أذى الناس، وعلى ما يصيبهم من المكاره في سبيل الدعوة إلى الحق، رحماء بعباده، مواسين لهم حين الشدائد، هذه هي الطريق التي كان من حق العقل أن يُرشد إليها، لكن الإنسان قد خدعه غروره، فلم يقتحم هذه العقبة، ولم يسلك هذه السبيل القويمة، ولم يسر فيما يرشد إليه العقل السليم.

أسباب النزول

روي أن قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ نزل في أبي الأشد أُسيد بن كلدة الجمحي، وكان مغتراً بقوته البدنية، وأن قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ نزل في الحارث بن نوفل، وكان يقول: أهلكت مالاً لبداً في الكفارات منذ أطعت محمداً، وسواء أكانت هذه الآيات نزلت في هؤلاء أم في غيرهم، فإن معناها عام بكل من اتصف بما فيها من الاغترارات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾؛ أي: أقسم[1] بالبلد الحرام الذي هو مكة، فكلمة ﴿لَآ﴾ صلة دل عليه أن الله سبحانه أقسم بالبلد الأمين في سورة التين، قال في «كشف الأسرار»: و﴿لَآ﴾: زائدة لتأكيد القسم، كقول العرب: لا والله ما فعلت كذا، لا والله لأفعلن كذا، والبلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، وجمعه بلاد وبلدان، ثم إن[2] الله سبحانه وتعالى أقسم بمكة لفضلها؛ فإنه جعلها حرماً آمناً، ومسقط رأس النبي ﷺ، وحرم أبيه إبراهيم عليه السلام، ومنشأ أبيه إسماعيل عليه السلام، وجعل البيت قبلة لأهل الشرق والغرب، وحج البيت كفارة لذنوب العمر، وجعل البيت المعمور في السماء بإزائه، ومن زيادة[3] لا في غير القسم قول الشاعر:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَىٰ فَٱعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ   وَكَادَ صَمِيمُ ٱلْقَلْبِ لاَ يَتَصَدَّعُ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

أي: يتصدع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ أي: أن تسجد، وقيل: إن ﴿لَآ﴾ لنفي القسم، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه، وقال مجاهد: إن ﴿لَآ﴾ رد على من أنكر البعث، ثم ابتدأ، فقال: ﴿أُقْسِمُ﴾ والمعنى عليه: ليس الأمر كما تحسبون، والأول أولى، وقال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام مكة المكرمة، وقال الواسطي: إن المراد بالبلد المدينة المنورة، وهو مع كونه خلاف ما أجمع عليه المفسرون مدفوع بكون السورة مكية لا مدنية، وقرأ الجمهور: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ بـ﴿لا﴾ النافية الزائدة، وقرأ الحسن والأعمش: ﴿لأقسم﴾ من غير ألف، وجملة قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ حال[1] من المقسم به، و﴿لَآ﴾ خطاب للنبي ﷺ، و﴿حِلٌّ﴾؛ بمعنى حال من الحلول؛ وهو النزول؛ أي: والحال أنت يا محمد حالٌّ في مكة نازل بها، قيد إقسامه تعالى بمكة بحلوله ﷺ فيها إظهاراً لمزيد فضلها، فإنها بعد أن كانت شريفة بنفسها.. زاد شرفها بحلول النبي العظيم الشريف، فما لا شرف فيه يحصل له شرف بشرف المكين، وما فيه شرف ذاتي يحصل له بشريف شرف زائد، ومحل قدمي النبي ﷺ، كمكة والمدينة ينبغي أن يحافَظ على حرمته. وفي هذه الجملة تعريض لأهل مكة بأنهم لجهلهم يرون أن يخرجوا منها من به مزيد شرفها ويؤذوه، ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين القسم وجوابه؛ لغرض التأكيد.

والمعنى عليه: أقسم بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد، وقال الواحدي: الحل والحلال والمُحِل معناها واحد، وهو ضد المحرم، يعني: أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد ما حُرِّم على غيره، كما يستحل الصيد في غير الحرم، وذلك أن الله سبحانه أحل لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «لم تحلَّ لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلَّ لي إلا ساعة من نهار»، قال الواحدي: والمعنى: أن الله لما أقسم بمكة دل ذلك على عُظْم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها، ويفتحها على يده، وهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حِلاً. انتهى.

فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم

---

(١) روح البيان.

﴿تَمِيتُونَ ۝٣٠﴾ قال مجاهد: المعنى: ما صنعت فيه من شيء فأنت حل.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لِمَ كرر لفظ ﴿ٱلْبَلَدِ﴾؟

قلت: لم يكرره؛ إذ التقدير: لا أقسم بهذا البلد المحرم الذي جبلت العرب على تعظيمه وتحريمه، وأنت حل بهذا البلد؛ أي: أحل لك فيه من حرماته ما لم يحل لأحد قبلك ولا بعدك، من قتل ابن خطل، وقتال المشركين ساعة من نهار، فالمراد بالبلد الأول: الباقي على تحريمه، والثاني: الذي أُحل للنبي ﷺ إكراماً له وتعظيماً لمنزلته، هكذا قاله بعض المفسرين. انتهى. وقوله: ﴿وَوَالِدٍ﴾: معطوف على ﴿هذا البلد﴾. والمراد به إبراهيم عليه السلام، والتنكير فيه للتفخيم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ه ذلك الوالد وهو إسماعيل عليه السلام، فإنه ولده بلا واسطة، ومحمد ﷺ فإنه ولده بواسطة إسماعيل، فتتضمن السورة القسم بالنبي ﷺ في موضعين.

وإيثار[1] ﴿مَا﴾ على من؛ لمعنى التعجب مما أعطاه الله من الكمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي: بأي شيء وضعت يعني: موضوعاً عجيب الشأن وهو مريم، أو المراد بـ﴿الوالد﴾ آدم عليه السلام، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته، وهو الأنسب لمضمون الجواب، فالتفخيم المستفاد من كلمة ﴿مَا﴾ لا بد فيه من اعتبار التغليب؛ أي: فهو من باب وصف الكل بوصف البعض، أو للتعجيب من الأمر الذي يشترك فيه الكل كالنطق والبيان والصورة البديعة وغيرها، وقيل المراد: كل والد وكل مولود من الإنسان وغيره، واختار هذا القول ابن جرير.

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ حال كونه ﴿فِى كَبَدٍ﴾ وتعب ونصب ومشقة في جميع أحواله، جواب للقسم، يقال: كَبِد الرجل كَبَداً إذا وجعت كبده فانتفخت، وأصله: كَبَدَهُ إذا أصاب كَبِدَه، كذكرته إذا قطعت ذكره، ورأيته إذا قطعت رئته، ثم اتسع فيه حتى استُعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة الشدة، و﴿فِى كَبَدٍ﴾ حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بمعنى مكابداً، وحرف ﴿فِى﴾ واللام متقاربان، تقول: إنما أنت للعناء والنصب، وإنما أنت في العناء والنصب، والإنسان هو هذا النوع الإنساني.

والمعنى[2]: لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة، فإنه مع كونه أضعف الخلق

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

لا يزال يقاسي فنون الشدائد، مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقهُ، ومنتهاها الموت وما بعده، فابن آدم يكابد من البلايا ما لا يكابده غيره، يعني: أن الكبد يتناول شدائد الدنيا من قطع سرته والتفافه بخرقة محبوس الأعضاء، ومكابدة الختان وأوجاعه، ومكابدة المعلم وصولته، والأستاذ وهيبته، ثم مكابدة شغل الزواج وشغل الأولاد والخدم، وشغل المسكن، ثم الكبر والهرم من جملة مصائب كثيرة لا يمكن تعدادها، كالصداع ووجع الأضراس ورمد العين، وهمّ الدَّين ونحو ذلك، ويتناول أيضاً شدائد التكاليف، كالشكر على السراء والصبر على الضراء، والمكابدة في أداء العبادات، كالصوم والصلاة والزكاة والحج والجهاد، ثم بعد ذلك يقاسي شدة الموت وسؤال الملك وظلمة القبر، ثم البعث والعرض على الملك المحاسب إلى أن يصل إلى موضع الاستقرار إما في الجنة وإما في النار، كما قال سبحانه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ فهو مكابد من أول قطع سرته إلى أن يستقر قراره إما في جنته، فتزول عنه المشقات، وإما في نار، فتتضاعف مشقاته وشدائده. كما في «البحر».

قال الإمام[١]: ليس في الدنيا لذة ألبتة، بل ذلك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص من الألم، فاللذة عند الأكل هي الخلاص من ألم الجوع، وعند اللبس هي الخلاص من ألم الحر والبرد، فليس للإنسان إلا ألم وخلاص من ألم، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار قريش، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له: أبو الأَشُد ـ بفتح الهمزة وضم الشين ـ وكان يأخذ الأديم العكاظي، ويجعله تحت رجليه، ويقول: من أزالني عنه.. فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾؛ لقوته، ويكون معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ على هذا: في شدة الخلق، وقيل معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد.

والخلاصة[٢]: أي إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد، مبتدأة بالمشقة منتهية بها، فهو لا يزال يقاسي من ضروبها ما يقاسي منذ نشأته في بطن أمه إلى أن يصير رجلاً، وكلما كبر ازدادات أتعابه وآلامه، فهو يحتاج إلى تحصيل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أرزاقه وتربية أولاده، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ومصابرة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ويلاقي في قبره وفي آخرته من المشاق والمتاعب ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه.

والسر في ذكر هذه الجملة تسلية رسول الله ﷺ على ما يلاقيه من إذاية الكفار، كما مر آنفاً، وتنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة في أنفسهم، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران، وكأنه يقول لهم: لا تتمادوا في غروركم ولا تستمروا على صلفكم وكبريائكم، فإن الإنسان لا يخلو من العناء في تصريف شؤونه وشؤون ذويه، ومهما عظمت منزلته وقويت شكيمته فهو لا يستطيع الخلاص من مشاق الحياة.

وقد جمع سبحانه بين البلد المعظم والوالد والولد، يشير إلى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيماً، يكون إكليلاً لمجد النوع الإنساني وشرفه؛ وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وأن العناء الذي يلاقيه إنما هو العناء الذي يصيب الوالد في تربية ولده والمولود في بلوغ الغاية في سبيل نموه، إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون.

والضمير في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعض صناديد قريش، الذين كان ﷺ يكابد منهم أكثر مما يكابد من غيرهم، كالوليد بن المغيرة وأضرابه ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة سادَّةٌ مع اسمها مسد مفعولي الحسبان؛ أي: أيظن[1] الإنسان المعهود الذي هو أبو الأَشُد، أو جنس بني آدم أن الحال الشأن ﴿لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الانتقام منه ﴿أَحَدٌ﴾ فحسبانه الناشيء عن غلظ الحجاب، ومرض القلب فاسد؛ لأن الله الأحد يقدر عليه، وهو عزيز ذو انتقام، ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان، فقال: ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الظان على سبيل الرعونة والخيلاء ﴿أَهْلَكْتُ﴾؛ أي: أنفقت كقول العرب: خسرت عليه كذا إذا أنفق عليه ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً متلبداً مجتمعاً بعضه إلى بعض، من تلبد الشيء إذا اجتمع، يريد كثرة ما أنفقه سمعة ومفاخرة، وكان أهل الجاهلية يسمون مثل ذلك مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر.

قال الليث[2]: ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾، لا يُخاف فناؤه لكثرته، قال الكلبي ومقاتل:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

يقول أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيراً، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد ﷺ، وفي لفظ الإهلاك إشارة إلى أنه ضائع في الحقيقة؛ إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حق عبد الله بن جدعان: كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لا ينفعه؛ لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُبَدًا﴾ ـ بضم اللام وفتح الباء مخففاً ـ وقرأ مجاهد وحميد وابن أبي الزناد: ﴿لُبُداً﴾ ـ بضمهما مخففاً ـ وقرأ أبو جعفر: بضم اللام وفتح الباء مشدداً، قال أبو عبيدة: لبد ـ فعل من التلبيد ـ المال الكثير بعضه على بعض، قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال: رجل حطم همر لمز إذا كان كثير الحطم والهمز واللمز، قال الفراء: واحدته: لبدة، والجمع: لبد.

﴿أَيَحْسَبُ﴾؛ أي: أيظن ذلك الأحمق المباهي ﴿أَن﴾؛ أي: أن الشأن ﴿لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان يُنفق، وأنه تعالى لا يسأله عنه، ولا يجاريه عليه؛ أي: يظن أنه لم يعاينه أحد، والاستفهام للإنكار كسابقه.

قال قتادة: أيظن أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وأين أنفقه، وقال الكلبي: كان كاذباً لم ينفق ما قال، فقال الله: أيظن أن الله لم ير ذلك منه فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق، يعني أن الله سبحانه رآه واطلع على خبث نيته، وفساد سريرته، وأنه مجازيه عليه، فمثل ذلك الإنفاق وهو ما كان بطريق المباهاة رذيلة، فكيف يعده الجاهل فضيلة، وفي الحديث: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين كسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

وحاصل معنى الآيات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾؛ أي: أيظن[2] ذلك المغتر بقوته المفتون بما أنعمنا له عليه أنه مهما عظمت حاله وقوي سلطانه يبلغ منزلة لا يقدر عليه فيها أحد، ما أجهله إذا ظن ذلك، فإن في الوجود قوة فوق جميع القوى المهيمنة على كل قوة، والمسيطرة على كل القدرة، وهي القوة التي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) المراغي.

أبدعته، والقدرة التي أنشأته، ثم ذكر صنفاً آخر من الأغنياء البخلاء المرائين بقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾؛ أي: إنهم إذا طُلب إليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر.. قالوا: إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفاخر والمكارم، ولم يعلموا أن المكرمة ما عده الله مكرمة، والبر ما اعتبره الله سبحانه براً، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقة الله ورسوله، ولا إنفاقهم الأموال في الصد عن سبيل الله، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾؛ أي: أيظن ذلك المغتر بماله المدعي أنه أنفقه في سبيل الخير أن الله لم يطلع على أفعاله، ولم يعلم ما دعاه إلى الإنفاق، إنه لا ينبغي له أن يظن ذلك، فإن البارىء له مطلع على قرارة نفسه، عالم بخبيثات قلبه، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، عليم بأنه لم يُنفق شيئاً من ماله في سبيل الخير المشروع والبر المحمود، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة، أو لمشاقة الله ورسوله، أو في وجوه أخرى يظنها خيراً؛ وهي خسران وضلال مبين.

وبعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم.. شرع يذكر آثار قدرته الغالبة؛ ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ما هم يشاهدون، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ فهو إذا أبصر شيئاً فإنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين، فهذه النعمة التي يعتز بها إنما هي من عملنا؛ أي: ألم[1] نخلق له عينين يبصر بهما عالَم الملك من الأرض إلى السماء حتى يشاهد بهما في طرفة عين النجوم العلوية التي بينه وبينها عدة آلاف سنة، ويفرق بهما بين ما يضر وما ينفع، وبهما يحصل شرف النظر إلى وجه العالِم، وإلى المصحف وإلى الشواهد.

قال في «أسئلة الحكم»: العين تحرس البدن من الآفاق، وهي نيرة كالمرآة إذا قابلها شيء ارتسمت صورته فيها مع صغر الناظر، وهو الحدقة التي هي شحمة، وجعل الله سبحانه العين سريعة الحركة، وجعل لها أجفاناً تسترها، وأهداباً من الشعر كجناح الطائر تطرد بانضمامها وبانفتاحها الذباب والهوام عن العين، وجعل العين في الرأس؛ لأن السراج يوضع على رأس المنار، وجعلها ثنتين كالشمس والقمر، فإنهما عينا التعين الدنيوي، وجعل فوقهما حاجبين أسودين، لئلا يتضرر

---

(١) روح البيان.

البصر بالضياء، ولأن الذي ينظر في السواد إلى البياض يكون أحد نظراً، ولذلك جُعلت الحدقة سوداء، وأهداب العين شعراً أسود؛ لأن السواد يقوي البصر.

ولما بنى ذو القرنين الإسكندرية.. رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام، فمن ذلك اليوم لبس الرهبان السواد، فإن النظر إلى الأبيض يفرق البصر ويضعفه، ولذا قال ﷺ في الإثمد: «إنه يقوي البصر»، وجعل سبحانه الحدقة محركة في مكانها لتتحرك إلى الجهات يمنة ويسرة، فيبصر بها من غير أن يلوي عنقه، وجعل الناظرين جميعاً على خط مستقيم عرضاً، ولم يقع واحد منهما أعلى ولا أخفض؛ ليجتمع الناظران على شيء واحد؛ لئلا يتراءى له الشخص الواحد شخصين، وجعل العين ثنتين؛ لأن نظر عينين أتم من نظر عين واحدة، وإشارة إلى العين الظاهرة والعين الباطنة، فينبغي أن يحافظ على كلتيهما. ﴿و﴾ ألم نجعل ﴿لساناً﴾ يترجم[1] به عن ضمائره وينطق به، وبه تنعقد المعاملات، وتحصل الشهادات، ويدرك الطعوم من الحلو والمر، ولو لم يكن اللسان لاحتاج الإنسان إلى الإشارة أو الكتابة فتعسر أمره، وإنما تعدد العين والأذن، وتفرد اللسان؛ لأن حاجة الإنسان إلى السمع والبصر أكثر من حاجته إلى الكلام، وفيه تنبيه أيضاً على أن يقل من الكلام إلا في الخير، وأن لا يتكلم فيما لا فائدة فيه، وهو السر في أن الله تعالى جعل اللسان داخل الفم، وجعل دونه الشفتين اللتين لا يمكن الكلام إلا بفتحهما؛ ليستعين العبد بإطباق شفتيه على رد الكلام. ﴿و﴾ ألم نجعل له ﴿شفتين﴾ يستر بهما فاه وثغره إذا أراد السكوت، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ، قال السجاوندي: خص الشفة، لخروج أكثر الحروف منها، وفي الدعاء: الحمد لله الذي جعلنا ننطق بلحم ونبصر بشحم ونسمع بعظم. قال بعضهم: أسبل الصانع الحكيم أمام الفم ستراً من الشفة ذا طرفين يضمهما عند الحاجة، ويمتص بهما المشروب، وجعل الشارب محيطاً من العليا؛ ليمنع ما على وجه الشراب من القش والقذى أن يدخل حالة الشرب. انتهى.

وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد

---

(١) روح البيان.

أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق». وفي الخبر: «الفرج أمانة، والأذن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له» قال الزجاج: والمعنى: ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، والشفة محذوفة اللام، وأصلها: شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾، أي: هدينا ذلك الإنسان ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: الطريقين طريقي الخير والشر معطوف[1] على ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾؛ لأنه في التقدير مثبت؛ أي: جعلنا له ذلك المذكور، وهديناه طريقي الخير والشر؛ أي: بيناهما له وأوضحناهما له بالدلائل الواضحة القاطعة، قال الزجاج: المعنى: ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبيين الطريقين العاليتين، كما قال ﷺ: «النجدان هما الطريقان، نجد الخير ونجد الشر؛ فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير».

وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك: النجدان: الثديان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، وتمكين مولود عاجز من رضاع أمه عقيب الولادة قدرة من الله سبحانه ونعمة جلية عليه، والأول أولى. وأصل النجد[2]: المكان المرتفع، وجمعه نجود، ومنه سميت نجداً لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرىء القيس:

فَرِيْقَانِ مِنْهُمْ قَاطِعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

فجعل الخير بمنزلة مكان مرتفع واضح بخلاف الشر، فإنه يستلزم الانحطاط عن ذروة الفطرة إلى حضيض الشقاوة، فكان استعمال النجدين هنا بطريق التغليب، أو لأن فعل الشر بالنسبة إلى قوته في الواهمة مصور بصورة المكان المرتفع، وقال ابن الشيخ: لما وضحت الدلالة الدالة على الخير والشر.. صارتا كالطريقين المرتفعين بسبب كونهما واضحين للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار.

والمعنى[3]: أي وأودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر، وجعلنا له

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

من العقل والفكر ما يكون مذكراً ومنبهاً، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير، وأرشدناه إلى ما في الشر من هفوات وعيوب، ثم أقدرناه على أن يسلك أي الطريقين شاء بعد أن آتيناه قوة التمييز والقدرة على الاختيار والترجيح، ليسلك الطريق التي أراد منهما، فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر، فمن نازعته نفسه، واتجهت إلى نجد الشر.. فليقمعها بالنظر في آيات الله، والتدبر في دلائله؛ ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوي بصاحبه إلى طريق الردى ويوقعه في المهالك، وإنما[1] سماهما الله نجدين للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار، وإلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها، وفي ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية والتوصل إلى الغاية.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾؛ أي: فهلا سلك ذلك الإنسان المغرور ﴿الْعَقَبَةَ﴾؛ أي: طريق العقبة التي يشق سلوكها، والسير فيها على أكثر الناس التي هي مجاهدة النفس والشيطان والهوى، وسلوك طريق الخير والهدى؛ ليكون شاكراً لربه على هذه النعمة، وقد ضرب الله سبحانه العقبة مثلاً لهذا الجهاد؛ لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح، وبينه وبين ذلك عقبات من ورائها عقبات، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هي فعل الخيرات، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة الحسية ﴿فَلَا﴾ بمعنى: هلا للتحضيض؛ أي: الذي أنفق ماله في عداوة النبي ﷺ. هلا أنفقه لاقتحام العقبة ومجاوزتها، فيأمن من مهالك الدارين، ولكن كون ﴿لا﴾ بمعنى هلاّ لم يُسمع وإن ذكره الجلال.

قال الفراء والزجاج[2]: ذكر سبحانه هنا ﴿لا﴾ مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد ﴿لا﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ وإنما أفردها هنا؛ لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن، قال المبرد وأبو علي الفارسي: إن ﴿لا﴾ هنا بمعنى لم؛

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

أي: فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يحتج إلى التكرير، وقيل: هو جار مجرى الدعاء، كقولهم: لا نجا، قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا: الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو التحضيض تقديره: هلاّ اقتحم العقبة، كما مر آنفاً، ولكنه ضعيف؛ لأنه لم يُسمع في كلام العرب كون ﴿لا﴾ للتحضيض، والاقتحام[1]: الدخول في أمر شديد ومجاوزته في صعوبة، وفي «القاموس»: قحم في الأمر - كنصر - قحوماً إذا رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية، والعقبة: الطريق الوعر في الجبل، والمعنى على النفي؛ أي: فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة، وعبر عنها بالعقبة لصعوبة سلوكها، ثم بيّن سبحانه العقبة، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾؛ أي: أي شيء أعلمك يا محمد جواب ما اقتحام العقبة؟ فإن المراد ليس العقبة الصورية، وأبيّن لك بقولي: اقتحام العقبة هو ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾، أي: إعتاق نسمة، وتخليصها من أسر الرق، أو من قتل، أو يد كافر، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه فك الرهن، وأصل الفك[2]: الفرق بين الشيئين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفك القيد والغل، وفك الرقبة، الفرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية، سمي العتق فكاً؛ لأن الرق كالقيد، وسمي المرقوق رقبةً؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، والرقبة: اسم للعضو المخصوص، ثم يعبر بها عن الجملة، وجُعل في التعارف اسماً للمماليك، كما عبر بالرأس وبالظهر عن المركوب، فيقال: فلان يربط كذا رأساً وكذا ظهراً.

والمعنى هنا: هو - أي اقتحام العقبة - إعتاق رقبة، فالفك، ليس تفسيراً وبياناً لنفس العقبة، بل لاقتحامها بتقدير المضاف، وذلك لأن العقبة عين، والفك فعل فلا يكون تفسيراً للآخر.

ثم فك الرقبة[3] قد يكون بأن ينفرد الرجل في عتق الرقبة، وقد يكون بأن يُعطي مكاتبه ما يصرفه إلى جهة فكاك رقبته، وبأن يعين في تخليص نفس من قَوَد أو غُرْم، فهذا كله يعمه الفك دون الإعتاق، ويحتمل أن يكون المراد بفك الرقبة: أن

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

يفك المرء نفسه رقبة نفسه من عذاب الله تعالى، بأن يشتغل بالأعمال الصالحة حتى يصير بها إلى الجنة، ويتخلص من النار، وهي الحرية الوسطى، وأن يفك رقبة القلب من أسر النفس وقيد الهوى، وتعلق السوى، وهي الحرية الكبرى، فيكون قوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ. . .﴾ إلخ من قبيل التخصيص بعد التعميم إشارة إلى فضل ذلك الخاص بحيث خرج به من أن يتناوله اللفظ السابق مع عمومه.

قال بعضهم: تقديم العتق على الصدقة يدل على أنه أفضل منها، كما هو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ، وفي الحديث: «من فك رقبة. . فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار».

قال الراغب: فك الإنسان غيره من العذاب إنما يحصل بعد فك نفسه منه، فإن من لم يهتد ليس في قوته أن يهدي، وفك الرقبة من قبيل فك النفس؛ لأنه من الأعمال الصالحة التي لها مدخل عظيم في فكها. وقرأ النحويان[1] أبو عمرو والكسائي وابن كثير: ﴿فَكَّ﴾ فعلاً ماضياً ﴿رقبةً﴾ نصباً على المفعولية، وهكذا قرؤوا: ﴿أَطْعَمَ﴾ فعلاً ماضياً ﴿مِسْكِينًا﴾ وما بعده نصباً على المفعولية، وقرأ باقي السبعة: ﴿فَكُّ﴾ مرفوعاً ﴿رَقَبَةٍ﴾ مجروراً ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ بالرفع معطوفاً على ﴿فَكُّ﴾ على أنهما مصدران، وجر ﴿رَقَبَةٍ﴾ بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من ﴿اقْتَحَمَ﴾، كأنه قيل: فلا فك ولا أطعم، وقرأ علي وأبو رجاء كقراءة ابن كثير إلا أنهما قرآ: ﴿ذا مسغبة﴾ بالألف، وقرأ الحسن وأبو رجاء أيضاً: ﴿أو إطعام في يوم ذا﴾ بالألف، ونصب ﴿ذا﴾ على المفعولية؛ أي: إنساناً ذا مسغبة، و﴿يَتِيمًا﴾ بدل منه أو صفة، وقرأ بعض التابعين: ﴿فك رقبة﴾ بالإضافة ﴿أو أطعمَ﴾ فعلاً ماضياً، ومن قرأ ﴿فَكُّ﴾ بالرفع، فهو تفسير لاقتحام العقبة، والتقدير: وما أدراك ما اقتحام العقبة، ومن قرأها فعلاً ماضياً فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، بل يكون التعظيم المفهوم من الاستفهام للعقبة نفسها، ويجيء ﴿فَكَّ﴾ بدلاً من اقتحم. قاله ابن عطية.

والحاصل[2]: أنه سبحانه وتعالى أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير، منها:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

١ ـ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾؛ أي: عتق الرقبة أو الإعانة عليها، وقد ورد في الكتاب الكريم والسنة الترغيب في العتق والحث عليه، منها ما روى البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «عتق النسمة وفك الرقبة»، قال: يا رسول الله، أوليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

٢ ـ ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾؛ أي: ذي مجاعة لقحط أو غلاء من سغب إذا جاع، قال الراغب: السغب: الجوع مع التعب، وربما قيل في العطش مع التعب، يقال منه: سغب الرجل سغباً ومسغوباً فهو ساغب وسغبان، والمسغبة بوزن مفعلة مصدر ميمي، وأنشد أبو عبيدة:

فَلَوْ كُنْتَ حُرّاً يَا ٱبْنَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ... لَمَا بِتَّ شَبْعَاناً وَجَارُكَ سَاغِبَا

قال النخعي: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: عزيز فيه الطعام، وقيد الإطعام[1] بيوم المجاعة؛ لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر، وقرأ الجمهور[2]: ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ على أنه صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾، و﴿يَتِيمًا﴾ هو مفعول ﴿إِطْعَامٌ﴾، وقرأ الحسن: ﴿ذا مسغبة﴾ بالنصب على أنه مفعول إطعام؛ أي: يُطعمون ذا مسغبة، و﴿يَتِيمًا﴾ بدل منه. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به ﴿لإطعام﴾﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: صاحب قرابة من قرب في النسب قرباً ومقربة، فالمقربة مصدر ميمي أيضاً بمعنى القرابة.

وقال السجاوندي: قرب قرابة أو جوار. انتهى. وقيّد اليتيم بأن يكون بينه وبين المطعم قرابة نسبية؛ لأنه اجتمع فيه جهتا الاستحقاق، اليُتم والقرابة، فإطعامه أفضل؛ لاشتماله على الصدقة وصلة الرحم، واليتيم في الأصل: الضعيف، يقال: يُتم الرجل إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، وقيل: هو من لا أب له ولا أم، ومنه قول قيس بن الملوّح:

إِلَىٰ ٱللَّهِ أَشْكُوْ فَقْدَ لَيْلَىٰ كَمَا شَكَا ... إِلَىٰ ٱللَّهِ فَقْدَ ٱلْوَالِدَيْنِ يَتِيْمُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: أو إطعام يتيم من أقاربه في أيام الجوع والعوز، وفي هذا جمع بين حقين: حق اليتم، وحق القرابة.

٣ ـ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: ذا افتقار لا شيء له، كأنه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلا التراب، مأخوذ من تَرِب ـ بالكسر ـ تَرَباً بفتحتين، ومترباً إذا افتقر، كأنه لصق بالتراب من فقره وضره، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يوطئه ويفرشه، وأما قولهم: أترب فمعناه: صار ذا مال، كالتراب في الكثرة، كما يقال: أثرى فلان إذا كثر ماله، وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ «الذي مأواه المزابل»، وقال مجاهد[2]: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره، وقال قتادة: هو ذو العيال، وقال عكرمة: هو المديون، وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة، وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد، وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وَكُنَّا إِذَا مَا ٱلضَّيْفُ حَلَّ بِأَرْضِنَا سَفَكْنَا دِمَاءَ ٱلْبُدْنِ فِيْ تُرْبَةِ ٱلْحَالِ

وفي الحديث: «الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله، وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر» يقول الفقير: خص الفك والإطعام؛ لصعوبة العمل بهما، وجعل الإطعام لليتيم والمسكين؛ لما أن ذلك يثقل على النفس، فقد ينفق المرء الوفاء في هواه كإطعام أهل الهوى وبناء الأبنية الزائدة، ونحو ذلك، ولا يستكثرها، وأما الفقير واليتيم فلا يراهما بصره، لهوانهما عنده، وعلى تقدير الرؤية فيصعب عليه إعطاء درهم أو درهمين، أو إطعام لقمة أو لقمتين.

والخلاصة: أي أو إطعام المسكين الذي لا وسيلة له إلى كسب المال؛ لضعفه وعجزه، وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] عطف على المنفي بـ﴿لا﴾، وجاء بـ﴿ثم﴾؛ للدلالة على تراخي رتبة الإيمان عن العتق والصدقة، ورفعة محله على محلهما، لتوقف صحة جميع الأعمال الصالحة على وجوده؛ لكونه أساسها، وإلا فهو في الزمان مقدم على الطاعات.

والمعنى: أن الإنفاق مع الإيمان، والتواصي هو الإنفاق المرضي النافع عند

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

الله تعالى، لا أن يُهلك مالاً لبداً في الرياء والفخار، فيكون مثله كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم، وفي ذكر العقبة إشارة إلى أن عقبة الآخرة لا يجوزها إلا من كان محقاً، أو يكون المعنى: ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان؛ إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات، والمعنى: أي: ثم كان مع اقتحامه العقبة من الذين صدقوا في إيمانهم ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عطف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن المعاصي وفي المصائب والبلايا إذا أصابتهم ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾: مصدر[1] ميمي بمعنى الرحمة؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالرحمة على عباد الله، أو بموجبات رحمته تعالى من الخيرات على حذف المضاف، أو على ذكر المسبب وإرادة السبب تنبيهاً على كماله في السببية، والرحمة بهذا المعنى أعم من الرحمة بالمعنى الأول؛ وهي الشفقة لمن يستحقها من العباد يتيماً أو فقيراً، أو نحو ذلك، وفي الحديث: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

واعلم[2]: أنه إنما اشترط الإيمان مع فعل هذه المَبَارِّ؛ لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها، ولم يكن له ثواب عليها؛ إذ لا ينفع مع الكفر بر، ثم بيّن مآل فاعل هذه المبرات، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة.

وفي اسم الإشارة[3] دلالة على حضورهم عند الله في مقام كرامته، وعلوّ رتبتهم، وبعد درجتهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: أصحاب اليمين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم، ويُسلَك بهم من طريق اليمين إلى الجنة، أو أصحاب اليمن والخير والسعادة؛ لأن الصلحاء ميامين على أنفسهم بطاعتهم وعلى غيرهم أيضاً، أو أصحاب اليد اليمنى.

والمعنى[4]: أي أولئك الذين اقتحموا العقبة، ففكوا الرقاب، وأطعموا المساكين، وواسوا ذوي القربى في يوم المسغبة هم السعداء المُمَتَّعون بجنات النعيم، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾...﴾ الآيات.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

ثم ذكر مقابل هؤلاء، وهم الذين صدوا عن سبيل الله، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الكونية وآياتنا السمعية التي جاءت على ألسنة الرسل، كالقرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿هُمْ﴾ في الإتيان[1] بضمير الغيبة دلالة على سقوطهم عن شرف الحضور، وأنهم أحقاء بالإخفاء ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؛ أي: هم أصحاب الشمال الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم، ويُسلَك بهم شمالاً إلى النار، أو أصحاب الشؤم والشر والشقاوة؛ لأن الفساق مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم وعلى غيرهم أيضاً؛ أي: هم أهل الشمال الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾...﴾ الآيات. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾؛ أي: نار أبوابها مغلقة عليهم، فلا يُفتح لهم باب، فلا يُخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح أبد الآباد، إلا أنها جُعلت صفة للنار إشعاراً بإحاطتها بهم، فأصل التركيب مؤصدة الأبواب، فلما تُركت الإضافة عاد التنوين إليها؛ لأنهما يتعاقبان، والمعنى؛ أي: عليهم نار مطبقة مغلقة عليهم، فلا يستطيعون الفكاك منها، ولا الخلاص من عذابها، أعاذنا الله سبحانه وجميع المسلمين منها بمنه وكرمه، وجعلنا من أصحاب الميمنة، يقال: آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته، ومنه قول الشاعر:

تَحِنُّ إِلَىٰ أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِيْ ... وَمِنْ دُوْنِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤْصَدَهْ

وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص[2]: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بالهمز هنا وفي الهُمزة، فيظهر أنه من آصدت، قيل: ويجوز أن يكون من أوصدت، وهمز على حد من قرأ بـ﴿السؤق﴾ مهموزاً، وقرأ باقي السبعة بغير همز، فيظهر أنه من أوصدت، وقيل: يجوز أن يكون من آصدت، وسهل الهمزة.

وقال الشاعر:

قَوْمَاً تُعَالِجُ قُمَّلاً أَبْنَاؤُهُمْ ... وَسَلاَسِلاً حَلَقَاً وَبَابَاً مُؤْصَدَا

والحاصل: أنه قُرىء بالواو وبالهمزة مكان الواو، وهما لغتان، والمعنى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

واحد، وقيل: معنى المهموز: المطبقة، ومعنى غير المهموز: المغلقة انتهى/ اهـ «خطيب»، وفي «السمين» والظاهر أن القراءتين من مادتين: الأولى من آصد يؤصد، كأكرم يكرم، والثانية من أوصد يوصد، كأوصل كيوصل. انتهى.

الإعراب

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ④ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ⑥ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ⑦﴾.

﴿لَآ﴾: زائدة. ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، والجملة مستأنفة. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُقْسِمُ﴾. ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة، ﴿وَأَنتَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو اعتراضية. ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿حِلٌّ﴾: خبر ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿حِلٌّ﴾ ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة في محل النصب حال من ﴿هذا البلد﴾ أو معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَوَالِدٍ﴾: الواو: عاطفة، أو حرف قسم. ﴿والد﴾: معطوف على القسم السابق. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿والد﴾. ﴿وَلَدَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿والد﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما ولده ذلك الوالد. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى كَبَدٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: حال كونه مكابداً للمشاق. ﴿أَيَحْسَبُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب﴾: فعل مضارع، وفاعلهُ ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّن﴾: حرف نصب. ﴿يَقْدِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْدِرَ﴾. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يحسب﴾، ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وجملة القول في محل النصب حال من فاعل ﴿يحسب﴾، أو مستأنفة. ﴿أَهْلَكْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَالًا﴾: مفعول

به. ﴿أُبَدًا﴾: صفة لـ﴿مَالًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾.
﴿أَيَحْسَبُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَرَهُۥٓ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل ليرى والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يحسب﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿نَجْعَل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَجْعَل﴾؛ لأنه بمعنى نخلق. ﴿عَيْنَيْنِ﴾: مفعول به، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: معطوفان على ﴿عَيْنَيْنِ﴾. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة: ﴿هديناه﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: مفعول ثان له، أو منصوب بنزع الخافض، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾؛ لأن الاستفهام فيه تقريري، فيكون بمعنى: وجعلنا له عينين. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية بمعنى: ما. ﴿ٱقْتَحَمَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ القائل، والجملة معطوفة على ﴿هديناه﴾؛ أي: وهديناه النجدين فما اقتحم العقبة، و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾: مفعول به، وقيل ﴿لا﴾: دعائية، دعا عليه أن لا يفعل خيراً، وهذا أرجح الأقوال الجارية هنا، وقيل: ﴿لا﴾ تحضيضية، والأصل: فألا اقتحم العقبة، ثم حُذفت الهمزة للتخفيف، وهذا القول ضعيف. وإن كان واضح المعنى كما مر، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿ما﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ و﴿الكاف﴾ مفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معترضة مقحمة لبيان العقبة، مقررة لمعنى الإبهام والتفسير، فإن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ عين تلك العقبة؛ لأن المعرف باللام

والألف إذا أعيد كان الثاني عين الأول. ﴿مَا﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾: خبر عنها، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ معلق عنها بالاستفهام. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو فك رقبة، كأنه قيل: وما هو: اقتحام العقبة، فقيل: هو فك رقبة أو إطعام... إلخ، والجملة مفسرة لاقتحام العقبة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ معطوف على ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾. ﴿فِى يَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿إِطْعَـٰمٌ﴾. ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به لـ﴿إِطْعَـٰمٌ﴾: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: صفة لـ﴿يَتِيمًا﴾. ﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾: معطوف على ﴿يَتِيمًا﴾. ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: صفة ﴿مِسْكِينًا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الإنسان المذكور. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: فهلا اقتحم العقبة، ثم كان من الذين... إلخ. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: معطوف أيضاً على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل. ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: خبر عن ﴿هُمْ﴾ ومضاف إليه، والجملة خبر عن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو ﴿هُمْ﴾ خبر عن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم. ﴿نَارٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾: صفة لـ﴿نَارٌ﴾، والجملة خبر ثان عن ﴿هُمْ﴾، أو عن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ وفي «القاموس»: البلد والبلدة: مكة شرفها الله تعالى، وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة، والتراب والبلد أيضاً القبر والمقبرة والدار والأثر.

وذكر له معاني إلى أن قال: وبلد بالمكان بلوداً إذا أقام ولزمه، أو اتخذه بلداً، وفي «روح البيان»: البلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، وجمعه بلاد وبلدان. انتهى. كما مر في بحث التفسير.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ والحل: بمعنى الحال من الحلول؛ وهو النزول، يقال: حل وحلال وحرم وحرام بمعنى واحد، وحل في المكان إذا نزل فيه يحل ـ بضم الحاء ـ حلولاً، فهو حال، والمكان محلول فيه، والمعنى: أي: وأنت حال مقيم فيه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾؛ أي: وأقسم لك بأي والد وبأي مولود من الإنسان والحيوان والنبات.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾؛ أي: في نصب ومشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وفي «المصباح»: والكَبَد ـ بفتحتين ـ المشقة من المكابدة للشيء، وهو يتحمل المشاق في فعله، يقال: كَبِدَ الرجل كبداً ـ من باب طرب ـ إذا وجعت كبده فانتفخت، ويقال: كبده إذا أصاب كبده، كذكرته إذا قطعت ذكره، ورأيته إذا قطعت رئته، ثم اتسع فيه حتى استُعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة الشدة، ومنه قال لبيد يرثي أخاه أربد:

يَا عَيْنُ هَلْ رَأَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ ٱلْخُصُومُ فِيْ كَبَدِ

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

﴿مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً متلبداً من تلبد الشيء إذا اجتمع، وتكدس بعضه على بعض، ولا يخاف فناؤه من كثرته، يريد كثرة ما أنفقه رياء وسمعة وعداوة للنبي ﷺ.

﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أصله: يرأي بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثم قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لدخول الجازم، فلم يبق من الفعل إلا فاؤه فوزنه يفه.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾: مثنى شفة، فيه إعلال بحذف لامه، وأصله: شفهة، أو شفو لتصغيره على شفيهة، وجمعها على شفاه، حُذفت لامه وعُوّض عنها التاء ونظيره سنة.

﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: والنجدان: طريقا الخير والشر، والنجد في الأصل الطريق المرتفع وجمعه نجود، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، وفي «القاموس» النجد: ما ارتفع من الأرض، وجمعه أنجد وأنجاد ونجاد ونجود ونُجُد، وجمع النجود: أنجدة، والطريق الواضح، وما خالف الغور؛ أي: تهامة، وتضم

جيمه مذكر أعلاه تهامة واليمن، وأسفله العراق والشام، وأوله من جهة الحجاز ذات عرق، وما ينجد به البيت من بسط وفرش ووسادة، والجمع نجود ونجاد، والدليل الماهر، والمكان لا شجر فيه.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ والاقتحام: الدخول في أمر شديد ومجاوزته بصعوبة، وفي «القاموس»: قحم في الأمر ـ كنصر ـ قحوماً رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية، والعقبة: الطريق الوعر.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ والفك في الأصل: الفرق بين الشيئين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفك القيد والغل، وفك الرقبة: الفرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية، والرقبة: العضو المخصوص، ثم يعبر بها عن جملة الذات، كما مر بسطه.

﴿مَسْغَبَةٍ﴾: مصدر ميمي من سَغِب يسغب سغباً ـ من باب فرح ـ إذا جاع، وفي «القاموس»: سغب ـ كفرح ونصر ـ سَغَباً وسغْباً وسغابة وسغوبة ومسغبة جاع، فهو ساغب وسغبان وسَغِب، وهي سغبى، وجمعها سغاب، والسغب أيضاً العطش، وليس بمستعمل.

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ والمقربة القرابة في النسب تقول: فلان من ذوي قرابتي، ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسباً فهو مصدر ميمي بمعنى القرابة.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ والمتربة: الفقر، تقول: ترب الرجل إذا افتقر، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب، وفي «المختار»: ترب الشيء إذا أصابه التراب، وبابه طرب، ومنه ترب الرجل؛ أي: افتقر كأنه لصق بالتراب، وتربت يداه دعاء عليه لا أصاب خيراً، وتَرَّبه تتريباً فتَتَرَّب؛ أي: لطخه فتلطخ، وأتربه جعل عليه التراب، وفي الحديث «أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة» وأترب الرجل استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب، والمتربة: المسكنة والفاقة، ومسكين ذو متربة؛ أي: لاصق بالتراب؛ لفقره وضره، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يفرشه.

﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾؛ أي: نصح بعضهم بعضاً به، وأصله تواصَيُوا بوزن: تفاعلوا، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ والمرحمة مصدر ميمي بمعنى الرحمة.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ الميمنة: طريق النجاة والسعادة، وهو اسم مكان أو مصدر ميمي.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ والمشأمة: طريق الشقاء، وهو أيضاً مصدر ميمي، أو اسم مكان.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته، كأوعدته فهو حينئذ مثال واوي، أو من آصدته بالمد إذا أطبقته وأغلقته وأحكمته، فهو حينئذ من المهموز مثل آمن، فمن قرأها ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بالهمز جعلها اسم مفعول من آصدت كآمنت، ومن قرأها ﴿موصدة﴾ بالواو من غير همز جعلها اسم مفعول من أوصدت مثل أوعد فهو مُوعِد، وذاك مُوعَد، ويحتمل على هذه القراءة أن يكون أيضاً من آصد مثل آمن، لكنه قُلبت همزته الساكنة واواً؛ لضم ما قبلها للتخفيف، ففيه لغتان: آصد كآمن، وأوصد كأوعد، كلاهما بمعنى واحد.

وكان أبو بكر بن عياش راوي عاصم يكره الهمزة في هذا الحرف، ويقول: لنا إمام يهمز مؤصدة، فأشتهي أن أصد أذني إذا سمعته، وكأنه لم يحفظه عن شيخه إلا بترك الهمزة، وقد حفظه حفص بالهمزة، وهو أضبط للحروف من أبي بكر على ما نقله القراء، وإن كان أبو بكر أكبر وأتقن وأوثق عند أهل الحديث، والله سبحانه وتعالى أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: زيادة ﴿لا﴾ في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾؛ أي: أقسم بهذا البلد لتأكيد القسم، وهو مستفيض شائع في كلام العرب، كقولهم: لا والله ليس بالأمر كذا؛ أي: والله ليس الأمر كذا، قال امرؤ القيس:

لاَ وَأَبِـيْـكِ ٱبْـنَـةَ ٱلْـعَـامِـرِيّ

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ إظهاراً لمزيد فضلها بحلوله فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

ومنها: تنكير ﴿والِدٍ﴾ إفادة للتفخيم والتعظيم، أو إفادة للعموم.

ومنها: إيثار ﴿ما﴾ على من في قوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إفادة لمعنى التعجب مما أعطاه الله تعالى من الكمال، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي: بأي شيء وضعت يعني: موضوعاً عجيب الشأن، وهو مريم، ويعني هنا: مولوداً عجيب الشأن، وهو إسماعيل، أو محمد عليهما السلام.

ومنها: الاستفهام الإنكاري للتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾، ومثله قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

ومنها: التعبير بلفظ الإهلاك في قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ إشارة إلى أنه ضائع في الحقيقة؛ إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ فقد استعار النجدين للخير والشر، وحذف المشبه؛ وهو الخير والشر، وأبقى المشبه به، فإن قلت: أما تشبيه الخير بالنجد وهو المرتفع من الطريق، فلا غبار عليه؛ لأنه ظاهر بخلاف الشر، فإنه هبوط وارتكاس من ذروة الفطرة إلى حضيض الابتذال.. قلنا: إنه جمع بينهما إما على سبيل التغليب، وإما على توهم المخيلة أن فيه صعوداً وارتكاساً وإسفافاً، وهذا من أبلغ الكلام وأروعه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية المرشحة في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ فقد رشح بذكر ما يلائم الاستعارة الأولى أعني النجدين بمعنى الطريقين؛ لأن مبنى الترشيح وهو ذكر ما يلائم المشبه به دون المشبه به على المبالغة، وادعاء اتحاد الطرفين، ولهذا كان الترشيح أبلغ من التجريد؛ وهو ذكر ما يلائم المشبه به؛ لأن فيه اعترافاً بالتشبيه، فأصل العقبة الطريق الوعر في الجبل، واستعيرت هنا للأعمال الصالحة؛ لأنها تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾؛ لأن الفك حقيقة في الفصل بين الشيئين المجتمعين الملتئمين، فاستُعير هنا لتحرير الرقبة وعتقها؛ لما فيه من الفصل بين الرق والرقيق.

ومنها: المجاز المرسل في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾؛ لما فيه من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ لأن الرقبة في الأصل العضو بين الكتف والرأس.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و﴿مَتْرَبَةٍ﴾؛ لاختلاف بعض الحروف.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

ومنها: الإتيان باسم الإشارة في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ دلالة على حضورهم عند الله تعالى في مقام كرامته، وعلو مرتبتهم عنده.

ومنها: الإتيان بضمير الغيبة في قوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ دلالة على سقوطهم عن شرف الحضور، وأنهم أحقاء بالإخفاء، وهذا من ألطف البلاغة، وأبلغها وأعجبها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على خمسة مقاصد:

١ ـ ما ابتلي به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب.

٢ ـ اغترار الإنسان بقوته.

٣ ـ نكران النعم التي أنعم بها عليه من العينين واللسان والعقل والفكر.

٤ ـ سبل النجاة الموصلة إلى السعادة.

٥ ـ كفران الآيات سبيل الشقاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت سورة البلد بعون الله الواحد الأحد، منتصف ليلة الثلاثاء الثالثة والعشرين من شهر شوال المحرم من شهور سنة: ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الشمس

سورة الشمس مكية باتفاق، كما في «القرطبي»، نزلت بعد سورة القدر، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: خمس عشرة آية. وكلماتها[١]: أربع وخمسون كلمة. وحروفها: مئتان وسبعة وأربعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجهين[٢]:

١ - أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، وأعاد ذكر الفريقين في هذه السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾.

٢ - أنه سبحانه وتعالى ختم السورة السابقة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، وختم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم[٣] في السورة السابقة القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها.. أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا، وفي تلك بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل. انتهى.

ومن فضائلها: ما أخرجه أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ وأشباهها من

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

السور، وقد تقدم حديث جابر في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾»، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بـ﴿الليل إذا يغشى﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

وأخرج البيهقي في «الشُّعَب» عن عقبة بن عامر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها وبالضحى.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم - رحمه الله تعالى -: سورة والشمس وضحاها محكمة كلها ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الشمس؛ لابتدائها بها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ
أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ
فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلشَّمْسِ﴾؛ أي: أقسم لك يا محمد بالشمس ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وبضحاها وهو قسم ثان؛ أي: وبضوئها إذا طلعت وقام سلطانها، وانبسط نورها، وهي كوكب نهاري ينسخ ظهوره كواكب الليل، وجواب القسم في هذا وما بعده قوله الآتي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ كما سيأتي بيانه.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور المذكورة[1]: لأن له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقال قوم: إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف؛ أي: ﴿و﴾ رب ﴿الشمس﴾ ورب القمر، وهكذا سائرها، ولا مُلجِىء إلى هذا ولا موجب له.

واعلم: أنه سبحانه أقسم[2] أولاً بالشمس نفسها غابت أو ظهرت؛ لأنها خلق عظيم يدل على قدرة مبدعها، وأقسم ثانياً بضوئها؛ لأنه مبعث الحياة في كل حي، فلولاها ما أبصرت حياً ولا رأيت نامياً، ولولاها ما وُجد الضياء ولا انتشر النور، وإذا أرسلت خيوطها الذهبية على مكان.. فر منه السقم، وولت جيوش الأمراض هاربة؛ لأنها تفتك بها فتكاً ذريعاً، وقال مجاهد[3]: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: ضوئها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي، وقال قتادة: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ نهارها كله، وقال الفراء: الضحى هو النهار، وقال

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

المبرد: أصل الضحى الصبح، وهو نور الشمس، قال أبو الهيثم: الضحى نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله: الضحي فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً، قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس، وبعيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد، قال المبرد: الضحى والضحوة مشتقان من الضح، فأبدلت الواو والألف من الحاء، والضح هو نور الشمس المنبسط على وجه الأرض المضاد للظل، وقيل: الضحى هو حر[1] الشمس؛ لأن حرها ونورها متلازمان، فإذا اشتد نورها.. قوي حرها، وهذا أضعف الأقوال، واختُلف[2] في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، قاله الزجاج وغيره، قال الزجاج: حُذفت اللام، لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضاً، وقيل: الجواب محذوف؛ أي: أقسمت بالشمس وما بعدها لتبعثن، وقيل تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ الله على أهل مكة؛ لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها إلخ، والأول أولى.

﴿وَ﴾ أقسمت بـ﴿القمر﴾ وهو كوكب ليلي لهو سلطنة في الليل على سائر الكواكب ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ أي: إذا تلا القمر الشمس وتبعها في الإضاءة والنور بأن طلع بعد غروبها آخذاً من نورها، وذلك[3] في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور، وقيل: تلاها في الاستدارة، وذلك حين يكمل ضوءه ويستدير جرمه، وذلك في الليالي البيض، وقيل: ﴿تَلَىٰهَا﴾ تبعها في الطلوع، وذلك في أول ليلة من الشهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال، فكأنه تبعها.

والمعنى[4]: أي وأقسمت بالقمر إذا تلا الشمس وتبعها في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه، أو قربه من الامتلاء حين يضيء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر، وهذا قسم بالضوء في طور

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

آخر وهو ظهوره، وانتشاره الليل كله، وقد يكون المراد بـ﴿تَلَنهَا﴾؛ أي: تبعها في كل وقت؛ لأن نوره مستمد من نور الشمس، فهو لذلك يتبعها، فهو لها بمنزلة الخليفة، وقد قال بهذا الفراء قديماً، وأثبته علماء الفلك حديثاً.

﴿و﴾ أقسمت بـ﴿النهار﴾ وهو نور الشمس الذي ينسخ ظل الأرض يمحو ظلمة الليل ﴿إِذَا جَلَّنهَا﴾؛ أي: إذا جلى النهار الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تتجلى تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه.

يعني[1]: لما كان انتشار الأثر، وهو زمان ارتفاع النهار زماناً لانجلاء الشمس، وكان الجلاء واقعاً فيه.. أسند فعل التجلية إليه إسناداً مجازياً مثل نهاره صائم، وقيل: الضمير عائد إلى الظلمة وإن لم يجر لها ذكر؛ لأن المعنى معروف؛ أي: إذا جلى ظلمة الليل وأزالها وكشفها بضوئه، قال الفراء كما تقول: أصبحت باردة؛ أي: أصبحت غداتنا باردة، وقيل: جلّى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض، والأول أولى.

والمعنى: أي وأقسمت بالنهار إذا جلى الشمس وأظهرها، وأتم وضوحها؛ إذ كلما كان النهار أجلى ظهوراً.. كانت الشمس أكمل وضوحاً. وأقسم سبحانه بهذه المخلوقات للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء، وإعظام أمر النعمة فيه، وفيه لفت لأذهاننا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ونعمة من نعمه العظمى، وفي قوله: ﴿جَلَّنهَا﴾ بيان للحال التي يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة والآية الباهرة، وبعد أن أقسم بالضياء في أطوار مختلفة أقسم بالليل في حال واحدة، فقال: ﴿و﴾ أقسمت بـ﴿الليل﴾ وهو ظل الأرض الحائلة بين الشمس وبين ما وقع عليه ظلمة الليل ﴿إِذَا يَغْشَنهَا﴾؛ أي: يغشى الليل الشمس، فيغطي ضوءها فتغيب، وتُظلم الآفاق، ولما كان احتجاب الشمس بحيلولة الأرض بيننا وبينها واقعاً في الليل.. صار الليل كأنه حجبها وغطاها، فأسند التغطية والتغشية إلى الليل لذلك، وقيل المعنى: إذا يغشى الليل الآفاق، وقيل: يغشى الأرض وإن لم يجر لهما ذكر؛ لأن ذلك معروف، والأول أولى، ولعل[2] اختيار صيغة المضارع هنا على الماضي؛

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده كالماضي مع مراعاة الفواصل، ولم يجىء غشاها من التغشية؛ لأنه يتعدى إلى المفعولين، وقال الشيخ الطنطاوي: وفي قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ مجاز عقلي؛ لأن الذي يغشى إنما هي الأرض، فأسند ذلك لليل الذي هو من آثار ذلك، ففي هذا بيانان: بيان أن ضوء القمر من الشمس، وأن الليل لم يحدث من الشمس؛ لأنها دائماً مشرقة، وإنما حدث من دوران الأرض، فانظر كيف جعل القمر تالياً والأرض سائرة حتى حدث الليل. انتهى. وحيث كانت الواوات العاطفة نواب الواو الأولى القسمية القائمة مقام الفعل، والباء سادَّة مسدَّها معاً في قولك: أقسم بالله، حق أن يعملن عمل الفعل، والجار جميعاً، كما ضرب زيد عمراً وبكر خالداً، فترفع بالواو وتنصب بها، لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما، فاندفع ما يورد هٰهنا من تلك الواو، إن كانت عاطفة يلزم العطف على معمولي عاملين مختلفين، وإن كانت قسمية يلزم تعدد القسم مع وحدة الجواب، وحاصل الدفع اختيار الشق الأول، ومنع لزوم المحذور.

والمعنى[(١)]: أي وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس، فيزيل ضوءها في الليالي الحالكة التي لا أثر لضوء الشمس فيها، لا مباشرة كما في النهار، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها، وهي قليلة، فإنها ليلة أو ليلتان أو بعض ليال في الشهر.

وفي هذا: إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم، فيُذهب ضوءها، ويحيل نور العالم ظلاماً، فهو؛ أي: هذا الكوكب على جليل نفعه، وعظيم فائدته لا يُتخذ إلٰهاً؛ لأن الإلٰه لا يحول ولا يزول، ولا يعتريه تغير ولا أُفول، وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته، وبعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام.. أردفه بذكر صفات تدل على حدوثها، فقال: ﴿و﴾ أقسمت بـ﴿السماء وما بناها﴾؛ أي: ومن بناها وخلقها على غاية العظم والعلو، وهو الله سبحانه وتعالى، فـ﴿ما﴾ موصول اسمي، ورجح[(٢)] هذا القول ابن جرير، وإيثار ﴿ما﴾ على مَن لإرادة الوصفية تعجباً؛ لأن ما يسأل بها عن صفة من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

يعقل، كأنه قيل: وبالقادر العظيم الشأن الذي بناها، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: والسماء وبنيانها، ورجح هذا القول الفراء والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخل بالنظم، وكذا الكلام في ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، والمعنى؛ أي: وأقسمت[1] بالسماء ومن قدرها على النحو الذي اقتضته مشيئته وحكمته، وفي ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة، وأن لها صانعاً حكيماً، وقد أحكم وضعها وأجاد تقديرها، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تُربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع حتى يتماسك.

ولما كان الخطاب موجهاً إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينظروا في هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثراً، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى.. عبر عن نفسه بلفظ ﴿ما﴾ التي هي الغاية في الإبهام.

﴿و﴾ أقسمت بـ﴿الأرض وما طحاها﴾؛ أي: ومن بسطها من كل جانب على الماء كي يعيش أهلها فيها ومهدها للسكنى، وجعل الناس ينتفعون بما على ظهرها من نبات وحيوان، وبما في باطنها من مختلف المعادن، ونحو الآية قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ والطحو كالدحو بمعنى البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية، كما يزعم بعض الجاهلين، وإفراد بعض[2] المخلوقات بالذكر وعطف الخالق عليه والإقسام بهما ليس لاستوائهما في استحقاق التعظيم، بل النكتة في الترتيب أن يبين وجود الصانع العالم، وكمال قدرته، ويظفر العقل بإدراك جلال الله وعظمة شأنه حسبما أمكن، فإنه تعالى لما أقسم بالشمس التي هي أعظم المحسوسات شرفاً ونفعاً، ووصفها بأوصافها الأربعة وهي ضوءها، وكونها متبوعة للقمر، ومتجلية عند ارتفاع النهار، ومختفية متغطية بالليل.. أقسم بالسماء التي هي مسير الشمس وأعظم منها، فقد نبه على عظمة شأنها، لما عُلم أن الإقسام بالشيء تعظيم له، ومن المعلوم أنهما لحركاتهما الوضعية وتغير أحوالهما من الأجسام الممكنة المحتاجة إلى صانع مدبر كامل القدرة بالغ الحكمة، فيتوسل العقل بمعرفة أحوالهما وأوصافهما إلى كبرياء

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

صانعهما، فكان الترتيب المذكور كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بقاع عالم الربوبية وبيداء كبريائه الصمدية.

وقصارى ما سلف[(١)]: أنه تعالى بعد أن أقسم بالضياء والظلمة.. أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب وبالذي بناها وجعلها مصدراً للضياء، وبالأرض والذي جعلها لنا فراشاً، ومصدراً للظلمة، فإنها هي التي يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن بعضها الآخر، فيظهر فيه الظلام.

قال المفسر الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ ولفظ[(٢)] السماء حين يُذكر يسبق إلى الذهن: هذا الذي نراه فوقنا، كالقبة حيثما اتجهنا تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها، فأما حقيقة السماء فلا ندريها، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً، فذلك ما لا ندريه، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل والإقرار لها والإثبات، إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله سبحانه هي تمسك هذا البناء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ وهذا هو العلم المتيقن الوحيد، اهـ. وقال الطنطاوي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾؛ أي[(٣)]: ومن بناها، وأيُّ بانٍ هو، إنه لا يضاهيه بَنَّاء فيما يعلم الناس، فأي بَنَّاء يستطيع أن يبني قبة زرقاء مرصعة بمصابيح، تلك المصابيح تجري وهي لا تتصادم إلا في أوقات نادرة، وإذا تصادمت.. أصلحت، وهي في نفس السقف، وعادت جديدة، ثم كيف يتسنى له جمع أجسام عظيمة في بنائه ما بين نارية، وأخرى صلبة، وأخرى لطيفة لطفاً أرق من الهواء، ومن الضياء وهو الأثير.

وكيف يراها الإنسان والحيوان سقفاً ساكناً هادئاً لا حركة فيه، فالشمس ساكنة والقمر ساكن، والنجوم ساكنة لا حركة فيها، وترى هذه العوالم كلها في الليالي المظلمة كأنها تتغنىٰ، وكأنها عروس حُلِّيَت في حِبَر، والكون كله سكون في سكون، مع أنه لا شيء مما يراه ساكن، فالهواء متحرك، والأثير متحرك،

---

(١) المراغي. (٢) ظلال القرآن. (٣) جواهر الطنطاوي.

والكواكب كلها متحركات، والشمس والقمر والنجوم السيارة كلها في حركات، لو اطلع عليها.. لخر صعقاً ولدهش منها، هذا فضلاً عما في تلك العوالم من المزعجات والمهلكات التي تكون فيها على الدوام، فيا ليت شعري أيُّ بانٍ يقدر على ذلك، فيرى الإنسان أن المتحركات سواكن، وأن المخاوف أمان، وأن هذا كله إنما هو ليكون له سقفاً يحميه ونعماً عليه ترضيه، وكأنها ليست مقصودة إلا له ولا هي مبنية إلا لأجله، فيا عجباً لمتحرك ساكن، وعظيم صغير، وقريب بعيد، إن العجب سيأخذنا كل مأخذ، ويدهشنا أن نكون في عالم بديع الإتقان عجيب البنيان حسن الهندام، والحق أحق أن هذه الدنيا بديعة الحسن، ظريفة الصنع، بهيجة المنظر، سارة للمفكرين، كما أنها سجن الغافلين.

كيف نجعل الكواكب التي عدت بمئات الملايين، كأنها درر مرصعة في سقفنا، أليس من العجب أن تكون تلك الكواكب لمآرب في تلك السباسب، ولبديع الصنع وحسن الإتقان، وجمال الوضع، تتراءى لنا أنها صُنعت لأجلنا، وليزين بها سقفنا، وكيف دُبرت هذه الحكمة، فسبحانه من حكيم عليم، قدير على كل شيء، وإليه تُرجعون. انتهى.

ثم أقسم سبحانه بعدما ذكر بالنفس الإنسانية تنبيهاً على ما لها من شرف ومكانة في هذا الوجود، وفي هذه النفس الإنسانية من الأسرار والعجائب والغرائب ما يندهش له ذوو العقول النيرة الكبيرة، وهي سر من أسرار الخلق العظيمة، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ أي: وأقسمت بنفس إنسانية ومن سواها وأنشأها وأبدعها، وركب فيها قواها الباطنة والظاهرة، لتكون مستعدة لكمالاتها، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها، وألف بها الجسم الذي تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى، والتنكير[(١)] فيها؛ للتفخيم على أن المراد نفس آدم عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسب للجواب، وقال عطاء: يريد جميع ما خُلق من الجن والإنس، والكلام في ﴿ما﴾ هذه كما تقدم، ومعنى ﴿سَوَّاها﴾ خلقها وأنشأها وسوى أعضاءها.

وذكر سبحانه في تعريف ذات الله تعالى السماء والأرض والنفس[(٢)]؛ لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد، والشاهد ليس إلا العالم الجسماني،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وهو إما علوي بسيط كالسماء، وإما سفلي كالأرض، وإما مركب، وهو أقسام: أشرفها ذوات الأنفس، وقد استدل بعطف ما بعدها على ما قبله على عدم جواز تقدير المضاف فيه مثل ورب الشمس، وكذا في غيره إذ المقدر في المعطوف عليه يقدر في المعطوف، فيكون التقدير: ورب ما بناها ورب ما طحاها ورب ما سواها، وبطلانه ظاهر، فإن الظاهر أن تكون في مواضعها موصولة فاعرف.

ثم بيّن أثر هذه التسوية، فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ أي: فألهم كل نفس وعرفها ﴿فُجُورَهَا﴾؛ أي: طريق فجورها وشرها؛ لتجتنبها ولا تعمل به، والفجور: شق ستر الديانة، وقدَّمه على التقوى؛ لمراعاة الفواصل، أو لشدة الاهتمام بنفسه؛ لأنه إذا انتفى الفجور. . وجدت التقوى، فقدم ما هُمْ بشأنه أَعْنَى: ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ أي: وأعلم كل نفس طريق تقواها؛ لتعمل به. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ إن كانت لسببية التسوية، فالأمر ظاهر، وإن كانت لتعقيبها، فلعل المراد منها إتمام ما يتوقف عليه الإلهام من القوى الظاهرة والباطنة، والإلهام: إلقاء الشيء في الروع، إما من جهة الله تعالى، أو من جهة الملأ الأعلى، وأصل إلهام الشيء: ابتلاعه.

والمعنى: أفهم النفس الفجور والتقوى، وعرّفها حالهما من الحسن والقبح، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكَّنها من اختيار أيهما شاءت، قال بعضهم: الإلهام لا يكون إلا في الخير، فلا يقال في الشر: ألهمني الله كذا، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ فالمراد فجورها؛ لتجتنبه لا لتعمل به، وتقواها لتعمل به؛ إذ ليس في كلام الله تناقض أبداً، فالإلهام في قسم الفجور إلهام إعلام، لا إلهام عمل، فإن الله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، وكما لا يأمر بالفحشاء لا يلهم بها، فإنه لو ألهم بها ما قامت الحجة لله على العبد، وهذه الآية مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ أي: بينا له الطريقين وقال بعضهم: لم ينسب سبحانه إلى النفس خاطر المباح ولا إلهامه فيها، وسبب ذلك أن المباح لها ذاتي، فبنفس ما خلق عينها ظهر المباح فهو من صفاتها النفسية التي لا تُعقل النفس إلا بها، فخاطر المباح نعت خاص كالضحك للإنسان.

وفي «التأويلات النجمية»: تدل الآية على كون النفوس كلها حقيقة واحدة متحدة تختلف باختلاف توارد الأحوال والأسماء، فإن حقيقة النفس المطلقة من غير اعتبار حكم معها إذا توجهت إلى الله تعالى توجهاً كلياً. . سميت مطمئنة، وإذا

توجهت إلى الطبيعة توجهاً كلياً.. سميت أمَّارة، وإذا توجهت تارة إلى الحق بالتقوى وتارة أخرى إلى الطبيعة البشرية بالفجور.. سميت لوامة. انتهى.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - كان رسول الله ﷺ يقول عند هذه الآية: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». قال محمد بن كعب: إذا أراد الله بعبده خيراً.. ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر.. ألهمه الشر فعمل به، وقال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، واختار هذا القول الزجاج، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان.

قال الواحدي: وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام، فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام، والإلهام: أن يوقع في قلبه ويجعل فيه، وإذا أوقع الله سبحانه في قلب عبده شيئاً.. ألزمه ذلك الشيء، قال: وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر خذلانه.

وخلاصة ذلك[1]: أي فألهم كل نفس الفجور والتقوى، وعرّفها حالهما بحيث تميز الرشد من الغي، ويتبين لها الهدى من الضلال، وجعل ذلك معروفاً، فالأولى البصائر، وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر.. ذكر ما تلقاه جزاءً على كل منهما، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: ربح وفاز وظفر ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: من زكى نفسه ونماها، وطهرها حتى بلغت غاية ما هي مستعدة له من الكمال العقلي والعملي حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها ولمن حولها، وهذا جواب القسم، وحذف[2] اللام لطول الكلام، وقال الزجاج: طول الكلام صار عوضاً عن اللام كما مر، وإنما تركه في «الكشاف» وغيره؛ لأنه يوجب الحذف، والحذف لا يجب مع الطول، ولم يجعل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ جواباً؛ لأن إقسام الله إنما يؤكد به الوعد أو الظفر، وإدراك البغية، وهو إما دنيوي كالظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا من الغنى والعز والبقاء مع الصحة ونحوها، أو أخروي وهو بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة، وأصل الزكاة: الزيادة والنمو، كما سيأتي بسطه في مبحث اللغة.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أقسمت بهذه الأمور العظام المذكورة على أنه قد فاز بكل مطلوب، ونجا من كل مكروه، من أنمى النفس وأعلاها بالتقوى؛ أي: رفعها وأظهرها وشهرها بها، فأهل الصلاح يظهرون أنفسهم ويشهرونها بما سطع من أنوار تقواهم إلى الملأ الأعلى، وبملازمتهم مواضع الطاعات ومحافل الخيرات، بخلاف أهل الفسق، فإنهم يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية، لا يلوح عليهم سيما سعادة يشتهرون به بين عباد الله المقربين.

وأصل هذا: أن أجواد العرب كانوا ينزلون في أرفع المواضع، ويوقدون النار للطارقين، لتكون أشهر، واللئام ينزلون الأطراف والهضاب؛ لتخفى أماكنهم عن الطالبين، فأخفوا أنفسهم، فالبار أيضاً أظهر نفسه بأعمال البر والفاجر دسها، وتُستعمل التزكية بمعنى التطهير أيضاً، كما قال في «القاموس»: الزكاة: صفوة الشيء، وما أخرجته من مالك؛ لتطهره به، فالمعنى عليه: قد أفلح من طهر نفسه من المخالفات الشرعية عقداً وخلقاً وعملاً وقولاً، فقد أقسم تعالى بسبعة أشياء على فلاح من زكى نفسه ترغيباً في تزكيتها.

وكون أفعال العبد بتقدير الله تعالى[1]، وخلقه لا ينافي إسناد الفعل إلى العبد، فإنه يقال: ضرب زيد عمراً، ولا يقال: ضرب الله عمراً، مع أن الضرب بخلقه، وتقديره، وذلك لأن وضع الفعل بالنسبة إلى الكاسب، قال الراغب: وزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد؛ لاكتسابه ذلك نحو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، وتارة إلى الله؛ لكونه فاعلاً خالقاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ وتارة إلى الشيء؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ انتهى.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر معطوف على ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: أضلها وأغواها، قال أهل اللغة: دساها أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى ﴿دَسَّىٰهَا﴾ في الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها

---

(١) روح البيان.

بالطاعة والعمل الصالح، وقال ابن الأعرابي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾؛ أي: دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم، وفي «القاموس» كما سيأتي: خاب يخيب خيبة: حُرِم وخسر، ولم ينل ما طلب، وأصل دس: دسس، كتقضى البازي وتقضض من التدسيس، وهو الإخفاء مبالغة الدس، واجتماع الأمثال لَمَّا أوجب الثقل قلبت السين الآخيرة ياء، وقال الراغب: الدس: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه، ودساها؛ أي: دسسها في المعاصي. انتهى.

والمعنى[1]: أي وقد خسر نفسه وأوقعها في التهلكة، من نقصها حقها بفعل المعاصي، وأخفاها بالفجور ومجانبة البر والقربات، وبإرسالها في المشتهيات الطبيعية، فإن من سلك سبيل الشر وطاوع داعي الشهوة.. فقد فعل ما تفعل البهائم، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التي اختص بها الإنسان، واندرج في عداد الحيوان، ولا شك أنه لا خيبة أعظم ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المراد به القبيلة، ولذا قال: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بضمير المؤنثة الغائبة، ولم يقل: بطغواهم كلام[2] مستأنف وارد لتقرير مضمون. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ فإن الطغيان أعظم أنواع التدسية، والطغوى - بالفتح - مصدر بمعنى الطغيان إلا أنه لما كان أشبه برؤوس الآيات.. اختير على لفظ الطغيان وإن كان الطغيان أشهر، وفي «الكشف»: الطغوى من الطغيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فعلىٰ من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم، وتركوا القلب في الصفة. والباء فيه للسببية، أي: فعلت التكذيب بسبب طغيانها، كما تقول: ظلمني بجراءته على الله تعالى، فالفعل منزل منزلة اللازم، فلا يقدر له مفعول وهو المشهور، أو كذبت ثمود نبيها صالحاً عليه السلام، فحُذف المفعول للعلم به، ويجوز أن يكون صلة للتكذيب؛ أي: كذبت بما أوعدت به من العذاب ذي الطغوى والتجاوز عن الحد، وهو الصيحة، كقوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بصيحة ذات طغيان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بفتح الطاء، وقرأ الحسن والجحدري ومحمد بن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء، فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قُلبت الياء واواً للفرق بين الاسم والصفة، لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو: تقوى وسروى، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ونحوهما، وكان قياسها الطغيا بالياء كالسقيا، لكنهم شذوا فيه، وقيل: هما لغتان، والمعنى؛ أي: كذبت ثمود نبيَّها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها، ثم بيّن أمارة ذلك التكذيب، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾: منصوب بـ﴿كذبت﴾ أو بـ﴿بالطغوى﴾؛ أي: حين قام أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف امتثالاً لأمر من بعثه إليه، فإن ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ مطاوع لبعث، يقال: بعثت فلاناً على أمرٍ فانبعث له وامتثل.

قال في «كشف الأسرار»: الانبعاث: الإسراع في الطاعة للباعث، أو حين قام قدار، ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، ويدل على[1] الأول قوله تعالى، في سورة القمر: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾، فإنه يدل على أن المباشر واحد معين، وفضل شقاوتهم على من عداهم مباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضى به. ﴿فَقَالَ لَهُمۡ﴾؛ أي: لثمود ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حين علم ما عزموا عليه من العقر، وهو صالح عليه السلام بن عبيد بن جابر بن ثمود بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فالإضافة فيه للعهد، عبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب[2] على التحذير وإن لم يكن من الصور التي يجب فيها حذف العامل، وأضيفت إليه تعالى للتشريف، كبيت الله؛ أي: ذروا ناقة الله الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، وعلى نبوتي، واحذروا عقرها ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ أي: شربها، وهو نصيبها من الماء، ولا تطردوها عنه في نوبتها، فإنها كان لها شرب يوم معلوم، ولهم ولمواشيهم شرب يوم آخر، وكانوا يستضرون بذلك في مواشيهم، فهموا بعقرها، قال أبو حيان[3]: وقرأ الجمهور: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ بنصب التاء، وهو منصوب على التحذير مما يجب إضمار عامله، لأنه قد عُطف عليه، فصار حكمه بالعطف حكم المكرر، كقولك: الأسد الأسد؛ لأن العامل في التحذير يضمر وجوباً في ثلاثة مواضع:

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أحدها: أن يكون المحذر به نفس إياك وبابه.

الثاني: أن يكون عطف.

الثالث: أن يكون هناك تكرار، كقولك: الأسد الأسد اهـ. من «السمين» بتصرف، وما ذكرناه آنفاً نقلاً عن صاحب «الروح» فغير سديد.

والمعنى[1]: أي فقال لهم صالح عليه السلام: احذروا ناقة الله التي جعلها آية نبوتي، واحذروا شربها الذي اختصت به في يومها، فلا تؤذوها ولا تتعدَّوْا عليها في شربها ولا في يوم شربها، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم، ولهم ولمواشيهم شرب يوم، فكانوا يجدون في أنفسهم حرجاً لذلك ويتضررون منه، فهموا بقتلها، فحذرهم أن يفعلوا ذلك، وخوفهم عذاب الله تعالى وعقابه الذي ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل، لكنهم كذبوه ولم يستمعوا النصيحة، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذبوا رسول الله صالحاً عليه السلام في وعيده لهم بقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ قال أبو حيان: والجمهور على أنهم كانوا كافرين، وروي أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك، وتابعوا صالحاً بمدة، ثم كذبوا وعقروا، كما قال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فعقر الناقة أشقاهم قدار بن سالف، وأسند العقر إلى الجماعة؛ لكونهم راضين به ومتمالئين عليه، قال قتادة: إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، قال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس وهذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقَياها؛ أي: عقرها قدار ومن ساعده في رجليها، فأسقطوها، ثم ذبحوها، فتقاسموا لحمها. قال السهيلي[2]: العاقر قدار بن سالف، وأمه قديرة، وصاحبه الذي شاركه في عقر الناقة اسمه مصدع بن وهر أو ابن جهم، والعقر: النحر، وقدم التكذيب على العقر؛ لأنه كان سبب العقر، وفي الحديث أنه ﷺ قال لعلي: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة، قال: أتدري من أشقى الآخِرين؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك» رواه أحمد وابن أبي حاتم والحاكم وأبو نعيم وغيرهم عن عمار بن ياسر.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أنهم لم يتورعوا عن تكذيبه، ولم يحجموا عن عقر الناقة، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب، ثم بيّن عاقبة عملهم، وذكر ما يستحقونه من الجزاء، فقال: ﴿فَدَمْدَمَ﴾؛ أي: أطبق ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أليم العذاب وشديد العقاب ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ذنبهم﴾ الشنيع؛ وهو الصيحة الهائلة، وأهلكهم هلاك استئصال، ولم يُبق منهم دَيّاراً ولا نافخ نار.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ بميم بعد دالين، وقرأ ابن الزبير: ﴿فدهدم﴾ بهاء بينهما، قال القرطبي: وهما لغتان، كما يقال: امتقع لونه واهتقع لونه؛ أي: أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم، وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا طُليت بالشحم وأحيطت به، بحيث لم يبق منها شيء لم يمسه الشحم، ودم الشيء سدّه بالقبر، ودممت على القبر وغيره إذا أطبقت عليه، ثم كررت الدال؛ للمبالغة في الإحاطة، فالدمدمة من الدم كالكبكبة من الكب. وقوله: ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أي: بسبب[3] ذنبهم المحكي والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب؛ ليعتبر به كل مذنب ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فسوى القبيلة في العقوبة، ولم يفلت منها أحد، بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فأعاد عليها الضمير بالتأنيث، كما أعاد عليها في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أو سوى الدمدمة والإهلاك بينهم، فعمهم بها، واستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: سوى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب؛ أي: جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثر ودمر مساكنها على ساكنيها. روي أنهم لما رأوا علامات العذاب.. طلبوا صالحاً عليه السلام أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى، كما قال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ ﴿الواو﴾[4] للاستئناف، أو للحال من الضمير المستتر في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ الراجع إلى الله تعالى؛ لأنه أقرب مذكور، والضمير في ﴿عُقْبَٰهَا﴾؛ للدمدمة؛ أي: سوى الله سبحانه وتعالى الدمدمة عليهم حال كونه تعالى غير خائف عاقبة الدمدمة عليهم ولا تبعتها، أو عاقبة هلاك ثمود، كما يخاف سائر المعاقبين

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

من الملوك والولاة، فيترحم بعض الترحم، وذلك أن الله تعالى لا يفعل إلا بحق، وكل من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة ما فعل، ولا يبالي بعاقبة ما صنع وإن كان من شأنه الخوف، وقيل: الضمير في ﴿يَخَافُ﴾ إلى العاقر؛ أي: ولا يخاف قدار ولا هم ما يعقب عقرها ويتبعه وما يترتب عليه من أنواع البلاء والمصيبة والعقاب، مع أن صالحاً عليه السلام قد أخبرهم بها، وقال السدي والضحاك والكلبي: إن الضمير يرجع إلى العاقر؛ لأن الكلام فيه لا إلى الله؛ أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، وقيل الضمير إلى صالح عليه السلام؛ أي: ولا يخاف رسول الله عليه السلام عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، والأول أولى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو، وقرأ نافع وابن عامر وأبيٌّ والأعرج: ﴿فلا تخاف﴾ بالتاء، وقرىء: ﴿ولم يخف﴾ وهو مروي عن النبي ﷺ، ذكره في «المراح».

والمعنى: أن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم[2]؛ لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والمراد أنه بالغ في عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ في الفعل، أما الذي لا يخاف العاقبة ولا تبعة العمل، فإنه يبالغ فيه؛ ليصل إلى ما يريد، وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله ﷺ بأنه سينزل بالمكذبين من قومه مثل ما أنزل بثمود، ولقد صدق الله وعده، فأهلك من أهلك من أهل مكة في وقعة بدر بأيدي المؤمنين، ثم لم يزل يحل بهم الخزي والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى، حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب، ولو سارت الدعوة سيرتها في عهد الصحابة.. لما بقي في الأرض مكذب، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الإعراب

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④﴾.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الشمس﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً؛ لكونه مع الواو تقديره: أقسم بالشمس، والجملة القسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ أيضاً. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم المحذوف. ﴿تَلَىٰهَا﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿القمر﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: وأقسم بالقمر وقت تلوه وتبعه للشمس فإن قلت: إن فعل القسم إنشاء وزمانه للحال، فلا يعمل في ﴿إِذَا﴾؛ لأنها للاستقبال.

قلت: إنما يكون فعل القسم للحال إذا لم يكن متعلقاً على شرط، فيجوز أن يقال: أقسم بالله إذا طلعت الشمس، فالقسم في الحال والطلوع في المستقبل، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ أيضاً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿جَلَّىٰهَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم موصول بمعنى مَن في محل الجر معطوف على ﴿السماء﴾. ﴿بَنَىٰهَا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن الفعل معطوف على ﴿السماء﴾؛ أي: وأقسمت بالسماء وبنائها، فالمصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: أقسمت بالسماء وبانيها، وهو الرب سبحانه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول بمعنى مَن معطوف على ﴿الأرض﴾، وجملة ﴿طَحَىٰهَا﴾ صلة الموصول، ويجوز أن تكون مصدرية أيضاً وإن منعه الزمخشري. ﴿وَنَفۡسٖ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿نفس﴾، وجملة ﴿سَوَّىٰهَا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة كانت أو مصدرية؛ أي: أقسمت بنفس ومن سواها. ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألهمها﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول معطوف على ﴿سَوَّىٰهَا﴾. ﴿فُجُورَهَا﴾:

مفعول ثان. ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿فُجُورَهَا﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿زَكَّىٰهَا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿أَفْلَحَ﴾: جواب القسم، وحذفت اللام لطول الكلام، وقيل: الجواب محذوف تقديره: لتبعثن كما مر بسطه. ﴿زَكَّىٰهَا﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ و﴿الهاء﴾: مفعول به، وقيل: الفاعل ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: يعود على ﴿مَن﴾ بمعنى النفس؛ أي: من زكاها الله تعالى بالطاعة، وتكون الصلة سببية. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾: فعل ماض، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ على كونها جواب القسم، وجملة ﴿دَسَّىٰهَا﴾ صفة لـ﴿من﴾ الموصولة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: فعل وفاعل؛ ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: متعلق بـ﴿كذبت﴾، و﴿الباء﴾: فيه سببية، والجملة الفعلية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها. ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كذبت﴾ أو بـ﴿طغواها﴾. ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: فعل ماض. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾: فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قال﴾: فعل ماض ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً تقديره: ذروا ناقة الله. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾: معطوف على ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾؛ أي: قال لهم: اتركوا عقرها واحذروا سقياها؛ أي: شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قال﴾. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على كذبوه؛ أي: عقرها قدار ومن ساعده في رجليها، فأوقعوها فذبحوها، وتقاسموا لحمها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿دمدم﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبُّهُم﴾: فاعل. ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾: متعلق

بـ﴿دمدم﴾؛ والجملة معطوفة على ﴿عقروها﴾. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الرب، ومفعول به معطوف على ﴿دمدم﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو حالية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب، ﴿عُقْبَٰهَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿سواها﴾، ويجوز أن تكون الواو عاطفة، فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿سواها﴾، وكونها عاطفة يلائم قراءة الفاء، وهي سبعية أيضاً، وممن قال بأنها عاطفة، ابن خالويه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلشَّمْسِ﴾: وهو كوكب نهاري ينسخ وجوده ظلمة الليل. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ قال القرطبي: الضحىٰ: مؤنثة، يقال: ارتفعت الضحىٰ فوق الضحو، وقد تذكر، فمن أنَّث ذهب إلىٰ أنها جمع ضحوة، ومن ذكَّر إلىٰ أنها اسم علىٰ فعل، نحو: صرد، وقال ابن خالويه: الضحىٰ: مقصور مثل: هدىٰ، والضحىٰ مؤنثة، تصغيره: ضحية، والأجود أن يقال في تصغيرها: ضحي بغير هاء؛ لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة، والضحىٰ: وجه النهار.

وفي «القاموس»: والضحو والضحوة والضحية كعشية: ارتفاع النهار، والضحىٰ: فويقه، ويذكر ويصغر ضحياً بلا هاء، والضَّحَاء بالمد: إذا قرب انتصاف النهار، وبالضم والقصر، وأتيتك ضحوة وضحى، وأضحىٰ: صار فيها، وأضحىٰ الشيء: أظهره، وضاحاه: أتاه فيها. انتهىٰ.

ومعنى ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وضوئها ونورها المشرق المنبسط علىٰ وجه الأرض المضاد للظل، وفيه إعلال بالقلب، أصله: ضحوها، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وإنما رسمت ياءً جرياً علىٰ قانون العرب من رسمهم ما كان من ذوات الواو مكسور الأول، أو مضمومه بالياء، وقيل: لأنها ترجع في بعض التصاريف إلى الياء، كقولك في تصغير ضحىٰ: ضحيٌ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾؛ أي: تبعها من التلو بمعنىٰ التبع. قال الراغب: يقال: تلاه: إذا تبعه متابعة ليس بينهما ما ليس منهما، وذلك يكون تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تِلو وتُلو، وتارة بالقرآن وتدبر المعنى، ومصدره:

تلاوة، ثم قال قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ فإنما يراد به ههنا الإتباع على سبيل الابتداء والمرتبة، وذلك أنه فيما قيل: إنه القمر يقتبس النور من الشمس، وهو لها بمنزلة الخليفة، وأصله: تلوها واوي اللام، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾؛ أي: كشف الشمس، وأتم وضوحها، وأصله: جَلَّيَها بوزن فعّل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ أصله: يَغْشَيَها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ فيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: بَنَيَها قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

والسماء: كل ما ارتفع فوق رأسك، والمراد به: هذا الكون الذي فوقك، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التي تجري في مجاريها.

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾؛ أي: ومن بناها ورفعها، وجعل كل كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف، أو قبة تحيط بك.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: وهي كل ما أسفل تحت رجلك، والمراد بها: هذا الكون الذي تحتك، وفيها: البحار والأنهار والأشجار والأحجار.

﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ أي: ومن بسطها وجعلها فراشاً ومهاداً لنا؛ لأن ما يظهر للرائي فيها يكون كالبساط، فلا ينافي كرويتها، والطحو كالدحو بمعنى البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، وأصله: طَحَوَها بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وفي «المختار»: طحاه: بسطه، مثل دحاه، وبابه: عدا، وفي «القاموس»: وطحا يطحو: بعد وهلك، وألقى إنساناً على وجهه.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ أي: ومن سواها؛ أي: ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها، وأصله: سَوَّيَها بوزن: فعَّل المضعف، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ أي: عرفها ومكنها ﴿فُجُورَهَا﴾ والفجور ما يكون سبباً في الخسران والهلكة.

﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ والتقوى: إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة، والألف في

التقوى ألف التأنيث، وقد مر ما فيه من التصريف غير ما مرة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: أصاب الفلاح، وهو إدراك المطلوب ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: طهرها من أدناس الذنوب، وأصله: زَكَّيَها بوزن: فعل، وأصل هذه الياء واو، فقلبت ياء لوقوعها رابعة، ثم تحركت بعد فتح، فقلبت ألفاً.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾؛ أي: خسر ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي، قال الشاعر:

وَدَسَّسْتُ عَمْراً فِيْ ٱلتُّرَابِ فَأَصْبَحَتْ حَلاَئِلُهُ مِنْهُ أَرَامِلَ ضُيَّعَا

وأصله: دسسها، قلبت السين الثالثة ياءً لتوالي الأمثال، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح. وفي «القاموس»: خاب يخيب خيبة: حُرِم وخسر وكفر، ولم ينل ما طلب، وأصل دس: دسس، كتقضَّى البازي، وتقضض من التدسيس، وهو الإخفاء مبالغة الدس، واجتماع الأمثال، لَمَّا أوجب الثقل.. قلبت السين الأخيرة ياءً، وقال الراغب: الدسُّ: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه، ودساها؛ أي: دسسها في المعاصي. انتهى.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ الطغوى والطغيان: مجاوزة الحد المعتاد، وكلاهما مصدر لطغى، وفي «الكشف»: الطغوىٰ من الطغيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء، بأن قلبوا الياء واواً في الاسم، وتركوا القلب في الصفة، فقالوا: امرأة خزيا وصديا من الخزى بالفتح والقصر بمعنى: الاستحياء، ومن الصدى بمعنى: العطش ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ قام ونهض لعقر الناقة.

﴿أَشْقَىٰهَا﴾؛ أي: أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف بوزن غراب، وكان هذا الرجل أشقر أزرق قصيراً، وهو أمير ثمود، وكان فيهم عزيزاً شريفاً نسيباً مطاعاً، ومعنى قدار في الأصل الجزار، كما في «البيضاوي»، ويضرب به المثل، فيقال: أشأم من قدار، وأصل أشقى أشْقَيَ صيغة التفضيل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ احذروا التعرض لناقة الله ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾؛ أي: شربها الذي خصها به في يومها، والألف في ﴿سقياها﴾ منقلبة عن ياء، والأصل: سُقْيَيَها أعلت الياء الثانية بالقلب؛ لتحركها بعد فتح.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فنحروها ﴿فَدَمْدَمَ﴾؛ أي: فأطبق عليهم العذاب، يقال: دمدم عليه القبر أطبقه، ويقال: دم الشيء سدّه بالقبر، ودممت على القبر وغيره إذا أطبقت عليه، ثم كررت الدال؛ للمبالغة في الإحاطة، فالدمدمة من الدم كالكبكبة من الكب، تقول العرب: دممت على فلان بالتخفيف، ثم تقول من المبالغة: دممت بالتشديد، ثم تقول من تشديد المبالغة دمدمت، والتركيب يدل على غشيان الشيء بالشيء.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فسوى القبيلة في العقوبة، فلم يفلت منها أحد، وأصله سَوَّيَها، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ أصله يَخْوَف بوزن يفعل مضارع خَوِف بكسر العين، نقلت حركة الواو إلى الخاء، ثم قلبت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿عُقْبَٰهَا﴾؛ أي: عاقبة الدمدمة وتبعتها. وفي «القاموس»: وأعقبه الله بطاعته جازاه، والعقبى: جزاء الأمر، وألفه للتأنيث كالرجعى والذكرى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿الشمس﴾ و﴿القمر﴾ في قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ وبين ﴿الليل﴾ و﴿النهار﴾ في قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾؛ لأنه لما كان جلاء الشمس واقعاً في النهار.. أسند فعل التجلية إليه إسناداً مجازياً مثل نهاره صائم.

ومنها: اختيار صيغة المضارع على الماضي؛ للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده تعالى، كالماضي في التحقيق، وفيه أيضاً مراعاة الفواصل؛ إذ لو أتى به ماضياً.. لكان التركيب إذا غشيها، فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع .اهـ «خطيب».

ومنها: تنكير نفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾؛ للتفخيم على أن المراد

به آدم عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسب للجواب.

ومنها: تقديم الفجور على التقوى مع كونه أخص لمراعاة الفواصل، أو لشدة الاهتمام بنفيه؛ لأنه إذا انتفى الفجور.. وجدت التقوى، فقدم ما هم بشأنه أعنىٰ.

ومنها: الطباق بين الفجور والتقوى في هذه الآية.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

ومنها: الإضافة للعهد في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو صالح بن عبيد عليه السلام.

ومنها: التعبير فيه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ كبيت الله، أضيفت إليه سبحانه تشريفاً لها؛ لأنها خرجت من حجر أصم معجزة لصالح عليه السلام.

ومنها: التعبير بصيغة التكرير في قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ إفادة للتهويل والتفظيع؛ لأن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب الواقع بهم وإطباقه عليهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ على اعتبار أن الضمير في ﴿يَخَافُ﴾ عائد إلى الله عز وجل وهو الظاهر؛ أي: أنه تعالى لا يخاف عاقبتها، كما تخاف الملوك عاقبة أفعالها، والمقصود من الاستعارة إهانتهم وإذلالهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ الإقسام بالمخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة.. فقد أفلح وفاز، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالته وفسوقه.. فقد خاب.

٢ ـ ذكر ثمود مثلاً لمن دس نفسه، فاستحق عذاب الله الذي هو له أهل[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمت سورة الشمس فيما بين العشاءين من ليلة الثلاثاء، ليلة الثلاثين من شهر شوال، من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.. آمين.

سورة الليل

سورة الليل مكية عند الجمهور[1]، نزلت بعد سورة الأعلى، وقيل: مدنية، وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: إحدى وعشرون آية. وكلماتها: إحدى وسبعون كلمة. وحروفها: ثلاث مئة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أنه سبحانه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم، وخيبة المدسين لها، وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة، ثم حذر النار، وذَكَر مَن يصلاها ومن يجتنبها، فهذه السورة كالتفصيل لسابقتها.

ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، ونحوها.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن أنس أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهاجرة، فرفع صوته فقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء؟ قال: «لا ولكن أردت أن أوقِّت لكم» وقد تقدم حديث «فهلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾» وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، وسميت سورة الليل؛ لبدايتها بلفظ الليل.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا
مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ
بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ
وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ
ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] أن سعي الناس مختلف في نفسه وعاقبته، وأرشد إلى أن المحسن في عمله يوفقه الله تعالى إلى أعمال البر، وأن المسيء فيه يسهل له الخذلان.. أردفه بأنه قد أعذر إلى عباده تقديم البيان الذي تتكشف معه أعمال الخير والشر جميعاً، ووضح السبيل أمام كل سالك، فإن شاء.. سلك الخير فسلم وسعد، وإن أراد.. ذهب في طريق الشر فتردى في الهاوية.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة من أولها إلى آخرها: ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار، فصعد إلى النخلة ليأخذ منها التمر.. ربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم، وإن وجدها في فم أحدهم.. أدخل أصبعه حتى يخرج التمرة من فمه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره بما يلقى من

(١) المراغي.

صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «اذهب» ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة» فقال له الرجل: يعجبني ثمرها وإن لي لنخلاً كثيراً، وما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة منها، فذهب الرجل، ثم جاء النبيَّ ﷺ رجل كان سمع كلام رسول الله ﷺ مع صاحب النخلة، فقال: يا رسول الله: أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: «نعم» فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة فساومها منه، فقال له: أشعرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة، فقلت له: يعجبني ثمرها، فقال له الرجل: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أُعطى بها ما أريد، ولا أظن أن أُعطى، فقال له: فما مناك فيها؟ قال: أربعون نخلة. قال: لقد جئت بأمر عظيم، ثم سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال له: أشهد لي إن كنت صادقاً، فمر ناس فدعاهم، فأشهدهم له على أربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن النخلة صارت في ملكي فهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار، فقال: إن النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧...﴾ الآيات، وصاحب النخلة رجل خزرجي وكان منافقاً، ومات على نفاقه، والذي اشترى النخلة هو الصحابي الجليل أبو الدحداح ـ رضي الله عنه ـ قال ابن كثير هذا حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨...﴾ الآيات، روي أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد كان من أمره أن بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ وكان مولى لعبد الله بن جدعان جاء إلى الأصنام وسلح عليها، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم، ووهب لهم مئة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فجعلوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرمضاء، وكان يقول وهم يعذبونه: أحد أحد، وكان رسول الله ﷺ يمر به وهو يعذب فيقول له: «ينجيك أحد»، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بما يلقى بلال في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب وابتاعه من المشركين، وأعتقه، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزل قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؛ أي: وأقسم بالليل إذا يغطي[1] بظلمته ما كان مضيئاً، قال الزجاج: يغشى الليل الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض، فيُذهب ضوء النهار، وقيل يغشى: النهار، وقيل يغشى: الأرض، والأول أولى، و﴿إِذَا﴾ للحال[2]؛ لكونها بعد القسم، كما مر في السورة السابقة؛ أي: أقسم بالليل حين يغشى الشمس، ويغطيها ويسترها، كقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ فعدم ذكر المفعول للعلم به أو النهار، أو كل ما يواريه بظلامه، فعدم ذكر المفعول للتعميم، والليل عند أهل النجوم: ما بين غروب الشمس وطلوعها، وعند أهل الشرع: ما بين غروبها وطلوع الفجر الصادق، ولعله المراد هنا، والنهار ما يقابله على كلا الضبطين.

قال بعض أهل المحبة:

وَٱللَّيْلُ دَاجٍ وَٱلْعُصَاةُ نِيَامُ وَٱلْعَابِدُوْنَ لِذِيْ ٱلْجَلَالِ قِيَامُ

﴿و﴾ أقسم بـ﴿النهار﴾ وضوئه ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ أي: ظهر وانكشف، ووضح؛ لزوال الظلمة التي كانت في الليل، إن كان المغشي غير الشمس، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس، وإن كان المغشي الشمس، واختلاف الفاصلتين بالمضي والاستقبال؛ للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده تعالى كالماضي في التحقق ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾؛ أي: وأقسم بالذي خلق وأوجد الذكر والأنثى، فـ﴿ما﴾ موصولة، وعبر عن[3] من بـ﴿ما﴾؛ للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم، كما في قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾؛ لأنها[4] لتوغلها في الإبهام أفادت أن الوصف الذي استُعملت هي فيه بالغ إلى أقصى درجات القوة والكمال بحيث كان مما لا يكتنه كنهه، وأنه لا سبيل للعقل إلى إدراكه بخصوصه، وإنما الممكن هو إدراكه بأمر عام صادق، واللامان[5] للحقيقة، ويجوز أن تكونا للاستغراق.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.
(٥) روح البيان.

والمعنى: أي وأقسم بالقادر العظيم القدرة الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد، فخرج مثل البغل والبغلة، وقيل: إن الله سبحانه لم يخلق خلقاً من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكراً ولا أنثى، وقد لقي خنثي مشكلاً.. كان حانثاً؛ لأنه في الحقيقة إما ذكر أو أنثى وإن كان مشكلاً عندنا، كما في «الكشاف»، وقال الكلبي ومقاتل يعني آدم وحواء، فتكون ﴿اللام﴾ للعهد، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، والظاهر العموم، وقيل: مخصوص ببني آدم؛ لاختصاصهم بولاية الله وطاعته، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وبخلق الذكر والأنثى.

قرأ الجمهور[(١)]: ﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعلاً ماضياً فاعله ضمير ﴿النهار﴾، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿تتجلى﴾ بتائين أعني: الشمس، وقرىء: ﴿تُجْلى﴾ - بضم التاء وسكون الجيم - أي: الشمس، وقرأ الجمهور[(٢)]: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿وَالذكرِ والأنثى﴾ بدون ﴿ما خلق﴾ قال علقمة: قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء - رضي الله عنه - فقال: أفيكم من يقرأ قراءة عبد الله بن مسعود؟ فأشاروا إلي، فقلت: نعم أنا، فقال: كيف يقرأ هذه الآية؟ قلت: سمعته يقرأ: ﴿والذكِر والأنثى﴾ قال: وأنا هكذا، والله سمعت رسول الله يقرؤها، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ فلا أتابعهم.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ جواب القسم، والمصدر[(٣)] بمعنى الجمع؛ لما عُرف أن المصدر المضاف من صيغ العموم، ولذلك أخبر عنه بالجمع، و﴿شتى﴾ جمع شتيت كمرضى ومريض، وهو المفترق المتثبت، والمعنى: إن مساعيكم؛ أي: أعمالكم أيها العباد لمختلفة حسب اختلاف الاستعدادات الأزلية، فبعضها حسن نافع خير صالح، وبعضها قبيح ضار شر فاسد، وفي الحديث: «الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها، أو بائع نفسه فموبقها».

وحاصل ما في المقام: أن الله سبحانه أقسم[(٤)] بما أقسم على أن سعي البشر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

مختلف فأقسم:

١ ـ بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مستقره، ويسكن عن الاضطراب؛ إذ يغشاه النوم الذي فيه راحة لبدنه وجسمه.

٢ ـ بالنهار الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم، وفيه تغدو الطير من أوكارها، وتخرج الهوام من أجحارها.

٣ ـ بالقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى، وميز بين الصنفين، مع أن المادة التي تَكَوَّنا منها واحدة، والمحل الذي تكونا فيه واحد، وفي ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة، كما قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾، فقال ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ أقسم بالليل حين يغشى الأشياء ويواريها في ظلامه، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم بما يشملهم من النوم والهدوء ﴿و﴾ أقسم بـ﴿النهار إذا تجلى﴾ بزوال ظلمة الليل، فيتحرك الإنسان والحيوان طلباً لمعاشهما، وبهذا يظهر وجه المصلحة في اختلافهما؛ إذ لو كان الدهر كله ليلاً.. لتعذر المعاش على الناس، ولو كان كله نهاراً.. لبطلت المصلحة، فكان في تعاقبهما آية بالغة يُستدل بها على علم الصانع وحكمته.

إقرأ إن شئت قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ ﴿و﴾ أقسم بـ﴿ما خلق الذكر والأنثى﴾؛ أي: بالقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وفي هذا[1] دليل على أنه عليم جد العلم بدقائق المادة وما فيها؛ إذ لا يُعقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى في الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل، فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة فيهما، فحدوث هذا التخالف في الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، حكيم فيما يصنع ويضع.

وقصارى ما سلف: أن بعض الماء يكون تارة سبباً للحمل، وأخرى يكون غير مستعد للتلقيح، والأول يكون من بعضه الذكران، ومن بعضه الإناث، سبحانه ما

---

(١) المراغي.

أعظم قدرته وأجل حكمته، لا إله إلا هو الفعال لما يريد، ثم ذكر المحلوف عليه، فقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾؛ أي: إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة، بعضها ضلال وعماية، وبعضها هدى ونور، وبعضها يستحق النعيم، وبعضها يستحق العذاب الأليم، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ وقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾. وقوله: ﴿فَأَمَّا﴾ بيان وتفصيل لتلك المساعي المختلفة وتبيين لأحكامها، و﴿الفاء﴾ للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن سعيكم شتى، وأردتم بيانها وتفصيلها لكم.. فأقول لكم: أما ﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ أي: أدى حقوق الله عليه بامتثال المأمورات، وأداء الواجبات، وحقوق الناس عليه بأداء أموالهم عليه، ووفاء البيعة للإمام مثلاً، فإن مطلق الإعطاء يتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى، يقال: فلان أعطى الطاعة وأعطى البيعة، وقيل: معنى الإعطاء: إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوهم .اهـ من «الرازي».

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: اجتنب[1] محارم الله التي نهى عنها، ومن جملتها المن والأذى ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾؛ أي: بالخصلة الحسنى، وهي الإيمان أو الكلمة الحسنى، وهي كلمة التوحيد، أو بالملة الحسنى، وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى، وهي الجنة، والحسنى تأنيث الأحسن ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾؛ أي: فسنُهَيِّئُه ونوفقه ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ أي: للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة، كدخول الجنة ومباديه، والمعنى: فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بالطاعة لله تعالى التي تؤديه إلى الجنة.

قال الواحدي[2]: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق، اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله، كما مر؛ أي: نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون، وذلك في الدنيا والآخرة، وفي «الخطيب»: واختُلف في الحسنى، فقال ابن عباس: أي: بـ: لا إله إلا الله؛ أي: مع محمد رسول الله، والمعنى: وصدَّق بالتوحيد والنبوة، وذلك لأنه لا ينفع مع

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الكفر إعطاء مال ولا اتقاء محارم، وقال مجاهد: بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقال زيد بن أسلم: الصلاة والزكاة والصوم. ومعنى التيسير[1]: التهيئة لا ما يقابل التعسير، ومنه قوله: «كل ميسر لما خلق له» فلا حاجة إلى أن يقال: استُعمل التيسير في العسرى على المشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ يقال يَسَّر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها، واليسرى تأنيث الأيسر فوصف الخصلة باليسرى مجاز باعتبار كونها مؤدية إلى اليسرى.

فائدة[2]: ذكروا أن ﴿السين﴾ في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾؛ للتلطيف، قال الشريف الصفوي: مرادهم بالتلطيف ترقيق الكلام بمعنى أن لا يكون نصاً صريحاً في المقصود، بل يكون محتملاً لغير المقصود، فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل، ويقابل الكثيف بمعنى أن يكون نصاً في المقصود؛ لأنه لا يمكن تغييره وتبديله، فهو كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك، فالمقصود هٰهنا أن التيسير حاصل في الحال، لكن أُتي بالسين الدالة على الاستقبال، والتأخير لتلطيف الكلام وترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً، فكانت تقتضي ذلك.

ومعنى الآيات[3]: أي فأما من أعطى المال وأنفقه في وجوه الخير سواء كان واجباً عليه أم لا كالصدقات والنوافل، كفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوهم، وابتعد عن كل ما لا ينبغي، فحمى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾؛ أي: وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ونحو ذلك مما هو مركوز في طبيعة الإنسان، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير، ولا يكون تصديقاً حقاً، ولا ينظر الله إليه إلا إذا أصدر عنه الأثر الذي لا ينفك عنه، وهو بذل المال واتقاء مفاسد الأعمال.

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقاً بفضل الخير على الشر، ولكن هذا التصديق يكون سراباً في النفس خَيَّلَه الوهم؛ لأنه لا يصدر منه ما يليق به من الأثر، فتراه قاسي القلب بعيداً عن الحق، بخيلاً في الخير، مسرفاً في الشر، ثم ذكر جزاءه على ذلك، فقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾؛ أي: فسنهيئه لأيسر الخطتين وأسهلهما في أصل الفطرة، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذي تجد فيه

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

سعادتها، فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير في الأعمال ووزنها بنتائجها، فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها.. سهل الله له ما هو مسبوق إليه بأصل فطرته، وفاعل الخير للخير يجد أريحية في نفسه ويذوق لذة لا تعدلها لذة، فتزيد فيه رغبته وتشتد لفعله عزيمته، هذا هو التيسير الإلٰهي، والذي يوفق الله له الصالحين من عباده.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾؛ أي[1]: بماله، فلم يبذله في سبيل الخير، والبخل: إمساك المقتنيات عما لا يليق حبسها عنه، ويقابله الجود ﴿وَاسْتَغْنَى﴾؛ أي: زهد فيما عند الله من الأجر والثواب؛ أي: لم يرغب فيه، كأنه مستغن عنه فلم يتق، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، فلم يتق، فيكون الاستغناء مستتبعاً لعدم الاتقاء الذي هو مقابل الاتقاء في الآية الأولى، وبه يحصل التقابل بينهما ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾﴾؛ أي: ما ذكر من المعاني المتلازمة التي هي الإيمان أو كلمة التوحيد أو ملة الإسلام أو الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾؛ أي: فسنهيئه للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، كدخول النار ومقدماته؛ لاختياره لها، ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار، ولعل تصدير[2] القسمين بالإعطاء والبخل، مع أن كلاً منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى؛ للإيذان بأن كلاً منهما أصيل فيما ذُكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء.

والظاهر[3]: أن ﴿السين﴾؛ للدلالة على الجزاء الموعود بمقابلة الطاعة والمعصية، وهو يكون في الآخرة التي هي أمر متراخ منتظر، فأُدخلت ﴿السين﴾ وهي حرف التأخير؛ ليدل ذلك على أن الوعد آجل غير حاضر، كذا في بعض التفاسير. وقيل العسرى[4]: الشر، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب والعسرة في العذاب، والمعنى عليه: سنهيئه للشر بأن نجريه على يده، قال الفراء: سنيسره: سنهيئه، والعرب تقول: قد يَسَّرَت الغنم إذا ولدت، أو تهيأت للولادة.

قال الشاعر:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

هُـمَـا سَـيِّـدَانِ يَـزْعُـمَـانِ وَإِنَّـمَـا يَـسُـوْدَانِـنَـا إِنْ يَـسَّـرَتْ غَـنَـمَـاهُـمَـا

والمعنى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾؛ أي[1]: وأما من أمسك ماله، أو أنفق في شهواته، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه، وخدعته ثروته وجاهه، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد، ولا يحس بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من السوء ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾؛ أي: وكذب بأن الله يخلف على المنفقين في سبيله، فبخل بماله، ولم ينفق إلا فيما يلذ له ويمتعه في حاضره، ولا يبالي بما عدا ذلك، ويدخل في المكذبين بالحسنى، أولئك الذين يتكلمون بها تقليداً لغيرهم، ولا يظهر أثرها في أعمالهم ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: ومن مرنت نفسه على الشر وتعودت الخبث، فيسهل الله له الخطة العسرى، وهي الخطة التي يحط بها قدر نفسه، وينزل بها إلى حضيض الآثام، ويغمسها في أوحال الخطيئة ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾؛ أي[2]: وما يدفع عنه ماله الذي بخل به شيئاً من عذاب الله، فـ﴿ما﴾: نافية، والمفعول محذوف أو؛ أي شيء يدفع عنه ماله الذي بخل به، فـ﴿ما﴾ استفهامية في محل النصب مفعول ﴿يُغْنِى﴾، والاستفهام للإنكار ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾؛ أي: هلك ومات تفعل من الردى؛ للمبالغة والردى، كالفتى وهو الهلاك، قال الراغب: الردى الهلاك، والتردي التعرض للهلاك. انتهى. أو تردى وسقط في الحفرة إذا قُبِر، أو تردى في قعر جهنم، يقال: ردى الرجل في البئر يردى ردى إذا سقط فيها، وتردى إذا هلك، فالمال الذي ينتفع به الإنسان في الآخرة وقت حاجته هو الذي أعطى حقه، وقدمه دون الذي بخل به وتركه لوارثه.

والمعنى[3]: أي وإذا يسرناه للعسرى، فأي شيء يُغني عنه ماله الذي بخل به على الناس، ولم ينفقه في المصالح العامة؟ وفيما يعود نفعه على الجماعة، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التي هي موضع حاجته وفقره؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ استئناف مقرِّر لما قبله؛ أي: إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحِكَم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه، وطريق الضلال وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنّا حال من

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيباً، ومن[1] هنا تبين أن الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البغية، لا الدلالة الموصلة إليها قطعاً، وإن المراد بالوجوب المفهوم من على الوجوب بموجب القضاء ومقتضى الحكمة، فلا تكون الآية بظاهرها دليلاً على وجوب الأصلح عليه تعالى، كما يزعم المعتزلة، قال الفراء: إن علينا للهدى والإضلال، فحذف الإضلال، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وقيل: المعنى: إن علينا ثواب هداه الذي هديناه.

والخلاصة: أي إنّا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر، ثم بعثنا له الكملة من أفراده وهم الأنبياء، وشرعنا لهم الأحكام، وبينا لهم العقائد تعليماً وإرشاداً، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين سبيل الخير والفلاح، والسبيل المعوج، فيتردى في الهاوية.

وقصارى ذلك: أن الإنسان خلق نوعاً ممتازاً من سائر الحيوان بما أوتيه من العقل، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد، ثم زاد الأمر توكيداً، فأبان عظم قدرته، فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وإن لنا التصرف الكلي فيهما كيفما نشاء من الأفعال التي من جملتها ما وعدنا من التيسير لليسرى، والتيسير للعسرى، أو المعنى: إن لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف فيه كيف نشاء، فمن أرادهما أو إحداهما.. فليطلب ذلك منا، ومن طلبهما من غير مالكهما.. فقد أخطأ، وقيل المعنى: إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا.

والخلاصة: أي وإنا لنحن المالكون لكل ما في الدنيا وكل ما في الآخرة، فنهب ما نشاء لمن نريد، ولا يضرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذي بيناه لهم، ولا يزيد في ملكنا اهتداء من اهتدى منهم؛ لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد.

وإذا كان مُلْك الحياتين لله.. كان هديه هو الذي يجب أن اتابعه فيهما؛ لأن المالك لأمر هو العالم بوجوه التصرف فيه، ثم بيّن سبيل الهداية التي أوجبها على

---

(١) روح البيان.

نفسه، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾؛ أي: حذرتكم وخوفتكم يا أهل مكة في القرآن ﴿نَارًا﴾ هائلة عظيمة ﴿تَلَظَّىٰ﴾؛ أي: تتوقد وتتوهج، وأصله: تتلظى، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف، فإن النار[1] مؤنث وُصفت به، ولو كان ماضياً.. لقيل: تلظت مع أن المراد بوصفها دوام التلظي بالفعل الاستمراري، وفي بعض التفاسير: المراد من ﴿أنذرتكم﴾ إنشاء الإنذار، كقولهم: بعت واشتريت، أو إخبار يراد به الإنذار السابق في مثل قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ فإنها أول سورة نزلت عند الأكثرين، وهذا أشد تخويفاً من أن يقال: خافوا واتقوا ناراً تلظى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بتاء واحدة، وقرأ ابن الزبير وزيد بن علي وطلحة بن مصرف وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير: ﴿تتلظى﴾ بتاءين على الأصل، وقرأ البزي بتاء مشددة ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾؛ أي: لا يصلى تلك النار صلياً لازماً، ولا يدخلها دخولاً مؤبداً، أو لا يقاسي صلاها، وهو حرها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾؛ أي: إلا الزائد في الشقاوة، وهو الكافر، فإنه أشقى من الفاسق، وإن صَلِيَها غيره من العصاة، فليس صَلْيُهُ كصَلْيِهِ، فالفاسق لا يصلاها صلياً لازماً، ولا يدخلها دخولاً أبدياً، كما يدل عليه قوله الآتي: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾، وفي «كشف الأسرار» يعني: الشقي، والعرب تسمي الفاعل أفعل في كثير من كلامهم، منه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، ثم وصف الأشقى، فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن الطاعة والإيمان، وليس هذا إلا الكافر.

والمعنى[3]: أي لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى، فأنذرناكم ناراً تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول ﷺ فيما جاء به من الآيات، وأعرض عن اتباع شرائعه، وانصرف عن وجهة الحق، ولم يعد إليها تائباً نادماً. قال الزجاج: هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر[4]، ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدرك

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلو كان كل من لم يشرك لا يعذب.. لم يكن في قوله سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدة، وقال في «الكشاف»: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، وجُعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ وجُعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تُخلق إلا له، وقيل: المراد بالأشقى أبو جهل، أو أمية بن خلف، وبالأتقى أبو بكر الصديق ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾؛ أي: ويبعد[1] عن تلك النار بحيث لا يسمع حسيسها، والفاعل المُجَنِّب المبعد هو الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَتْقَى﴾؛ أي: المبالغ في الإتقاء عن الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها، فضلاً عن دخولها أو صليها الأبدي، وأما مَن دونه ممن يتقي الكفر دون المعاصي؛ وهو المؤمن الشقي الفاسق الغير التائب، فلا يبعد عنها هذا التبعيد يصلاها، وإن لم يذق شدة حرها، كما ذاق الكافر؛ لكونه في الطبقة الفوقانية من طبقات النار، فلذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور، فلا يقدح في الحصر السابق. قال الواحدي: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين انتهى، والأولى حمل الأشقى والأتقى عن كل متصف بالصفتين المذكورتين.

والحاصل[2]: أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ زاعماً أن الأشقى هو الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب عن النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين.. لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت التقوى بوجه من وجوه التأويل.. لزمك مثله في الأشقى، فخذ هذه إليك مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

عَلَىٰ أَنَّنِيْ رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ ٱلْهَوَىٰ ... وَأُخْرَجَ مِنْهُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

وقيل: أراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي، كما قال طرفة بن العبد:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

تَـمَـنَّـى أُنَـاسٌ أَنْ أَمُـوْتَ وَإِنْ أَمُـتْ فَـتِـلْـكَ سَـبِـيْـلٌ لَـسْـتُ فِـيْـهَـا بِـأَوْحَـدِ

أي: بواحد، ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون، إلا من الكافر، فلا يتم ما أراد قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين، ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾؛ أي[١]: يعطيه ويصرفه في وجوه البر والحسنات حال كونه ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ أي: يطلب أن يكون زاكياً عند الله لا يريد به رياء ولا سمعة، أو متزكياً متطهراً من الذنوب ومن دنس البخل ووسخ الإمساك، فالجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾، ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿يُؤْتِى﴾ داخلة في حكم الصلة لا محل لها من الإعراب.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ مضارع تزكى، وقرأ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ: ﴿يزكىٰ﴾ بإدغام التاء في الزاي.

والمعنى: أي ويبعد عنها المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي الشديد التحرز منهما بحيث لا يخطرهما ببال، ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: إن الأتقى هو الذي يُنفق أمواله في وجوه الخير طالباً بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه، لا مريداً بذلك رياء ولا سمعة، ولا طالباً مديح الناس له، فإن ذلك ضرب من النفاق الذي يبطل معه العمل، ولا يكون لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وقد أكد هذا بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ . . .﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ استئناف مقرر؛ لكون إيتائه للتزكي خالصاً لوجه الله تعالى؛ أي: وليس لأحد عند ذلك الأتقى نعمة، ومنة من شأنها أن تجزى وتكافأ، فيقصد بإيتائه ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما[٣] قال: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول؛ لأجل الفواصل، والأصل: يجزيها إياه، أو يجزيه إياها؛ أي: إنه لا يقصد بإنفاقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه، ثم أكده مرة ثانية، فقال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ وطلب رضا ﴿وَجْهِ رَبِّهِ﴾؛ أي: ذات ربه ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الموصوف بالعلو والرفعة على خلقه، وهو استثناء[٤]

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

منقطع من ﴿نِّعۡمَةٖ﴾؛ لأن ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ ليس من جنس نعمة تجزى، فالمعنى: لكن فعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى؛ أي: لابتغاء ذاته وطلب رضاه، فهو في الحقيقة مفعول له، وما أتى من المال مكافأة على نعمة سالفة، فذلك يجري مجرى أداء الدين، فلا يكون له دخل في استحقاق مزيد الثواب، وإنما يستحق الثواب إذا كان فعله لأجل أن الله سبحانه أمره به وحثه عليه، ومعنى ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: الرفيع فوق خلقه بالقهر والغلبة، كما قاله أبو الليث، وقال الفاكهاني: وصف الوجه الذي هو الذات الموجودة مع جميع الصفات بالأعلى؛ لأن الله سبحانه وتعالى بحسب كل اسم وجهاً يتجلى به لمن يدعوه بلسان حاله بذلك الاسم ويعبده باستعداده، والوجه الأعلى: هو الذي له بحسب اسمه الأعلى الشامل لجميع الأسماء، وإن جعلته وصف الرب، فالرب هو ذلك الاسم. انتهى.

وقرأ الجمهور(١): ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾ بنصب الهمزة، وهو استثناء منقطع؛ لأنه ليس داخلاً في ﴿مِن نِّعۡمَةٖ﴾، وقرأ ابن وثاب: بالرفع على البدل من محل ﴿نِّعۡمَةٖ﴾؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، و﴿مِن﴾ مزيدة، والرفع لغة تميم؛ لأنهم يجوزون البدل في المنقطع، ويجرونه مجرى المتصل، وقرأ الجمهور أيضاً: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ بالمد، وقرأ ابن أبي عبلة بالقصر، ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه، فقال: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ جواب قسم مقدر؛ أي: وأقسم بالله لسوف يرضى ذلك الأتقى الموصوف بما ذُكر؛ أي: ولسوف يرضيه ربه في الآخرة بثوابه وعظيم جزائه، وقرأ الجمهور: ﴿يَرۡضَىٰ﴾ مبنياً للفاعل، وقُرىء مبنياً للمفعول، وهذا وعد كريم(٢) بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقق الرضى، قال بعضهم: أي: يرضى الله عنه ويرضى هو بما يُعطيه الله في الآخرة من الجنة والكرامة والزلفى جزاء على ما فعل، ولم يُنزل هذا الوعد إلا لرسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ ولأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ هٰهنا.

وفي قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ﴾ إيماء(٣) إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير، ولا يكفي القليل من المال؛ لأن يبلغ العبد منزلة الرضى الإلٰهي.

وقصارى ما سلف: أن الناس أصناف:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

١ ـ الأبرار الذين منحهم الله تعالى من قوة العقل وصفاء اليقين ما يجعلهم يبتعدون عن الفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

٢ ـ الذين يلون هؤلاء، وهم من تغلبهم الشهوة أحياناً، فيقعون في الذنب، ثم يثوب إليهم رشدهم، فيتوبون ويندمون، وهذان القسمان يدخلان في الأتقى.

٣ ـ من يخلط بين الخير والشر، فيعتقد وحدانية الله تعالى، ويقترف بعض السيئات، ويصر عليها، ولا يتوب منها، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد، يُرشد إلى ذلك قوله ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن ذهن المخالف، وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتغلب عليها.

٤ ـ الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أُنزل عليهم، وهذان القسمان يشملهما الأشقى، وقد أُعدت النار لكل منهما إلا أن الفاسقين لا يخلّدون فيها، ويدخلها الكافرون، وهم فيها خالدون.

الإعراب

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الليل﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالليل، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وجملة ﴿يَغۡشَىٰ﴾ في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾: معطوف على الجملة التي قبله مماثل لها في إعرابها حرفاً بحرف. ﴿وَمَا خَلَقَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول بمعنى مَن معطوف على ﴿الليل﴾، أو مصدرية على ما تقدم. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾؛ أي: ومن خلق الذكر، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلذَّكَرَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَشَتَّىٰ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب؛ أي: أقسم بهذه المذكورات على أن أعمالكم لمختلفة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن سعيكم شتى، وأردتم بيان تفصيلها.. فأقول لكم: ﴿أما من أعطى﴾... إلخ. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَعْطَىٰ﴾ صلته والمفعول محذوف، تقديره: أي أعطى وأدى حقوق الله وحقوق العباد الواجبة عليه. ﴿وَاتَّقَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَعْطَىٰ﴾. ﴿وَصَدَّقَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾: متعلق بـ﴿صدق﴾. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿نيسره﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نيسره﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانا.

﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أمّا﴾: حرف شرط. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿بَخِلَ﴾ صلته. ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾: معطوف على ﴿بَخِلَ﴾. ﴿وَكَذَّبَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾: متعلق بـ﴿كذب﴾: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿نيسره﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نيسر﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ السابقة؛ ﴿وَمَا يُغْنِي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِي﴾. ﴿مَالُهُ﴾: فاعل، والمفعول محذوف؛ أي: العذاب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾. أو ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿يُغْنِي﴾. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿مَالُهُ﴾: فاعل، والجملة جملة إنشائية مستأنفة، أي: أي شيء يُغني عنه ماله. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿يُغْنِي﴾، وجملة ﴿تَرَدَّىٰ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾. ﴿لَلْهُدَىٰ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة مستأنفة. ﴿وإنَّ﴾:

﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَنَا﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم. ﴿لَلْآخِرَةَ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ معطوف على ﴿لَلْآخِرَةَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ التي قبلها. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿أنذرتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿نَارًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة مقدرة، تقديرها: فمن طلب الدنيا والآخرة من غير مالكهما الحقيقي، وهو الله سبحانه.. فقد أخطأ الطريق، وضل سواء السبيل ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلخ. أو الجملة مستأنفة. وجملة ﴿تَلَظَّىٰ﴾ صفة لـ﴿نَارًا﴾، وهو مضارع مرفوع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير منع من ظهورها التعذر. أصله: تتلظى، كما مر في مبحث التفسير.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾: فعل مضارع مرفوع ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: فاعل، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿نَارًا﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، وجملة ﴿كَذَّبَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ معطوفة على ﴿كَذَّبَ﴾ داخلة في حيز الصلة. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يجنبها﴾: فعل مضارع ومفعول به. ﴿ٱلْأَتْقَى﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَتْقَى﴾. ﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿مَالَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة إما بدل من ﴿يُؤْتِى﴾ فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها داخلة في حيز الصلة، وإما في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾؛ أي: حال كونه متزكياً به عن دنس الذنوب والمعاصي. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية مهملة. ﴿لِأَحَدٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نِّعْمَةٍ﴾، أو من الضمير المستكن في الخبر الظرفي. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿نِّعْمَةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ صفة لـ﴿نِّعْمَةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأنه من غير الجنس؛ لأن ابتغاء وجه ربه

ليس من جنس النعمة؛ أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، والأحسن أن يعرب ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعولاً لأجله؛ لأن المعنى: لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمة. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مضاف. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف. ﴿رَبِّهِ﴾: مضاف إليه، وكثرة الإضافة لا تخرج الكلام عن الفصاحة؛ لورودها في الكتاب والسنة، كما هنا، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿وَجْهِ﴾ أو لـ﴿رَبِّهِ﴾. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أو على أبي بكر الصديق الذي كان سبباً لنزول الآية، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾؛ أي: يُغطي كل شيء، فيواريه بظلامه، والليل: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، كما مر، وهو ظل الأرض الحائل ما بين الشمس وما عليها، وأصله: يَغْشَيُ بوزن: يفعل، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ②﴾ والنهار: ما بين طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس؛ أي: انكشف وظهر بظهوره كل شيء، وأصل تجلى تَجَلَّيَ بوزن تفعل، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③﴾ والذكر: حيوان له قوة التلقيح، والأنثى حيوان له قوة الإحبال.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ وشتى: جمع شتيت، كمرضى مريض، وهو المفترق المتشتت، وفي «المصباح»: شت شتاً ـ من باب ضرب ـ إذا تفرق، والاسم الشتات، وشيء شتيت وِزان كريم متفرق، وقوم شتى ـ بوزن فعلى ـ متفرقون، وجاؤوا أشتاتاً كذلك، وشتان ما بينهما؛ أي: بعد.

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ⑪﴾ وأصل تردى تَرَدَّيَ بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، يقال: تردى يتردى تردياً، فهو مترد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ يقال: تردى في بئر وفي أهوية وفي هلكة إذا وقع، ويقال: رَدِيَ زيد يَرْدَىٰ رَدًى إذا هلك، وأرداه الله يُرديه إرداء إذا أهلكه، قال الراغب: الردى

الهلاك، والتردي: التعرض للهلاك انتهى كما مر، يقال: تردى في البئر إذا سقط في حفرتها، وتردى في جهنم إذا سقط في قعرها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ والحسنى: مؤنث الأحسن، وكذا اليسرى مؤنث الأيسر.

﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ مضارع تلظى، أصله: تَتَلَظَّيُ بوزن تتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: تتلهب.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أصله: يَصْلَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: لا يقاسي حرها.

﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ صيغة التفضيل أصله: الأشقَيُ، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أصله: تولَّيَ بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلْأَتْقَى﴾ صيغة التفضيل، أصله: الأتقَيُ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ أصله: يتزكَّيُ بوزن يتفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿تُجْزَىٰٓ﴾ أصله تجزَيُ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: ابتغاي، أُبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿يَرْضَىٰ﴾ أصله يرضَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حذف المفعول للعلم به إن كان المحذوف الشمس؛ أي: حين يغشى الشمس ويغطيها ويسترها، أو للتعميم إن كان المحذوف غيرها؛ أي: يغشى النهار، أو كل ما يواريه بظلامه، فعدم ذكر المفعول للعلم به في الأول، وللتعميم في الثاني، كما مر.

ومنها: اختلاف الفاصلتين في قوله: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بالاستقبال في الأول والماضي في الثاني إشعاراً باستواء الماضي والمستقبل عنده تعالى.

ومنها: الطباق بين لفظة: ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾، ولفظة ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾، وبين ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وبين ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

ومنها: الاشتقاق في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾؛ لأن اليسرى هنا من التيسير، لا من اليسار.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿صدق﴾ و﴿كَذَّبَ﴾، وبين ﴿أَعۡطَىٰ﴾ و﴿بَخِلَ﴾.

ومنها: تصدير القسمين بالإعطاء والبخل، مع أن كلاً منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى، والتيسير للعسرى؛ للإيذان بأن كلاًّ منهما أصيل فيما ذُكر، لا تتمة لما بعدهما من التصديق والقوة والتكذيب والاستغناء.

ومنها: الإتيان بسين الاستقبال في القسمين؛ للدلالة على أن الجزاء الموعود في مقابلة الطاعة والمعصية آجل غير حاضر يكون في الآخرة التي هي أمر متراخ منتظر.

ومنها: حذف المفعول في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ ...﴾ الآيات إفادة للتعميم؛ ليذهب ذهن السامع مع كل مذهب.

ومنها: الطباق بين ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ وبين ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

ومنها: التعبير بـ﴿ما﴾ التي لغير العاقل بدل من التي للعاقل؛ لأنها لتوغلها في الإبهام أفادت أن الوصف الذي استُعملت هي فيه بلغ إلى أقصى درجات القوة والكمال بحيث كان مما لا يُكتنه كنهه، وأنه لا سبيل للعقل إلى إدراكه بخصوصه، وإنما الممكن هو إدراكه بأمر عام صادق.

ومنها: الاقتصار على الذكر والأنثى في هذه الآية إشعاراً بأن الله لم يخلق خلقاً من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورة أو بالأنوثة، كما في «الروح».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

أولاً: بيان أن الناس في الدنيا فريقان:

١ - فريق يهيئه الله سبحانه للخصلة اليسرى، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على ما أنفقوا.

٢ - فريق يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، وهم الذين بخلوا في الأموال، واستغنوا بالشهوات، وأنكروا ما وعد الله تعالى به من ثواب الجنة.

ثانياً: الجزاء في الآخرة لكل منهما، وجعله إما جنة ونعيماً، وإما ناراً وعذاباً أليماً[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت سورة الليل في منتصف الليلة الثامنة من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الضحى

سورة الضحى مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الفجر، وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت والضحى بمكة.

وآياتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها[2]: أربعون كلمة، وحروفها: مئة واثنان وأربعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في السابقة قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ وكان ﷺ سيد الأتقياء وصفي الأصفياء.. عقَّب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه ﷺ. وقال الشيخ موسى جار الله ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «نظم الدرر» سورة الضحى: أن النبي ﷺ وضعها بعد سورة الليل؛ ليتصل رضى النبي الكريم برضى خليفته بعده، وقدم رضى خليفته؛ لأن ابتغاء وجه الله قبل كل شيء.

التسمية: وتسميتها بالضحى: لبدايتها بلفظ الضحى، وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الضحى كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها ما تقدم في سورة الشمس من الحديث الصحيح، ومنها[3] ما أخرجه الحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» من طريق أبي الحسن المقرىء قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على قسطيْطين، فلما بلغت ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ قال: كَبِّر حتى تختم، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك، وأخبر مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

عباس أن أُبيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبر أبي: أن رسول الله ﷺ أمره بذلك، وأبو الحسن المقرىء المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرىء. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم ابن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث، قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، وقال آخرون من آخر الضحى، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ويقتصر، ومنهم من يقول: الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ . . .﴾ السورة كبر فرحاً وسروراً، ولم يَرْوُوا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

سبب نزولها: اتفق الرواة على أن سبب نزول هذه السورة الكريمة إنما هو حصول فترة انقطاع في توالي نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فظن أو توهّم أن الله عز وجل قد تركه وقلاه، فأنزل الله عز وجل هذه السورة؛ ليلقي الطمأنينة في نفسه ﷺ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ
ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا
بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

قد سبق لك قريباً بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر ما قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾...﴾ إلى آخر السورة مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما ذكر رضاه عن رسوله، ووَعْدَه له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ويثلج قلبه.. أردف ذلك ببيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه، فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولاً، فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته، ثم نهاه عن أمرين: قهر اليتيم وزجر السائل؛ لما لهما من أكبر الأثر في التعاطف والتعاون في المجتمع، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوي الحاجة، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كلٍ منها في موضعها، وأداء حقها.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[2]: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد وُدع محمد، فنزلت هذه السورة.

---

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك، فأنزل سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ...﴾ الآيات.

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في «مسنده» والواحدي وغيرهم بسند فيه من لا يُعرف عن حفص بن صبرة القرشي عن أمه عن أمها خولة، وقد كانت خادمة رسول الله ﷺ: أن جرواً دخل بيت رسول الله ﷺ، فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني»، فقلت في نفسي لو هيأت البيت فكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ يرعد بجبينه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما في «الصحيح».

وأخرج[1] ابن جرير عن عبد الله بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فنزلت، وأخرج أيضاً عن عروة قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت، وكلاهما مرسل، ورواتهما ثقات، قال الحافظ ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالت شماتة، وخديجة قالته توجعاً.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرني»، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ إسناده حسن، وأخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته كَفْراً كَفْراً؛ أي: قرية قرية، فسر به، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

---

(١) لباب النقول.

وعبارة «الخازن» هنا: واختلفوا في نزول هذه السورة على ثلاثة أقوال[1]:

القول الأول: ما روىٰ الشيخان عن جندب بن سفيان البجلي قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ متفق عليه.

قيل: إن المرأة المذكورة في هذا الحديث هي: أم جميل امرأة أبي لهب، وأخرجه الترمذي عن جندب قال: كنت مع النبي ﷺ في غار، فدميت أصبعه، فقال:

هَــلْ أَنْـتِ إلاَّ أُصْـبُـعٌ دَمِـيْـتِ وَفِـيْ سَـبِـيْـلِ ٱلـلَّـهِ مَـا لَـقِـيْـتِ

قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

والقول الثاني: ما قاله المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح وعن ذي القرنين وأصحاب الكهف حين أرسلوا إلى قريش، فأمروهم بسؤاله عن هذه الثلاثة، فسألته قريش، فقال: «سأخبركم غداً»، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عليه.

والقول الثالث: ما قاله زيد بن أسلم كان سبب احتباس الوحي وجبريل عنه: أن جرواً كان في بيته، فلما نزل عليه عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه[2]، فقيل: اثنا عشر يوماً، وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعون يوماً، فلما نزل جبريل عليه السلام.. قال النبي ﷺ: «يا جبريل ما جئتَ حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد اشتياقاً، ولكني عبد مأمور، ونزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾، وأنزل هذه السورة.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ أقسم بالضحى؛ أي: بالنهار كله بدليل أنه قابله بالليل كله في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ وقيل: أقسم بوقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء، وعلى القول الأول يكون في الكلام مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، وقرينته مقابلة بالليل، كما قاله البغوي، وقيل: على تقدير المضاف؛ أي: ورب الضحى، فيكون فيه مجاز بالحذف، قالوا: تخصيصه[1] بالإقسام به؛ لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي السحرة فيها سجداً؛ لقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ فكان له بذلك شرف، ومناسبة لمجال المقسم لأجله ﴿وَاللَّيْلِ﴾؛ أي: وأقسم بجنس الليل، قال ابن خالويه هو معطوف على ﴿الضحى﴾، لا قسم مستقل؛ لأنه يصلح أن يقع في موضع ﴿الواو﴾ ثم، أو الفاء بأن يقال: ثم الليل مثلاً، وثم لا تكون للقسم. ﴿إِذَا﴾: هذه لمجرد[2] الظرفية، والعامل فيها فعل القسم المقدر مثل ما تقدم، وورد عليه الإشكال المتقدم في سورة الشمس؛ أي: وأقسم بالليل إذا ﴿سَجَىٰ﴾ وغطى بظلامه على كل شيء، قال ابن عباس: إذا أقبل بظلامه، وعنه إذا ذهب، وقيل معناه: إذا سكن واستقر ظلامه وتناهى، فلا يزداد بعد ذلك يعني: أن سكون ظلامه عبارة عن عدم تغيره بالاشتداد، والتنزل، وذلك حين اشتد ظلامه وكمل، فيستقر زماناً، ثم يشرع في التنزل، فإسناد سكون الظلمة الكائنة فيه إليه مجاز علاقته الحلول والظرفية، فإن الزمان ظرف لما فيه، أو إذا سكن أهله فهو مجاز أيضاً، من إسناد ما للشيء إلى زمانه نحو نهاره صائم، وليله قائم، فمعناه: سكون الناس والأصوات، وجميع ما فيه يقال: سجا البحر ـ من باب سما ـ سجواً إذا سكنت أمواجه، وليلة ساجية: ساكنة الريح، وعن جعفر الصادق: إن المراد بالضحى: هو الضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبالليل: ليلة المعراج.

فإن قلت: لم قدم هنا[3] ﴿الضحى﴾ على ﴿الليل﴾ وفي السورة التي قبلها قدم ﴿الليل﴾ على ﴿النهار﴾؟

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

قلت: لأن لكل منهما أثراً في صلاح العالم، ولليل فضيلة السبق، وللنهار فضيلة النور، فقدم هذا تارة وهذا أخرى، أو يقال: إنه قدم الليل في سورة أبي بكر وهي السابقة؛ لأن أبا بكر سبق له كفر، وقدم الضحى في سورة محمد؛ لأنه نور محض، ولم يتقدمه ذنب، ولم يفصل بين السورتين إشارة إلى أنه لا واسطة بين النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل بجملته؟

أجيب: بأن ذلك إشارة إلى أن ساعة من نهار توازي جميع الليل، كما أن محمداً ﷺ يوازي جميع الأنبياء، وأيضاً الضحى وقت السرور، والليل وقت الوحشة، ففيه إشارة إلى أن سرور الدنيا أقل من شرورها، وأن غموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة، والليل ساعات اهـ «خطيب».

ثم ذكر جواب القسم بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد؛ أي: ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك منذ أحبك، وإنما قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ولم يقل: وما قلاك، لموافقة رؤوس الآي، وقيل معناه: وما قلى أحداً من أصحابك، ومن هو على دينك إلى يوم القيامة.

وقال أبو حيان: وحذف المفعول اختصاراً في ﴿قَلَىٰ﴾، وفي: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، وفي: ﴿فَهَدَىٰ﴾، وفي: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ إذ يعلم أنه ضمير المخاطب، وهو الرسول ﷺ، وقوله: ﴿وَدَّعَكَ﴾[1] من التوديع، وهو مبالغة في الوداع، وهو الترك؛ لأن من ودعك مفارقاً، فقد بالغ في تركك، والوداع وهو الإعلام بالفراق، وقال الراغب: أصل التوديع من الدعة، وهو: أن يدعو للمسافر أن يتحمل الله عنه كآبة السفر، وأن يبلغه الدعة والخفض، كما أن التسليم دعاء له بالسلامة، فصار ذلك متعارفاً في تشييع المسافر وتركه، وعبر به عن الترك في الآية.

والمعنى: ما قطعك ربك يا محمد قطع المودع، وما تركك بالحط عن درجة الوحي والقرب والكرامة، ففيه استعارة تبعية، وإشارة إلى أن الرب لا يترك المربوب، وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ بتشديد الدال من التوديع، كما مر، وقرأ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: بتخفيفها من قولهم: ودعه إذا تركه، واستغنت العرب في فصيح كلامها بترك عن ودع ووذر، وعن اسم فاعلهما بتارك، وعن اسم مفعولهما بمتروك، وعن مصدرهما بالترك، وقد سُمع وَدْع ووَذْر.

قال أبو الأسود:

لَيْتَ شِعْرِيْ عَنْ خَلِيْلِيْ مَا ٱلَّذِيْ غَالَهُ فِيْ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ وَدَعَهْ

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك[1]، والقِلىٰ شدة البغض، يقال: قلا زيداً يقلوه أبغضه من القلو؛ وهو الرمي، كما يقال: قلت الناقة براكبها رمت به، فكان المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه، فلا يقبله، ولعل عطف ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ على ما قبله من عطف السبب على المسبب؛ لإفادة التعليل.

والحاصل: أن[2] الله سبحانه أقسم لرسوله ﷺ بآيتين عظيمتين من آياته في الكون ضحى النهار وصدره، والليل وظلامه أنه ما تركك وما أبغضك كما يقال لك وكما تتوهم في نفسك، ثم ذكر له ما يثلج صدره وما فيه الطمأنينة والبشرى، فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾؛ لما[3] أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: من الدنيا؛ لما أنها فانية مشوبة بالمضار، وسميت بالأولى؛ لأنها خلقت قبل الآخرة على ما قيل، فالمراد بالآخرة والأولى كرامتهما، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾: لام الابتداء المؤكدة للجملة، لا لام القسم، كما قاله الشوكاني، وفي «التأويلات النجمية»: يعني أحوال نهايتك أفضل وأكمل من أفعال بدايتك، كما أخبر بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ الآية، لأنه ﷺ لا يزال يطير بجناح الشريعة في سماء القرب والكرامة، وهذا حال ورثته.

والمعنى[4]: أي وإن أحوالك في مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها، وإن كل يوم ستزداد عزاً إلى عز، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله، وسأمنحك كل آنٍ جلالاً فوق جلالك ورفعة فوق رفعتك، وكأنه يقول له: لا تظنن أني كرهتك أو

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

تركتك، بل أنت عندي اليوم أشد تمكيناً وأقرب اتصالاً.

ولقد صدق الله وعده، فما زال يسمو بنبيه ويرفع درجته يوماً بعد يوم، حتى بلغ الغاية التي لم يبلغها أحد قبله، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه، وجعل محبته من محبة الله، واتباعه والاقتداء به سبباً للفوز العظيم، وجعله وأمته شهداء على الناس جميعاً، ونشر دينه وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة، فأي فضل فوق ذلك الفضل، وأي نعمة أصفى من هذه النعمة، وأي إكرام فوق هذا الإكرام؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم زاده في البشرى، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ و﴿اللام﴾[1] فيه للابتداء، دخلت على الخبر؛ لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربك؛ لأن لام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة الاسمية، وليست للقسم؛ لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وجمعها مع ﴿سوف﴾؛ للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تراخى لحكمة يعني: أن لام الابتداء لما تجردت؛ للدلالة على التأكيد، وكانت ﴿سوف﴾ تدل على التأخير والتنفيس.. حصل من اجتماعهما أن العطاء المتأخر لحكمة كائن لا محالة، وكانت اللام لتأكيد الحكم المقترن بالاستقبال، وقيل[2]: ﴿اللام﴾: للقسم، قال أبو علي الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيداً لقائم، بل هي التي في قولك: لأقومن، ونابت ﴿سوف﴾ عن إحدى نوني التوكيد، فكأنه قال: وليعطينك، قيل: المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى، وقيل: الحوض والشفاعة، وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، كما ورد، وقيل: غير ذلك، والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، وأهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته.

﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ ما تعطاه مما يطمئن به قلبك، وهو معطوف على ما قبله بالفاء، والآية عدة[3] كريمة شاملة لما أعطاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ، وفي عصر خلفائه الراشدين، وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشوّ الدعوة

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد أنبأ عن سمة منها قوله ﷺ: «لي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابها المسك».

والمعنى[١]: أي ولسوف يظاهر ربك عليك نعمه ويوالي عليك منته، ومنها توارد الوحي عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وسيظهر دينك على الأديان كلها، وتعلو كلمتك ويرتفع شأنك على شؤون الناس جميعاً.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم؛ أي: ألم يجدك يا محمد ربك يتيماً بموت أبويك، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قد وجدك ربك يتيماً، والوجود بمعنى العلم. و﴿يَتِيمًا﴾: مفعوله الثاني. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ عطف على ما قبله؛ أي: ألم يَعْلَمْك الله يتيماً بلا أب، فجعل لك مأوى تأوي إليه.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه إذا جعل له مأوى يأوي إليه، وقرأ أبو الأشهب العقيلي: ﴿فأوى﴾ ثلاثياً بلا مد، وهو إما بمعنى الرباعي، أو من أوى له إذا رحمه، يقال: أوى فلان إلى منزله يأوي أوياً على وزن فعول إذا رجع ولجأ إليه، وآويته أنا إيواء، والمأوى كل مكان يأوي إليه الشيء ليلاً أو نهاراً؛ أي: يرجع إليه وينزل فيه، ويجوز أن يكون الوجود بمعنى[٣] المصادفة، و﴿يَتِيمًا﴾ حال من مفعوله، يعني: على المجاز بأن يُجعل تعلق العلم الوقوعي الحالي مصادفة، وإلا فحقيقة المصادفة لا تمكن في حقه تعالى.

روي[٤]: أن أباه عبد الله مات بعد حمله بشهرين، وقيل: قبل ولادته بشهرين، وقيل: بعد ولادته بشهرين، وقيل: بعد ولادته بسبعة أشهر، وقيل: بعدها بتسعة أشهر، وقيل: بعدها بثمانية وعشرين شهراً، والراجح المشهور الأول، وكانت وفاة أبيه بالمدينة المنورة، ودُفن في دار النابغة، وقيل: دُفن بالأبواء قرية من عمل

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.

الفُرع، وتوفيت أمه، وهو ابن أربع سنين، وقيل: خمس سنين، وقيل: ست سنين، وقيل: سبع سنين، وقيل: ثمان سنين، وقيل: تسع سنين، وقيل: ثنتي عشرة سنة وشهر وعشرة أيام، وكانت وفاتها بالأبواء، وقيل: بالحجون اهـ، من «المواهب» و«شرحه».

وقال بعضهم[1]: لما وُلد رسول الله ﷺ كان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين، ثم مات جده بعد أمه بسنتين، ورسول الله ابن ثمان سنين، ولما أشرف جده عبد المطلب على الموت.. أوصى به ﷺ أبا طالب؛ لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة، فكان أبو طالب هو الذي كفل رسول الله ﷺ إلى أن بعثه الله تعالى نبياً، فقام ينصره مدة مديدة، ثم توفي أبو طالب، فنال المشركون منه ﷺ ما لم ينالوا منه في حياة أبي طالب، أي: آذوه، وكان ﷺ يقول: «كنت يتيماً في الصغر وغريباً في الكبر»، وكان يحب الأيتام ويحسن إليهم، وفي الحديث: «من ضم يتيماً، وكان في نفقته.. كفاه مؤنته، كان له حجاباً من النار، ومن مسح رأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة».

وإنما جعله الله سبحانه يتيماً؛ لئلا يسبق إلى قلب بشر أن الذي نال من العز والشرف والاستيلاء.. كان عن تظاهر نسب أو توارث مال أو نحو ذلك، وعن مجاهد، معنى الآية[2]: ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فآواك الله سبحانه بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيماً من قولهم: درة يتيمة؛ أي: لا نظير لها، وهذا المعنى بعيد جداً، وقيل المعنى: ألم يجدك وحيداً في قريش عديم النظير، فآواك إليه، وأيدك وشرفك بنبوته، واصطفاك برسالته، والأول أولى.

وخلاصة المعنى: أي ألم تكن يا محمد يتيماً لا أب له يعنى: بتربيتك، ويقوم بشؤونك، ويهتم بتنشئتك، فما زال يحميك ويتعهدك برعايتك، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها، حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنساني، وقد عاش النبي ﷺ يتيماً؛ إذ توفي أبوه وهو في بطن أمه، فلما وُلد عطَّف الله عليه قلب جده عبد المطلب، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفي، والنبي ﷺ يومئذ في السنة الثامنة، فكفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب، فكان به حفياً شديد العناية

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

بأمره، وما زال يتعهده حتى كبر وترعرع حتى أرسله الله رسولاً، فقام يؤازره وينصره ويدفع عنه أذى قريش حتى مات، فاستطاعت قريش أن تنال منه، وتجرأ عليه سفهاؤهم، وسلطوا عليه غلمانهم حتى اضطروه إلى الهجرة، ولو تدبر[1] المنصف في رعاية الله له وحياطته بحفظه وحسن تنشئته.. لوجد من ذلك العجب، فقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق؛ لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه، وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم، لكن عناية الله تعالى كانت ترعاه، وتمنعه السير على نهجهم، فكان الوفي الذي لا يمين والأمين الذي لا يخون والصادق الذي لا يكذب والطاهر الذي لم يدنس برجس الجاهلية.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ معطوف[2] على المضارع المنفي، وقيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله كما ذكرنا؛ أي: قد وجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وكما في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ والمعنى: إنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك إليه، واختار هذا الزجاج، وقيل: معنى ﴿ضَآلًّا﴾ لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك، وقال الكلبي والسدي والفراء: وجدك في قوم ضلال، فهداهم الله بك، وقيل: وجدك ضالاً، أي: طالباً للقبلة، فهداك إليها، كما في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ ويكون الضلال بمعنى الطلب، وقيل: وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى الضياع، وقيل: وجدك محباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عَجَباً لِعَزَّةَ فِيْ ٱخْتِيَارِ قَطِيْعَتِيْ   بَعْدَ ٱلضَّلاَلِ فَحَبْلُهَا قَدْ أَخْلَقَا

وقيل: وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك؛ أي: ردك إلى جدك عبد المطلب، وعن ابن عباس[3] ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ ضل في شعاب مكة حال صباه، وكان عبد المطلب يطلبه، ويقول متعلقاً بأستار الكعبة:

---

(١) المراغي.   (٢) الشوكاني.   (٣) روح البيان.

يَـا رَبِّ فَـارْدُدْ وَلَـدِيْ مُـحَـمَّـدَا   رَدَّاً إِلَـيَّ وَاصْـطَـنِـعْ عِـنْـدِيْ يَـدَا

فوجده أبو جهل، فرده إلى عبد المطلب، فمن الله عليه حيث خلصه على يدي عدوه، فكان في ذلك نظير موسى عليه السلام حيث التقط فرعون تابوته، ليكون له عدواً وحزناً، فما زال عبد المطلب يكرر هذا البيت عند الكعبة حتى أتاه أبو جهل على ناقة له ومحمد بين يديه، وهو يقول: لا تدري ماذا ترى من ابنك، فقال عبد المطلب: ولِمَ؟ قال: أنخت الناقة وأركبته من خلفي، فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة، وكانت تقول: يا أحمق هو الإمام، فكيف يقوم خلف المقتدي، وقال سعيد بن المسيّب[1]: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة، فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة إذ جاء إبليس، فأخذ زمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورد رسول الله ﷺ إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك، وقيل: الضلال هنا بمعنى الحيرة، وذلك لأنه ﷺ كان يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه حتى هداه الله لدينه، وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك فهداك لبيانه، فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية، ولا يُلتفت إلى قول من قال: إنه ﷺ كان قبل النبوة على ملة قومه، فهداه الله سبحانه إلى الإسلام، لأن نبينا ﷺ، وكذلك الأنبياء قبله منذ وُلدوا انتشؤوا على التوحيد والإيمان قبل النبوة وبعدها، وإنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده، ويدل على ذلك أن قريشاً عابوا النبي ﷺ، ورموه بكل عيب سوى الشرك وأمر الجاهلية، فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً؛ إذ لو كان فيه شيء من ذلك لما سكتوا عنه، ولنُقِل ذلك، فبرّأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيَّروه به من السحر والكهانة والجنون والشعر.

ويؤيد هذا[2]: ما روي في قصة بحيرا الراهب حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام، فرأى بحيرا علامة النبوة فيه، وهو صبي، فاختبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما» ويؤيده شرح صدره ﷺ في حال الصغر، واستخراج العلقة

---

(١) الخازن.   (٢) الخازن.

منه، وقول جبريل: هذا حظ الشيطان منك، وملأه حكمة وإيماناً، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾. وقال الزمخشري: ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلقهم من العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دين قومه فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ والله أعلم.

والمعنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾؛ أي: ووجدك حائراً مضطرباً في أمرك مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم، فعبادتهم باطلة ومعتقداتهم فاسدة، وكان يفكر في دين اليهودية، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه؛ إذ بدلوا دينهم وخالفوا ما كان عليه رسولهم، فيبدو عليه الإعراض عنه، ثم يفكر في دين عيسى عليه السلام، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود، فيرجع عن التفكير فيه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع، وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد، وضعف في البصائر باستيلاء الأوهام عليهم، وفساد أعمالهم وشؤمها في أحوالهم بتفرق الكلمة، وتفانيهم في سفك الدماء، والإشراف على الهلاك باستعباد الغرباء لهم، وتحكمهم فيهم، فالحبشة والفرس من جانب، والرومان من جانب آخر، فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم العادات فيهم، وأي الطرق ينبغي أن يُسلك في إيقاظهم من سباتهم.

وقصارى ذلك: أنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم، لكن الإلٰه الحكيم لم يتركه ونفسه، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾؛ أي: فقيراً لا مال لك، يؤيده ما في مصحف عبد الله بن مسعود ﴿عديماً﴾ يقال: عال يعيل عيلاً وعيلة إذا افتقر ﴿فأغنا﴾ ك بمال خديجة - رضي الله عنها - أو بما أفاء الله عليه من الغنائم، حتى كان ﷺ يهب المئة من الإبل، وفي الحديث: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» ولكن في هذا المعنى الأخير نظر؛ لأن السورة مكية.

والحكمة في جعله أولاً فقيراً، ثم إغنائه: أنه لو كان متمولاً من أول الأمر.. لكان يسبق إلى بعض الأوهام أنه إنما وجد العز والغلبة بسبب المال، فلما علا كل العلو على الأغنياء والملوك.. عُلم أنه كان علوه من جهة الحق سبحانه، وقيل معناه: فأغنى قلبك وقنعك بما أعطاك.

قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» ولذا قال الراغب: معنى فأغناك: أي: أزال عنك فقر النفس وجعل لك الغنى الأكبر، وهو المعني بقوله ﷺ: «الغنىٰ غنىٰ النفس» ثم المراد[1] من تعداد هذه النعم ليس الامتنان، بل تقوية قلبه ﷺ للاطمئنان بعد التوديع، وقرأ الجمهور[2]: ﴿عَآئِلًا﴾؛ أي: فقيراً.

قال جرير:

ٱللَّهُ نَزَّلَ فِيْ ٱلْكِتَابِ فَرِيْضَةً ... لابْنِ ٱلسَّبِيْلِ وَلِلْفَقِيْرِ ٱلْعَائِلِ

كرره لاختلاف اللفظ، وقرأ محمد بن السميفع واليماني: ﴿عَيِّلاً﴾ بفتح العين وتشديد الياء المكسورة على وزان سيد، ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

وَمَا يَدْرِيْ ٱلْفَقِيْرُ مَتَىٰ غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِيْ ٱلْغَنِيُّ مَتَىٰ يَعِيْلُ

والمعنى[3]: أي إنك كنت فقيراً لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية، فأغناك بما أجراه لك من الربح في التجارة، وبما وهبته لك خديجة من مالها.

وخلاصة ما تقدم: أن من آواك في يتمك وهداك من ضلالك، وأغناك من فقرك لا يتركك في مستقبل أمرك، وبعد أن بين نعمه السابقة، أوصاه باليتامى والفقراء شكراً على هذه النعم، وأداء لحقها، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ فالفاء الأولى للإفصاح، والثانية لربط جواب ﴿أما﴾ الشرطية، كما بيَّنَّاهما في شروحنا على الآجرومية؛ أي: إذا عرفت ما بيّنّاه لك من النعم المذكورة، وأردت القيام بشكرها، فأقول لك: لا تقهر اليتيم؛ أي: لا تذلله ولا تغلبه على ماله وحقه بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان، قال مجاهد: لا تحرك

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

اليتيم فقد كنت يتيماً وإن له رباً ينصره، وقال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك، وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله ﷺ يُحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي به.

وفي الحديث: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمٰن، فيقول: من أبكى هذا اليتيم الذي واريت والده تحت الثرى، من أسكته ـ أي: أرضاه ـ فله الجنة» وروي أيضاً أنه ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه، ثم قال بأصبعه: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وهو يشير بأصبعيه، رواه البغوي بسنده.

وقرأ الجمهور(١): ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ بالقاف، وقرأ ابن مسعود وإبراهيم النخعي والشعبي والأشهب العقيلي: ﴿تكهر﴾ بالكاف بدل القاف، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور، والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وقال النحاس: إنما يقال: كهره إذا اشتد عليه وغلّظ، وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر، وقيل: معنى ﴿فلا تكهر﴾ فلا تعبس في وجهه، والمعنى؛ أي: لا تقهر اليتيم ولا تستذله، بل ارفع نفسه بالأدب، وهذّبه بمكارم الأخلاق؛ ليكون عضواً نافعاً في جماعتك، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك، ومن ذاق مرارة الضيق في نفسه، فما أجدر أن يستشعرها في غيره، وقد كان ﷺ يتيماً، فباعد الله عنه ذل اليتم، فآواه، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله تعالى على نعمته.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ والمستعطي ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ أي: فلا تزجره، لكن أعطه، أو رده رداً جميلاً، والنهر والانتهار: الزجر بمغالظة؛ أي: لا تزجره، ولا تغلظ له القول، بل رده رداً طيباً، وهذا بمقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

قال الواحدي(٢): قال المفسرون: يريد السائل على الباب يقول: لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده رداً ليناً، قال قتادة: معناه رد السائل برحمة ولين، وقيل: المراد بالسائل: الذي يسأل عن الدِّين، فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، فيكون في مقابلة ﴿وَوَجَدَكَ

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ منصوب بـ﴿تنهر﴾ كما أن ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ منصوب بـ﴿تقهر﴾، والتقدير: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل.

والآية بيّنة لجميع الخلق[1]؛ لأن كل واحد من الناس كان فقيراً في الأصل، فإذا أنعم الله سبحانه عليه.. وجب عليه أن يعرف حق الفقراء، وقال بعضهم: الأولى حمل السائل على المعنى الأعم من أن يسأل المال، ويسأل عن العلم، فيكون التفصيل مطابقاً للتعديد، كما مرت الإشارة إليه آنفاً، فيجب إكرام طالب العلم وإنصافه بمطلوبه ولا يعبس في وجهه، ولا يُنهَر، ولا يُتلَقَّى بمكروه.

وفي الحديث: «من كتم علمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار»، وهذا الوعيد يشمل حبس الكتب عمن يطلبها للانتفاع بها.

ولما ذكّره نعمه عليه في هذه السورة من جبر اليتم، والهدى بعد الضلالة، والإغناء بعد العيلة والفقر.. أمره أن يشكره على إنعامه عليه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾؛ لأن تحديث العبد، وإخباره بنعمة الله تعالى شكر لها باللسان وتذكير للغير.

وفي الحديث: «التحدث بالنعم شكر» والمراد بتحديثها إظهارها للناس وإشهارها بينهم، والظاهر[2] حمل النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها، وقال مجاهد والكلبي: المراد بالنعمة هنا القرآن، وقال الكلبي: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرأه، قال الفراء: وكان يقرؤه ويحدثه به، وقال مجاهد أيضاً: المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله، واختار الزجاج هذا القول، فقال: أي: بلِّغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله تعالى، وهي أجل النعم، فحينئذ فقد اندرج تحت الأمر هدايته ﷺ لأهل الضلال، وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله وعلّمه من الكتاب والحكمة، وقال مقاتل: يعني: اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلال، وجبر اليتيم، والإغناء بعد العيلة، فاشكرها وحدث بها للناس؛ لأن التحدث بنعمة الله شكر وكتمانها كفر.

وهذا الثالث بمقابلة الثاني[3]، وهو قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أخره

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

لمراعاة الفواصل، ولأن التحلية وهو التحدث بنعمة الله بعد التخلية، وهو ﴿لا تقهر﴾ و﴿لا تنهر﴾، وكرر أما؛ لوقوعها في مقابلة ثلاث آيات.

قال في «الكواشي»: رأى بعض العلماء التحدث بنعمة الله من الطاعات، مع أمن الرياء، وغائلة النفس، وطلب الاقتداء به، وكرهه بعضهم خوف الفتنة، وفي «عين المعاني» أنه ﷺ قال: «التحدث بالنعم شكر وتركه كفر»، وأما الحديث الآخر: «عليكم بكتمان النعم، فإن كل ذي نعمة محسود» يعني: عن الحسود لا غير، وفي «الأشباه»:

(س) أي رجل ينبغي له إخفاء إخراج الزكاة عن بعض دون بعض؟.

(ج) فقيل: المريض إذا خاف من ورثته يخرجها سراً عنهم.

(س) وأي رجل يُستحب له إخفاؤها؟.

(ج) فقيل: الخائف من الظلمة، لا يعلمون كثرة ماله. وقال ابن عطية في الآية: حدِّث به نفسك؛ أي: لا تنس فضله عليك قديماً وحديثاً.

وخلاصة معنى قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾؛ أي: أوسع[1] في البذل على الفقراء بمالك، وأفض من نعمه الأخرى على طالبيها، وليس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة في حديثها، فإن ذلك ليس من كرم الأخلاق في شيء.

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتموا مالهم؛ لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم عن البذل، ولا تجدهم إلا شاكِين من القل، أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل مما آتاهم الله تعالى من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه، وقد استفاضت الأحاديث بأنه ﷺ كان كثير الإنفاق على الفقراء، عظيم الرأفة بهم، واسع الإحسان إليهم، وكان يتصدق بكل ما يدخل في ملكه ويبيت طاوياً.

نبذة من الأحاديث المناسبة للآية

منها: ما روي عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أُعطي عطاء فليُجْزِ به إن وجد، فإن لم يجد فليثن عليه، فإن من أثنى عليه فقد

---

(١) المراغي.

شكره، ومن كتمه فقد كفر، ومن تحلى بما لم يُعط كان كلابس ثوبي زور» أخرجه الترمذي، وله عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر».

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن النعمان بن بشير قال: قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

فائدة: والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة الضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن، فيقول: الله أكبر، وسبب ذلك أن الوحي لما احتبس عن رسول الله ﷺ. . قال المشركون: هجره شيطانه وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فلما نزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾. . كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذوه سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾.

﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الضحى﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالضحى، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَاللَّيْلِ﴾: معطوف على ﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾، وأجاز ابن هشام أن تكون ﴿الواو﴾ في ﴿وَاللَّيْلِ﴾ عاطفة، أو قسمية، قال: والصواب الأول، وإلا لاحتاج كل إلى الجواب. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وتقدمت لها نظائر، وجملة ﴿سَجَىٰ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وفاعل ﴿سَجَىٰ﴾: ضمير يعود إلى ﴿الليل﴾. ﴿ما﴾: نافية. ﴿وَدَّعَكَ﴾: فعل ماض ومفعول به. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿قَلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل

مستتر يعود على الرب، والمفعول محذوف لعلمه مما قبله، أي: وما قلاك، والجملة معطوفة على جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء مؤكِّدة لمضمون الجملة. ﴿الآخرة﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، ﴿لَّكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، وكذا ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ أيضاً، والجملة معطوفة على جملة القسم، أو على جوابها، أو مستأنفة. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء مؤكد لمضمون الجملة. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿يُعْطِيكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به أول، والثاني محذوف معلوم من السياق تقديره: سوف يعطيك ما ترضاه. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربك، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة جواب القسم، وإنما لم تكن ﴿اللام﴾ للقسم؛ لأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، فتعيَّن أن تكون للابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة المكونة من المبتدأ والخبر، فتعيَّن تقدير مبتدأ، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير؟

قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ترضى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْطِيكَ﴾.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَجِدْكَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، تقديره: هو، و﴿الكاف﴾: ضمير متصل في محل النصب مفعول أول. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعداد أياديه ونعمه عليه، والغرض من تعدادها كما تقدم تقوية قلبه ﷺ، وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها الله له، وهي طريق محمودة العواقب سليمة المغابّ. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آوى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لأنه

في تقدير الإثبات؛ لأن الاستفهام تقريري، والتقدير: ووجدك يتيماً فآواك. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لأنه في معنى الإثبات، كما مر آنفاً. ﴿فَهَدَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هدى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أغنى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾، والمفعول محذوف كسابقه؛ أي: فأغناك. ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما أنعمنا به عليك من النعم المذكورة، وأردت بيان ما هو اللازم لك في المستقبل.. فأقول لك: ﴿أما اليتيم﴾ ﴿أما﴾: حرف شرط أبداً وتفصيل غالباً، نائبة عن أداة الشرط وفعله، والأصل مهما يكن من شيء، فأقول لك: لا تقهر اليتيم: حرف لا محل لها من الإعراب، مبني على سكون الألف المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: مفعول به مقدم لـ﴿تَقْهَرْ﴾؛ للفصل به بين ﴿أما﴾ وجوابها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾؛ لأن أصل التركيب مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْهَرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد مجزوم بـ﴿لا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَنْهَرْ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَنْهَرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى. ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿حدِّث﴾، والفاء غير مانعة؛ لأنها بمثابة الزائدة. ﴿فَحَدِّثْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿حدِّث﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾

معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾: صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي أشعتها على هذا الكون، وفي «القاموس»: والضَّحو والضَّحوة والضحية كعشية ارتفاع النهار، والضُّحى فويقه، والضَّحاء بالمد إذا قرب انتصاف النهار، وبالضم والقصر يطلق على الشمس أيضاً اهـ. وأصله: ضَحَوَ بوزن فعل تحرك حرف العلة وفتح ما قبله فقُلبت ألفاً.

﴿إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أي: سكن، يقال: سجا البحر يسجو سجواً ـ من باب سما ـ إذا سكنت أمواجه، وليلة ساجية ساكنة الريح، والمراد إذا سكن الأحياء فيه، وانقطعوا عن الحركة، وفيه إعلال بالقلب أصله: سَجَوَ واوي اللام، تحركت الواو وفُتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: من التوديع، وهو مبالغة في الوَدْع، وهو الترك؛ أي: ما تركك ضائعاً بتأخير الوحي عنك، وقرىء بالتخفيف من قولهم: ودعه إذا تركه، واختُلف في دع بمعنى الترك هل يتصرف، فيأتي منه الماضي وغيره، أم لا؟ قال الجوهري: أميت ماضيه، وقال غيره: ربما جاء ماضيه في الضرورة، وهو المشهور.

قال الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِيْ عَنْ خَلِيْلِيْ مَا ٱلَّذِيْ غَـالَـهُ فِـيْ ٱلْـحُـبِّ حَـتَّـىٰ وَدَعَـهْ

ومنه قوله تعالى: ﴿ما وَدَعَك ربك﴾ على قراءة التخفيف، وجاء منه المصدر، ومنه الحديث: «ولينتهن أقوام عن وَدْعِهم الجمعات»؛ أي: عن تركهم إياها، وجاء منه اسم المفعول وغيره في الشعر، والأصح القول بقلة الاستعمال، لا بالإماتة.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك، فالمفعول محذوف كما مر، وفي «المصباح»: قليته قلياً، وقلوته قلواً من بابي: ضرب وقتل، وهو الإنضاج في المِقلىٰ، وهي: مِفعَل بالكسر، وقد يقال: مِقلاة بالهاء، واللحم وغيره مَقلي بالياء، ومقلو بالواو، والفاعل: قَلاّء بالتشديد؛ لأنه صنعة كالعطار والنجار، وقليت الرجل أقليه ـ من باب رمى ـ قلى بالكسر والقصر، وقد يمد إذا أبغضته، ومن باب تعب لغة، وقال

بن خالويه يقال: قلاه يقلاه بفتح الماضي والمستقبل، وليس في كلام العرب فعل يفتح فيه الماضي والمستقبل مما ليس فيه حرف من حروف الحلق إلا قلى يقلى، وأبى يأبى مثلاً.

فقوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: قَلَوَ أو قَلَيَ بوزن فعل، قلُبت الواو أو الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ أصله: تَرْضَيُ بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ قرأ العامة: ﴿آوى﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً، من آواه يؤويه إيواء، وقرأ أبو الأشهب: ﴿فأَوَى﴾ ثلاثياً، وفي «المصباح»: أوى إلى منزله يأوي ـ من باب ضرب ـ أوياً، أقام، وربما عُدِّي بنفسه، فقيل: أوى منزلَه، والمأوى بفتح الواو لكل حيوان مسكنه، وآويت زيداً بالمد، في التعدي، ومنهم من يجعله مما يستعمل لازماً ومتعدياً، فيقول: أويته وزان ضربته، ومنهم من يستعمل الرباعي لازماً أيضاً، ورده جماعة.

وأصل ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أأوى بوزن: أفعل، أُبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أصله: ضالِلاً اسم فاعل، أُدغمت اللام الأولى في الثانية.

﴿فَهَدَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: هَدَيَ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فيه إعلال بالإبدال، أصله: عايلاً، أبدلت الياء همزةً في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال.

﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أصله: أَغْنَيَ بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: اسم فاعل من سأل الثلاثي بوزن فعل، وقوله: أيضاً ﴿عَآئِلًا﴾ من عال زيد من باب: سار؛ أي: افتقر، وأعال زيد إذا كثرت عياله، وهذه المادة لها أصلان: واوي ويائي، أما الواوي، فقد قال في «القاموس»: فيه عال ـ أي: جار ومال عن الحق، وعال الميزان نقص وجار، أو زاد ـ يعول ويعيل، وعال أمرهم: اشتد وتفاقم، وعال الشيء فلاناً إذا غلبه وثقل عليه وأهمه، وعالت الفريضة في

الحساب: زادت وارتفعت إلى آخر ما ذكره، وأما اليائي، فقد قال صاحب «القاموس»: وعال يعيل عيلاً وعيلة وعيولاً ومعيلاً إذا افتقر، فهو عائل، والجمع عالة وعُيَّل وعَيْلَىٰ، كسكرى، والاسم العيلة، والمعيل الأسد والنمر والذئب؛ لأنه يعيل صيداً؛ أي: يلتمس، وعالني الشيء عيلاً ومعيلاً أعوزني، وفي مشيه تمايل واختال وتبختر كتعيّل، إلى آخر ما جاء في هذه المادة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان البديع:

فمنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أي: سكن أهله، ففيه إسناد الفعل إلى زمانه، كنهاره صائم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾؛ لأن التوديع حقيقة في تشييع المسافر، فاستعمله هنا على طريق الاستعارة التصريحية التبعية بجامع القطع والفرقة في كل.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما قلاك، وكذا قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، فحذف المفعول لعلمه من المقام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾؛ لأن المراد بـ﴿الْأُولَىٰ﴾: الدنيا، وهي تطابق ﴿الآخرة﴾.

ومنها: الجمع بين لام الابتداء وحرف التنفيس في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾؛ للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة، وإن تراخى لحكمة، يعني: أن لام الابتداء لما تجردت للدلالة على التأكيد، وكانت السين تدل على التأخير والتنفيس.. حصل من اجتماعهما أن العطاء المتأخر لحكمة كائن لا محالة، وكانت اللام لتأكيد الحكم المقترن بالاستقبال.

ومنها: حذف المفعول الثاني لأعطى؛ للدلالة على التعميم والتفخيم؛ أي: كل ما ترضى في الدنيا والآخرة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)﴾ شبه

الشريعة بالهدى، وعدم وجودها بالضلال، وحذف المشبه، وأبقى المشبه به وهو الضلال، من ضل في طريقه إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده، والمقصد هنا العلوم النافعة التي تسمو بالعقل والروح معاً.

ومنها: الالتزام، أو لزوم ما لا يلزم في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ فقد لزمت الهاء قبل الراء في هاتين الفاصلتين، وفيه أيضاً الجناس الناقص بين الفاصلتين؛ لاختلاف الحرف الثاني في الكلمتين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه الرجعى والمآب.

* * *

مقاصد هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد:

١ ـ أن الله ما قَلَىٰ رسوله ولا تركه.

٢ ـ وعد رسوله بأنه سيكون في مستأنَف أمره خيراً من ماضيه.

٣ ـ تذكيره بنعمه عليه فيما مضى، وأنه سيواليها عليه.

٤ ـ طلب الشكر منه على هذه النعم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة الضحى بعون الله وتوفيقه في الليلة الخامسة عشرة ليلة الأربعاء من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الشرح

سورة الشرح مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الضحى، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ نزلت بمكة، وزاد بعد الضحى.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة ألم نشرح بمكة، وآياتها[1]: ثمان، وكلماتها تسع وعشرون كلمة، وحروفها: مئة وثلاثة أحرف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: ظاهرة؛ لأنها شديدة الاتصال بما قبلها؛ لكونهما نزلتا في تعداد النعم على الرسول ﷺ، حتى روي[2] عن طاووس وعمر بن عبد العزيز: أنهما كانا يقولان: هما سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة، ولكن المتواتر كونهما سورتين، وإن كانتا متصلتين معنى؛ إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها.

وعبارة «الجمل»: ولما ذكر الله تعالى بعض النعم عليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ...﴾ إلخ.. أتبعه بما هو كالتتمة له، وهو شرح الصدر المذكور في هذه السورة. انتهى. وسميت الشرح؛ لذكر الشرح في أولها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الشرح كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

ومن فضلها[3]: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ألم نشرح.. فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني» ولكن لا أصل له.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن. (٢) المراغي. (٣) الخازن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ إلى آخر السورة، مناسبته لما قبله: أن الله سبحانه وتعالى لما أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ووضع الوزر، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب وضيق الأمر.. ذكر أن ذلك قد وقع على ما جرت به سنته في خلقه من إحداث اليسر بعد العسر، وأكد هذا بإعادة القضية نفسها مؤكدة؛ لقصد تقريرها في النفوس، وتمكينها في القلوب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ونوسع ﴿لَكَ﴾ يا محمد ﴿صَدْرَكَ﴾ وقلبك لحمل أعباء النبوة وحفظ الوحي؛ أي: قد شرحنا صدرك يا محمد لحفظ الوحي وتبليغ الرسالة، فالهمزة للاستفهام التقريري؛ لأن[1] نفي النفي إثبات؛ أي: عدم شرحنا لك صدرك منفي، بل قد شرحنا لك صدرك ووسَّعناه لأعباء الرسالة حتى اتصف بمَلَكَتَيْ الاستفادة والإفادة، فما صَدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية، وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق؛ أي: لم تحتجب، لا بالحق عن الخلق، ولا بالخلق عن الحق، قال الراغب: الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم إذا بسطته، وفصلت بعضه عن بعض، ومنه شرح الصدر بنور إلٰهي وسكينة من جهة الله تعالى، ورَوْح منه، وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه. انتهى.

---

(١) روح البيان.

وفي الحديث: «إذا دخل النور في القلب انشرح»؛ أي: انفسح واحتمل البلاء، وحفظ سر الربوبية، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾؛ أي: وسع قلبي حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجهم، بل يحتمل أذاهم، والصدر: ما بين النحر والبطن، والمراد هنا القلب، من إطلاق المحل وإرادة الحال، والحكمة في زيادة ﴿لَكَ﴾ الإيذان بأن الشرح من منافعه ومصالحه عليه السلام، كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك، لا لأجلي، وإنما خص[1] الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات.

والمراد من الآية: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى انفساح قلبه بنور النبوة، وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين، وانشراح صدر سره بضياء الرسالة، واحتمال مكاره الكفار وأهل النفاق، وانبساط صدر نوره بأشعة الولاية، وتحققه بالعلوم اللدنية، والحكم الإلٰهية، والمعارف الربانية، والحقائق الرحمانية.

وأما شرح الصدر الصوري، فقد وقع مراراً: مرة وهو ابن خمس، أو ست لإخراج مغمز الشيطان؛ وهو الدم الأسود الذي به يميل القلب إلى المعاصي، ويعرض عن الطاعة، ومرة عند ابتداء الوحي، ومرة ليلة المعراج.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نَشْرَحْ﴾ بجزم الحاء لدخول الجازم، وقرأ أبو جعفر: بفتحها وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه: ألم نشرحن، فأبدل من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً، ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله، وهو أنه لغة لبعض العرب حكاها اللحياني في «نوادره» وهي الجزم بلن، والنصب بلم، عكس الاستعمال المعروف عند الناس، وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد، وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما:

قَدْ كَانَ سَمْكُ ٱلْهُدَىٰ يَنْهَدُّ قَائِمُهُ   حَتَّىٰ أُتِيْحَ لَهُ ٱلْمُخْتَارُ فَٱنْعَمَدَا
فِيْ كُلِّ مَا هَمَّ أَمْضَىٰ رَأْيَهُ قُدُمًا   وَلَمْ يُشَاوِرَ فِيْ إِقْدَامِهِ أَحَدَا

---

(١) الشوكاني.   (٢) البحر المحيط.

بنصب يشاور، وهذا محتمل للتخريجين، وهو أحسن مما تقدم اهـ من «البحر» بتصرف.

وعلى كل حال، فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه، وكثرة جبروته، وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها.

ومعنى الآية: أي إنا[1] شرحنا لك صدرك، فأخرجناك من الحَيرة التي كنت تضيق بها ذرعاً بما كنت تلاقي من عناد قومك، واستكبارهم عن اتباع الحق، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم، فهُديت إلى الوسيلة التي تنقذهم بها من التهلكة، وتجنبهم الردى الذي كانوا مشرفين عليه.

وقصارى ذلك: أنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لا تقلق ولا تضجر، وجعلناك راضي النفس مطمئن الخاطر واثقاً من تأييد الله ونصره، عالماً كل العلم أن الذي أرسلك لا يخذلك ولا يعين عليك عدواً، وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾؛ أي: حططنا وأسقطنا ﴿عَنكَ﴾ يا محمد ﴿وِزْرَكَ﴾؛ أي: حملك الثقيل، معطوف على ما تقدم، لا على لفظه؛ أي: شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك وزرك، نظير قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَىٰ الْعَالَمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ

أي: أنتم خير من ركب المطايا وأندى الخ، والوزر[2]: الذنب؛ أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية، قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل: المعنى: حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، وهذا كقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقوله: ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ﴿وضعنا﴾، وتقديمه على المفعول الصريح؛ للقصد إلى تعجيل المسرة، والتشويق إلى المتأخر، وقد يُجعل قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس، عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، فيكون كقول القائل: رفعنا عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر عنه زيارة قط، على سبيل المبالغة في انتفاء الزيارة منه له، ثم وصف هذا

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

الوزر، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ﴾ وأثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾، قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض؛ أي: صوت، وهذا مثل معناه: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره؛ أي: صوته، وأهل اللغة يقولون: أنقَضَ الحِمْلُ ظهر الناقة إذا سُمع له صرير؛ أي: صوت، قال قتادة: كان للنبي ﷺ ذنوب قد أثقلته، فغفرها الله له، وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تُثقل الظهر من القيام بأمرها، سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له، وكذا قال أبو عبيدة وغيره.

وعبارة «الروح» هنا: مُثِّل[1] به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه، ويغمه من فرطاته قبل النبوة، أو من عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، ومن تهالكه على إسلام المعاندين من قومه وتلهفه، ووضعه عنه مغفرته، كما قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وتعليم الشرائع، وتمهيد عذره بعد أن بلَّغ وبالغ اهـ.

وقرأ ابن مسعود[2]: ﴿وحللنا عنك وقرك﴾ ومعنى[3] الآية؛ أي: حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلِّغها، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً، ونفسك به مطمئنة راضية، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه ما يجيش بقلبه من العطف عليهم والحدب على راحتهم، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقاسي في سبيل حياطتهم وتنشئتهم.

ثم ذكر سبحانه منته عليه وكرامته عنده، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بعنوان النبوة والرسالة وأحكامها، روى[4] البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه سأل جبريل عن هذه الآية ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال: قال الله عز وجل: «إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي»، قال ابن عباس يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر، فلو أن عبداً عَبَدَ الله وصدَّقه في كل شيء، ولم يشهد أن محمداً ﷺ رسول الله.. لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) الخازن.

وقال الضحاك: لا تُقبل صلاة إلا به، ولا تجوز خطبة إلا به، وقال مجاهد: يريد التأذين، وقيل: المعنى: ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وعند المؤمنين في الأرض، والظاهر[1] أن هذا الرفع؛ لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه، وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً، وأمر الله بطاعته، كقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وغير ذلك، وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُورٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ مَعَ اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِيْ الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُوْ الْعَرْشِ مَحْمُوْدٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

وقيل: رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به، والإقرار بفضله، وقيل: رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله: محمد رسول الله، وقيل غير ذلك مما جاء في القرآن وغيره من كتب الأنبياء، ثم وعده باليسر والرخاء بعد الشدة والعناء، وذلك أنه ﷺ كان في شدة بمكة، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ والضيق والشدة التي فيها من جهاد المشركين وإيذائهم ﴿يُسْرًا﴾ ورخاء بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به؛ أي: إن مع الضيقة سعةً ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرحاً، وفي هذا وعد منه سبحانه وتعالى له ﷺ وللمؤمنين بأن كل عسير عليكم يتيسر، وكل شديد يهون، وكل صعب يلين، فاللام فيه للاستغراق، وتقرير لما قبله.

---

(١) الشوكاني.

قال في «الكشاف»: فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ بما قبله؟

قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام؛ لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّره ما أنعم الله به من جلائل النعم، ثم قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ...﴾ إلخ، كأنه قيل: خولناك من جلائل النعم، فكن على ثقة بفضل الله ولطفه، فإن مع العسر يسرا كثيراً. انتهى.

وفي كلمة ﴿مَعَ﴾ إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارن للعسر، وإلا فالظاهر ذكر كلمة المعاقبة لا أداة المصاحبة؛ لأن الضدين لا يجتمعان، بل يتعاقبان، وقال بعضهم هي: معية امتزاج لا معية مقارنة ولا تعاقب، ولذلك كررها، فلولا وجود اليسر في العسر.. لم يبق عسر لعموم الهلاك، ولولا وجود العسر في اليسر. لم يبق يسر:

وَبِـضِـدِّهَـا تَـتَـبَـيَّـنُ ٱلأَشْـيَـاءُ

ثم إن العسر يؤول كله إلى اليسر، فقد سبقت الرحمة الغضب، وذلك عناية من الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك قد يكون مصقلة وجلاء لقلوب الأكابر، وتوسعة لاستعدادهم، فتتسع لتجلي الأنوار والمعارف، وكما أن حظهم من الملائم أوفر، فكذلك غير الملائم، قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل».

ولذلك قال الله تعالى: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾، وقال ﷺ: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»، وفي تعريف العسر وتنكير اليسر إشارة لطيفة إلى أن الدنيا دار العسر، فالعسر عند السامع معلوم معهود، واليسر مجهول مبهم.

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيداً، فقال مكرراً له بلفظه: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾؛ أي: إن[1] مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، لما تقرر من أنه إذا أُعيد المعرَّف يكون الثاني غير الأول، سواء كان المراد به الجنس أو العهد، بخلاف المُنكّر إذا أعيد، فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في

(١) الشوكاني.

الغالب، كقولك: كسبت درهماً، فأنفقت درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا قلت: كسبت درهماً فأنفقت الدرهم، فالثاني هو الأول، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَهْ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَهْ
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِيْ تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير، فكانا يسرين، فكأنه سبحانه قال: فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً آخر، قال الحسن: لما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين»، وقال ابن مسعود: لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين. وزيف أبو[1] علي الحسن بن يحيى الجرجاني هذا القول، وقال: قد تكلم الناس في قوله: لن يغلب عسر يسرين، فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة، واليسر نكرة، فواجب أن يكون عسر واحد ويسران، وهذا قول مدخول فيه معترض، فإنه إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً، والسيف اثنين، فمجاز قوله ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» أن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيِّره بذلك حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة، فاغتم النبي ﷺ لذلك، وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره، فعددَّ الله سبحانه نعمه عليه في هذه السورة، ووعده الغنى؛ ليسلِّيه بذلك عما خامره من الغم، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾؛ أي: لا يحزنك الذي يقولون، فإن مع العسر الذي في الدنيا يسراً عاجلاً، ثم أنجز ما وعده، وفتح عليه القرى القريبة، ووسَّع ذات يده حتى كان يُعطي المئين من الإبل، ويهب الهبة السنية، ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، والدليل[2] على ابتدائه تعرِّيه من الفاء والواو، وهذا وعد لجميع المؤمنين.

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

والمعنى: أن مع العسر الذي في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا؛ وهو ما ذكره في الآية الأولى، ويسر الآخرة؛ وهو ما ذكره في الآية الثانية، فقوله: «لن يغلب عسر يسرين». أي: إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا، فأما يُسر الآخرة فدائم أبداً غير زائل؛ أي: لا يجتمعان في الغلبة، فهو كقوله ﷺ: «شهرا عيد لا ينقصان»؛ أي: لا يجتمعان في النقص، قال القشيري: كنت يوماً في البادية بحالة من الغم، فأُلقي في روعي بيت شعر، فقلت:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لِمَنْ أَصْبَحَ ... مَغْمُومَاً لَهُ أَرْوَحْ

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف في الهواء:

أَلاَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَرْءُ ٱلْـ ... ـلَذِيْ ٱلْهَمُّ بِهِ بَرَّحْ
وَقَدْ أَنْشَدْتَ بَيْتَاً لَمْ ... يَزَلْ فِيْ فِكْرِهِ يَسْبَحْ
إِذَا ٱشْتَدَّ بِكَ ٱلْعُسْرُ ... فَفَكِّرْ فِيْ أَلَمْ نَشْرَحْ
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ ... إِذَا أَبْصَرْتَهُ فَٱفْرَحْ

قال: فحفظت الأبيات ففرَّج الله عني، وقال إسحاق بن بهلول القاضي:

فَلاَ تَيْأَسْ إِذَا أَعْسَرْتَ يَوْمَاً ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِيْ دَهْرٍ طَوِيْلِ
وَلاَ تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سُوْءٍ ... فَإِنَّ ٱللَّهَ أَوْلَىٰ بِٱلْجَمِيْلِ
فَإِنَّ ٱلْعُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وَقَوْلُ ٱللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيْلِ

وقال أحمد بن سليمان في المعنى:

تَوَقَّعْ لِعُسْرٍ دَهَاكَ سُرُوْرَا ... تَرَىٰ ٱلْعُسْرَ عَنْكَ بِيُسْرٍ تَسَرَّىٰ
فَمَا ٱللَّهُ يُخْلِفُ مِيْعَادَهُ ... وَقَدْ قَالَ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرَا

وقال غيره:

وَكُلُّ ٱلْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ ... يَكُوْنُ وَرَاءَهَا فَرَجٌ قَرِيْبُ

وقرأ الجمهور: بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين، وقرأ يحيى بن

وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمها في الجميع.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾؛ أي: وجعلناك على الشأن رفيع المنزلة عظيم القدر، وأي منزلة أرفع من النبوة التي منحكها الله سبحانه، وأي ذكر أنبه من أن يكون لك في كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمتثلون أوامرك، ويجتنبون نواهيك، ويرون طاعتك مغنماً، ومعصيتك مغرماً؟ وهل من فخار بعد ذكرك في كلمة الإيمان مع العلي الرحمٰن، وأي ذكر أرفع من ذكر من فرض الله على الناس الإقرار بنبوته، وجعل الاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته شرطاً في دخول جنته؟ هذا إلى أنه ﷺ أنقذ أمماً كثيرة من رق الأوهام، وفساد الأحلام، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل، والإرادة والإصابة في معرفة الحق، ومعرفة من يُقصَد بالعبادة، فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بإلٰه واحد، بعد أن كانوا متفرقين طرائق قدداً، عُبَّاد أصنام وأوثان وشموس وأقمار، لا يجدون إلى الهدى سبيلاً، ولا للوصول إلى الحق طريقاً، فأزاح عنهم تلك الغمة، وأنار لهم طريق الهدى والرشاد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾؛ أي: فإن مع الضيق فرجاً، ومع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب مخرجاً إذا تدرع المرء بالصبر، وتوكل على ربه، ولقد كان هذا حال النبي ﷺ، فإنه قد ضاق به الأمر في بادىء أمره قبل النبوة وبعدها؛ إذ تألب عليه قومه، لكن لم يثنه ذلك عن عزمه، ولم يفلل من حده، بل صبر على مكروههم، وألقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلاً على ربه محتسباً نفسه عنده، راضياً بكل ما يجد في هذا السبيل من أذى، ولم تزل هذه حاله حتى قيَّض الله له أنصاراً أُشرِبت قلوبهم حُبَّه، ومُلئت نفوسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه، ورأوا أن لا حياة لهم إلا بهدم أركان الشرك والوثنية، فاشتروا ما عند الله تعالى من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم، ثم كان منهم من قوَّض دعائم الأكاسرة، وأباد جيوش الأباطرة والقياصرة.

وقصارى ذلك: أنه مهما اشتد العسر وكانت النفس حريصة على الخروج منه، طالبة كشف شدته، مستعملة أجمل وسائل الفكر والنظر في الخلاص منه، معتصمة بالتوكل على ربها، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرة مهما أقيم أمامها من عقبات، واعترضها من بلايا ومحن.

وفي هذا: عبرة لرسوله ﷺ بأنه سيبدل حاله من الفقر إلى الغنى، ومن قلة الأعوان إلى كثرة الإخوان، ومن عداوة قومه إلى محبتهم إلى أشباه ذلك، ولما[1] عدد الله سبحانه على نبيه ﷺ نعمه السالفة.. بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن لا يخلِّي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من عبادة، أي عبادة كالصلاة والصوم والدعوة ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ أي: فأتعب نفسك بأخرى؛ أي: فأتبعها بعبادة أخرى، واجتهد فيها كالنوافل مما ذكر، والنَصَب ـ محركاً ـ التعب، قال ابن عباس: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك، وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقيل: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك، وقيل: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك، وقيل: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب في الاستغفار لك وللمؤمنين، قال الرازي: وبالجملة فالمراد: أن يواصل بين بعض العبادة وبعض آخر، وأن لا يخلِّي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى اهـ.

وقال عمر بن الخطاب: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه، ولا في عمل آخرته، والسبهلل: الذي لا شيء معه، وقيل السبهلل: الباطل، وقال الحسن: إذا كنت صحيحاً فاجعل فراغك في العبادة، كما روي أن شريحاً مر برجلين يتصارعان، وآخر فارغ، فقال: ما أمر بهذا إنما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾، وقعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومالك أمرك وحده ﴿فَٱرْغَب﴾؛ أي: فتضرع وتذلل إليه راغباً في الجنة راهباً من النار، وقيل: اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك، لا إلى أحد سواه.

والمعنى: أنه يرغب إليه تعالى لا إلى غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعوِّل في جميع أموره إلا إليه.

---

(١) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَرَغۡتَ﴾ بفتح الراء، وأبو السمال بكسرها، وهي لغة، قال الزمخشري: ليست بفصيحة، وقرأ الجمهور: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ بسكون الباء خفيفة، وقرأ قوم: بشدها مفتوحة، أمر من الانصباب، وقرأ آخرون من الإمامية: ﴿فانصب﴾ بكسر الصاد، بمعنى: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب خليفة، قال في «الكشاف»: ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة: أنه قرأ: ﴿فانصب﴾ بكسر الصاد؛ أي: فانصب علياً للإمامة، ولو صح هذا للرافضة.. لصح للناصبي أن يقرأ هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته اهـ.

وقال ابن عطية: وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم. انتهى. وقرأ الجمهور: ﴿فَٱرۡغَب﴾ أمراً من رغب ثلاثياً؛ أي: اصرف وجه الرغبات إليه تعالى، لا إلى سواه، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: ﴿فرَغِّب﴾ أمر من: رغَّب المضعّف بشد الغين؛ أي: فرغِّب الناس إلى الله سبحانه، وشوِّقهم إلى ما عنده من الخير.

والمعنى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾؛ أي: فإذا فرغت من عمل فاتعب في مزاولة عمل آخر، فإنك ستجد في المثابرة لذة تقر بها عينك ويثلج لها صدرك، وفي هذا حث له ﷺ على المواظبة على العمل واستدامته. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾؛ أي: ولا ترغب في ثواب أعمالك وتثميرها إلا إلى ربك وحده، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضراعة له.

الإعراب

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾.

﴿أَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿نَشۡرَحۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿نَشۡرَحۡ﴾. ﴿صَدۡرَكَ﴾: مفعول به. ﴿وَوَضَعۡنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وضعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنكَ﴾: متعلق به. ﴿وِزۡرَكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على

(١) البحر المحيط.

جملة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ باعتبار المعنى؛ أي: شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك وزرك، كما مر ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للوزر. ﴿أَنقَضَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿ظَهْرَكَ﴾: مفعول به. لـ﴿أَنقَضَ﴾، وجملة ﴿أَنقَضَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَرَفَعْنَا﴾: ﴿رفعنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿رفعنا﴾. ﴿ذِكْرَكَ﴾: مفعول به.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: خوّلناك ما خوّلناك، فلا يخامرك البأس، فإن مع العسر يسراً، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿مَعَ﴾: ظرف بمعنى: بعد متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إن﴾، وفي التعبير بـ﴿مَعَ﴾ إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارن للعسر. ﴿مَعَ﴾: مضاف. ﴿ٱلْعُسْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿يُسْرًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة عطف علة على معلول. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم. ﴿يُسْرًا﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة، لتقرير أن العسر متبوع بيسر، أو مكررة لتأكيد ما قبلها.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما خولناك من النعم الجسام، وأردت بيان ما هو اللازم لك في الشكر.. فأقول لك: إذا فرغت إلخ ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط متعلق بالجواب. ﴿فَرَغْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱنصَبْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿انصب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿ارغب﴾، ولا تمنع الفاء من تعلقه به؛ لأنها فاء الربط، فهي كالزائدة. ﴿فَٱرْغَب﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة، لتأكيد ربط الجواب، ﴿ارغب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة الجواب لا محل لها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ قال الراغب: الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرحته إذا بسطته، ومنه شرح الصدر بنور إلٰهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه، والشرح أيضاً التوسعة، والعرب تطلق الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة والمسرة وانبساط النفس، ويفخرون بذلك في مدائحهم من قبل أن سعة الصدر تُعطي الأحشاء فسحة للنمو والراحة، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضراً لا يضيق ذرعاً بأمر.

﴿وِزْرَكَ﴾ والوزر: الحمل الثقيل أو الذنب.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: أثقله، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي: صوت خفي، وفي «القاموس»: أنقض ظهرك أثقله حتى جعله نقضاً؛ أي: مهزولاً، أو أثقله حتى سُمع نقيضه؛ أي: صوته، وفي «المختار»: وأصل الإنقاض: صوت مثل النقر، وقال أبو حيان: وقال أهل اللغة: أنقض الحِمْلُ ظهر الناقة إذا سمعتَ له صريراً من شدة الحمل، وسمعت نقيض المرجل؛ أي: صريره، قال عباس بن مرداس:

وَأَنْـقَـضَ ظَـهْـرِيْ مَـا تَـطَـوَّيْـتُ مِـنْـهُـمُ　　وَكُـنْـتُ عَـلَـيْـهِـمْ مُـشْـفِـقَـاً مُـتَـحَـنِّـنَـا

وقال ابن خالويه: يقال أنقض ينقض إنقاضاً فهو منقض، ومعناه: أثقل ظهره اهـ، والنقض: الجمل المهزول، وجمعه: أنقاض.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ العسر: الفقر والضعف، وجهالة الصديق، وقوة العدو، وإنكار الجميل.

﴿فَانصَبْ﴾؛ أي: فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء شكراً؛ لما أوليناك من النعم السالفة، ووعدناك من الآلاء الآتية، وبه ارتبطت الآية بما قبلها، ويجوز أن يقال: فإذا فرغت من تلقي الوحي، فانصب واتعب في تبليغه، وفي «المختار»: ونَصِب بمعنى: تعب، وبابه طرب، وفيه أيضاً فرغ من الشغل من باب دخل، وفراغاً أيضاً، وفيه أيضاً رغب فيه، أراده، وبابه: طرب، ورغبة أيضاً، وارتغب فيه مثله، ورغب عنه لم يرده، ويقال: رَغَّبه فيه ترغيباً، وأرغبه فيه أيضاً.

﴿فَٱرۡغَب﴾ أصل الرغبة: السعة في الشيء، يراد بها السعة في الإرادة، فإن قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، وإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه، والزهد فيه، وفي «القاموس»: رغب فيه ـ كسمع ـ رغباً، ويضم، رغبة أراده، وعنه لم يرده، وإليه رَغَباً ـ محركة ـ ابتهل، أو هو الضراعة والمسألة. والمعنى: فارغب بالسؤال، ولا تسأل غيره، فإنه القادر على إسعافك لا غيره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمٰن في قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ شبّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان، ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية، ونقول في تقرير هذه الاستعارة: شبه حاله بحال من آده الحمل، وكلله العرق، وبرح به الجهد، حتى إذا انحط عنه الحمل تنفس الصعداء، وانزاحت عنه الكروب والأهوال بجامع أن كلاً منهما مجهود مكروب مما يحمل يتبرم به ويتذمر منه، ويربو أن ينحط عن كاهله، ثم استعير التركيب الدال على حال المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿صَدۡرَكَ﴾؛ أي: قلبك فإنه من إطلاق المحل وإرادة الحال، والعلاقة المحلية.

ومنها: زيادة ﴿لَكَ﴾؛ للإيذان بأن الشرح من منافعه ومصالحه ﷺ؛ لأن بالشرح يحصل له الاستفادة والإفادة بالوحي.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ قصداً إلى تعجيل المسرة له، وتشويقاً إلى المؤخر، وكذا يقال في قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾.

ومنها: التنكير للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ نكر اليسر

للتعظيم، كأنه قال: يسراً عظيماً.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظ ﴿اليسر﴾ و﴿ٱلْعُسْرِ﴾.

ومنها: تكرير الجملة في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾؛ لتقرير معناها في النفوس، وتمكينها في القلوب، ويسمى هذا أيضاً الإطناب.

تتمة: وفي «زاده»: قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ زاد لفظة ﴿لَكَ﴾ في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، وفي: ﴿رفعنا لك﴾، وزاد لفظة: ﴿عَنكَ﴾ في: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾، فأي فائدة في تقديم الزيادة على المفاعيل الثلاثة؟ والجواب: أن زيادتها مقدمة عليها تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع، ثم توضيحه والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد:

١ ـ تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم.

٢ ـ وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والمحن.

٣ ـ أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة.

٤ ـ التوكل عليه وحده، والرغبة فيما عنده[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمت سورة الانشراح بتوفيق الملك الفتّاح أوائل ليلة السبت الليلة الثامنة عشرة من شهر ذي القعدة، من شهور سنة: ١٤١٦هـ: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة التين

سورة التين مكية في قول الأكثرين، نزلت بعد سورة البروج، وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة التين بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ثمان، وكلماتها: أربع وثلاثون، وحروفها: مئة وخمسة أحرف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله تعالى ﷺ، وذكر هنا حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من ضعف بعد قوة، وشيخوخة بعد شباب وفتوة، وما أعده الله سبحانه وتعالى من تمام نعمته لمن آمن بالله ورسوله، ودوامها واستمرارها، وعدم انقطاعها، وأجر المؤمنين موصول، وكرامتهم عند الله تعالى محفوظة، وهم بإذن الله تعالى لا يخرفون ولا يهرمون، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً منهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري ومسلم، وأهل «السنن» وغيرهم عن البراء بن عازب قال: كان النبي ﷺ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسنَ صوتاً ولا قراءة منه ﷺ.

وأخرج الخطيب عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ بالتين والزيتون.

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد في «مسنده»، والطبراني عن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ قرأ في المغرب: والتين والزيتون.

ومنها: ما أخرجه ابن قانع وابن السكين والشيرازي في «الألقاب» عن زرعة بن خليفة قال: أتيت النبي ﷺ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، فلما صلينا

الغداة قرأ بالتين والزيتون، وإنا أنزلناه في ليلة القدر، وسميت سورة التين؛ لبدايتها بلفظ التين.

الناسخ والمنسوخ: قال ابن حزم رحمه الله: سورة التين كلهامحكمة إلا آية واحدة، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ نُسخ معناها بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هم نفر رُدوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فسُئل عنهم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله سبحانه عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بالتين، وبالزيتون على خلق الإنسان في أحسن تقويم، هما ثمران معلومان أقسم الله بهما لما فيهما من المنافع الكثيرة، والمصالح للعباد، وخصهما[1] من بين الثمار بالإقسام؛ لاختصاصهما بخواص جليلة، فإن التين فاكهة طيبة لا فضل له، وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع، يليِّن الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمن البدن، ويفتح سدد الكبد والطحال.

وروى أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه أُهدي للنبي ﷺ سل من تين فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا التين، فإنه يقطع البواسير»، وعن بعضهم: التين يزيل نكهة الفم، ويطول الشعر، وهو أمان من الفالج، وأما كونه دواء، فلأنه سبب لإخراج فضلات البدن، وهو مأكول الظاهر والباطن دون غيره، كالجوز والتمر، والتين في النوم رجل غير جبار، ومن نالها في المنام نال مالاً، ومن أكلها مناماً رزقه الله تعالى أولاداً، وتستر آدم بورق التين حين فارق الجنة.

---

(١) روح البيان.

قال في «خريدة العجائب»: إذا نُثر رماد خشب التين في البساتين.. هلك منه الدود، ودخان التين يهرب منه البق والبعوض. انتهى. وفي «القسطلاني على البخاري»: في تفسير سورة التين ما نصه: التين فاكهة طيبة لا فضل له، وغذاء لطيف سريع الهضم، وفيه دواء كثير النفع؛ لأنه يلين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل رمل المثانة، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن، ويقطع البواسير، وينفع من النقرس، ويشبه فواكه الجنة، لأنه بلا عجم، ولا يمكث في المعدة، ويخرج بطريق الرشح. انتهى.

قال الشهاب: ورمل المثانة بفتح الراء وسكون الميم، والمثانة مقر البول، ورملها مرض يستولي عليها، فيحجز البول عن الخروج بأجزاء دقيقة كالرمل يعسر معها البول، ويتأذى به الإنسان، فإن زاد صار حصاة انتهى.

وأما الزيتون: فهو فاكهة من وجه، ودواء من وجه، ويستصبح به، ومن رأى ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى اهـ. «رازي»، وقال بعضهم: الزيتون فاكهة، وإدام، ودواء، ولو لم يكن سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها كالجبال.. لكفى به فضلاً، وشجرته هي الشجرة المباركة المشهورة في التنزيل، ومر معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ بشجرة الزيتون، فأخذ منها قضيباً واستاك به، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «نعم سواك الزيتون، وهو سواكي وسواك الأنبياء من قبلي»، وشجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة.

ومن خواصّها[1]: أنها تصبر عن الماء طويلاً كالنخل، وإذا لقط ثمرتها جنب فسدت، وألقت حملها وانتثر ورقها، وينبغي أن تُغرس في المدر لكثرة الغبار؛ لأن الغبار كلما علا على زيتونها.. زاد دسمه ونضجه، ورماد ورقها ينفع العين كحلاً، ويقوم مقام التوتيا في نفع العين، وفي الحديث: «عليكم بالزيت، فإنه يكشف المرة، ويذهب البلغم، ويشد العصب، ويمنع الغشي، ويحسن الخلق، ويطيب النفس، ويذهب الهم».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: التين مسجد نوح عليه السلام الذي بُني

---

(١) روح البيان.

على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقال الضحاك: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: المسجد الحرام، و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: المسجد الأقصى، وقال ابن زيد: و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: مسجد بيت المقدس، وقال قتادة: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: الجبل الذي عليه دمشق، و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: الجبل الذي عليه بيت المقدس، وقال محمد بن كعب: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ مسجد أصحاب الكهف، و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: إلياء، وقال كعب الأحبار وقتادة أيضاً، وعكرمة وابن زيد أيضاً: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: دمشق، و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري، قال الشوكاني[١]: وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى الحقيقي المبنية على الخيالات التي لا ترجع إلى عقل، ولا إلى نقل؟ وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخِر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية، وقال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: جبال ما بين حلوان إلى همدان، و﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: جبال الشام، وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما: طور تينا، وطور زيتا بالسريانية، سميا بذلك؛ لأنهما ينبتان بهما اهـ «قرطبي»، وقيل: إنه على حذف مضاف؛ أي: وأقسم بمنابت التين والزيتون، قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَٱلتِّينِ﴾؛ أي: أقسم[٢] بعصر آدم أبي البشر الأول، وهو العهد الذي طفق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة. ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾؛ أي: وأقسم بالزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان، وبعد أن بلعت الأرض الماء جاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر، وعلم أن غضب الله قد سكت، وأذن للأرض أن تبتلع ماءها لتُعمر، ويسكنها الناس، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده، وعمروا الأرض.

وقصارى ذلك: أن التين والزيتون يذكران بهذين العصرين عصر آدم أبي البشر الأول، وعصر نوح أبي البشر الثاني. انتهى.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝﴾؛ أي: وأقسم بجبل طور سينين، وهو[٣] الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل، قال الماوردي: ليس كل جبل يقال له طور

---

(١) فتح القدير. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

إلا أن يكون فيه الأشجار والثمار، وإلا فهو جبل فقط، وسينين وسيناء عَلَمان للموضع الذي هو فيه، ولذلك أضيف إليهما، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: بالسريانية ذو الشجر، أو حسن مبارك بلغة الحبشة، وقال مجاهد والكلبي: ﴿سِينِينَ﴾: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط، قال الأخفش: ﴿وَالتِّينِ﴾ جبل، و﴿سِينِينَ﴾: شجر، واحدته: سينينة، وهو غريب جداً غير معروف عند أهل الصرف، قال أبو علي الفارسي: ﴿سِينِينَ﴾: فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف ﴿سِينِينَ﴾ كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جُعل اسماً للبقعة.

وفي «كشف الأسرار»: أصل ﴿سِينِينَ﴾ سيناء بفتح السين وكسرها، وإنما قال هنا: ﴿سينين﴾؛ لأن تاج الآيات النون، كما قال في سورة الصافات: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، وهو إلياس، فخُرِّج على تاج آيات السورة، وإنما أقسم سبحانه بهذا الجبل؛ لأنه بالشام وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله سبحانه لموسى عليه السلام، وقرأ الجمهور: ﴿سِينِينَ﴾ بكسر السين، وقرأ ابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم، وقال الزمخشري: ونحو سينون بيرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب. انتهى.

وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة: ﴿سيناء﴾ بكسر السين والمد، وعمر أيضاً وزيد بن علي: بفتحها، والمد وهو لفظ سرياني اختلفت بها لغات العرب.

والإقسام[1] به تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التي ظهرت لموسى وقومه، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة، ثم عرضت لها البدع، فجاء عيسى مخلصاً لها مما أصابها، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف في الدين حتى منَّ الله على الناس بعهد النور المحمدي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ

---

(١) المراغي.

﴿٣﴾؛ أي: وأقسم بهذا البلد الأمين الذي شرّفه الله تعالى بميلاد رسوله محمد ﷺ فيه، وكرَّمه بالبيت الحرام، وهو مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، ومعنى ﴿ٱلۡأَمِينِ﴾؛ أي: الآمن، فالأمين مبالغة آمن؛ أي: آمن من فيه، ومن دخله، وكل ما فيه من طير وحيوان وشجر جاهلية وإسلاماً، مِن قتلٍ وسبي واصطياد وقطع، كما يحفظ الأمين ما ائتُمن عليه، من أَمُن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ أي: بمعنى المأمون فيه على الحذف والإيصال من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل والعاهات، كما وُصف بالأمن في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ بمعنى ذي أمن، وفي الحديث: «من مات في أحد الحرمين بُعث يوم القيامة آمناً» وفيه مقال.

وحكمة القسم بهذه الأشياء[(١)]: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين، فمنبت التين والزيتون: مهاجر إبراهيم ومولد عيسى، ومَنْشَؤُهما عليهما السلام، والطُور: المكان الذي نودي فيه موسى عليه السلام، ومكة مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه.

وخلاصة ما سلف: أن الله سبحانه أقسم بهذه العهود الأربعة التي كان لها أثر بارز في تاريخ البشر، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور، ثم ذكر المقسم عليه، فقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان؛ لأن المراد بالإنسان الماهية من حيث هي الشاملة للمؤمن والكافر. ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وتعديل؛ أي: في أحسن صورة[(٢)]، فجعلناه مديد القامة حسن البزة، يتناول بيده ما يريد، لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه، إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف، واستنباط الحيل التي بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات، وله من الحول والطول ما يستمد إلى كل شيء. لكن قد غفل عما ميز به وظن نفسه كسائر المخلوقات، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ولا ترضى عنه الفطرة، وانطلق يتزود من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأعرض عن النظر فيما ينفعه في معاده، وما يرضي به ربه، وما يوصله إلى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

النعيم المقيم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ إلى آخر السورة؛ أي: خلقنا جنس الإنسان حال[1] كونه كائناً في أحسن تقويم وتعديل، وقال الواحدي: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، ومعنى التقويم: التعديل، يقال: قام إذا انتصب، وقام الأمر اعتدل، كاستقام، وقومته، عدلته، كما في «القاموس»، والتقويم[2]: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل، وعن يحيى بن أكثم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة، فإنه حَكَىٰ أنَّ مَلِك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة، فقال لها: إن لم تكوني أحسن من القمر، فأنت كذا، فأفتى كل العلماء بالحنث إلا يحيى بن أكثم قال: لا يحنث، فقالوا: خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم، ولقد أفتى من هو أعلم منا، وهو الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، وسيأتي قريباً بسط هذه القصة.

وفي «المفردات»: هو إشارة إلى ما خص به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم، وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما في هذا العالم، والمعنى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: كائناً في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى، حيث يراه تعالى مستوي القامة، متناسب الأعضاء، حسن الشكل، كما قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ أي: صوركم أحسن تصوير. قال[3] ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»؛ أي: على صفاته التي ذكرناها هنا. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وعليه يدور معنى قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فإن الإنسان مظهر الجلال والجمال والكمال.

وحاصل ما في هذا المقام: أنه سبحانه وتعالى أقسم بالأمور الأربعة السابقة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

على أنه خلق الإنسان، وقوّمه أفضل تقويم، وركبه أحسن تركيب، وجعله في أحسن اعتدال، وأفضل قوام، وفطره أحسن فطرة نفساً وبدناً، وكرمه بالعقل الذي ساد به العوالم الأرضية، وأطلعه به على ما شاء الله سبحانه من العوالم السماوية حتى أوصله بحكمته تعالى وأمره إلى القمر، وجعله يطير في الفضاء، ويحلق في الأجواء، ويغوص في الماء، ويفعل العجائب والغرائب، كل ذلك بفضله تعالى، وفضل هذا العقل الذي ركبه فيه، وهو عجيب من عجائب خلق الله تعالى.

قصة وفتوى

ذكر أنه كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً جماً، وقد خرج معها يوماً في ليلة مقمرة، فقال لها: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من هذا القمر، فنهضت المرأة واحتجبت عنه، وقالت: لقد طلقتني، وبات زوجها بليلة كئيبة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى الخليفة المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، وهو القاضي يحيى بن أكثم، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال: الرجل لم يطلق، ولم يحنث في يمينه، فقيل له خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم، ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى، فإنه يقول عز من قائل عليم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك، وأرسل إلى زوجة الرجل أن أطيعي زوجك، ولا تعصيه، فما طلقك. ذكرها «القرطبي» و«الرازي» وغيرهما.

وهذا الفهم لهذه الآية مما يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً جمال هيئة وبديع تركيب، قامته منتصبة، وصورته حسنة، وخواص الكائنات فيه مستجمعة، وقواه الباطنة تامة، وحواسه كافية، وأعضاء بطنه وعمله بما يحتاج إليه قائمة، ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه، وفي هذا الإنسان قال الشاعر:

أَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيْرُ وَفِيْكَ ٱنْطَوَىٰ ٱلْعَالَمُ ٱلأَكْبَرُ

﴿ثُمَّ﴾ بعدما خلقناه في أحسن تقويم وتعديل، ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ أي رددنا الإنسان

المذكور وصيرناه وجعلناه ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ أي: أسفل من سفل في خلقه وصورته، وأضعف من ضعف في قوته وحيلته ورأيه؛ أي: جعلناه أضعف الضعفاء في القوة والعقل، فينقص عمله وأجره، بأن رددناه إلى أرذل العمر وأخسه، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي، فيخرف وينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين.

قال الواحدي: والسافلون: هم الضعفاء والزمناء والأطفال، والشيخ الكبير يكون أسفل من هؤلاء. وقيل المعنى: ثم رددنا ذلك الإنسان بعد ما خلقناه في أحسن تقويم، وجعلناه بسبب سوء فعاله واعتقاده أسفل سافلين؛ أي: جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل؛ لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها.. لكان في أعلى عليين، فالضمير راجع إلى الإنسان بالنظر إلى بعض أفراده على هذا المعنى، ففيه استخدام كما سيأتي في مبحثه.

والحاصل: أنه حُوِّل بسوء حاله من أحسن تقويم إلى أقبح تقويم صورة ومعنى؛ لأن مسخ الظاهر إنما هو من مسخ الباطن، فالمراد بـ ﴿بالسافلين﴾: عصاة المؤمنين، وأفعل التفضيل هنا يتناول المتعدد المتفاوت، و﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ إما حال من المفعول؛ أي: رددنا ذلك الكافر إلى النار حال كونه أسفل السافلين في دركات النار، أو صفة لمكان محذوف؛ أي: رددناه إلى مكان هو أسفل أمكنة السافلين، والأول أظهر، ثم هذا بحسب بعض الأفراد الإنسانية وهو الكافر؛ لانغماسهم في بحر الشهوات الحيوانية البهيمية، وانهماكهم في ظلمات اللذات الجسمانية الشيطانية والسبعية، وفيه إشارة إلى أن الاعتبار إنما هو بالصورة الباطنة، لا بالصورة الظاهرة، فكم من مصور على أحسن الصور في الظاهر، وهو في الباطن على أقبح الهيئات، ولذا يجيء الناس يوم القيامة أفواجاً، فإن صفاتهم الباطنة تظهر على صورهم الظاهرة، فتتنوع صورهم بحسب صفاتهم على أنواع، وقال مجاهد وأبو العالية والحسن: المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل. وقيل في معنى الآية: لما وصف الله الإنسان

بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها.. طغى وعلا، حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، واعترض على الخالق عز وجل.

قال الشاعر:

إِذَا طَغَىٰ ٱلْعَقْلُ عَلَىٰ رَبِّهِ ... فَإِنَّمَا ٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْجَهْلُ

يَعْتَرِضُ ٱلْعَقْلُ عَلَىٰ صَانِعٍ ... مِنْ بَعْضِ مَصْنُوعَاتِهِ ٱلْعَقْلُ

إِنْ بَانَ فَضْلُ ٱلْعَقْلِ فِيْ صُنْعِهِ ... فَصَانِعُ ٱلْعَقْلِ لَهُ ٱلْفَضْلُ

وحين علم الله سبحانه هذا من عبده وهو العليم بكل شيء، وقضاؤه صادر من عنده.. رده أسفل سافلين بأن جعله مملوءاً حَذراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره، ذكره القرطبي في «تفسيره».

وذكر الطنطاوي في «تفسيره»: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾: إما برده إلى أرذل العمر، فتنكَّس خَلْقه، وتقوس ظهره بعد اعتداله، وتبيض شعره بعد اسوداده، وتغير جلده بالانكماش، وسمعه وبصره بالضعف، ويمشي دلفاً وهو ضعيف القوة، خافت الصوت، إما بضعف قواه العقلية بالخرف وقت الهرم، وإما بأن نحول بينه وبين قلبه، فيعتقد اعتقاداً يضر في دنياه وآخرته، فندخله جهنم.

وخلاصة ما ذكر في الآية: أي ثم رددناه بعد ذلك الكمال الجسماني والعقلي أسفل من سفلوا بتشويه صورة أو عقل أو دخول جهنم ذليلاً. انتهى. قال في «عين المعاني»[(١)]: ولم تدخل لام الجنس في ﴿سَٰفِلِينَ﴾ كما ورد في مصحف عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ؛ لأنه عنى أسفل الخرفين خاصة دون كل الناس من أهل الزمانة، وفي «كشف الأسرار»: السافلون هم الضعفاء من المرضى والزمنى والأطفال، والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً. انتهى.

وقرأ الجمهور[(٢)]: ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ مُنَكَّراً، وقرأ عبد الله: ﴿أسفل السافلين﴾ معَرَّفاً بالألف واللام، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صادقاً ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمور بها، والمأجور عليها، استثناء منقطع على المعنى الأول، فالمعنى: لكن

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يخرفون ولا يهرمون، ولا تذهب عقولهم، ووجه كون الاستثناء منقطعاً: أن الهرم والرد إلى أرذل العمر، يصاب به المؤمن، كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى، وعلى المعنى الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، فإنه في معنى الجمع؛ أي: رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال القرطبي: والاستثناء على قول من قال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ الهرم منقطع، وعلى قول من قال: إنه النار فهو متصل. انتهى.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير منقوص ولا مقطوع، بل أجرهم موصول، ورزقهم موفور من ربّ كريم عظيم يعطي الجزيل؛ أي: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق، والقيام بالعبادة على ضعف نهوضهم، ويجوز أن يكون المعنى: غير ممنون عليهم؛ أي: لا يمن به عليهم، ومن كمال صفات الثواب أن يكون موصولاً غير مقطوع، وأن لا يكون منغصاً بالمنة والتعالي بإظهار الفضل على من صدر الفضل إليهم.

فهذه الجملة على المعنى الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين[1]، وعلى المعنى الثاني مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد إلى النار، وقال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، ولو قال: أسفل سافل.. لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد، وقيل معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ رددناه إلى الضلال، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾؛ أي: إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك.

وعبارة «الخازن» هنا: وعلى القول الأول[2]: يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾: فزال عقله وانقطع عمله، فلا تُكتب له حسنة، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضعف، فإنه يُكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملونه في حالة الشباب والصحة.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

وقال ابن عباس: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر في زمن النبي ﷺ، فأنزل الله عذرهم، وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم، فعلى هذا القول السبب خاص، وحكمه عام، قال عكرمة: ما يضر هذا الشيخ كِبَرُه إذا ختم الله له عمله بأحسن ما كان يعمل، ورُوي عن ابن عباس: إلا الذين قرؤوا القرآن، وقال: من قرأ القرآن لم يُرد إلى أرذل العمر، وقال أبو الليث: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ يعني: لا يخرف ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً، وفي الحديث: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»، والفاء[1] في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ في دار الكرامة؛ لأنها المحل، له رابطة على القول الأول؛ لتضمن الموصول معنى الشرط، وتعليلية على القول الثاني؛ أي: لا يغير صورهم في النار؛ لأنهم مثابون في الجنة، وفي «التيسير» عن رسول الله ﷺ: إن العبد إذا مرض أو سافر.. كُتب له مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً، أخرجه البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكذا رُوي في الهرم، وفي «تفسير أبي الليث» رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا مات صعد الملكان إلى السماء، فيقولان: إن عبدك فلاناً قد مات، فائذن لنا حتى نعبدك على السماء، فيقول الله سبحانه: إن سمواتي مملوءة بملائكتي، ولكن اذهبا إلى قبره واكتبا حسناته إلى يوم القيامة».

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يا محمد، أو يا أيها الإنسان خطاباً على طريق الالتفات ﴿بَعْدُ﴾؛ أي: بعد هذه الحجة القاطعة، والبرهان الساطع، و﴿بَعْدُ﴾ مبني على الضم؛ لحذف المضاف إليه ونيته، والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة إن كان الخطاب للإنسان، وللتعجب إن كان الخطاب للرسول ﷺ ﴿بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بالحساب والجزاء، والمعنى: على أن الخطاب[2] للإنسان؛ أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؛ أي: فما الذي يلجئك[3] إلى هذا الكذب ألا تتفكر في صورتك وشبابك ومبدأ خلقك وهرمك، فتعتبر وتقول: إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني؛ أي: فأي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالدين والجزاء منكراً له بعد هذا الدليل.

---

(١) روح البيان بتصرف. (٢) الشوكاني. (٣) الخازن.

وحاصله: أن خلق الإنسان من نطفة قذرة وتقويمه بشراً سوياً، وتحويله من حال إلى حال كمالاً ونقصاناً، أوضح دليل على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء؛ فأي شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيبه أيها الإنسان، والمعنى: على أن الخطاب لمحمد ﷺ؛ أي: فمن يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل والبراهين على البعث والجزاء؛ أي: فمن ينسبك إلى الكذب بسبب إثباتك الجزاء وإخبارك عن البعث بعد ظهور الأدلة الدالة على كمال القدرة، فإن مَن خلق الإنسان السوي من الماء المهين، وجعل ظاهره وباطنه على أحسن تقويم، ودرجه في مراتب الزيادة إلى أن استكمل واستوى، ثم نكسه إلى أن يبلغ إلى أرذل العمر، لا شك أنه قادر على البعث والجزاء، فكأنه قال: من يقدر على تكذيبك في إثبات الثواب والعقاب بعدما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، فـ﴿ما﴾ بمعنى: من، كما في «الجمل»، واختار هذا المعنى الآخر ابن جرير، و﴿الدين﴾[1]: الجزاء، ومنه قول الشاعر:

دِنَّا تَمِيْمَاً كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... دَانَتْ أَوَائِلُهُمْ مِنْ سَالِفِ الزَّمَنِ

وقال الآخر:

وَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ ... فَأَمْسَىٰ وَهْوَ عُرْيَانُ

وَلَمْ يَبْقَ سِوَىٰ الْعُدْوَا ... نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ الذي فعل ما فعل مما ذكرنا ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: بأتقن[2] المتقنين صنعاً وتدبيراً في كل ما خلق، حتى تتوهم أيها الإنسان عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، أي: أليس ذلك بأبلغ إتقاناً للأمور من كل متقن لها؛ إذ الحاكم هو المتقن للأمور، ويلزمه كونه تام القدرة كامل العلم، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين، تعين الإعادة والجزاء؛ أي: بل هو سبحانه أتقن المتقنين صنعاً في كل ما خلق؛ لأن الاستفهام تقريري، أو المعنى: أليس الله بأقضى القاضين يحكم بينك وبين من يكذبك بالحق والعدل، يقال: حكم بينهم إذا قضى، والاستفهام فيه تقريري؛ لأن نفي النفي إثبات، كما تقدم في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

لَكَ﴾، والآية وعيد للمكذبين له ﷺ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله؛ أي: بل هو سبحانه أعدل القاضين وأنفذهم وأصحهم قضاء بين خلقه نافذ الحكم ولا بد، بخلاف قضاء غيره من القضاة.

وأخرج[1] الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: من قرأ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ فقرأ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً: «إذا قرأت ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، فقرأت ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾، فقل: بلى».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ قال: سبحانك اللهم فبلى، وظاهر الحديثين وأثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يدل على أنه يأتي قارئها بهذه الكلمات، سواء كان في الصلاة أو خارجاً عنها، كما عليه الشافعية خلافاً لمن خصه بخارج الصلاة، كالحنفية.

خاتمة: قال في «فتح الرحمٰن»: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآية، إن فسر[2] بالرد إلى جهنم، فهو سفل حقيقي، والاستثناء بعده متصل، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قائم مقام قوله: فلا نردهم أسفل سافلين، أو بالرد إلى أسفل العمر، فهو تسفل في الرتب والأوصاف بالنسبة إلى رتب الشباب وأوصافه. والاستثناء بعده منقطع، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع بالهرم والضعف.

والمعنى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال شبابهم وقوتهم إذا عجزوا بالهرم عن العمل.. كتب لهم ثواب ما كانوا يعملون إلى وقت موتهم. انتهى.

الإعراب

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمٰن.

﴿وَٱلتِّينِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿وَٱلتِّينِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالتين، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾. ﴿وَطُورِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾، وهو الجبل، وهو مضاف. ﴿سِينِينَ﴾: مضاف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف، ومعناه: البقعة المباركة مجرور بالفتحة الظاهرة على النون نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف بعلتين فرعيتين، وهما العلمية والعُجمة؛ لأنه لفظ سرياني عُرِّب، فهو جار مجرى حين في إعرابه بالحركات الظاهرة، ويجوز أن يعرب إعراب جمع المذكر السالم بالواو رفعاً، وبالياء جراً ونصباً. ﴿وَهَٰذَا﴾: في محل الجر معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾. ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿ٱلْأَمِينِ﴾. صفة لـ﴿ٱلْبَلَدِ﴾. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿أَحْسَنِ﴾: مضاف. ﴿تَقْوِيمٍ﴾: مضاف إليه. و﴿أَحْسَنِ﴾: صفة لموصوف محذوف؛ أي: في تقويم أحسن تقويم، ويجوز أن تكون ﴿فِىٓ﴾ زائدة؛ أي: قومناه أحسن تقويم اهـ «سمين». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: مفعول ثان لرد؛ لأنه بمعنى: رجع، فينصب مفعولين، نظير قول الشاعر:

فَرَدَّ شُعُوْرَهُنَّ ٱلسُّوْدَ بِيْضًا ... وَرَدَّ شُعُوْرَهُنَّ ٱلْبِيْضَ سُوْدَا

أو حال من المفعول في ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، أو صفة لمكان محذوف؛ أي: مكاناً أسفل سافلين، فهو ظرف مكان. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب على الاستثناء المتصل إن فسرنا الرد بالرد إلى جهنم، أو على الاستثناء المنقطع إن فسرنا الرد بالرد إلى الهرم، وعلى هذا تكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، والجملة الابتدائية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوفة على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ داخلة في حيز الصلة. ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية على أن الاستثناء متصل، ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: صفة لـ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة الإسمية جملة تعليلية لا محل لها

من الإعراب مسوقة لتعليل الاستثناء؛ لأن الفاء بعد الاستثناء المتصل؛ للتعليل غالباً، ورابطة الخبر بالمبتدأ على أن الاستثناء منقطع لما في الموصول من معنى الشرط الذي هو الإبهام.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أسفل سافلين، وأردت بيان ما هو النصيحة لك.. فأقول لك: ما يكذبك؛ أي: ما يحملك على أن تذكب بالبعث والجزاء على أن الخطاب للإنسان. أو إذا عرفت يا محمد ما بينا لك من دلائل قدرتنا على البعث والجزاء، وأردت أن تطمئن قلبك على ما بينا لك.. فأقول لك على أن الخطاب لمحمد ﷺ، ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام التقريري المضمَّن للإنكار على أن الخطاب للإنسان، أو للاستفهام التعجبي بمعنى: من، على أن الخطاب للرسول ﷺ في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿يُكَذِّبُكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدَّرة مستأنفة. ﴿بَعْدُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لحذف المضاف إليه، ونية معناه؛ أي: بعد هذه العبر والعظات، الظرف متعلق بـ﴿يُكَذِّبُكَ﴾. ﴿بِالدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ أيضاً. ﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التقريري، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿اللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِأَحْكَمِ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿ليس﴾. ﴿أحكمِ﴾: خبرها مجرور لفظاً منصوب محلاً. ﴿الْحَاكِمِينَ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ والتين ـ بكسر التاء ـ ثمر شجر ورطبه النضيج، أحمد الفاكهة وأكثرها غذاء، وأقلها نفخاً، جاذب محلل، مفتّح سدد الكبد والطحال، مليِّن، والإكثار منه مقمل، وجبل بالشام ومسجد بها، وجبل لغطفان واسم دمشق، والتينة بالكسر الدُّبُرُ، والتينان ـ بالكسر ـ جبلان لبني نعامة

والذئب، وتينات فرضة على بحر الشام اهـ من «القاموس».

والزيتون ثمر شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به، وشجرته في أغلب البلاد، ولا يحتاج إلى خدمة وتربية، ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين، كما مر.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ والطور: جبل كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، وهو جبل عظيم فيه عيون وأشجار. إن قلت: كيف ذلك مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ المقتضي أنه دك ولم يبق له أثر؟ أجيب: بأنه متسع والذي دك قطعة منه، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، ومعناه: الجبل المبارك؛ لكونه مباركاً مشرفاً بتكليم موسى ربه عليه، وسينين يجوز أن يُعرب بالحركات الثلاث على النون، مع لزومه الياء في أحواله كلها، ويكون ممنوعاً من الصرف للعلمية والعجمة؛ لأنه عَلَم على البقعة، أو الأرض، وأن يعرب كجمع المذكر السالم بالواو رفعاً، وبالياء نصباً وجراً.

﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ والبلد والبلدة مكة، شرّفها الله تعالى، وكل قطعة من الأرض معموراً بالسكنى، والبلد أيضاً: القبر والدار، يجمع على بلاد وبلدان.

﴿ٱلْأَمِينِ﴾؛ أي: الآمن فعيل بمعنى: فاعل، يقال: أَمُن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، وأمانة مكة أنها تحفظ من دخلها جاهلية وإسلاماً مِن قتلٍ وسبي، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول بمعنى: المأمون فيه على الحذف والإيصال من أمنه إذا جعله مأموناً مما يخاف؛ لأنها مأمونة الغوائل والعاهات والحروب.

﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ أي: في أعدل قامة وأحسن صورة، يتناول مأكوله بيده، مزيناً بالعلم والفهم والعقل، والتمييز والنطق والأدب، يقال: قام إذا انتصب، وقام الأمر إذا اعتدل، كاستقام، وقوَّمته تقويماً عدلته، كما في «القاموس»، والتقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل.

﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ و﴿أَسْفَلَ﴾ هنا: اسم تفضيل، يتناول المتعدد المتفاوت، والسافلون هم إما الصغار والزمنىٰ والأطفال، والشيخ الكبير هو أسفل من هؤلاء؛ لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً؛ لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله وثقله على

أهله وجيرانه، وعلى هذا المعنى، فالاستثناء الآتي منقطع، والمعنى حينئذ، ثم رددناه أسفل سافلين، فزال عقله، وانقطع عمله، فلا يُكتب له حسنة، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضعف، فإنه يكتب له بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملونه في حال الشباب والصحة، وإما عصاة المؤمنين، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً، والمعنى: **رددناه** أسفل ممن سفل خلقاً وتركيباً حساً ومعنىً، وهو أهل النار إلا الذين **آمنوا الخ**، فيكون بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿**فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ**﴾؛ أي: غير مقطوع، بل متصل دائم، مِن مَنَّهُ مَنّاً إذا قطعه قطعاً، أو غير ممنون به عليهم، فإن المنة تكدّر النعمة، مِنْ مَنَّ عليه مِنَّة، والأول، هو الظاهر، ولعل المراد من الثاني: تحقيق الأجر وإثباته، وأن المأجور استحق الأجر بعمله إطاعة لربه، وإن كان ذلك الاستحقاق من فضل الله تعالى.

﴿بِٱلدِّينِ﴾ والدين: الجزاء بعد البعث، كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ بإطلاق الحال وإرادة المحل على القول بأنه أراد موضعهما، وهو دمشق وبيت المقدس على ما رجحه ابن جرير.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ من إسناد ما للشيء إلى مكانه؛ لأن الأمن إنما يكون لمن فيه.

ومنها: الطباق بين ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وبين ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ﴾ حيث ذكر الإنسان أولاً بمعنى وهو الجنس، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر وهو الإنسان بمعنى بعض أفراده، والاستخدام عند البديعيين: ذكر الشيء بمعنى، وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر، كما هنا.

ومنها: الاستفهام التقريعي أو التعجبي في قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ وفيه الالتفات أيضاً من الغيبة في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى الخطاب هنا، والنكتة في ذلك الالتفات: تشديد الإنكار على الإنسان بمشافهته بالخطاب، كأنه قيل له: فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بعد هذه الدلائل بسبب تكذيب الجزاء.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه دخل على النفي، ونفي النفي تقرير.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على خمسة مقاصد:

١ ـ أقسم الله سبحانه وتعالى بأربعة أشياء على مقسم عليه واحد تعظيماً للمقسم به، وإشعاراً بغرابة المقسم عليه.

٢ ـ بيان شرف الإنسان بكونه خُلق على أحسن تقويم.

٣ ـ استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الذين يردون إلى أرذل العمر.

٤ ـ التقريع والإنكار على المكذبين له ﷺ في إخباره عن البعث والجزاء.

٥ ـ وتطمين قلبه ﷺ بكون الله سبحانه أحكم الحاكمين بينه وبينهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت سورة التين بعون الملك المعين قُبيل الغروب من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة العلق

سورة العلق، وتسمى سورة القلم، وسورة اقرأ: مكية بلا خلاف، وهي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأخرج ابن مردويه[1] من طرق عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي موسى الأشعري قال: أول سورة أنزلت على محمد ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وصححه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه: فجاءه الحق وهو في غار حراء، فقال له: اقرأ الحديث، وفي الباب أحاديث وآثار كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وفي هذه الأحاديث رد على من قال: أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ كما في حديث جابر المذكور في «صحيح مسلم» وغيره، ويجمع بينه وبين هذه الأحاديث بأن المراد بكون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ أول ما نزل كونه أول ما نزل بعد فترة الوحي نحو ثلاث سنوات، وآياتها: تسع عشرة آية، وكلماتها[2]: اثنتان وتسعون كلمة، وحروفها: مئتان وثمانون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[3]: أنه سبحانه وتعالى ذكر في سورة التين: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وذكر في هذه السورة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، والمناسبة ظاهرة بين خلقه من علق، وخلقه في أحسن تقويم، ففي البداية من علق، وفي النهاية في أحسن تقويم، ثم أسفل سافلين إلى أنه تعالى ذكر هنا من أحوال

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما ذكره في السورة السابقة والقرآن الكريم كله كالحلقة المفرغة في قالب واحد يرتبط أوله بآخره، وآخره بأوله، مع إيماءات وإشارات، لا يعلمها إلا من أطلعه الله سبحانه عليها من ذوي المعارف الصمدانية.

وعبارة «أبي حيان»[1] هنا: هذه السورة صدرها أول ما نزل من القرآن، وذلك في غار حراء على ما ثبت في «صحيح البخاري» وغيره، وقول جابر: أول ما نزل المدثر، وقول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أول ما نزل الفاتحة لا يصح، وقال الزمخشري عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم. انتهى.

ولما ذكر فيما قبلها خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم ذكر ما عرض له بعد ذلك.. ذكره هنا منبهاً على شيء من أطوارها، وذكر نعمته عليه، ثم ذكر طغيانه بعد ذلك، وما يؤول إليه حاله في الآخرة.

تسميتها: وسميت سورة العلق وسورة القلم؛ لذكرهما فيها.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ سورة العلق كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ② ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ③ ٱلَّذِي عَلَّمَ
بِٱلۡقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ⑤ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ⑥ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلرُّجۡعَىٰٓ ⑧ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ⑨ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ⑩ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ⑪ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ
⑫ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ⑬ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٖ
كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ⑯ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ⑰ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ⑲﴾.

المناسبة

تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين أول هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ⑥...﴾ إلى آخر السورة. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] في مطلع السورة دلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وعلامات الحكمة البالغة، ودقة صنائعه البديعة، وكان ذلك كله بحيث يبتعد من العاقل أن لا يلتفت إليه.. أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقي في طغيان الإنسان وتكبره وتماديه عليه، وهو حبه للدنيا واشتغاله بها، وجعلها أكبر همه، وذلك يعمي قلبه، ويجعله يغفل عن خالقه، وما يجب له في عنقه من إجلال وتعظيم، وقد كان ينبغي أن يكون حين الغنىٰ والميسرة وكثرة الأعوان واتساع الجاه أشد حاجة إلى الله تعالى منه في حال الفقر والمسكنة؛ لأنه في حال فقره، لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه، أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة مماليكه وأتباعه وأمواله.

ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على ما يعمل، وقد بلغ من حمقه أن يأمر وينهى، وأنه يوجب على غيره طاعته، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه.

أما ينبغي له أن يهتدي ويشتغل بأمر نفسه، (فمن كان ذا عقل ورأي وثروة وجاه وأعوان، واختار الهدى، وتخلق بأخلاق المصلحين.. كان ذلك خيراً له

---

(١) المراغي.

وأجدى)، وإنا لننكلن به نكالاً شديداً في العاجلة، ولَنُهِيْتَهُ يوم العرض والحساب، وليدع أمثاله من المغرورين، فإنهم لن يمنعوه، ولن ينصروه، ثم ختم السورة بأمره بالتوفر على عبادة ربه فعلاً وإبلاغاً للناس مبتغياً بذلك وجه الله سبحانه والقربى.

أسباب النزول

تقدمة تاريخية: جاء في صحيح الأحاديث: أن النبي ﷺ «كان يأتي غار حراء - حراء جبل بمكة - يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في الغار إذ جاءه الملك، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذه ثانياً، فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

قال الرواة: فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة الخبر، ثم قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق». الحديث الطويل رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم.

ومن ذلك تعلم[1] أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم، وأول رحمة رحم الله بها عباده، وأول خطاب وجه إلى رسوله ﷺ، أما بقية السورة فهو متأخر النزول، نزل بعد شيوع بعثته ﷺ، وبعد أن دعا قريشاً إلى الإيمان به وآمن به قوم منهم، وكان جمهرتهم يتحرشون بمن آمن به ويؤذونهم، ويحاولون ردهم عن تصديقه، والإيمان بما جاء به من عند ربه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟، فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته،

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

ولأعفرن وجهه في التراب، فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾... الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه، فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾... الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟!، فزجره النبي ﷺ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثرُ مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ قال الترمذي حسن صحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱقْرَأْ﴾؛ أي[(١)]: ما يوحى إليك يا محمد، فإن الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً، وحيث لم يتعين.. وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتماً سواء كانت السورة أول ما نزل أم لا، فليس فيه تكليف ما لا يطاق، سواء دل الأمر على الفور أم لا، والأقرب أن هذا إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما نزل عليه ﷺ على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وإنما الخلاف في تمام السورة.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أول ما ابتُدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله به كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة، كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح؛ أي: كضيائه وإنارته، فلا يشك فيها أحد، كما لا يشك في وضوح ضياء الصبح، وإنما ابتُدىء عليه السلام بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك الذي هو جبريل بالرسالة، فلا تتحملها القوة البشرية، لأنها لا تحتمل رؤية الملك، وإن لم يكن على صورته الأصلية، ولا على سماع صوته، ولا على ما يخبر به، فكانت الرؤيا تأنيساً له، وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر على ما هو أدنى مدة الحمل، ثم جاءه الملك فعبر عن عالم الرؤيا إلى عالم المثال.

---

(١) روح البيان.

فإذا كانت مدة الرؤية ذلك العدد يكون ابتداؤها في شهر ربيع الأول، وهو مولده ﷺ، ثم أوحي إليه في اليقظة في شهر رمضان، وكان ﷺ في تلك المدة إذا خلا يسمع نداء: يا محمد يا محمد، ويرى نوراً؛ أي: يقظة، وكان يخشى أن يكون الذي يناديه تابعاً من الجن، كما ينادي الكهنة، وكان في جبل حراء غار؛ وهو الجبل الذي نادى رسول الله ﷺ بقوله: إلي يا رسول الله لما قال له ثبير وهو على ظهره: اهبط عني يا رسول الله، فإني أخاف أن تُقتل على ظهري، وكان رسول الله ﷺ يتعبد في ذلك الغار ليالي ثلاثاً وسبعاً وشهراً، ويتزود لذلك من الكعك والزيت، وذلك في تلك المدة وقبلها.

وأول من تعبد فيه من قريش جده عبد المطلب، ثم تبعه سائر المتألهين، وهم أبو أمية بن المغيرة، وورقة بن نوفل ونحوهما، وكان ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ابن عم خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان قد قرأ الكتب السالفة، وكتب الكتاب العبري، وكان شيخاً كبيراً قد عمي في آواخر عمره ثم بلغ ﷺ رأس الأربعين، ودخلت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان جاءه الملك وهو في الغار، كما قال الإمام الصرصري رحمه الله تعالى:

وَأَتَـتْ عَـلَـيْـهِ أَرْبَـعُـوْنَ فَـأَشْـرَقَـتْ   شَـمْـسُ ٱلـنُّـبُـوَّةِ مِـنْـهُ فِـيْ رَمَـضَـانِ

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: جاءه الملك سحر يوم الإثنين، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني؛ أي: ضمني وعصرني، ثم أرسلني، فعله ثلاث مرات، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وأخذ منه القاضي شريح من التابعين: إن المعلم لا يضرب الصبي على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات، فخرج ﷺ من الغار، حتى إذا كان في جانب من الجبل سمع صوتاً يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده، فحدثها بما جرى، فقالت له: أبشر يابن عمي واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم انطلقت إلى ورقة فأخبرته بذلك، فقال فيه:

فَإِنْ يَكُ حَقّاً يَا خَدِيْجَةُ فَٱعْلَمِيْ   حَدِيْثَكِ إِيَّانَا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ
وَجِبْرِيْلُ يَأْتِيْهِ وَمِيْكَالُ مَعْهُمَا   مِنَ ٱللَّهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ ٱلصَّدْرَ مُنْزَلُ

يَـفُـوْزُ بِـهِ مَـنْ فَـازَ عِـزّاً لِـدِيْـنِـهِ وَيَشْقَىٰ بِهِ ٱلْغَاوِيْ ٱلشَّقِيُّ ٱلْمُضَلِّلُ
فَـرِيْـقَـانِ مِـنْـهُـمْ فِـرْقَـةٌ فِـيْ جِـنَـانِـهِ وَأُخَـرَىٰ بِـأَغْـلَالِ ٱلْـجَـحِـيْـمِ تُـغَـلَّـلُ

ومكث ﷺ مدة لا يرى جبريل، وإنما كان كذلك؛ ليذهب عنه ما كان يجده من الرعب، وليحصل له التشوق إلى العود، وكانت مدة الفترة؛ أي: فترة الوحي بين ﴿ٱقْرَأْ﴾ وبين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾، وتوفي ورقة في هذه الفترة، ودُفن بالحجون، وقد آمن به ﷺ وصدّقه قبل الدعوة التي هي الرسالة، ولذا قال ﷺ: «لقد رأيته في الجنة، وعليه ثياب الحرير»، ثم نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾، فظهر الفرق بين النبوة والرسالة.

والجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ٱقْرَأْ﴾، ومفعول ﴿ٱقْرَأْ﴾ محذوف تقديره: اقرأ يا محمد ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أُمرت بقراءته حال كونك متلبساً باسم ربك، أو مستعيناً باسم ربك، أو مفتتحاً باسم ربك، أو متبركاً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك؛ ليتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء؛ أي: قل: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم اقرأ، فعُلِم أن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت من غير بسملة، وقد صرَّح بذلك الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أمره بذلك؛ لأن ذكر اسم الله قوة له في القراءة، وأنس بمولاه، فإن الأنس بالاسم يُفضي إلى الأنس بالمسمى، والذكر باللسان يؤدي إلى الذكر بالجنان.

قال في «الكواشي»: دخلت ﴿الباء﴾ في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ لتدل على الملازمة والتكرير، كأخذت بالخطام، ولو قلت: أخذت الخطام لم يدل على التكرير والدوام، وقيل[1]: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو المفعول، وهو المأمور بقراءته، كما تقول: اقرأ الحمد لله، وقيل المعنى: اقرأ في أول كل سورةٍ وقراءةٍ بسم الله الرحمٰن الرحيم، وقال الأخفش: ﴿الباء﴾ بمعنى على؛ أي: اقرأ على اسم الله، كما قالوا في قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: على اسم الله، وقال أبو عبيدة: ﴿الباء﴾: زائدة، والمعنى: اذكر اسم ربك، وقال أيضاً: الاسم صلة، والمعنى: اقرأ بعون ربك وتوفيقه، وجاء بـ﴿اسم ربك﴾ ولم يأت بلفظ الجلالة: لما في لفظ

(١) البحر المحيط.

الرب من معنى الذي رباك، ونظر في مصلحتك، وجاء الخطاب؛ ليدل على الاختصاص والتأنيس؛ أي: ليس لك رب غيره.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بهمزة ساكنة أمراً من القراءة، وقرأ الأعشى عن أبي بكر عن عاصم بحذفها، كأنه على قول من يبدل الهمزة بمناسب حركتها، فيقول: قرأ يقرأ كسعى يسعى، فلما أمر منه قيل: اقْرَ بحذف الألف، كما تقول: اسع، وفي كتاب «شمس المعارف»: أول آية نزلت على وجه الأرض: بسم الله الرحمٰن الرحيم يعني: على آدم الصفي عليه السلام، فقال آدم: الآن علمت أن ذريتي لا تُعذب بالنار ما دامت عليها، ثم أنزلت على إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، فأنجاه الله تعالى بها من النار، ثم على موسى عليه السلام فقهر بها فرعون وجنوده، ثم على سليمان عليه السلام، فقالت الملائكة: الآن والله قد تم ملكك. فهي آية الرحمة والأمان لرسله وأممهم، ولما نزلت على رسول الله ﷺ في سورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ كانت فتحاً عظيماً، فأمر رسول الله، فكُتبت على رؤوس السور وظهور الدفاتر وأوائل الرسالة، وحلف رب العزة بعزته أن لا يسميه عبد مؤمن على شيء إلا بورك له فيه، وكانت لقائلها حجاباً من النار، وهي تسعة عشر حرفاً تدفع تسع عشرة زبانية، وفي الخبر النبوي: «لو وُضعت السموات والأرضون وما فيهن وما بينهن في كفة، والبسملة في كفة لرجحت عليها» يعني البسملة.

وقال بعضهم: ﴿الباء﴾ في باسم الله بره تعالى على المؤمنين بأنواع الكرامات في الدارين، والسين كونه سميعاً لدعاء الخلق جميعاً، والميم معناه من العرش إلى تحت الثرى مِلكه ومُلكه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ أي: اتصف بالخلق والإيجاد للمخلوقات، أو خلق الخلائق، أو كل شيء وصف الرب به، لتذكير أول النعماء الفائضة عليه منه تعالى، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً من سائر الكمالات.. قادر على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي اقرأ ما يوحى إليك يا محمد متبركاً باسم ربك الذي له الخلق والمستأثر به لا خالق سواه، فيكون ﴿خَلَقَ﴾ مُنَزَّلاً منزلة اللازم، وبه يتم مراد المقام؛ لدلالته على أن كل خلق مختص به، أو المعنى: الذي خلق كل شيء، فيكون من حذف المفعول؛ للدلالة على التعميم.

وقال في «فتح الرحمٰن»: لما ذكر الرب، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً، جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ومعنى الآية: أي[1]: صر يا محمد قارئاً بقدرة الله الذي خلقك وإرادته بعد أن لم تكن كذلك، فإنه ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً، وقد جاءه الأمر الإلٰهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً، وسينزل عليه كتاباً يقرؤه وإن كان لا يكتبه.

وقصارى ذلك: أن الذي خلق الكائنات وأوجدها قادر أن يوجد فيها قراءة وإن لم يسبق لك تعلمها.

فائدة: ذكر السيوطي في «إتقانه»: أن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال؛ لكونها أول ما نزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة، وفيها البداءة باسم الله، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، ولهذا قيل: إنها جديرة بأن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله اهـ «ابن لقيمة على البيضاوي».

فائدة أخرى: قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ظاهره[2] أن هذه الجملة ليست من القرآن؛ لأن الأمر بتحصيل الشيء غير ذلك الشيء، ولكن قام الإجماع على أنها من جملة القرآن خصوصاً مع إثباتها في المصاحف بخطها سلفاً وخلفاً من غير نكير، فعُلم منه أنها من جملة القرآن تأمل.

وفائدة أخرى: بسم الله تُكتب من غير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط؛ لكثرة الاستعمال بخلاف قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنها لم تُحذف فيه؛ لقلة الاستعمال، واختلفوا في حذفها من الرحمٰن والقاهر، فقال الكسائي وسعيد بن الأخفش: تحذف الألف، وقال يحيى بن وثاب: لا تُحذف إلا

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

مع اسم الله فقط؛ لأن الاستعمال إنما كثر فيه، اهـ من القرطبي في أول «تفسيره».

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: بني آدم تخصيص[1] لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات؛ لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير على القول بأن ﴿خَلَقَ﴾ الأول لازم بمعنى اتصف بالخلق واستأثر به، وأما على القول بأن خَلَقَ الأول متعد حُذف مفعوله، فهو تخصيص لخلق الإنسان بالذكر والبيان بعد التعميم تفخيماً لشأنه؛ إذ هو أشرفهم، وعليه نزل التنزيل، وهو المأمور بالقراءة، ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الإنسان، ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام، ثم التفسير روماً لتفخيم شأنه.

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾؛ أي: خلق الإنسان من دمٍ جامد جمع علقة، كثمر وثمرة، وهي الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح؛ أي: خلقه من دم جامد رطب يعلق بما مر عليه، لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين، وإيراده[2] بلفظ الجمع حيث لم يقل: علقة بناء على أن الإنسان في معنى الجمع؛ لأن الألف فيه للاستغراق أو للجنس، والمعنى: الذي خلق جنس الإنسان من جنس العلق، أو لمراعاة الفواصل، ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية.

ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى، وأقوم الدلائل الدالة على وجوده تعالى، وكمال قدرته وعلمه وحكمته.. وصف ذاته تعالى بذلك أولاً؛ ليستشهد ﷺ به على تمكينه تعالى له من القراءة، وفي «حواشي ابن الشيخ»: إن الحكيم سبحانه وتعالى لو قال له حين أراد أن يبعثه رسولاً إلى المشركين: اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له.. لأبوا أن يقبلوا ذلك منه، لكنه تعالى قدم في ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به حيث أمر رسوله أن يقول لهم: إنهم هم الذين خُلِقوا من العلقة ولا يمكنهم إنكاره، ثم أن يقول لهم: لا بد للفعل من فاعل، فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك الفعل إلى الوثن؛ لعلمهم بأنهم نحتوه، فبهذا التدريج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان؛ لأن الإلٰهية موقوفة على الخالقية، ومن لم

---

(1) روح البيان.
(2) روح البيان.

يخلق شيئاً كيف يكون إلٰهاً مستحقاً للعبادة.

ومعنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾؛ أي: إن[1] الذي خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق، وآتاه القدرة على التسلط على كل شيء مما في هذا العالم الأرضي، وجعله يسوده بعلمه، ويسخره لخدمته قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبي ﷺ، قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة.

والخلاصة[2]: أن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً يسود المخلوقات الأرضية جميعها قادر أن يجعل محمداً ﷺ قارئاً وإن لم يتعلم القراءة والكتابة.

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ أي: افعل يا محمد ما أُمرت به من القراءة، وحكمة الأمر بالتكرير؛ لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلٰهي يقوم مقام تكرير المقروء، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي ﷺ، تدبر قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وقيل[3]: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول أولى، وجملة قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ من المبتدأ والخبر مستأنفة مسوقة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله: ما أنا بقارىء، يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وأنا أمي لا أعرف القراءة ولا الكتابة، فقيل له: اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه وهو الأكرم؛ أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه ينعم بلا غرض، ولا يطلب مدحاً أو ثواباً أو تخلصاً من المذمة، وأيضاً أن كل كريم، إنما أخذ الكرم منه، فكيف يساوي الأصل.

والمعنى[4]: أي وربك يا محمد أكرم من يرتجى منه الإعطاء، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه من غير تعلُّم كتابة ولا قراءة. وقال ابن الشيخ: ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: صفته، و﴿ٱلَّذِى﴾، مع صلته في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ خبره؛ أي: علم ما علم بواسطة القلم لا غيره، فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

وفي «الخازن»: وقد يكون[1] ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ بمعنى الكريم، كما جاء الأعز بمعنى العزيز، وغاية الكرم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب عوض، والله سبحانه جل جلاله وتعالى عُلاهُ وشأنه يتعالى عن طلب العوض، ويستحيل ذلك في وصفه؛ لأنه أكرم الأكرمين، وقيل ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان، وقيل: هو الحليم عن جهل العباد، فلا يعجل عليهم بالعقوبة، وقيل: يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة، والمعنى: اقرأ وربك الأكرم؛ لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: علم الخط والكتابة التي بها تُعرف الأمور الغائبة، وفيه تنبيه على فضل الكتابة؛ لما فيها من المنافع العظيمة؛ لأن بالكتابة ضُبطت العلوم، ودونت الحكم، وبها عُرفت أخبار الماضين وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم، ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا، قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم لو يقم دين ولم يصلح عيش، وسئل[2] بعضهم عن الكلام، فقال: ريح لا يبقى، قيل له: فما قيده؟ قال: الكتابة؛ لأن القلم ينوب عن اللسان، ولا ينوب اللسان عنه، كما قال بعضهم:

اَلْعِلْمُ صَيْدٌ وَٱلْكِتَابَةُ قَيْدُهُ ... قَيِّدْ صُيُوْدَكَ بِٱلْحِبَالِ ٱلْوَاثِقَهْ

وقال الآخر:

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلاَّ سَيَبْلَىٰ ... وَيُبْقِيْ ٱلدَّهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ
فَلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُرُّكَ فِيْ ٱلْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

وفيه امتنان على الإنسان بتعليم علم الخط والكتابة بالقلم، وسمي قلماً؛ لأنه يُقَلَّم ويقص ويقطع.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله: أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم، فاكتب فإن الله تعالى علم بالقلم».

وعن ابن مسعود قال[3]: قال رسول الله ﷺ: «لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان. (٣) المراح.

تعلموهن الكتابة؛ ـ أي: حذراً من تطلعهن إلى الرجال وحذراً من الفتنة ـ لأنهن قد يكتبن لمن يهوين».

قال كعب الأحبار[1]: أول من وضع الكتاب العربي والسرياني، والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته ثلاث مئة سنة كتبها في الطين ثم طبخه، فاستخرج إدريس ما كتب آدم وهذا هو الأصح.

وأما أول من كتب خط الرمل فإدريس عليه السلام، وأول من كتب بالفارسية: طهمورت ثالث ملوك الفرس، وأول من اتخذ القراطيس: يوسف عليه السلام، قال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وأول ما كتب القلم: أنا التواب أتوب على من تاب.

قال بعضهم: وجه المناسبة بين الخلق من العلق وتعليم القلم أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة، وأعلاها كونه عالماً، فالله تعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهي العلقة إلى أعلاها وهو تعلم العلم، وجملة قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ بدل اشتمال من التي قبلها وتعيين للمفعول؛ أي: علم الإنسان بالقلم وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله أصلاً، قيل[2] المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا: آدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وقيل: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا: رسول الله ﷺ، وعلى هذا فالمراد بعلمه المستقبل، فإن هذا من أوائل ما نزل، والأولى حمل ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ على العموم، كما أشرنا إليه في الحال.

وحاصل معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ . . .﴾ الآيات، أي[3]: الذي جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بعد الشقة، كما أفهمهم بوساطة اللسان. والقلم آلة جامدة لا حياة فيها، وليس من شأنها الإفهام، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان، أفيصعب عليه أن يجعل منك قارئاً مبيناً وتالياً معلماً، وأنت إنسان كامل، وقد وصف سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق، وأنه علمه بالقلم، ليبين أحوال هذا الإنسان، وأنه خلق من أحقر الأشياء، وبلغ في كماله الإنساني أن صار عالماً بحقائق الأشياء، فكأنه قيل: تدبر أيها الإنسان تجد

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

أنك قد انتقلت من أدنى المراتب إلى أعلى الدرجات وأرفعها، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شيء خلقه، ثم زاد الأمر بياناً بتعداد نعمه، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾؛ أي: إن من صدر أمره بأن يكون رسوله ﷺ قارئاً هو الذي علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم، وممتاز به عن غيره من الحيوان، وكان في بدء أمره لا يعلم شيئاً، فهل من عجب أن يعلمك القراءة ويعلمك كثيراً من العلوم سواها، ونفسك مستعدة لقبول ذلك، وفي الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم، ولعمرك لولا القلم ما حُفظت العلوم، ولا أحصيت الجيوش، ولضاعت الديانات، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل وعلومهم ومخترعاتهم وفنونهم، ولما سجل تاريخ السابقين المسيئين منهم والمحسنين، ولا كان علمهم نبراساً يهتدي به الخلف، ويُبنى عليه ما به ترقى الأمم وتتقدم المخترعات.

كما أن فيها دليلاً على أن الله سبحانه خلق الإنسان الحي الناطق فيما لا حياة فيه ولا نطق ولا شكل ولا صورة، وعلمه أفضل العلوم وهي الكتابة، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان.

﴿كَلَّآ﴾ ردع[1] لمن كفر بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة في الزجر فيوقف عليه، وقال السجاوندي: يوقف على ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ لأنه بمعنى حقاً، ولذا وضع علامة الوقف عليه. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إن جنس الإنسان ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾؛ أي: ليتجاوز الحد ويستكبر على ربه، وهذا بيان للمردوع والمردوع عنه إن قلنا: إنها حرف ردع، قيل: إن هذا إلى آخر السورة نزل في أبي جهل وأضرابه بعد زمان من نزول أول السورة، وهو الظاهر. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ مفعول له؛ أي: يطغى لأن رأى وعلم نفسه مستغنياً أو أبصر غناه، والمراد أنه يريد طغيانه باستغنائه بالعشيرة والأنصار والأعوان والأموال، قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه، فذلك طغيانه، وكذلك قال الكلبي.

والرؤية هنا[2]: بمعنى العلم، ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين ضميرين لشيء واحد في فعلها؛ لأن ضمير الفاعل في ﴿رَّءَاهُ﴾ وضمير المفعول عائدان على

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ لأن الجمع بين الضميرين المتصلين لشيء واحد من خواص أفعال القلوب، فتقول: رأيتني صديقك، فلا يجوز: زيد ضربه، وهما ضميرا زيد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ بألف بعد الهمزة، وهي لام الفعل، وقرأ قنبل عن ابن كثير بحذف الألف، وهي رواية ابن مجاهد عنه، قال: وهو غلط لا يجوز، وينبغي أن لا يغلِّطه بل يتطلب له وجهاً، وقد حُذف الألف في نحو من هذا، قال الشاعر:

وَصَّانِيَ ٱلْعَجَّاجُ فِيْمَا وَصَّنِيْ

يريد فيما وصاني، فحذف الألف وهي لام الفعل، وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم: أصاب الناس جهد ولو تَرَ أهل مكة، وهو حذف لا ينقاس، لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها.

وقيل معنى ﴿كَلَّآ﴾ حقاً كما مر عن السجاوندي، والمعنى عليه: أي[2] حقاً، إن أمر الإنسان لعجب، فإنه متى أحس من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذي يجب أن يكون عليه، واستكبر عن الخشوع لربه وتطاول بأذى الناس، وعد نفسه فوقهم جميعاً، وقد كان من حقه أن يكون هو وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون في السراء والضراء، ويحب الخير لهم، كما يحبه لنفسه، وفي «البخاري»: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وروي عن علي في نصيحته لابنه الحسن: أحب الخير لغيرك كما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: منهومان لا يشبعان طالب العلم وطالب الدنيا ولا يستويان، أما طالب العلم فيزداد في رضا الله، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان.

وتعليل طغيانه برؤيته لنفسه الاستغناء[3]؛ للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد، روي: أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى؟ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل، فقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم ورحمةً لهم، وأول[1] هذه السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال، وكفى بذلك مرغباً في العلم والدين، ومنفراً عن المال والدنيا، وكان ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من غِنًى يُطغي وفقر يُنسي» وقد حكم[2] سبحانه على الإنسان بالطغيان بالغنى باعتبار الأعم الأغلب، في أفراده، وإلا فإن الغنى والقوة في أيدي الأتقياء من وسائل الخير وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية؛ لأنهم يستعملونها فيما يُرضي ربهم ويعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم، ثم حذر من الطغيان وأنذر من عاقبته، وأبان أن ما بيد الطاغي عارية، وليست نفسه بباقية، وأن مرجع الأمر كله لله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾؛ أي: إلى مالك[3] أمرك أيها الإنسان رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً، فسترى حينئذٍ عاقبة طغيانه، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، والألف للتأنيث كالمرجع والرجوع، يقال: رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى، وتقدم الجار والمجرور؛ لإفادة القصر.

والمعنى[4]: أي إن المرجع إلى ربك وحده وهو مالك أمرك وما تملك، وسيتبين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة، وتظهر في مظهر الذل، وتحاسب على كل ما اجترحته في حياتك الأولى قل أو كثر عظم أو حقر، كما قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ والاستفهام لتعجيب المخاطب، وهو النبي ﷺ، وكل من يتأتى منه الرؤية، والرؤية هنا بصرية، وهي[5] تتعدى إلى مفعولين؛ لأنها بمعنى: أخبِرْني، فالمفعول الأول: ﴿ٱلَّذِى﴾، والمفعول الثاني: محذوف، وهو جملة استفهامية نظير الجملة الواقعة بعد ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة؛ أي: أخبِرْني يا محمد، أو أيها المخاطَب الناهي من يصلي ألم يعلم أن الله يطلع على أحواله، فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل؛ أي: أخبرني عن حال هذا الأحمق، فإن أمره لعجب، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد إلى أن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.
(٥) المراح.

ينهى عبداً من عباد الله عن صلاته، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته وهو ليس بخالق ولا رازق، فكيف يستسيغ ذلك لنفسه ويعرض عن طاعة الخالق الرازق، وقد روي أن علياً ـ رضي الله عنه ـ رأى في المصلى قوماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له ألا تنهاهم، فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، فلم يصرح بالنهي عن الصلاة احتياطاً.

وتنكير[1] ﴿عَبْدًا﴾ لتفخيمه ﷺ، كأنه قيل ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربه، والعدول عن ينهاك إلى ﴿يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾ دال على أن النهي كان للعبد عن إقامة خدمة مولاه، ولا أقبح منه، قال المفسرون: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ أبو جهل، والمراد بالعبد محمد ﷺ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية.

روي: أن أبا جهل قال في ملأ من طغاة قريش: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، وفي «التكملة»: نهى محمداً عن الصلاة، وهمّ أن يُلقي على رأسه حجراً، فرآه في الصلاة، وهي صلاة الظهر، فجاءه ثم نكص على عقبيه، فقالوا: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فنزلت الآية، والمراد أجنحة الملائكة، أبصر اللعين الأجنحة، ولم يبصر أصحابها، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وكان أبو جهل يكنى في الجاهلية بأبي الحكم لأنهم كانوا يزعمون أنه عالم ذو حكمة، ثم سمي أبا جهل في الإسلام.

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل، أو بعمر» فلما أعزه الله بعمر ـ رضي الله عنه ـ دل على أن عمر أسعد قريش، كما أن أبا جهل أشقى قريش؛ إذ الأشياء تتبين بأضدادها.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ والرؤية هنا قلبية، معناه: أخبِرْني ذلك الناهي وهو المفعول الأول، فإن مفعولي[2] ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هنا محذوفان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

حذف الأول؛ لدلالة المفعول الأول من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني؛ لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، و﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ بمعنى الواو، والمعنى: أخبِرْني يا محمد ذلك الناهي إن صار على الهدى وأمر بالتقوى، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته.

والخلاصة: أما كان الأفضل له أن يهتدي ويهدي غيره إلى خصال البر والخير، وقد كانت هذه حال النبي ﷺ، فعمله كان، إما في إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيامٍ وغيرهما، وإما في إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إليها.

كأنه تعالى يقول: تلهف يا مخاطَب عليه، كيف فوَّت على نفسه المراتب العالية، وقنع بالمراتب الدنيئة، وهو رجل عاقل ذو ثروة لا يليق به ذلك، والآية في الحقيقة تهكم بالناهي ضرورة أنه ليس في النهي عن عبادته تعالى، والأمر بعبادة الأصنام على هدىً ألبتة.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ والرؤية أيضاً هنا قلبية تتعدى إلى مفعولين؛ أي: أخبِرْني ذلك الناهي ﴿إِن كَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: أعرض عنه ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ ذلك الناهي ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَرَىٰ﴾؛ أي: يراه ويجازيه على تكذيبه وإعراضه، والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني ﴿لأرأيت﴾، ومفعولها الأول محذوف، وهو يعود إلى الموصول، أو اسم إشارة يشار به إليه، والمعنى: أخبِرْني يا محمد ذلك الناهي إن كذب بتلك الدلائل الواضحة وأعرض عن خدمة خالقه ألم يعلم بعقله أن الله سبحانه يرى منه هذه الأعمال القبيحة، أفلا ينزجر عنها.

والخلاصة[1]: أي أنبئني عن حال هذا الكافر إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة، وأمارات القدرة الباهرة، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك، ودعا الناس إلى مثل ذلك، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله، ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله، وأنه حكيم لا يُهمل عقابه، وأنه سيؤاخذه بكل ما اقترف من كل جرم، ولا يخفى ما في هذا من تهديد وتخويف للعصاة والمذنبين، وقال أبو الليث ـ رحمه الله ـ: والآية

---

(١) المراغي.

عظة لجميع الناس، وتهديد لمن يمنع عن الخير وعن الطاعة، وقال ابن الشيخ في «حواشيه»: وهذه[1] الآية وإن نزلت في حق أبي جهل، لكن كل من نهى عن طاعة الله تعالى فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد، ولا يلزم عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة، والأوقات المكروهة، لأن المنهي عنه غير الصلاة، وهي المعصية التي هي الاستيلاء على حق الغير، وإيقاع الصلاة في الوقت المكروه، فإن عدم مشروعية الوصف المقارن، وكونه مستحقاً؛ لأن ينهى عنه لا ينافي مشروعية أصل الصلاة إلا أنه لشدة الاتصال بينهما بحيث يكون النهي عن الوصف موهماً للنهي عن الأصل احتاط فيه بعض الأكابر، حتى روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد إلى آخر ما مر.

وفي «البيضاوي»: ومعنى الآيات: أخبِرْني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو أمر بالتقوى فيما يأمره من عبادة الأوثان كما يعتقده، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب، كما يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ويطلع على أحواله، من هداه أو ضلاله ليجازيه عليه. انتهى.

وقال الفراء: المعنى: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى وأمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الذكر؛ أي: فما أعجب هذا، ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله، فهذا تقرير وتوبيخ انتهى.

وقال التبريزي[2]: المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر، قيل: هي أول جماعة أقيمت في الإسلام كان معه أبو بكر وعلي وجماعة من السابقين، فمر به أبو طالب ومعه ابنه جعفر، فقال له: صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً، وأنشأ أبو طالب يقول:

إِنَّ عَلِيّاً وَجَعْفَراً ثِقَتِيْ ... عِنْدَ مُلِمِّ ٱلزَّمَانِ وَٱلْكُرَبِ
وَٱللَّهِ لاَ أَخْذُلُ ٱلنَّبِيَّ وَلاَ ... يَخْذُلُهُ مَنْ يَكُوْنُ مِنْ حَسَبِيْ
لاَ تَخْذُلاَ وَٱنْصُرَا ٱبْنَ عَمِّكُمَا ... أَخِيْ لأُمِّيْ مِنْ بَيْنِهِمُ وَأَبِيْ

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ففرح رسول الله ﷺ بذلك، والخطاب[1] في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الظاهر أنه للرسول ﷺ، وكذا ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثاني والثالث، والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم، وقيل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب للكافر التفت إلى الكافر، فقال: أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدىً ودعاءً إلى الله تعالى، وأمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك، والضمير في ﴿إِن كَانَ﴾، وفي ﴿إِن كَذَّبَ﴾ عائد على الناهي.

﴿كَلَّا﴾ ردع[2] للناهي اللعين عن نهيه عن عبادة الله وأمره بعبادة اللات. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف؛ أي: والله لئن لم ينته هذا الناهي اللعين عما هو عليه، ولم ينزجر ولم يتب ولم يسلم قبل الموت، والأصل: ينتهي بالياء المحذوفة للجازم، يقال: نهاه ينهاه نهياً ضد أمره، فانتهى.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾؛ أي: لنجُرَّنَّه بناصيته إلى جهنم، أصله: لنسفعن بنون التوكيد الخفيفة، ونظيره: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ كتب في المصحف بالألف على حكم الوقف، فإنه يوقف على هذه النون بالألف تشبيهاً لها بالتنوين، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة، والناصية: شعر مقدم الرأس، والمعنى: والله لنأخذنه في الآخرة بناصيته، ولنسحبنه بها إلى النار بمعنى: لنأمرن الزبانية ليأخذوا بناصيته، ويجروه إلى النار بالتحقير والإهانة، وكانت العرب تأنف من جر الناصية، وفي «عين المعاني»: الأخذ بالناصية عبارة عن القهر والهوان، والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة، لظهور أن المراد ناصية الناهي المذكور، ويحتمل أن يكون المراد من هذا السفع سحبه على وجهه في الدنيا يوم بدر، فيكون بشارة بأن يمكِّن المسلمين من ناصيته حتى يجروه على وجهه إذا عاد إلى النهي، فلما عاد مكنهم الله من ناصيته يوم بدر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ بالنون الخفيفة، وكتبت بالألف باعتبار الوقف؛ إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً وكثر ذلك حتى صارت روياً، فكتبت ألفاً كقوله:

يَحْسَبُهُ ٱلْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا ... شَيْخاً عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

وقرأ محبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو: ﴿لنسفعن﴾ بالنون الشديدة،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والفاعل على كلا القراءتين الله سبحانه، وقرأ ابن مسعود: ﴿لأسفعن﴾؛ أي: يقول يا محمد أنا الذي أتولى إهانة أبي جهل اهـ. «مراح».

روي[1]: أنه لما نزلت سورة الرحمٰن.. قال ﷺ: «من يقرؤها على رؤساء قريش»، فتثاقلوا فقام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال: أنا. فأجلسه رسول الله، ثم قال ثانياً: «من يقرؤها عليهم» فلم يقم إلا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ثم ثالثاً، إلى أن أذن له ﷺ، وكان ﷺ يُبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل، فلطمه، فشق أذنه وأدماها فانصرف وعينه تدمع، فلما رآه ﷺ رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل جاء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جبريل تضحك، ويبكي ابن مسعود»، فقال: سيعلم، فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال له ﷺ: «خذ رمحك والتمس في الجرحى، ومن كان له رمق فاقتله، فإنك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور، فخاف أن تكون فيه قوة فيؤذيه، فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه، ولعل هذا قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾، ثم لما عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه، فارتقى إليه بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال له: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، فقال له أبو جهل: بلِّغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلي منه في حال مماتي، فروي أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال: فرعوني أشد من فرعون موسى، فإنه قال: آمنت وهو قد زاد عتواً، ثم قال: يابن مسعود اقطع بسيفي هذا؛ لأنه أحد وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله فشق أذنه وجعل الخيط فيها، وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ويقول: يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن مقطوع، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً حتى لم يقو على الرأس المقطوع لوجوه:

أحدها: أن أبا جهل كلب، والكلب يُجَر ولا يحمل.

والثاني: ليشق الأذن، فيقتص الأذن بالأذن.

---

(١) روح البيان.

والثالث: ليحقق الوعيد المذكور بقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ فيجر تلك الرأس على مقدمها.

قال ابن الشيخ: الناصية شعر الجبهة[1]، وقد يسمى مكان الشعر ناصية، ثم إنه تعالى كنى بها ههنا عن الوجه والرأس، ولعل السبب في تخصيص السفع بها أن اللعين كان شديد الاهتمام بترجيل الناصية وتطييبها.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بالجر بدل من ﴿الناصية﴾، وإنما أبدل[2] النكرة من المعرفة؛ لوصفها بقوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها، وأما على مذهب البصريين فيجوز إبدال النكرة من المعرفة كالعكس بلا شرط وأنشدوا:

فَلاَ وَأَبِيْكَ خَيْرٍ مِنْكَ إِنِّيْ لَيُؤْذِيْنِيْ ٱلتَّحَمُّمُ وَٱلصَّهِيْلُ

ووصف الناصية بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها حقيقة، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء كأن الكافر بلغ في الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ، ظهر من ناصيته، وكان أبو جهل كاذباً على الله في أنه لم يرسل محمداً، وكاذباً في أنه ساحر ونحوه، وخاطئاً بما تعرض له ﷺ بأنواع الأذية.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ بجر الثلاثة على أن ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من المعرفة، وأن ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ صفتان لـ﴿نَاصِيَةٍ﴾، قال الزمخشري: لأنها وُصفت فاستقلت بفائدة. انتهى. وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين، كما مر آنفاً، خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم، ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي بنصبها على الذم، وقرأ الكسائي: في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ؛ أي: هي ناصية.

ومعنى الآية[4]: أي لا يستمرن بهذا الكافر جهله وغروره وطغيانه، أقسم بعزتي وجلالي لئن لم ينته وينزجر عن هذا الطغيان، ويكف عن نهي المصلي عن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

صلاته لنأخذن بناصيته، ولنذيقنه العذاب الأليم.

أَلاَ إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها، مع أنها في قبضة خالقها فهي تزعم ما لا حقيقة له، وإنها لخاطئة؛ لأنها طغت وتجاوزت حدها وعتت عن أمر ربها، ونسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية، والكاذب والمخطىء صاحبها كما مر من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء، وقد أُمِر هذا الكافر على ضرب من التهكم والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوي النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به، فقال: ﴿فَلْيَدْعُ﴾ ذلك الكافر اللعين من الدعوة ﴿نَادِيَهُ﴾؛ أي: أهل[1] ناديه ومجلسه ليعينوه، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون فيه، وقدر المضاف؛ لأن نفس المجلس والمكان يدعى ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله، ودار الندوة بمكة كانوا يجتمعون فيه للتشاور، والمعنى: فليدع عشيرته فليستنصر بهم، روي أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم ننهك؟ فأغلظ رسول الله ﷺ، فقال: «أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً» يريد كثرة من يعينه، فنزلت: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾؛ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج، وهي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار، واحد منهم يغلب على ألف ألف من أمثال أهل ناديه، قال ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عِياناً».

وقال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر[2]: ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبينة، وقيل: واحدهم[3] زباني، وقيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه كأبابيل وعباديد ـ اسم موضع ـ، وأصل الزبن الدفع، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿سَنَدْعُ﴾ بالنون مبنياً للفاعل وكتبت بغير واو؛ لأنها تسقط عند الوصل لفظاً لالتقاء الساكنين، وسقطت في الكتابة تبعاً للفظ كما سيأتي، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿سيدعىٰ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ورفع ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ على النيابة عن الفاعل؛ أي: سيدعو الله سبحانه الزبانية ليجروه إلى جهنم.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

وقال قتادة: ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1] في الأصل في كلام العرب: الشُّرَط كصُرَد، وجمع شرطة بالضم، وهم طائفة من أعوان الولاة، سموا بذلك؛ لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها، كما في «القاموس»، والشَرَط بالتحريك العلامة، واحدهم زبنية كعفرية، وعفرية الديك شعرة القفا التي يردها إلى يافوخه عند الهراش من الزَّبْن بالفتح، كالضرب وهو الدفع؛ لأنهم يزبنون الكفار؛ أي: يدفعونهم في جهنم بشدة وبطش، يعني: أن ملائكة العذاب سموا بما سُمي به الشرط تشبيهاً لهم بهم في البطش والقهر والعنف والدفع، وقيل: الواحد زبني، وكأنه نُسب إلى الزبن، ثم غُيِّر إلى زبانية كإنسي بكسر الهمزة، وأصلها زباني، وقيل: زبانية بتعويض التاء عن الياء بعد حذفها للمبالغة في الدفع.

فائدة: اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من ﴿سَنَدْعُ﴾ خطاً، ولا موجب للحذف لفظاً من القواعد العربية، ولعله للمشاكلة مع ﴿فَلْيَدْعُ﴾ أو للتشبيه بالأمر في أن الدعاء أمر لا بد منه.

وقال ابن خالويه: في إعراب الثلاثين آية الأصل سندعو بالواو، غير أن الواو ساكنة فاستثقلتها اللام ساكنة، فسقطت الواو في المصحف من ﴿سَنَدْعُ﴾، و﴿يدع الإنسان﴾ و﴿يمح الله الباطل﴾، وكذلك الياء من ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والعلة ما أنبأتك من بنائهم الخط على اللفظ. انتهى.

والمعنى: أي فليجمع[2] أمثاله ممن ينتدي معهم؛ ليمنع المصلين المخلصين ويؤذي أهل الحق الصادقين، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط ربه عز وجل، واستحق التنكيل به، وسندعو له من جنودنا كل قوي متين لا قبل له بمغالبته في الدنيا أو يرديه في النار في الآخرة، والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله تعالى على تعذيب العصاة من خلقه، وسُموا ﴿زبانية﴾؛ لأنهم يزبنون الكفار في النار؛ أي: يدفعونهم إليها ثم بالغ في زجر الكافر عن صلفه وكبريائه، ونفي قدرته على ما تهدد به، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع[3] بعد ردع للناهي المذكور، وزجر له إثر زجر، فهو متصل بما قبله، ولذا جعلوا الوقف عليه وقفاً مطلقاً.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد؛ أي: لا تطع ذلك الكافر الناهي لك عن الصلاة؛ أي: دم على ما أنت عليه من معاصاة ذلك الناهي الكاذب الخاطىء، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لربك؛ أي: وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به ولا مبال له. ﴿وَٱقْتَرِب﴾؛ أي: وتقرب بذلك السجود إلى ربك وابتغ المنزلة عنده.

وقال زيد بن أسلم: واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار، والأول أولى.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد، فأكثروا من الدعاء في السجود» وكلمة ما مصدرية، وأقرب مبتدأ حذف خبره، ويكون تامة؛ أي: أقرب وجود العبد من ربه حاصل وقت سجوده، وهذا السجود الظاهر أن المراد به الصلاة، وقيل: سجود التلاوة، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية كما مر وسيأتي.

وهذه الآية: محل السجود عند الأئمة الثلاثة خلافاً لمالك، فإنه كان يسجد فيها في خاصية نفسه، وهم على أصولهم في قولهم بالوجوب والسنية، وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعي، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ أخرجه مسلم.

وللسجدة أقسام: سجدة الصلاة، وسجدة التلاوة، وسجدة السهو؛ وهذه مشهورة، وسجدة التعظيم لجلال الله وكبريائه، وسجدة التضرع إليه خوفاً وطمعاً، وسجدة الشكر له، وسجدة المناجاة، وهذه مستحبة في الأصح صادرة عن الملائكة، وعن رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقال أبو حنيفة ومالك: سجود الشكر مكروه، فيقتصر على الحمد والشكر باللسان، وقال الإمامان: هي قربة يثاب فاعلها.

الإعراب

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ أي: حالة كونك مفتتحاً أو متبركاً أو مبتدئاً، وقيل ﴿الباء﴾: زائدة؛ أي: اقرأ اسم ربك واذكره. ﴿ٱلَّذِی﴾: صفة للرب، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلته لا محل لها من الإعراب، والضمير المستتر فيه يعود على الموصول ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية بدل من الجملة التي قبلها، ويجوز أن تكون توكيداً لفظياً أكد الصلة وحدها. ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر مؤكد لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأول. ﴿وَرَبُّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية. ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وقال ابن خالويه: ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: صفة، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، والأول أولى. ﴿ٱلَّذِی عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾: خبر ثان لـ﴿ربك﴾، وأعربه ابن خالويه نعتاً ثانياً لـ﴿ربك﴾، ولسنا نرى هذا الرأي، وجملة ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ صلة الموصول، وفاعل ﴿عَلَّمَ﴾ ضمير مستتر يعود على الله، ومفعولاه محذوفان؛ أي: علم الإنسان الخط بالقلم، و﴿بِٱلۡقَلَمِ﴾: متعلق بـ﴿عَلَّمَ﴾، وفي الحقيقة أنه متعلق بالخط.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِی يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به أول، والجملة تأكيد لجملة ﴿عَلَّمَ﴾ الأولى، أو بدل، أو خبر كما مر آنفاً. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿عَلَّمَ﴾، وجملة ﴿لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما لم يعلمه. ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾: اسمها. ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، و﴿يطغى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿رَّءَاهُ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ تقديره: هو، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأى﴾. ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿رأى﴾؛ لأنها

علمية نحو: ظننتني صديقك تقديره: أن رأى نفسه مستغنياً، وجملة ﴿رأى﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي: إن الإنسان ليطغى رؤية نفسه مستغنياً؛ أي: لأجل رؤيتها غنية بالمال أو الجاه أو الخدم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبر مقدم لها. ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لمخاطبة الإنسان الطاغي بطريق الالتفات. ﴿أَرَءَيْتَ﴾: فعل وفاعل بمعنى: أخبرني يتعدى إلى مفعولين، والهمزة فيه للاستفهام التعجبي. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأيت﴾. ﴿يَنْهَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصوف. ﴿عَبْدًا﴾: مفعول به لـ﴿يَنْهَىٰ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿يَنْهَىٰ﴾، وجملة ﴿صَلَّىٰٓ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها، ومفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ محذوف؛ لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه تقديره: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ألم يعلم بأن الله يراه فيجازيه، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعجيب المخاطَب عن حال هذا الناهي وحمقه وجهله.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام، ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، ومعناه: أخبرني، ومفعولاها محذوفان تقديرهما: أرأيت هذا الناهي ألم يعلم بأن الله يراه ويجازيه، حذف الأول منهما لدلالة المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني، لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مؤكدة لـ﴿أرأيت﴾ الأولى. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر يعود على العبد المنهي. ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾: خبرها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى الواو. ﴿أَمَرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿كَانَ﴾، وفاعله ضمير يعود على العبد المنهي. ﴿بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾: متعلق بـ﴿أَمَرَ﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه الجملة الاستفهامية الآتية في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة تقديره: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى أفلم يعلم ذلك الناهي بأن الله يراه ويجازيه، والجملة الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَرَءَيْتَ﴾: فعل

وفاعل بمعنى: أخبرني، و﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ جملة استفهامية مؤكِّدة للأولى أيضاً، والمفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ محذوف دل عليه المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى، والثاني الجملة الاستفهامية المذكورة بعدها، والتقدير: أرأيت هذا الناهي ألم يعلم بأن الله يرى. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الناهي؛ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، وجواب الشرط محذوف دلت عليه الجملة الاستفهامية بعده، تقديره: إن كذب ذلك الناهي وتولى أفلم يعلم بأن الله يراه ويجازيه، وجملة الشرط جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، قال الزمخشري: فإن قلت: كيف صح أن يكون ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ جواب الشرط؟ قلت: صح كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني، وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه، ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَعْلَم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الناهي. ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف تقديره: بأن الله يراه، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ مع معموليها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَعْلَم﴾ تقديره: ألم يعلم ذلك الناهي رؤية الله إياه، وجملة ﴿يَعْلَم﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾. وقد ذكرت ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هنا ثلاث مرات، وقد صرح بعد الثالثة، منها بجملة الاستفهامية فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾ الواقع مفعولاً أول لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، وأما ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى فمفعولها الأول ﴿ٱلَّذِى﴾، ومفعولها الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية نظير الجملة الواقعة بعد ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثانية، فلم يذكر لها مفعول لا أول، ولا ثان، فحذف الأول لدلالة المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، فقد حذف الثاني من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس ذلك من باب التنازع؛ لأن التنازع يستدعي إضماراً، والجمل لا تضمر إنما تضمر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لأبي جهل، ﴿لَئِن﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم؛ لأنها دخلت على أداة الشرط؛ للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على القسم قبلها لا على الشرط، ومن ثم سمى اللام المؤذنة الموطئة؛ لأنها وطئت الجواب للقسم؛ أي: مهدته له، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ونفي وقلب. ﴿يَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الكافر الناهي، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام رابطة لجواب القسم مؤكِّدة للأولى، ﴿نسفعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، ونون التوكيد ـ المكتوبة ألفاً نظراً إلى حالة الوقف عليها؛ لأن الوقف عليها هكذا ـ حرف لا محل لها مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على الله تقديره: نحن ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: متعلق بـ﴿نسفعا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب جرياً على القاعدة المقررة عندهم من أنه إذا اجتمع شرط وقسم يكون الجواب للمقدم منهما، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، وجواب الشرط محذوف، دل عليه جواب القسم تقديره: إن لم ينته نسفعن بالناصية، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿نَاصِيَةٍ﴾: بدل من ﴿الناصية﴾، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة؛ لأنها وصفت. ﴿كَٰذِبَةٍ﴾: صفة أولى لـ﴿نَاصِيَةٍ﴾. ﴿خَاطِئَةٍ﴾ صفة ثانية لها. ﴿فَلْيَدْعُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا استمر هذا الملعون الأحمق على مكابرته وعناده، وأردت بيان ما نقول له.. فأقول لك: ﴿ليدع ناديه﴾، و﴿اللام﴾: لام أمر وجزم، ﴿يدع﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الواو، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: هو. ﴿نَادِيَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿سَنَدْعُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿ندع﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة لفظاً؛ لالتقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعاً لخط المصحف العثماني، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالواو، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على الله،

تقديره: نحن. ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر مؤكِّد للأول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِعْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ومفعول به مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَٱسْجُدْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اسجد﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة النهي. ﴿وَٱقْتَرِب﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اقترب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱسْجُدْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق: الدم، وهو اسم جنس جمعي، وقيل: جمع علقة كثمر وثمرة، وهي: الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح؛ أي: دم جامد رطب يعلق بما مر عليه، أصله: مبني، وفي «الشهاب»: هو اسم جنس جمعي، وقول المفسرين: إنه جمع علقة؛ إما على وجه التسمح، أو جمع لغوي، وفي «المصباح»: العلق: المني فينتقل طوراً بعد طور، فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة، وعبارة «القاموس»: العلق محركة، الدم عامة، أو الشديد الحمرة، أو الغليظ أو الجامد، والقطعة منه بهاء، وكل ما علق بالشيء، والطين الذي يعلق باليد، والخصومة والمحبة اللازمتان، وذو علق جبل لبني أسد لهم فيه يوم على ربيعة بن مالك، ودويبة في الماء تمتص الدم إلى آخر ما جاء في هذه المادة المطولة.

فائدة: اعلم أن اسم الجنس مطلقاً موضوع للماهية من حيث هي، ثم إن صدق على القليل والكثير كماء وضرب، سمي إفرادياً، وإن دل على أكثر من اثنين، وفرق بينه وبين واحده بالتاء بأن يتفقا في الهيئة والحروف ما عداها كتمر وتمرة، أو بالياء كروم ورومي، سمي جمعياً والفرق بينه وبين مشابهه من الجمع كتخم وتخمة بأن الغالب في ضميره التذكير مراعاة للفظه، وفي الجمع التأنيث، وكونه جمعياً إنما هو بحسب الاستعمال، فلا ينافي في وضعه للماهية من حيث هي، فالحاصل: أن اسم الجنس الجمعي ما دل على أكثر من اثنين، وفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة، أو بالياء كروم ورومي، واسم الجنس الإفرادي ما دل على القليل والكثير، كماء وضرب، واسم الجمع ما دل على أكثر من اثنين، ولا واحد له من لفظه كقوم

ورهط وإبل ونساء وطائفة وجماعة، أوله واحد من لفظه مع كونه ليس من أوزان الجموع، كركب وصحب اهـ. من «الخضري على ابن عقيل» مع التصرف.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ وهو الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه ينعم بلا غرض ولا يطلب مدحاً.

﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ والقلم ما تكتب به، سمي بالقلم؛ لأنه يقلم ويقص أولاً، ثم يقطع رأسه ثانياً، ويكون من القصب الفارسي بنوعيه ومن شجرة مريم وغيرهما، وهذا بالنظر إلى ما في العصر الأول، ومنه تقليم الأظافر، قال بعض الشعراء المُحْدَثين يصف القلم:

فَكَأَنَّهُ وَٱلْحِبْرُ يَخْضُبُ رَأْسَهُ   شَيْخٌ لِوَصْلِ خَرِيْدَةٍ يَتَصَنَّعُ
أَلاَّ أُلاَحِظُهُ بِعَيْنِ جَلاَلَةٍ   وَبِهِ إِلَىٰ ٱللَّهِ ٱلصَّحَائِفُ تُرْفَعُ

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ الرجعى: مصدر لرجع الثلاثي، كالرجوع والمرجع، والألف فيه للتأنيث، نظير ذكرى ورقبى.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يَطْغَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ رآه أصله: رَأَيَهُ قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل استغنى استَغْنَيَ بوزن استفعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ أصله: يَنْهَيُ بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أصله: صَلَّيَ بوزن فَعَّل، أُعلّ بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أصله: ينتهي، حذفت منه الياء للجازم، فوزنه: يفتع.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أصله: تُطْوِعْه، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت فدخل الجازم عليه، فسُكن آخر الفعل، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فوزنه: تفله.

﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ السفع: الأخذ والقبض على الشيء وجذبه بشدة، وفي «المختار»: سفع بناصيته؛ أي: أخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾، وسفعته النار والسموم إذا لفحته لفحاً يسيراً، فغيرت لون البشرة، وبابهما: قطع، والناصية شعر مقدم

الرأس اهـ. «خازن»، وتطلق على مقدم الرأس، وإن لم يكن فيه شعر.

﴿خَاطِئَةٍ﴾ في فعلها، وفي «المصباح»: والخطأ مهموز بفتحتين ضد الصواب، وهو اسم من أخطأ فهو مخطىء قال أبو عبيدة: خَطِىءَ خطأ من باب علم، وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد، وقال غيره: خطىء في الدين وأخطأ في كل شيء عامداً كان أو غير عامد، وقيل: خطىء إذا تعمد ما نهي عنه فهو خاطىء، وأخطأ، إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، فإن أراد إلى غير الصواب وفعله.. قيل: قصده أو تعمده، والخطأ الذنب تسمية بالمصدر اهـ.

﴿نَادِيَهُۥ﴾ وفي «المصباح»: ندا القوم ندواً ـ من باب غزا ـ اجتمعوا، ومنه اشتُق النادي وهو مجلس القوم للتحدث، وفي «المختار»: ناداه جالسه في النادي، وتنادَوا تجالسوا في النادي، والنَّدِي على وزن فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى، فإن تفرق القوم عنه فليس بندي، ومنه سميت دار الندوة التي بناها قصي بمكة؛ لأنهم كانوا ينتدون فيها؛ أي: يجتمعون للمشاورة اهـ.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ واحدها: زِبْنِية ـ بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه ـ، وتخفيف الياء من الزَّبْن وهو: الدفع، أو زبني على النسب، وأصله زبَّاني بتشديد الياء، فالتاء عوض عن الياء اهـ. «بيضاوي»، وفي «المختار»: واحد الزبانية، زبان أو زابان اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإطناب بتكرير الفعل في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَقٍ﴾.

ومنها: إيراده بلفظ الجمع، حيث لم يقل علقة بناء على أن الإنسان في معنى الجمع؛ لأن الألف فيه للاستغراق، أو لمراعاة الفواصل، ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ومنها: تعليل طغيان الإنسان برؤيته لنفسه الاستغناء؛ للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا﴾ كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ.

ومنها: تنكير عبد لتفخيمه ﷺ، كأنه قيل: ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربه.

ومنها: العدول عن ينهاك إلى ﴿يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾؛ للدلالة على أن النهي للعبد كان عن إقامة خدمة مولاه، ولا أقبح منه.

ومنها: الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ فإن الناصية عبارة عن الشخص نفسه، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، فقد أسند الكذب والخطأ إلى الناصية، وفي الحقيقة أنهما وصف لصاحبها، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء، كأن الكافر بلغ في الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته، وكان أبو جهل كاذباً على الله في أنه لم يرسل محمداً، وكاذباً في أنه شاعر كاهن ساحر مثلاً، وخاطئاً بما تعرض له ﷺ بأنواع الأذية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ والمراد أهل النادي، فالنادي لا يدعى، وإنما يدعى أهله، فأطلق المحل وأريد الحال، فالمجاز مرسل علاقته المحلية، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون فيه كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف على عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على ثلاثة مقاصد:

١ ـ حكمة الله تعالى في خلق الإنسان، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية.

٢ ـ إنه لكرمه وعظيم إحسانه عَلَّمه من البيان ما لم يعلم، وأفاض عليه من العلوم ما جعل له القدرة على غيره مما في الأرض.

٣ ـ بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان، فإذا رأى نفسه غنياً صلف وتجبر واستكبر[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمَّ تفسير هذه السورة في عصر يوم الجمعة اليوم الثاني من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة القدر

سورة القدر مكية عند أكثر المفسرين[1]، نزلت بعد سورة عبس، كذا قال الماوردي، وقال الثعلبي: هي مدنية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي: أنها أول سورة نزلت بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة، قال الخازن: والقول بأنها مدنية أصح، وهي خمس آيات وثلاثون كلمة، ومئة واثنا عشر حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أن في تلك أمر رسول الله ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق، واسم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وفي هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان العليم بمصالح الناس، وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة، قال أبو حيان: فكأنه تعالى قال: اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ انتهى.

فضلها: وروي في فضلها أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان، وأحيا ليلة القدر» ذكره البيضاوي، وهو موضوع لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة القدر كلها محكمة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ، وسميت سورة القدر؛ لذكر لفظ القدر فيها.

تسميتها: وسميت ليلة القدر؛ إما لتقدير الأمور وقضائها فيها؛ أي: إظهار تقديرها للملائكة بأن يكتب لهم ما قدره في تلك السنة ويعرفهم إياه، وليس المراد منه: أنه يحدثه في تلك الليلة؛ لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، فالقدر بمعنى التقدير، وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة البالغة، قيل: للحسين بن

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

الفضل: أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: نعم، قيل له: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سَوْق المقادير إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدر.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن الله سبحانه يقدر في ليلة القدر، ويكتب كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة المقبلة، فيسلمه إلى مدبرات الأمور من الملائكة، فيدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل، ونسخة الحروب والرياح والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

فَكَمْ مِنْ فَتَىً يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ آمِنَاً ... وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ
وَكَمْ مِنْ شُيُوْخٍ تَرَتَجِيْ طُوْلَ عُمْرِهِمْ ... وَقَدْ رَهَقَتْ أَجْسَادَهُمْ ظُلْمَةُ ٱلْقَبْرِ
وَكَمْ مِنْ عَرُوْسٍ زَيَّنُوْهَا لِزَوْجِهَا ... وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمْ لَيْلَةَ ٱلْقَدْرِ

وإما لخطرها وشرفها على سائر الليالي، فالقدر بمعنى المنزلة والشرف إما باعتبار العامل على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف، وإما باعتبار نفس العمل على معنى أن الطاعة الواقعة في تلك الليلة لها قدر وشرف زائد.

وعن أبي بكر الوراق ـ رحمه الله تعالى ـ سميت ليلة القدر؛ لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، على رسول ذي قدر، لأمة لها قدر، ولعله تعالى إنما ذكر لفظ القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب، وقال الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة الضيق؛ لأن الأرض تضيَّق فيها بالملائكة، فالقدر بمعنى الضيق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

أسباب النزول

سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزله الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو في النهار حتى يمسي، فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل.

وفي الحديث[2]: «أن أربعة من الأنبياء عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع، فعجب الصحابة من ذلك، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾...﴾ السورة، فسروا بذلك.

تقدمة: تبين ميقات هذه الليلة المباركة[3]: أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسول الله ﷺ في أربعة مواضع من كتابه الكريم، والقرآن يفسر بعضه بعضاً:

١ ـ قوله في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

٢ ـ قوله في سورة الدخان: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ

---

(١) لباب النقول. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

٣ ـ قوله في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾.

٤ ـ قوله في سورة الأنفال: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾.

فآية القدر صريحة في أن إنزال القرآن كان في ليلة القدر، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان في ليلة مباركة، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان في شهر رمضان، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله ﷺ كان في ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين في غزوة بدر التي فرق الله سبحانه فيها بين الحق والباطل، ونصر حزب الرحمٰن على حزب الشيطان، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هي ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا هذا القرآن الكريم جملة واحدة. ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ في مكان يقال له: بيت العزة، ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ نجوماً متفرقة في مدة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل بحَسَب الوقائع والحاجة إليه.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ النون(١) فيه للعظمة، أو للدلالة على الذات مع الصفات والأسماء، والضمير للقرآن؛ لأن شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه، وإرجاع الضمير إليه، فكأنه حاضر في جميع الأذهان، وعظمه بأن أسند إنزاله إلى جنابه مع أن نزوله إنما يكون بواسطة الملك، وهو جبريل على طريقة القصر بتقديم الفاعل المعنوي، إلا أنه اكتفى بذكر الأصل عن ذكر التبع، قال في بعض التفاسير: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾: مبتدأ وخبر في الأصل بمعنى: نحن أنزلناه، فأدخل ﴿إِنَّ﴾ للتحقيق، فاختير

---

(١) روح البيان.

اتصال الضمير للتخفيف، ومعنى صيغة الماضي أنا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينا به وقدرناه في الأزل.

ثم إن الإنزال(١) يُستعمل في الدفعي، والقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل أُنزل منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، وهذه السورة من جملة ما أنزل، وجوابه أن المراد أن جبريل نزل به جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وأملاه على السفرة؛ أي: الملائكة الكاتبين في تلك السماء، ثم كان ينزل على النبي ﷺ منجماً على حَسَب المصالح، وكان ابتداء تنزيله أيضاً في مثل تلك الليلة.

وفيه إشارة(٢) إلى أن بيت العزة أشرف المقامات السماوية بعد اللوح المحفوظ لنزول القرآن منه إليه، ولذلك قيل بفضل السماء الأولى على أخواتها؛ لأنها مقر الوحي الرباني، وقيل: لشرف المكان بالمكين، وكل منهما وجه، فإن السلطان إنما ينزل على أنزه مكان، ولو فرضنا نزوله على مسبخة.. لكفى نزوله هناك شرفاً لها، فالمكان الشريف يزداد شرفاً بالمكين الشريف، كما سبق في سورة البلد.

ففي نزول القرآن بالتدريج إشارة إلى تعظيم الجانب المحمدي، كما تدخل الهدايا شيئاً بعد شيء على أيدي الخدام تعظيماً للمُهدىٰ إليه بعد التسوية بينه وبين موسى عليهما السلام بإنزاله جملة إلى بيت العزة، وفي التدريج أيضاً تسهيل للحفظ وتثبيت لفؤاده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وكلام الله المنزل قسمان: القرآن، والخبر القدسي؛ لأن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى، لأن جبريل أداها بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها باللفظ.

والسر في ذلك التعبد بلفظه، والإعجاز به فإنه لا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه من الإعجاز لفظاً، ومن الأسرار معنى، فكيف يقوم لفظ الغير ومعناه مقام حرف القرآن.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ومعناه: ثم إن اللوح المحفوظ قلب هذا التعين، ولكن قلب الإنسان ألطف منه؛ لأنه زبدته وأشرفه؛ لأن القرآن نزل به الروح الأمين على قلب النبي المختار.

وهنا سؤال: وهو أن الملائكة بأَسْرِهِم صعقوا ليلة نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، كما ورد فيما وجهه.

والجواب: أن محمداً ﷺ عندهم من أشراط القيامة، والقرآن كتابه، فنزوله دل على قيام الساعة، فصعقوا هيبة منه، وإجلالاً لكلامه ووعده ووعيده، ثم إن القرآن كلامه القديم أنزله في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وهذا هو البيان الأول، ولم ندر نهاراً أنزل فيه أم ليلاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ وهذا هو البيان الثاني، ولم ندر أي ليلة هي، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾، فهذا هو البيان الثالث الذي هو غاية البيان.

فالصحيح أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام إلى مثلها هي ليلة القدر، ولتقدير الأمور فيها، سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة تقدير الأحكام، والأمور السفلية، ويشهد التنزيل لما ذكرنا؛ إذ في أول الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، ثم وصفها فقال: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾، والقرآن إنما نزل في ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة مواطئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾، كذا في «قوت القلوب» للشيخ أبي طالب المكي رحمه الله تعالى.

فإن قلت[1]: ما الحكمة في إنزال القرآن ليلاً؟

قلت: لأن أكثر الكرامات ونزول النفحات والأسرار في السموات يكون بالليل، والليل من الجنة؛ لأنها محل الاستراحة، والنهار من النار؛ لأن فيه المعاش والتعب، والنهار حظ اللباس والفراق، والليل حظ الفراش والوصال، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار؛ لأن قلب الإنسان فيه أجمع، والمقصود من

---

(١) روح البيان.

العبادة هو حضور القلب.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؛ أي: ما مقدار شرفها، وليس المراد: ما حقيقتها؟ فإنها مدة مخصوصة من الزمان، أي: وأي شيء أعلمك يا محمد ما هي؛ أي: إنك لا تعلم كنهها؛ لأن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، لا يدريها أحد منهم، ولا يدريها إلا علام الغيوب، وهو تعظيم للوقت الذي أنزل فيه، ومن بعض فضائل ذلك الوقت أنه يرتفع سؤال القبر عمن مات فيه، وكذا في سائر الأوقات الفاضلة، ومن ذلك العيد، ثم مقتضى الكرم أن لا يسأل بعده أيضاً.

فصل في فضل ليلة القدر وما وقع فيها من الاختلاف

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً.. غفر له ما تقدم من ذنبه» متفق عليه.

واختلف العلماء في وقتها[1]، فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ، ثم رُفعت لقوله ﷺ حين تلاحى الرجلان: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، فعسى أن يكون خيراً لكم» وهذه غلط ممن قال بهذا القول، لأن آخر الحديث يرد عليه، فإنه ﷺ قال في آخره: «فالتمسوها في العشر الأواخر»: في التاسعة والسابعة والخامسة، فلو كان المراد: رفع وجودها لم يأمر بالتماسها، وعامة الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة.

روي عن عبد الله بن خنيس مولى معاوية قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر رُفعت، قال: كذب من قال ذلك، قلت: هي في كل شهر رمضان استقبله؟ قال: نعم.

ومن قال ببقائها ووجودها اختلفوا في محلها، فقيل: هي متنقلة تكون في سنة في ليلة، وفي سنة أخرى في ليلة أخرى هكذا أبداً، قالوا: وبهذا يُجمع بين الأحاديث الواردة في أوقاتها المختلفة، وقال مالك والثوري وأحمد وإسحاق وأبو

---

(١) الخازن.

ثور: إنها تنتقل في العشر الأواخر من رمضان، وقيل: بل تنتقل في رمضان كله، وقيل: إنها في ليلة معينة لا تنتقل عنها أبداً في جميع السنين ولا تفارقها، فعلى هذا هي في ليلة من السنة كلها، وهو قول ابن مسعود وأبي حنيفة وصاحبيه.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: من يقم الحول يصبها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمٰن، أما إنه علم أنها في شهر رمضان، ولكن أراد أن لا يتكل الناس، وقال جمهور العلماء: إنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة، فقال أبو رزين العقيلي: في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل: هي ليلة سبعة عشر، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر، ويحكى هذا عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً والحسن، والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من رمضان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر، ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» رواه مسلم.

وذهب الشافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين.

وعن أبي هريرة أن أبا سعيد قال: اعتكفنا مع رسول الله ﷺ العشر الأواسط، فلما كانت صبيحة عشرين نقلنا متاعنا، فأتانا النبي ﷺ، فقال: «من كان اعتكف فليرجع إلى معتكفه وأنا أريت هذه الليلة ورأيتني أسجد في ماء وطين، فلما رجع إلى معتكفه هاجت السماء فمُطِرنا، فوالذي بعثه بالحق، لقد هاجت السماء من آخر ذلك اليوم وكان المسجد على عريش، ولقد رأيت على أنفه وأرنبته أثر الماء والطين» متفق عليه.

وفي رواية نحوه إلا أنه قال: حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين، وهي الليلة

التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال: «من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر».

وورد في فضل ليلة القدر: اثنان وعشرون حديثاً، عن عبد الله بن أنيس قال: كنت في مجلس لبني سلمة وأنا أصغرهم، فقالوا: من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ وذلك في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان فخرجت، فوافيت رسول الله ﷺ فقلت: أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال: كم الليلة؟ فقلت: اثنتان وعشرون، فقال: هي الليلة، ثم رجع، فقال: أو القابلة يريد ثلاثاً وعشرين. أخرجه أبو داود.

وذهب جماعة من الصحابة وغيرهم أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين، ومال إليه الشافعي أيضاً، وعن الصنابحي: أنه سأل رجلاً هل سمعت في ليلة القدر شيئاً؟ قال: أخبرني بلال مؤذن رسول الله ﷺ أنها في أول السبع من العشر الأواخر، وهذا اللفظ مختصر عن عبد الله بن أنيس قال: قلت يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها، وأنا أصلي فيها بحمد الله، فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد، فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين»، قيل لابنه: كيف كان أبوك يصنع؟ قال: كان يدخل المسجد إذا صلى العصر فلا يخرج إلا لحاجة حتى تصلىٰ الصبح فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها، ولحق بباديته أخرجه أبو داود، ولمسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني أسجد صبيحتها في ماء وطين» قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ وانصرف، وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، ويحكى عن بلال وابن عباس والحسن أنها ليلة أربع وعشرين.

وعن ابن عباس قال: التمسوها في أربع وعشرين. أخرجه البخاري. وقيل: هي في ليلة خمس وعشرين، دليله قوله ﷺ: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» وقيل: هي ليلة سبع وعشرين، ويحكى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم: أبي بن كعب، وابن عباس وإليه ذهب أحمد.

وعن زر بن حبيش قال: سمعت أبي بن كعب يقول: وقيل له: إن عبد الله بن مسعود يقول: من قام السنة أصاب ليلة القدر، قال أبيّ: والله الذي لا إلٰه إلا هو

إنها لفي رمضان يحلف ولا يستثني، فوالله إني لأعلم أي ليلة هي: هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها.

وعن معاوية عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة سبع وعشرين». أخرجه أبو داود، وقيل: هي ليلة تسع وعشرين، دليله قوله: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» وقيل: هي ليلة آخر الشهر، وعن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وأنا أسمع، فقال: «هي في كل رمضان» وأخرجه أبو داود قال: ويروى موقوفاً عليه.

ذكر ليال مشتركة

وعن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ في ليلة القدر: «اطلبوها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، ثم سكت» أخرجه أبو داود.

وعن عتبة بن عبد الرحمٰن قال: حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة، فقال: ما أنا بملتمسها بشيء سمعته من رسول الله ﷺ إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع يبقين»، أو في سبع يبقين، أو في خمس يبقين، أو في ثلاث يبقين، أو آخر الشهر قال: وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد. أخرجه الترمذي.

وعن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال النبي ﷺ: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» أخرجه البخاري.

قوله: «فتلاحى رجلان»؛ أي: تخاصم رجلان، قوله: «فرفعت» لم يرد رفع عينها، وإنما أراد رفع بيان وقتها، ولو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هي في العشر

في سبع مضين، أو سبع يبقين» يعني: ليلة القدر أخرجه البخاري، وفي رواية: «في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى» قال أبو عيسى: روي عن النبي ﷺ في ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وآخر ليلة من رمضان.

قال الشافعي: كان هذا عندي والله أعلم أن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يُسئل عنه يقال له: ألتمسها في كذا؟ فقال: التمسوها في ليلة كذا، قال الشافعي: وأقوى الروايات عندي فيها ليلة إحدى وعشرين، قال البغوي: وبالجملة أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة المحمدية ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه ورضاه في الطاعات؛ ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي، لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة؛ ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها.

ومن علاماتها

ما روي عن الحسن رفعه «أنها ليلة بلجة؛ أي: مضيئة سمحة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها»، وعن عائشة قالت: (كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر)، متفق عليه. ولمسلم عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره)، وعنها أن النبي ﷺ: (كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده) متفق عليه.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ: (كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان) متفق عليه.

وعن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: إن علمتُ ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» أخرجه الترمذي، وقال الحديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي وابن ماجه.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾؛ أي: إنا بدأنا تنزيل الكتاب

الكريم في ليلة الشرف، ثم أنزلناه بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسَب الحوادث التي كانت تدعو إلى نزول شيء منه تبياناً لما أشكل من الفتوى فيها، أو عبرة بما يقتص فيه من قصص وزواجر، ولا شك أن البشر كانوا في حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى، وأمر النشأة الآخرة؛ لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقة حتى يستنوا لأنفسهم من النظم ما يغنيهم عن الدين والتدين وحوادث الكون التي نراها رأي العين كفيلة بأن تبين وجه الحق في ذلك، فإن من بدء الخليقة يُبدِئون ويعيدون ويصححون ويراجعون في قوانينهم الوضعية، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمان أنها لا تكفي لهدي المجتمع، والأخذ بيده إلى موضح الرشاد، ومنعه من الوقوع في مهاوي الزلل، ومن ثم قيل: لا غنى للبشر عن دين ولا عن وازع روحي يضع لهم مقاييس الأشياء، وقيمها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها، كما لا غنى له عن الاعتقاد في قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها.

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط بها إلا هو، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾؛ أي: ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، وفي هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء، وإنما يعلمه علام الغيوب الذي خلق العوالم، وأنشأها من العدم.

ثم أوضح مقدار فضلها من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول منها قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ أي: قيامها والعبادة فيها. ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ أي: من صيام ألف شهر وقيامها ليس فيها ليلة القدر حتى لا يلزم تفضيل الشيء على نفسه، فـ﴿خَيۡرٞ﴾ هنا للتفضيل؛ أي: أفضل وأعظم قدراً، وأكثر أجراً من تلك المدة، وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، وتخصيص الألف بالذكر: إما للتكثير؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها، ولا تريد حقيقتها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، أو لما روي أنه ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل اسمه: شمسون لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجب المؤمنون منه، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأُعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي، رواه ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: إن الرجل فيما مضى

كان لا يقال له: عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أَحْيَوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد، وقيل: رأى النبي ﷺ أعمار الأمم كافة، فاستقصر أعمار أمته، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجُعلت لنا خيراً من ألف شهر لسائر الأمم. أخرجه مالك في «الموطأ» ممن يثق به من أهل العلم، وقيل غير ذلك.

والمعنى(١): أي هذه الليلة أعظم قدراً وأكثر أجراً من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى، وتكون فاتحة التشريع الجديد الذي أنزل لخير البشر، ويكون فيها وضع الحجر الأساسي لهذا الدين الذي هو آخر الأديان الصالح لهم في كل زمان ومكان هي خير من ألف شهر من شهورهم التي كانوا يتخبطون فيها في ظلام الشرك وضلال الوثنية حيارى، لا يهتدون إلى غاية، ولا يقفون عند حد. والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعاني التي تدعو إلى التفضيل، وله الحكمة البالغة، وأي عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدىء فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه ﷺ حقب متتابعة، وهم في ضلال الوثنية؟ وأي شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلٰهية على قلب رسوله ﷺ بعباده يبشرهم وينذرهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويجعل منهم أمة تحرر الناس من استعباد القياصرة، وجبروت الأكاسرة، ويجمعهم بعد الفرقة، ويلم شعثهم بعد الشتات؟.

فحق على المسلمين أن يتخذوا هذه الليلة عيداً لهم، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور السماوي الذي وجّه المسلمين تلك الجهة الصالحة النافعة، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم شكراً له على نعمه ورجاء مثوبته.

قال المفسرون: معنى هذه الآية(٢): العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى في تلك الليلة من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة.

ومن المعلوم(٣): أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة،

---

(١) المراغي.　　(٢) الخازن.　　(٣) المراح.

لكن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه، ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة، مع أن صلاة الجماعة قد تنقص صورة، فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة، وأيضاً فأنت إذا قلت لمن يُرجَم بالزنا هذا زان فلا بأس، ولو قلته للنصراني فهو قذف يوجب التعزير، ولو قلته للمحصَن فهو قذف يوجب الحد، ولو قلته في حق عائشة كان ذلك القول كفراً، ثم القائل بقوله: هذا زان قد ظن أن هذه اللفظة سهلة، مع أنها أثقل من الجبال، فثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب؛ لاختلاف وجوهها، فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعة الكثيرة.

قال في «الكواشي»: ثم إن[1] نهار ليلة القدر مثل ليلة القدر في الخير، واختلفوا في وقتها كما مر، فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وإنما جُعلت في العشر الأخير الذي هو مظنة ضعف الصائم وفتوره في العبادة؛ ليتجدد جِده في العبادة رجاء إدراكها وجُعلت في الوتر؛ لأن الله سبحانه وتر يحب الوتر.

والوجه الثاني من فضلها: قوله عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة تهبط الملائكة كلهم من كل سماء إلى الأرض، وهو الأظهر؛ لأن الملائكة إذا نزلت في سائر الأيام إلى مجلس الذكر، فلأن ينزلوا في تلك الليلة مع علو شأنها أولى، أو إلى السماء الدنيا قالوا: ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل ومن صاعد كأهل الحج، فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة، ومواضع النسك بأسرهم، لكن الناس بين داخل وخارج، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر، وذكر لفظ ﴿تَنَزَّلُ﴾ المفيد للتدريج، وبه يندفع ما يرد أن الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتملها الأرض، وكذا السماء الدنيا على أن شأن الأرواح غير شأن الأجسام، والملائكة وإن كان لهم أجسام لطيفة يقال لهم: الأرواح.

وهذه الجملة مستأنفة مبينة لما له فضلت على ألف شهر، والحكمة[2] في نزولهم في تلك الليلة أنهم لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وظهر أن الأمر

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

بخلاف ما قالوه، وتبين حال المؤمنين، وما هم عليه من الطاعة والعبادة والجد والاجتهاد.. نزلوا إليهم ليسلموا عليهم ويعتذروا مما قالوه، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم، وقوله: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو: جبريل عليه السلام، قاله أكثر المفسرين، وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ذكره ابن الجوزي.

ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه، وقيل: إن الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقيل: إن الروح ملك عظيم ينزل مع الملائكة تلك الليلة، ومن عظمه أنه لو التقم السموات والأرضين كانت له لقمة واحدة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿تَنَزَّلُ﴾ أصله: تتنزل بتاءين، وقرأ طلحة بن مصرف وابن سميفع بضمها على البناء للمفعول، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، أو بمحذوف هو حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تنزل الملائكة وتهبط في تلك الليلة كلهم، والروح، بإذن ربهم؛ أي: بأمره وإرادته، أو حال كونهم متلبسين بإذن ربهم وإرادته.

وهذا يدل[٢] على أنهم كانوا يرغبون إلينا ويشتاقون، فيستأذنون فيؤذن لهم في النزول إلينا، فإن قيل: كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة ذنوبنا؟.. قلنا: لا يقفون على تفصيل المعاصي. روي أنهم يطالعون اللوح المحفوظ، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة، فإذا وصلوا إلى معاصيه أُرخي الستر، فلا يرونه فحينئذ يقولون: سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح، أو لأنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات كإطعام الطعام وأنين العصاة، وفي الحديث القدسي: «لأنين المذنبين أحب إلي من زجل المسبحين» فيقولون: تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا، وكيف لا يكون أحب، وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين، وأنين المذنبين إظهار

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

لغفارية رب العالمين.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أيضاً؛ أي: تنزل من أجل كل أمر من الأمور قد قدر وقضي في تلك السنة من خير أو شر؛ أي: لأجل إنفاذ كل أمر قد قدر في تلك السنة، فـ﴿مِّن﴾ للتعليل، فإن قيل[1]: المقدرات لا تُفعل في تلك الليلة، بل في تمام السنة، فلماذا تنزيل الملائكة فيها لأجل تلك الأمور؟.. قيل: لعل تنزلهم؛ لتعين إنفاذ تلك الأمور، وتنزلهم لأجل كل أمر ليس تنزل كل واحد لأجل كل أمر، بل ينزل الجمع لأجل جميع الأمور حتى يكون في الكلام تقسيم العلل على المعلولات، وقيل: إن ﴿مِّنْ﴾ بمعنى الباء؛ أي: بكل أمر من الخير والبركة كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله، قيل: يقسم جبريل عليه السلام تلك الليلة بقية الرحمة في دار الحرب على من علم الله أنه يموت مسلماً، فبتلك الرحمة التي قسمت عليهم ليلة القدر يُسلِمون ويموتون مسلمين.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَمْرٍ﴾ وهو واحد الأمور، وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي: ﴿من كل امرىء﴾ مذكر امرأة؛ أي: من أجل إنسان، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة، فيسلمون على كل إنسان، فـ﴿مِّن﴾ على هذا بمعنى: على، والأول أولى، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وما بعده مستأنفة، والمعنى؛ أي[3]: تنزلت الملائكة من عالمها حتى تمثلت لبصره ﷺ، وتمثل له الروح جبريل مبلغاً للوحي، وهذا التجلي على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هيأه لقبوله ليبلغ لعباده ما فيه الخير والبركة لهم، ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شؤونه تعالى، لا نبحث عن كيفيته، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره، فما عرف العالم بعد علمه المادي بشتى وسائله إلا النزر اليسير من الأكوان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والخلاصة: أن هذه الليلة عيد المسلمين لنزول القرآن فيها، وليلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك تشاركهم الملائكة فيها بما يشعر بعظمتها، ويشعر بفضل الإنسان، وقد استخلفه في الأرض.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

والوجه الثالث قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾؛ أي: ما هي إلا سلامة وخير كلها، لا شر فيها، وتقديم[1] الخبر فيه؛ لإفادة الحصر مثل: تميمي أنا؛ أي: ما تلك الليلة إلا ذات سلامة؛ أي: لا يحدث فيها داء ولا شيء من الشرور والآفات، كالرياح والصواعق ونحو ذلك مما يخاف منه، بل كل ما ينزل في هذه الليلة إنما هو سلامة ونفع وخير، ولا يستطيع الشيطان فيها سوءاً، ولا ينفذ فيها سحر ساحر، والليلة ليست نفس السلامة بل ظرف لها، ومع ذلك وُصفت بالسلامة للمبالغة في اشتمالها عليها، وعُلم منه أنه يُقضى في غير ليلة القدر كل من السلامة والبلاء، يعني: يتعلق قضاء الله تعالى بهما، وقال الشعبي: ما هي إلا ذات تسليم من الملائكة على أهل المساجد وسائر المؤمنين من حين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن، ومن أصابته تسليمة من الملائكة غفر له ذنبه، وفي الحديث: «ينزل جبريل كل ليلة القدر في كبكبة من الملائكة؛ ـ أي: جماعة متضامة ـ يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى»، وقيل يعني: سلام الملائكة بعضهم على بعض، قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: من مبدئها إلى وقت طلوع الفجر فيها، وقدر المضاف؛ لكون الغاية من جنس المغيا؛ أي: إن ذلك السلام أو تلك السلامة تستمر وتدوم في تلك الليلة إلى وقت طلوع الفجر، فتصعد الملائكة عند طلوعه، فيعود الزمن على حاله الأول، فمطلع بفتح اللام مصدر ميمي، ومن قرأ: بكسر اللام جعله اسماً لوقت الطلوع؛ أي: اسم زمان، و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ على أنها غاية لحكم التنزل؛ أي: لمكثهم في تنزلهم، أو لنفس تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر، وقال بعضهم ليلة القدر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر سلام؛ أي: يسلم فيها الملائكة على المطيعين إلى وقت طلوع الفجر، ثم يصعدون إلى السماء، فـ﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بـ﴿سَلَٰمٌ﴾.

قالوا[2]: علامة ليلة القدر أنها ليلة لا حارة ولا باردة، وتطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها كما مر؛ لأن الملائكة تصعد عند طلوع الشمس إلى السماء،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فيمنع صعودها انتشار شعاعها لكثرة الملائكة، أو لأنها لا تطلع في هذه الليلة بين قرني الشيطان، فإنها على ما جاء في بعض الأخبار: تطلع كل يوم بين قرني الشيطان، ويزيد الشيطان في بث شعاعها وتزيين طلوعها؛ ليزيد في غرور الكافرين، ويحسِّن في أعين الساجدين لها، ومن علامتها أيضاً على ما قيل: أنه يعذب الماء الملح تلك الليلة، وأما النور الذي يُرى ليلة القدر فهو نور أجنحة الملائكة، أو نور جنة عدن تُفتح أبوابها ليلة القدر، أو نور لواء الحمد الذي ينزل به جبريل عليه السلام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَطۡلَعِ﴾ - بفتح اللام - وقرأ أبو رجاء والأعمش وابن وثّاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه بكسرها، فقيل: هما مصدران في لغة بني تميم، وقيل: المصدر بالفتح، وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز.

والمعنى[2]: أي هذه الليلة التي حقها الخير بنزول القرآن، وشهود ملائكة الرحمٰن، ليلة كلها سلامة وأمن، وكلها خير وبركة من مبدئها إلى نهايتها، ففيها فرَّج الله تعالى الكرب عن نبيه ﷺ، وفتح له سبل الهداية والإرشاد.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ① وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ② لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ③ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ④ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ⑤﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، والكاف في محل النصب مفعول أول لـ﴿أدرىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاستفهامية معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة المعلقة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ﴿أدرىٰ﴾. ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر تقديره: وما فضائلها. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، والجملة مستأنفة واقعة في جواب السؤال المذكور في الجملة التي قبلها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: متلبسين. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أيضاً، و﴿مِّن﴾ بمعنى اللام التعليلية؛ أي: من أجل كل أمر قضاه الله تعالى في تلك الليلة. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر مقدم. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة واقعة في جواب السؤال المذكور سابقاً. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وفيه إشكال، وهو الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ، والجواب أن الظروف والجار والمجرور يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها، والأحسن كما قال الخطيب أن يتعلقا بمحذوف قدره الخطيب: يستمرون على التسليم من غروب الشمس حتى مطلع الفجر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ والقَدْر ـ بسكون الدال ـ إما بمعنى العظمة والشرف من قولهم لفلان: قدر عند فلان؛ أي: منزلة ودرجة وشرف، أو بمعنى التقدير: وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حَسَبما اقتضت الحكمة والمصلحة، سميت ليلة القدر بمعنى المنزلة والشرف إما باعتبار العامل فيها على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف، وإما باعتبار نفس العمل على معنى أن الطاعة الواقعة في تلك الليلة لها قدر وشرف زائد، قال أبو بكر الوراق: سميت ليلة القدر؛ لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر على رسول ذي قدر لأمة لها قدر، وسميت ليلة القدر بمعنى التقدير؛ لتقدير الأمور الواقعة في تلك السنة فيها؛ أي: لإظهار تقديرها للملائكة، وإلا فالتقدير نفسه أزلي أو بمعنى الضيق، قال الخليل: سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة الضيق؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، فالقدر بمعنى الضيق،

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أصله: تتنزل بتائين، حذفت إحداهما للتخفيف على حد قول ابن مالك:

وَمَا بِتَائَيْنِ ٱبْتُدِيْ قَدْ يُقْتَصَرْ فِيْهِ عَلَىٰ تَاءٍ كَتَبْيِيْنِ ٱلْعِبَرْ

والتاء في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لتأنيث الجمع، وإذا حذفت امتنع صرفه لصيغة منتهى الجموع، وبه يلغز فيقال: كلمة إذا حذف من آخرها حرف امتنع صرفها. جمع: ملك، وأصله: ملائك، ووزنه فعال، فالهمزة زائدة، ومادته تدل على المُلك والقوة والسلطنة، وقيل: وزنه مفعل، فالميم زائدة، وقيل: هو مقلوب، وأصله مالك من الألوكة وهي الرسالة، قلب قلباً مكانياً فصار: ملائك، ففي وزنه القولان المتقدمان، وعلى كل فيقال: سقطت الهمزة فصار ملك، والملائكة أجسام نورانية لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، لهم قدرة على التشكلات بالصور غير الخسيسة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ يصح أن يكون ضمير ﴿هِيَ﴾ عائداً على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، و﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى التسليم، والمعنى: أن الملائكة يسلمون على المؤمنين، ويصح أن يكون عائداً على ﴿لَيْلَةِ﴾، و﴿سَلَٰمٌ﴾ أيضاً بمعنى التسليم، والمعنى: أن الليلة ذات تسليم من الملائكة على المؤمنين أو من بعضهم على بعض، ويصح على هذا الوجه أن يُجعل ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى سلامة؛ أي: ليلة القدر ذات سلامة من كل شر.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بفتح اللام وكسرها، فهما مصدران في لغة بني تميم، وقيل: المصدر بالفتح، والموضع بالكسر عند أهل الحجاز اهـ «بحر». وعبارة «السمين»: وقرأ الكسائي: ﴿مطلع﴾ بكسر اللام، والباقون بفتحها، والفتح هو القياس، وهل هما مصدران أو المفتوح مصدر والمكسور اسم مكان؟ فيه خلاف اهـ، وعبارة «مناهل الرجال على لامية الأفعال» عند قول ابن مالك:

مَظْلَمَةٌ مَطْلَعُ ٱلْمَجْمَعِ مَحْمَدَةٌ مَذِمَّةٌ مَنْسِكٌ مَضِنَّةُ ٱلْبُخَلاَ

واعلم: أنه قد تقدم لك أن الشاذ في باب مفعل ثلاثة أضرب:

الضرب الأول منها: ما جاء فيه وجهان: الفتح والكسر، وهو اثنتان وعشرون كلمة: الأول منها مظلمة، والثاني منها مطلع، يقال: طلع الكوكب يطلُع ـ من باب نصر ـ طلوعاً ومطلعاً ـ بالفتح ـ على القياس، ومطلِعاً ـ بالكسر ـ على الشذوذ؛ أي:

طلوعاً إذا ظهر، وهذا مطلَع الشمس ـ بالفتح ـ على القياس، ومطلع القمر ـ بالكسر ـ على الشذوذ؛ أي: مكان طلوعهما أو زمانه. انتهى.

و﴿ٱلْفَجْرِ﴾ الضوء المنتشر في أفق السماء عرضاً عند قرب طلوع الشمس، والفجر إذا أطلق انصرف إلى الفجر الصادق؛ لأنه هو الذي يتعلق به الأحكام الشرعية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بـ ﴿إن﴾ المكسورة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لتأكيد الحكم والرد على المنكِر أو الشاك والمخاطبون فيهم ذلك، فقد قالوا: من تلقاء نفسه، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: تنزلت به الشياطين، فرد على جميع ذلك بذكر الإنزال، لا أنه مختلق ولا من أساطير الأولين.

فإن قلت: إن المؤمنين يصدقون خبر المولى بلا توكيد، والكافرون يعاندون ولو تعدد التأكيد.. أجيب عنه بجوابين:

الأول: يمنع أن الكافرين يعاندون مع التأكيد، فإن عاداتهم الانقياد للتأكيدات، فربما حصل لهم هداية بسبب ذلك التأكيد.

الثاني: على تسليم أنهم يعاندون مع التأكيد، فلا نسلِّم حصر معنى إن في التأكيد، بل قد يؤتى بها ترغيباً في تلقي الخير والتنبيه بعظيم قدره وشرف حكمه.

ومنها: الإتيان بضمير المتكلم المعظِّم نفسَه وهو الله تعالى إشعاراً بتعظيم المنزل والمنزل به، ويحتمل أنها للمتكلم ومعه غيره، فإن الله سبحانه أنزله، والملائكة لهم مدخلية في إنزاله، والمعنى: إنا وملائكة قدسنا أنزلناه على حد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾، والإسناد لله حقيقة إجماعاً، وللملائكة قيل كذلك، وقيل: مجاز، وعليه فلا مانع من الجمع بين الحقيقة والمجاز، يقال: بنى الأميرُ وعَمَلَتُهُ المدينةَ، ولا يعترض بالجمع بين القديم والحادث في ضميره فإنه حاصل في ضمير ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ ونحوه، وأما قوله ﷺ للخطيب: «بئس الخطيب» لما

قال: مَن يُطع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن يعصهما فقد غوى، فلأن الخطب محل إطناب.

وقيل: وقف على قوله: ومن يعصهما قبل الجواب اهـ «صاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ حيث شبه الإيحاء بالإنزال، واستُعير الإنزال للإيحاء، واشتُق من الإنزال بمعنى الإيحاء أنزلنا بمعنى: أوحينا بجامع الإعلام في كلٍّ على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأن الإنزال وصف للأجسام، والقرآن عَرَض لا جسم، فكيف يوصف بالإنزال، ويحتمل كون إسناد الإنزال إلى القرآن مجازاً عقلياً، وحقه أن يُسند إلى حامله، فالتجوز إما في الظرف أو الإسناد.

ومنها: التعبير بالإنزال دون التنزيل؛ للدلالة على أن إنزاله في ليلة القدر دفعيٌّ لا تدريجي.

ومنها: الإضمار بلا سبق مرجع في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لأن ضمير الغيبة للقرآن اكتفاء بشهرته؛ لأن شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه، وإرجاع الضمير إليه فكأنه حاضر في جميع الأذهان.

ومنها: الإطناب بذكر ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ثلاث مرات زيادة في الاعتناء بشأنها وتفخيماً لأمرها.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؛ لغرض التفخيم والتعظيم.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ حيث عطف ﴿الروح﴾ الذي هو جبريل مع دخوله في الملائكة إظهاراً لشرفه وجلالة قدره.

ومنها: التعبير بالتنزل دون النزول في قوله: ﴿تَنَزَّلُ﴾ إشارة إلى أنهم ينزلون طائفة بعد طائفة، فينزل فوج ويصعد فوج لضيق الأرض عنهم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ حيث جعل الليلة عين السلام مبالغة في اشتمالها على السلامة على حد: زيد عدل.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾؛ لإفادة الحصر مثل

قولهم: تميميٌ أنا؛ أي: ما هي إلا سلامة.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ ﴿شَهْرٍ﴾ ﴿أَمْرٍ﴾ ﴿ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تتمتان:

الأولى: اختلفت المذاهب في ليلة القدر، فقال مالك: إنها دائرة في العام كله، والغالب كونها في رمضان، والغالب أيضاً كونها في العشر الأواخر منه، وقال أبو حنيفة والشافعي: هي في رمضان لا تتنقل منه، والغالب كونها في العشر الأواخر، واشتهر عن أبي بن كعب وابن عباس وكثير من العلماء: أنها ليلة السابع والعشرين، وأيده بعضهم بطريق الإشارة بأن عدد كلمات السورة ثلاثون كأيام رمضان، واتفق أن كلمة ﴿هِيَ﴾ تمام سبع وعشرين، وطريق آخر في الإشارة: أن حروف ليلة القدر تسعة، وقد ذُكرت في السورة ثلاث مرات، وثلاث في تسعة بسبع وعشرين، ونُقل عن بعضهم: ضبطها بأول الشهر من أيام الأسبوع، وقالوا: إنها تُعلم باليوم الأول من الشهر، فإن كان أوله يوم الأحد أو الأربعاء فهي ليلة تسع وعشرين، أو يوم الاثنين فهي ليلة إحدى وعشرين، أو يوم الثلاثاء أو الجمعة فهي ليلة سبع وعشرين، أو يوم الخميس فهي ليلة خمس وعشرين، أو يوم السبت فهي ليلة ثلاث وعشرين، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ومنذ ما بلغت سن الرجال ما فاتتني ليلة القدر بهذه القاعدة المذكورة، وقد نظمتها بقولي:

يَا سَائِلِيْ عَنْ لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ٱلَّتِيْ ... فِيْ عَشْرِ رَمْضَانَ ٱلأَخِيْرِ حَلَّتِ
فَإِنَّهَا فِيْ مُفْرَدَاتِ ٱلْعَشْرِ ... تُعْرَفُ مِنْ يَوْمِ ٱبْتِدَاءِ ٱلشَّهْرِ
فَبِٱلأَحَدْ وَٱلأَرْبِعَا فِيْ ٱلتَّاسِعَهْ ... وَجُمْعَةٍ مَعَ ٱلثُّلاَثَا ٱلسَّابِعَهْ
وَإِنْ بَدَا ٱلْخَمِيْسُ فهْيَ الخَامِسَهْ ... وَإِنْ بَدَا بِٱلسَّبْتِ فَهْيَ الثَّالِثَهْ
وَإِنْ بَدَا ٱلإِثْنَيْنِ فَهْيَ ٱلْحَادِيْ ... هَذَا عَنِ ٱلسَّادَاتِ وَٱلزُّهَّادِ

اهـ من «القليوبي على الجلال المحلي على المنهاج النووي».

والثانية: ذكر العلماء لليلة القدر علامات كما مر بعضها منها: قلة نبح

الكلاب ونهيق الحمار وعذوبة الماء الملح، ورُؤية كل مخلوق ساجداً لله تعالى، وسماع كل شيء يذكر الله تعالى بلسان المقال، وكونها ليلة بلجة مضيئة مشرقة بالأنوار، وطلوع الشمس يومها صافياً نقية ليست بين قرني الشيطان كيوم غيرها، وأحسن ما يُدعى به في تلك الليلة العفو والعافية، كما ورد في حديث عائشة: ويكثر من الاستغفار والتسبيح والتحميد والتهليل وأنواع الذكر والصلاة على النبي ﷺ، ويدعو بما أحب لنفسه ولأحبابه أحياءً وأمواتاً، ويتصدق بما تيسر له، ويحفظ جوارحه عن المعاصي، ويكفي في قيامها صلاة العشاء والصبح جماعة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على خمسة مقاصد:

١ ـ بيان إنزال القرآن في ليلة القدر جملة إلى السماء الدنيا.

٢ ـ تفخيم شأن ليلة القدر بالاستفهام عنها.

٣ ـ بيان خيريتها على ألف شهر ليست فيها ليلة القدر.

٤ ـ بيان تنزل الملائكة فيها إظهاراً لشرفها وقدرها.

٥ ـ وصفها بكونها ذات سلامة من كل شر(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة القدر بعون من له الخلق والأمر في يوم الاثنين قبيل صلاة الظهر اليوم الخامس من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة البيّنة

سورة البينة، وتسمى سورة: لم يكن، مدنية في قول الجمهور، نزلت بعد سورة الطلاق، وقيل: مكية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة لم يكن بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة: لم يكن بمكة، وهي: ثمان آيات، وأربع وتسعون[1] كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[2]: أن قوله سبحانه في هذه السورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الخ كالعلة لإنزال القرآن، كأنه قيل: إنا أنزلناه؛ لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة، ووضعها النبي ﷺ بعد سورة القدر؛ لأن الصحف المطهرة التي كان يتلوها النبي نزلت ليلة القدر.

فضلها: ومن فضائلها[3]: ما أخرجه أبو نعيم في «المعرفة» عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني قال: حدثني الفضل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستمع قراءة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقول: أبشر عبدي وعزتي وجلالي لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير: حديث غريب جداً، وأخرجه أبو موسى المدني عن مطر المزني أو المدني بنحوه. وما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: وسماني لك. قال: نعم، فبكى».

وما أخرجه أحمد وابن قانع في «معجم الصحابة» والطبراني وابن مردويه عن أبي حية ـ البدري قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها.. قال جبريل: يا رسول الله: إن ربك يأمرك أن تُقرِئَها أُبَيّاً، فقال النبي ﷺ

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة، فقال أُبَي: وقد ذُكِرْتُ ثَمَّ يا رسول الله، قال: نعم. فبكى». وسميت سورة ـ البينة؛ لذكر البينة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة البينة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ
مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ
وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ
خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

أسباب النزول

كان اليهود والنصارى[١] من أهل الكتاب في ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم إلا من عصم الله؛ لأن أسلافهم غيروا وبدلوا في شرائعهم، وأدخلوا فيها ما ليس منها إما لسوء فهمهم لما أُنزل على أنبيائهم، وإما لاستحسانهم ضروباً من البدع تَوَهَّمُوها مؤيدة للدين، وهي هادمة لأركانه، وإما لإفحام خصومهم، والرغبة في الظفر بهم، وقد توالت على ذلك الأزمان، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه مَن قبلَهم حتى خفيت معالم الحق، وطُمست أنوار اليقين، وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرنت نفوسهم على عبادتها، والخنوع لها، وأصبح من العسير تحويلهم عنها زعماً منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان الجدل ينشب حيناً بين المشركين واليهود، وحيناً آخر بين المشركين والنصارى، وكان اليهود يقولون للمشركين: إن الله سيبعث نبياً من العرب من أهل مكة وينعتونه لهم، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه وآزروه واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم.

قد كان هذا وذاك، فلما بُعث محمد ﷺ. . قام المشركون يناوِئُونه ويرفعون

(١) المراغي.

راية العصيان في وجهه، وألّبوا الناس عليه، وآذوا كل من اتبعه وسلك سبيله ممن أنار الله بصائرهم وشرح صدورهم لمعرفة الحق، كذلك قلب له اليهود ظهر المجن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به؛ إذ وجدوا نعته عندهم في التوراة فزعموا أن ما جاء به من الدين ليس بالبدع الجديد، بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم، فلا ينبغي أن يتركوا ما هم عليه من الحق؛ ليتبعوا رجلاً ما جاء بأفضل مما بين أيديهم بل قد بلغ الأمر بهم أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويتهددونهم بأنهم يتبعون هذا النبي وينصرونه.

ففي الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يجحدون واضح الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر فيه نزلت هذه السورة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، وإيراد[1] الصلة فعلاً لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم؛ أي: حال كونهم من أهل الكتاب، ﴿و﴾ من ﴿المشركين﴾ عبدة الأوثان، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، لا للتبعيض حتى يلزم أن لا يكون بعض المشركين كافرين، وذلك أن الكفار كانوا جنسين: أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى، والمشركين وهم الذين لا ينسبون إلى كتاب الله، فذكر الله سبحانه الجنسين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الإجمال، ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل والتبيين، وهو قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو حال من الواو في ﴿كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كائنين منهم. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبر كان؛ أي: لم يكونوا زائلين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان، والعزم على إنجازه.

وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى إنهم كانوا يستفتحون بالنبي المبعوث، ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وإما من ﴿المشركين﴾ فلعله قد وقع من متأخريهم بعدما شاع

---

(١) روح البيان.

ذلك من أهل الكتاب، واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله هل هو المذكور في كتبهم، وكانوا يُغرونهم بتغيير نعوته، وانفكاك الشيء من الشيء أن يزايله بعد التحامه، كالعظم إذا انفك من مفصله، وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم؛ أي: لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور، بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه. ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ والحجة الواضحة التي كانوا قد جعلوا إتيانها ميقاتاً لاجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق، فلما أتتهم جعلوا إتيانها ميقاتاً للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد فكفروا بها، والتعبير عن إتيانهم بالمضارع باعتبار حال المحكي لا الحكاية. أو المعنى؛ أي: لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ، وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن الحق، والوقوف عند ما كان عليه آباؤهم، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً حتى يأتيهم الرسول ﷺ، فيحدث مجيئه رجة فيما رسخ من عقائدهم، وتمكن من عاداتهم، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ما جاء به هو ما كان بين أيديهم، وليس بمستحسن أن يُتبع، والبقاء على ما هم عليه أجدر وأجمل، والسير على نهج الآباء أشهىٰ إلى النفس وأسلم.

وعبارة «الخازن» هنا: قوله عز وجل: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: ومن المشركين وهم: عبدة الأوثان، وذلك أن الكفار كانوا جنسين:

أحدهما: أهل كتاب، وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم، أما اليهود فقولهم: عزير ابن الله وتشبيههم الله سبحانه بخلقه، وأما النصارى فقولهم: المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وغير ذلك.

والثاني: المشركون أهل الأوثان الذين لا ينتسبون إلى كتاب الله، فذكر الله جنسين في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿مُنفَكِّينَ﴾؛ أي: منتهين عن كفرهم وشركهم، وقيل معناه: زائلين ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ﴾؛ أي: حتى أتتهم، لفظه مضارع ومعناه الماضي ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾؛ أي: الحجة الواضحة يعني: محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وشركهم، وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإيمان فآمنوا، فأنقذهم الله تعالى من الجهالة والضلالة، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين.

قال الواحدي في «بسيطه»: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء، قال الإمام فخر الدين الرازي في «تفسيره»: إنه لم يلخص كيفية الإشكال فيها، وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عما ذا لكنه معلوم؛ إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول، فحينئذٍ يحصل بين الآية الأولى والثانية مناقضة في الظاهر، وهذا منتهى الإشكال في ظني، قال: والجواب عنه من وجوه:

أولها ـ وأحسنها ـ: الوجه الذي لخصه صاحب «الكشاف» وهو: أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان، كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله تعالى عنهم ما كانوا يقولونه، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: إنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق؛ إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول، ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنىٰ فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتىٰ توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، فيذكِّره ما كان يقول أولاً توبيخاً وإلزاماً.

قال الإمام فخر الدين: وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد، وهو أن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ مذكور حكاية عنهم، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إخبار عن الواقع. والمعنى: أن الذي وقع كان بخلاف ما ادعوا ووعدوا.

وثانيها: أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال إلا أن تفسير لفظة ﴿حَتَّىٰ﴾ بهذا ليس من

اللغة في شيء، وذكر وجوهاً أخر، قال: والمختار هو الأول، ثم فسر البينة، فقال: ﴿رَسُولٌ﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، عبر عنه ﷺ بها، للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين؛ أي: تلك البينة: رسول كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية؛ أي: رسول؛ أي: رسول كائن منه تعالى. ﴿يَتْلُوا۟﴾ صفة آخرىٰ لـ﴿رَسُولٌ﴾؛ أي: يقرأ ذلك الرسول ﷺ ﴿صُحُفًا﴾؛ أي: كتباً يريد ما تضمنه المصحف من الآيات المكتوبة فيه، وهو القرآن؛ لأنه ﷺ كان يقرأ عن ظهر قلبه، لا عن كتاب لكونه أمياً، لكنه لما تلا ما في الصحف كان كالتالي لها، وقيل المراد: جبريل، قاله البيضاوي. جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومحله من الأوراق. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾؛ أي: منزهة من الباطل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أن يمسه غير المطهرين، وفي «الروح»: ونسبة التلاوة إلى الصحف، وهي القراطيس مجازية هي مجاز عما فيها بعلاقة الحلول، والمراد أنه لما كان ما يتلوه الذي هو القرآن مصدقاً لصحف الأولين مطابقاً لها في أصول الشرائع والأحكام.. صار متلوه كأنه صحف الأولين وكتبهم، فعبر عنه باسم الصحف مجازاً، وعبارة أبي حيان: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾؛ أي: قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل، ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾؛ أي: مكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾؛ أي: مستقيمة ناطقة بالحق.

وقرأ الجمهور(1): ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿لم يكن المشركين وأهل الكتاب﴾ قال ابن العربي هي قراءة في معرض البيان لا في معرض التلاوة، وقرأ الأعمش والنخعي؛ ﴿والمشركون﴾ - بالرفع - عطفاً على الموصول، وقرأ أبي: ﴿فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون﴾ وقرأ الجمهور: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ برفع ﴿رَسُولٌ﴾ على أنه بدل اشتمال، أو بدل كل من كل مبالغة، قال الزجاج: ﴿رَسُولٌ﴾ رُفع على البدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، وقال الفراء: رُفع على أنه خبر مبتدأ مضمر؛ أي: هي رسول، أو هو رسول، وقرأ أبي وابن مسعود: ﴿رسولاً﴾ - بالنصب - على القطع، وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ كما مر، ويجوز تعلقه بنفس ﴿رَسُولٌ﴾.

---

(1) الشوكاني.

وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من ﴿صحف﴾، والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، وقوله: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يجوز أن تكون صفةً أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله، ومعنى ﴿يَتْلُوا﴾: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ أنها منزهة من الزور والضلال، قال قتادة: مطهرة من الباطل، وقيل: مطهرة من الكذب والشبهات والكفر، والمعنى واحد.

والمعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه ﷺ كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب، كما مر.

وقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ صفة لـ﴿صُحُفًا﴾، أو حال من ضميرها؛ أي: في تلك الصحف أمور مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب، والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها، وفي «المفردات»: فيه إشارة إلى ما فيه من معاني كتب الله، فإن القرآن مجمع ثمرة كتب الله المتقدمة.

والمعنى[1]: أي هذه البينة هي محمد ﷺ يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيغ والتدليس والتي تنبعث منها أشعة الحق، كما قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وفيها الصحيح القويم من كتب الأنبياء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته، فإن كل سورة منه كتاب قويم، أو الأحكام والشرائع التي تضمنها كلام الله تعالى والتي يتبين بها الحق من الباطل، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقُصارى ذلك[2]: أنّ حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد مجيء الرسول تخالف حالهم قبلها، فقد كانوا قبل مجيئه كفاراً يتيهون في عماية من الأهواء والجهالات، فلما بُعث آمن به قوم منهم، فلم تبق حالهم كما كانت قبل

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

إلى أنهم قبل بعثته ﷺ كانوا جازمين بما هم عليه واثقين بصحته، فلما بُعث إليهم تغيرت حال جميعهم، فمنهم من آمن به واعتقد أن ما كان عليه ضلال وباطل، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار متردداً في صحة ما هو عليه، أو هو واثق بعدم صحته، ولكن يمنعه العناد والتكبر والاقتداء بالآباء من متابعة الرسول ﷺ، ثم سلّى رسوله ﷺ عن تفرق القوم في شأنه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عما كانوا عليه من الوعد، وإفراد[1] أهل الكتاب بالذكر هنا بعد الجمع بينهم وبين المشركين أولاً؛ للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى، فخصوا بالذكر؛ لأن جحود العالِم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأوقات؛ أي: وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعدما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتبهم دلالة جلية واضحة لا ريب فيها، وهي بعثة رسول الله ﷺ بالشريعة الغرّاء والمحجة البيضاء، وقيل: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

قال المفسرون[2]: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله تعالى، فلما بُعث تفرقوا في أمره، واختلفوا فيه فآمن به بعضهم، وكفر به آخرون، وقال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ...﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج.

والمعنى[3]: أي لا تبخع نفسك عليهم حسرات، ولا يكونن في صدرك حرج منهم، فإن هذا شأنهم الذي درجوا عليه، وديدنهم وديدن أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم وتفرقوا طرائق قدداً حتى صار أهل كل مذهب يُبطل ما عند غيره بغياً وعدواناً وقولاً بالتشهي والهوى، ولم يكن تفرقهم لقصور حجتك أو خفاء شأنك عليهم، فهم إن جحدوا بينتك فقد جحدوا بينة مَن قبلك، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعدما استيقنتها أنفسهم، وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

ظنك بالمشركين، وهم أعرق في الجهالة وأسلس مقادة للهوى، ثم أنبهم ووبخهم على ما صاروا إليه من الأفعال، وعلى ما بلغوه من فساد العقل والضلال، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة[1] حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا، ومفيدة لتقريعهم وتوبيخهم على ما ارتكبوا من التفرق بعد مجيء البينة؛ أي: تفرقوا بعد مجيء البينة، والحال أنهم ما أمروا بما أُمروا به في كتبهم لشيء من الأمور، ولمصلحة من المصالح، ولحكمة من الحكم إلا لحكمة أن يعبدوا الله سبحانه ويخضعوا له، ويتذللوا له بامتثال مأموراته واجتناب منهياته التي منها الإيمان بمحمد ﷺ، والاجتناب من تكذيبه، وهذه ﴿اللام﴾ في الحقيقة لام الحكمة والمصلحة، يعني: أن فعله تعالى وإن لم يكن معللاً بالغرض إلا أنه مغياً بالحكم والمصالح، وكثيراً ما تُستعمل لام الغرض في الحكمة المترتبة على الفعل تشبيهاً لها بها في ترتبها على الفعل بحسب الوجود.

والأولى[2] أن تكون ﴿اللام﴾ بمعنى الباء، وأن مضمرة، والمعنى: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله تعالى، وقال بعضهم الأظهر أن تُجعل ﴿لام﴾ ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ زائدة، كما تزاد في صلة الإرادة، فيقال: أردتُ لتقوم، لتنزيل الأمر منزلة الإرادة، فيكون المأمور به هذه الأمور من العبادة ونحوها، كما هو ظاهر، نظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾؛ أي: أن يبين لكم، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أن يطفئوا، وفي حصر[3] علة كونهم مأمورين بما في كتبهم من عبادة الله بالإخلاص حيث قيل: وما أمروا بما أمروا إلا لأجل أن يتذلّلوا له ويعظموه غاية التذلل والتعظيم ولا يطلبوا في امتثال ما كلفوا به شيئاً آخر سوى التذلل لربهم ومالكهم، كثواب الجنة والخلاص من النار.. دليل على ما ذهب إليه أهل السنة من أن العبادة ما وجبت؛ لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد من عذاب النار، بل لأجل أنك عبد وهو رب، ولو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب ألبتة، وأمرك بالعبادة لمحض العبودية ومقتضى الربوبية والمالكية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن مَن عَبَدَ الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، فالمقصود الأصلي من العبادة هو المعبود، وكذا الغاية من العرفان

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

المعروف، فعليك بالعبادة للمعبود، وبالعرفان للمعروف، وإياك أن تلاحظ شيئاً غير الله تعالى.

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وقرأ عبد الله: ﴿إلا أن يعبدوا الله﴾ بإبدال اللام بأن، وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ حال من الفاعل في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾؛ أي: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله سبحانه حال كونهم جاعلين دينهم وعملهم خالصاً له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين والعمل.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ - بكسر اللام - و﴿الدِّينَ﴾ منصوب به، وقرأ الحسن: بفتحها؛ أي: يخلصون هم أنفسهم في نياتهم، وانتصب ﴿الدِّينَ﴾ إما على المصدر من ﴿لِيَعْبُدُوا﴾؛ أي: ليَدِينوا الله بالعبادة الدين، وإما على إسقاط الخافض؛ أي: في الدين.

والإخلاص[٢]: أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا تطلب منه ثواباً اهـ «كرخي». وقال الشهاب: الإخلاص: عدم الشرك، وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف اهـ. وفي «الروح»: الإخلاص[٣]: أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، فالعبادة لجلب المنفعة أو لدفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص، فالإخلاص في العبودية تجريد السر عما سوى الله تعالى، وقال بعضهم: الإخلاص: أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم أن المنة لله عليك في ذلك حيث أهَّلك لعبادته ووفقك لها، ولا تطلب من الله أجراً وعوضاً.

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ﴾؛ أي: مائلين من جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام، وهو في المعنى تأكيد للإخلاص؛ إذ هو الميل عن الاعتقاد الفاسد، وأكبره اعتقاد الشركة، وأصل الحَنَف: الميل وانقلاب ظهر القدم حتى يصير بطناً، فالأحنف هو الذي يمشي على ظهر قدميه في شقها الذي يلي خنصرها، ويجيء الحنف بمعنى الاستقامة، فمعنى حنفاء: مستقيمين، فعلى هذا إنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل، كقولك للأعمى بصير، وللحبشي كافور، وللطاعون مبارك، وللمهلكة

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

مفازة، وقال ابن جبير: لا يسمى أحد حنيفاً حتى يحج ويختن؛ لأن الله وصف إبراهيم عليه السلام بكونه حنيفاً، وكان من شأنه أنه حج وختن نفسه.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ إما حال من فاعل ﴿يعبدوا﴾ على قول من جوَّز حالين من ذي حال واحد، أو من الضمير المستكن في ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على قول من لا يجوِّز ذلك، فتكون حالاً متداخلة.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي العمدة في باب العبادة البدنية، معطوف على ﴿يعبدوا﴾، وكذا ما بعده، وإقامتها: أداؤها في أوقاتها بشرائطها وأركانها وهيئاتها ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ التي هي الأساس في العبادات المالية، وإيتاؤها: صرفها إلى مستحقها عند محلها، قال في «الإرشاد[1]»: إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة، فالأمر ظاهر، وإن أريد ما في شريعتنا، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها.

والمعنى: أي إنهم تفرقوا واختلفوا، وهم لم يؤمروا إلا بما يصلح دينهم ودنياهم، وما يجلب لهم سعادة في معاشهم ومعادهم من إخلاص لله في السر والعلن، وتخليص أعمالهم من الشرك به واتباع ملة إبراهيم الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾، والمراد من إقامة الصلاة: الإتيان بها مع إحضار القلب لهيبة المعبود؛ ليعتاد الخضوع له، وبإيتاء الزكاة: إنفاقها فيما عيَّن لها في الكتاب الكريم من المصارف.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ المذكور من عبادة الله تعالى وإخلاصها وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾؛ أي: دين[2] الملة المستقيمة، قَدَّر الموصوف لئلا يلزم إضافة الشيء إلى صفته، وهي بمنزلة إضافة الشيء إلى نفسه، وصحة إضافة الدين إلى الملة باعتبار التغاير الاعتباري بينهما، فإن الشريعة المبلغة إلى الأمة بتبليغ الرسول إياها من قبل الله تسمى ملة باعتبار أنها تُكتب وتملى، وديناً باعتبار أنها تطاع، فإن الدين الطاعة يقال: دان له إذا أطاعه، وقال الكاشفي: أضاف الدين إلى القيِّمة وهي

(١) أبو السعود. (٢) روح البيان.

نعته؛ لاختلاف اللفظين، والعرب تضيف الشيء إلى نعته كثيراً، ونجد ذلك في القرآن في مواضع منها قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ لأن الدار هي الآخرة، وقال ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: المحرق كالأليم بمعنى المؤلم، وتقول: دخلت مسجد الجامع ومسجد الحرام، وأدخلك الله جنة الفردوس هذا وأمثاله، وقال بعضهم: إضافة الدين إلى القيمة من إضافة العام إلى الخاص، كشجر الأراك، ولا حاجة إلى تقدير الملة، فإن القيمة عبارة عن الملة، كما يشهد له قراءة أُبيّ ـ رضي الله عنه ـ ﴿وذلك الدين القيّم﴾ انتهى.

وأنث ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾[1]؛ لأن الآيات هائية، فرد الدين إلى الملة، كما في «كشف الأسرار» والقيِّمة بمعنى المستقيمة التي لا عوج فيها، وقال الراغب: القيمة هنا اسم الأمة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

قال ابن الشيخ: بعض أهل الأديان بالغوا في باب الأعمال من غير إحكام الأصول، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات، ولكنهم ما حصَّلوا الدين الحق بتحصيل الاعتقاد المطابق، وبعضهم حصلوا الأصول، وأهملوا في الفروع وهم: المرجئة الذين يقولون: لا تضر المعصية مع الإيمان، فالله تعالى خَطَّأ الفريقين في هذه الآية، وبيَّن أنه لا بد من العلم والإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ومن العمل في قوله: ﴿وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثم قال: وذلك المجموع كله هو دين الملة المستقيمة المعتدلة، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد، كذلك هذا المجموع دين واحد، وقال محمد[2] بن الأشعب الطالقاني: ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ هنا: الكتب التي تجري ذكرها، كأنه لما تقدم لفظ قيِّمة نكرة كانت الألف واللام في ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ للعهد، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ وقرأ عبد الله: ﴿وذلك الدين القيمة﴾.

فالهاء في هذه القراءة للمبالغة، أو أنَّث على أن عنى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت؟ يريد ما هذه الصيحة؟ والمعنى؛ أي[3]: هذا الذي ذُكر من إخلاص العبادة للخالق، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

وقصارى ما سلف: أن أهل الكتاب افترقوا في أصول الدين وفروعه، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له في عقائدهم وأعمالهم، وأن لا يقلدوا فيها أباً ولا رئيساً، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف، وهذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب في افتراقهم في دينهم، فما بالنا نحن معشر المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعاً ومحدثات، وتفرقنا فيه شيعاً، أفليس ما نحن فيه من ذل وهوان وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج الشرع القويم، والسير على الصراط المستقيم.

ثم بيَّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا[1] شروع في بيان مقر الأشقياء وجزاء السعداء، وحكم على الكفار من الفريقين بأمرين:

أحدهما: الخلود في النار.

والثاني: كونهم شر البرية، وبدأ بأهل الكتاب؛ لأنهم كانوا يطعنون في نبوته ﷺ، فجنايتهم أعظم؛ لأنهم أنكروه مع العلم به، و﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ظاهره العموم، وقيل: ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الذين عاصروا الرسول ﷺ؛ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم الماضية من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح عليه السلام اهـ من «البحر»، وذكر المشركين؛ لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حَسَب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم.

وقوله: ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: مشتركون[2] في نار جهنم؛ أي: في جنس العذاب لا في نوعه، وهذا جواب عن سؤال مقدر تقديره: أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن المشركين ينكرون التوحيد والرسالة والكتاب والبعث وما يترتب عليها، وأهل الكتاب يؤمنون بأكثرها، كإقرارهم بالبعث، ومقتضى الحكمة أن يزاد في عذاب من زاد كفره على عذاب غيره، وقد سوى بينهم في هذه الآية بحسب الظاهر اهـ «شهاب»، و«زاده».

ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، وإيراد[3] الجملة الاسمية

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة، أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم بما يوجبها منزلة ملابستهم لها، وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورة عرضية، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في الخبر، واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود؛ لأجل كفرهم لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفية، فإن جهنم دركات وعذابها ألوان، فالمشركون كانوا ينكرون الصانع والنبوة والقيامة، وأهل الكتاب نبوة محمد ﷺ فقط، فكان كفرهم أخف من كفر المشركين، لكنهم اشتركوا في أعظم الجنايات التي هي الكفر، فاستحقوا أعظم العقوبات وهو الخلود، ولما كفروا طلباً للرفعة صاروا إلى أسفل السافلين، فإن جهنم نار في موضع عميق مظلم هائر يقال: بئر جِهنَّام إذا كانت بعيدة القعر، واشتراكهم في هذا الجنس من العذاب لا يوجب اشتراكهم في نوعه كما مر آنفاً، ولم يقل هنا أبداً، كما قاله فيما بعد في ثواب أهل الجنة؛ لأن رحمته أزيد من غضبه فلم يتفق الخلودان في الأبدية اهـ. «فتوحات».

والمعنى[١]: أي إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبيح الشرك واجتراح المعاصي وإنكار الحق الواضح بعد أن عرفوه، كما يعرفون أبناءهم يجازيهم ربهم بالعقاب الذي لا يخلصون منه أبداً، فيدخلهم ناراً تلظَّى جزاء ما كسبت أيديهم، وجزاء إعراضهم عما دعا إليه الداعي، وهدت إليه الفطرة، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المذكورون، إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم والخلود فيها ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾؛ أي: شر الخليقة وأخسهم، والبرية جميع الخلق؛ لأن الله سبحانه برأهم؛ أي: أوجدهم بعد العدم، يقال: برأ؛ أي: خلق، والبارىء: الخالق، والبرية: الخليقة[٢]، وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع وابن ذكوان: ﴿البرئة﴾ بالهمز في الموضعين، من برأ بمعنى خلق، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ بشد الياء فيهما، فاحتمل أن يكون أصله الهمز، ثم سُهل بالإبدال وأدغم، واحتمل أن يكون من البراء وهو التراب، قال الفراء[٣]: إن أُخذت البرية من البراء؛

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

هو التراب.. لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، وإن أخذتها من بريت القلم؛ أي: قَدَّرته، دخلت، وقيل: إن الهمز هو الأصل؛ لأنه يقال: برأ الله الخلق بالهمز؛ أي: ابتدعه واخترعه، ومنه قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ ولكنها خُففت الهمزة، والتزم تخفيفها عند عامة العرب.

والمعنى[1]: أولئك الأشقياء المذكورون شر الخليقة؛ أي: أعمالاً وهو الموافق لما سيأتي في حق المؤمنين، فيكون في حيز التعليل لخلودهم في النار، أو شرهم مقاماً ومصيراً، فيكون تأكيداً لفظاعة حالهم، وتوسيط ضمير الفصل؛ لإفادة الحصر؛ أي: هم شر البرية دون غيرهم كيف لا وهم شر من السراق؛ لأنهم سرقوا وأخفوا من كتاب الله نعوت محمد ﷺ وشر من قطّاع الطريق لأنهم قطعوا الدين الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف؛ لأن الكفر مع العلم يكون كفر عناد، فيكون أقبح من كفر الجهال، فقوله: ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أفعل تفضيل؛ لأنهم أشر من هؤلاء المذكورين، وظهر منه أن وعيد العلماء السوء أعظم من وعيد كل أحد، ومن تاب منهم وأسلم خرج من الوعيد، وقيل: لا يجوز أن يدخل في الآية ما مضى من الكفار؛ لأن فرعون كان شراً منهم كما مر آنفاً، وأما الآية الثانية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر؛ لأنهم أفضل الأمم، والمعنى: هم شر الخليقة على الإطلاق؛ إذ منكِر الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، منكِر لعقله، جالب لنفسه الدمار والوبال، وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين.. أردفه جزاء المؤمنين المخبتين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وبما بعثوا به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمال الصالحة؛ أي: جمعوا بين الإيمان والعلم والعمل الصالح، ويُفهم من مقابلة الجمع بالجمع أنه لا يكلَّف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ والصبر والقناعة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ استُدل بالآية على أن البشر أفضل من المَلَك؛ لظهور أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هو البشر، والبرية يشمل المَلَك والجن.

سئل الحسن رحمه الله تعالى عن قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أهم خير من

---

(١) روح البيان.

الملائكة؟ قال: ويلك، وأنى تعادل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقيل: هؤلاء خير البرية في عصره ﷺ، ولا يبعد أن يكون في مؤمن الأمم السابقة من هو خير منهم.

وقرأ الجمهور: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مقابل ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد: ﴿خيار البرية﴾ جمع خَيِّر، كجيّد وجياد. ذكره في «البحر».

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾؛ أي: ثوابهم بمقابلة ما وقع لهم من الإيمان والعمل الصالح، وهو مبتدأ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: عند خالقهم ظرف للجزاء ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: دخول جنات عدن، وهو خبر للمبتدأ، والعدن الإقامة والدوام، وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: ﴿عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة؛ أي: وسطها، والمراد بـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أوسط الجنات وأفضلها، يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً إذا أقام، ومعدن الشيء مركزه ومستقره ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل، وفي «الإرشاد»: إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان، كما هو الظاهر فجريان الأنهار من تحتها فظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها، فهو باعتبار الجزء الظاهر وأياً ما كان، فالمراد: جريانها بغير أخدود.

وجمع ﴿جَنَّٰتُ﴾[1] يدل على أن للمكلف جنات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ فذكر للواحد أربع جنات، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله تعالى، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان.

وقيل: إنه تعالى قابل الجمع بالجمع في قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾ وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، فيكون لكل مكلف جنة واحدة، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روي مرفوعاً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ والألف واللام في الأنهار للتعريف، فتكون منصرفة إلى الأنهار الأربعة المذكورة في القرآن، وهي نهر الماء ونهر اللبن ونهر العسل ونهر الخمر، وفي

---

(١) روح البيان.

توصيفها بالجري بعدما جعل الجنات الموصوفة جزاء، إشارة إلى مدحهم بالمواظبة على الطاعة، كأنه تعالى يقول: طاعتك كانت جارية ما دمت حياً، على ما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ فلذلك كانت أنهار كرمي جارية إلى الأبد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية، لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعيمها مستمرون في لذاتها، وهو حال، وذو الحال وعامله كلاهما مضمران يدل عليه جزاؤهم، والتقدير: يجزون بها خالدين فيها، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان مستقر لما يستقبل من الزمان مؤكد للخلود؛ أي: لا يموتون فيها ولا يخرجون منها كما مر آنفاً، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ كلام مستأنف مبين لما يتفضل به عليهم زيادة على ما ذُكر من أجزية أعمالهم؛ أي: استئناف إخبار، كأنه قيل: تُزاد لهم، أو استئناف دعاء من ربهم، فلذا فُصل وقد يُجعل خبراً بعد خبر وحالاً بتقدير قد.

والمعنى: قبل أعمالهم وجازاهم عليها، قال ابن الشيخ: لما كان المكلف مخلوقاً من جسد وروح، وأنه اجتهد بهما في طاعة ربه.. اقتضت الحكمة أن يجزيه بما يتنعم ويستريح به كل واحد منهما، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة، وجنة الروح هي رضا الرب جل جلاله ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ حيث بلغوا من المطالب قاصيتها، وملكوا من المآرب ناصيتها، وأبيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لا سيما أنهم أعطوا لقاء الرب الذي هو المقصد الأقصى، والمعنى؛ أي: فرحوا بما أعطاهم من أنواع الكرامة.

وحاصل المعنى[1]: أي هؤلاء يجزيهم ربهم بجنات يقيمون فيها أبداً، وفيها من اللذائذ ما هو أكمل وأوفر من لذات الدنيا، وعلينا أن نؤمن بالجنة، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا أين موضعها، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو، فهو من علم الغيب الذي استأثر بعلمه، ثم ذكر أسباب هذا الجزاء، فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: إنهم حازوا رضا الله تعالى بالتزام حدود شريعته، فحمدوا مغبة أعمالهم، ونالوا ما يرضيهم في دنياهم وآخرتهم، قال الراغب: رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره

---

(١) المراغي.

ومنتهياً عن نهيه اهـ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الجزاء والرضوان، وقال بعضهم[1]: الأظهر أنه إشارة إلى ما ترتب عليه الجزاء والرضوان من الإيمان والعمل الصالح.

وعبارة «السمين»: ذلك المذكور من الاستقرار في الجنة مع الخلود فيها ومن رضا الله عنهم كائن ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ وخاف ﴿رَبَّهُۥ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات؛ أي: ذلك المذكور كائن لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه، فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

والمعنى[2]: أي هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه الخشية والخوف من ربه، وفي ذلك تحذير من خشية غير الله، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، كما أن فيه ترغيباً في تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصاً، إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفي في نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء؛ لأن الخشية لم تحل قلوبهم ولم تهذب نفوسهم، وتلك الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤون الله تعالى مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية؛ للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية.

الإعراب

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾.

﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُنِ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الموصول، أو من الواو في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾. ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبر ﴿يَكُنِ﴾ منصوب بالياء، وجملة ﴿يَكُنِ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾: فعل مضارع ومفعول به منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة. ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وَأَنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى إتيان البينة إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مُنفَكِّينَ﴾. ﴿رَسُولٌ﴾: بدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ بدل كل من كل مبالغة، أو بدل اشتمال. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة أولى لـ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿يَتْلُواْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿صُحُفًا﴾: مفعول به. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾: صفة لـ﴿صُحُفًا﴾، وجملة ﴿يَتْلُواْ﴾ صفة ثانية لـ﴿رَسُولٌ﴾، أو حال منه على حسب القاعدة النحوية.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿كُتُبٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿قَيِّمَةٌ﴾: نعت للكتب؛ أي: مستقيمة ناطقة بالحق والعدل، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿صُحُفًا﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنه بمعنى أعطوا، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفَرَّقَ﴾. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ﴾: فعل ماض ومفعول به مقدم. ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، التقدير: وما تفرقوا إلا من بعد مجيء البينة إياهم. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَفَرَّقَ﴾ أعني: الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِيَعْبُدُواْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر زائد، أو بمعنى الباء، ﴿يعبدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلامة نصبه حذف النون. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض إن قلنا: ﴿اللام﴾: زائدة، تقديره إلا عبادة الله؛ أي: إلا بعبادة الله، أو

مجرور باللام بمعنى الباء، وما أمروا إلا بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرُوٓاْ﴾. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من الواو في ﴿يعبدوا﴾. ﴿له﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول به لـ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ لأنه اسم فاعل. ﴿حُنَفَآءَ﴾: حال ثانية من فاعل ﴿يعبدوا﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مُخْلِصِينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يعبدوا﴾. ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية. ﴿ذلك دين القيمة﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من المصدر المفهوم من ﴿يعبدوا﴾ و﴿يقيموا﴾ و﴿يؤتوا﴾، والتقدير: أي: وما أمروا إلا بعبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حال كون ما ذُكر دين الملة القيمة. أو معطوفة على جملة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور حال من الموصول. ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الفريقين ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل. ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: خبر ﴿هُمْ﴾، أو خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمْ﴾: ضمير فصل. ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾، أو حال من الضمير في ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

حال، صاحبها وعاملها محذوفان، والتقدير: جنات عدن دخلوها، أو أعطوها خالدين فيها، ولا يجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾؛ لئلا يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿رَّضِىَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة للدعاء، أو خبر ثالث لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾: معطوفة على جملة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿خَشِىَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿يَكُنِ﴾: أصله يكون، دخل عليه الجازم، فسكن آخره فصار لم يكون، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، فصار يكن.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى والمجوس ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأوثان والأصنام من العرب وغيرهم ﴿مُنفَكِّينَ﴾ اسم فاعل من انفك من باب انفعل الخماسي، وانفكاك الشيء عن الشيء أن يزايله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متعلقون بدينهم لا يتركونه ولا يرومون انفكاكاً عنه، قال الأزهري: وليس هو من باب ما انفك وما برح، وإنما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء؛ أي: انفصاله عنه.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، وزن فيعلة، أدغمت ياء فيعلة في عين الكلمة.

﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي الأوراق والقراطيس التي يُكتب فيها. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾؛ أي: مبرأة من الزور والضلال ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾؛ أي: أمور مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب التي لا عوج فيها، وأصل ﴿قَيِّمَةٌ﴾: قيومة بوزن فعيلة، اجتمعت الواو والياء وسُبقت إحداهما ساكنة، فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ والعبادة هي: التذلل، ومنه طريق معبد؛ أي: مذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام وما أطاعوهم، ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله أديت له على وجه التذلل

والخضوع والنهاية في التعظيم والعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من كان واحداً في صفاته الذاتية والفعلية.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص: أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، فالعبادة لجلب المنفعة، أو لدفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص، وقال الكرخي: والإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا تطلب منه ثواباً اهـ، وقال الشهاب: الإخلاص هنا عدم الشرك، وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف اهـ.

والدين: العبادة، وإخلاص الدين لله: تنقيته من أدران الشرك. ﴿حُنَفَآءَ﴾: واحدهم حنيف، كشرفاء جمع شريف، وهو في الأصل المائل المنحرف، والمراد به هنا المنحرف عن الزيغ إلى إسلام الوجه لله تعالى.

﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ صيغة التفضيل وأصله: أشرر بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الشين، ثم أُدغمت في الراء الثانية، ثم لما كثر استعمال هذه الكلمة على ألسنة العرب.. خففوها، فقالوا: شر فاستغنوا بها عن قولهم: أشر، وكذلك فعلوا في كلمة خير.

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرىء بالهمزة، فقالوا: ﴿البريئة﴾ وبدونها، فقالوا: ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فقراءة الهمزة على أن لامه همزة من برأ، ووزنه فعيلة بمعنى مفعولة، ومن قرأ بياء مشددة بدون همزة يحتمل أن يكون تخفيفاً للغة الهمزة بإبدال الهمزة ياء وإدغام ياء فعيل فيها، ويحتمل أن يكون من البري وهو التراب؛ لأنهم خلقوا منه، فأدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة ومعنى القراءتين شيء واحد، وهو جميع الخلق.

قال ابن خالويه: والعرب على ترك الهمز، قال العجير لنافع بن علقمة:

يَـا نَـافِـعَـاً يَـا أَكْـرَمَ ٱلْـبَـرِيَّـهْ وَٱلـلَّـهِ لاَ أَكْـذِبُـكَ ٱلْـعَـشِـيَّـهْ
إِنَّـا لَـقِـيْـنَـا سَـنَـةً قَـسِـيَّـهْ ثُـمَّ مُـطِـرْنَـا مَـطْـرَةً رَوِيَّـهْ
فَـنَـبَّـتَ ٱلْـبَـقْـلُ وَلاَ رَعِـيَّـهْ فَـٱنْـظُـرْ بِـنَـا ٱلْـقَـرَابَـةَ ٱلْـعَـلِـيَّـهْ
وَٱلْـعُـرْبُ مِـمَّـا وَلَـدَتْ صَـفِـيَّـهْ

فأمر له بألف شاة.

وقال الآخر:

أُمْـرُرْ عَـلَـىٰ جَـدَثِ ٱلْـحُـسَـيْـنِ فَـقُـلْ لأَعْـظُـمِـهِ ٱلـزَّكِـيَّـهْ
قَـبْـرٌ تَـضَـمَّـنَ طَـيِّـبَـاً آبَـاؤُهُ خَـيْـرُ ٱلْـبَـرِيَّـهْ
آبَـاؤُهُ أَهْـلُ ٱلْـخِـلاَفَـةِ وَٱلـرِّيَـاسَـةِ وَٱلْـعَـطِـيَّـهْ

وفي قوله: بالنصب نظر، فهلا قال: يا نافع بالضم مع التنوين؛ لأن المنادى المفرد إذا نُوّن للضرورة تُرك على ضمه، كقول الأحوص:

سَـلاَمُ ٱلـلَّـهِ يَـا مَـطَـرٌ عَـلَـيْـهَـا وَلَـيْـسَ عَـلَـيْـكَ يَـا مَـطَـرُ ٱلـسَّـلاَمُ

وقد اهتم النحاة بهذا البيت، فأطلقوا على التنوين فيه تنوين الضرورة، وليس بذاك، وارجع إن شئت إلى كتبهم، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإجمال بقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ثم التفصيل بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأن ذكر الشيء مجملاً، ثم ذكره مفصلاً أوقع في النفس.

ومنها: إيراد الصلة فعلاً في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إشعاراً بأن كفرهم حادث بعد أنبيائهم.

ومنها: التعبير عن إتيان البينة بالمضارع في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ اعتباراً بحال المحكي لا الحكاية.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿رَسُولٌ﴾ للدلالة على التفخيم والتعظيم.

ومنها: وصفه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تأكيداً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية؛ أي: رسول؛ أي: رسول كائن من الله تعالى.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾؛ لأن نسبة التلاوة إلى الصحف بمعنى القراطيس مجاز؛ لأن الأوراق لا تتلى، بل المتلو المكتوب، ففيه إسناد ما للحال إلى المحل بعلاقة الحلول، والمراد أنه لما كان ما يتلوه الذي هو

القرآن مصدقاً لصحف الأولين مطابقاً لها في أصول الشرائع وبعض الأحكام.. صار متلوه كأنه صحف الأولين وكتبهم، فعبر عنه باسم الصحف مجازاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارة الشيء عن الأنجاس.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حيث عطفهما على قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ اهتماماً بشأن الخاص وإظهاراً لمزيته.

ومنها: إضافة الشيء إلى صفته في قوله: ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾؛ أي: دين الملة القيمة اعتباراً بالتغاير اللفظي بينهما؛ لأن الشريعة المبلغة إلى الأمة باعتبار أنها تملى وتُكتب تسمى ملة، وباعتبار أنها تطاع وتدان تسمى ديناً.

ومنها: ذكر المشركين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب باعتبار اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم.

ومنها: إيراد الجملة الاسمية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ؛ للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة، أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم بها، وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت عليهم الآن بصورة عرضية وتظهر عليهم في الآخرة بصورة حقيقية.

ومنها: المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ.

ومنها: الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ومنها: توسيط ضمير الفصل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: هم شر البرية دون غيرهم، ومثله قوله الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية؛ للإشعار بعلة الخشية، والتحذير من الاغترار بالتربية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على سبعة مقاصد:

١ ـ عدم انفكاك المشركين وأهل الكتاب عما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة.

٢ ـ تفرقهم عندما جاءتهم البينة.

٣ ـ أمرهم بعبادة الله والصلاة والزكاة مخلصين له الدين حنفاء له.

٤ ـ خلود فريق الفجار في نار جهنم.

٥ ـ دخول فريق الأبرار جنات عدن.

٦ ـ رضا الله سبحانه وتعالى عنهم ورضوانهم عنه.

٧ ـ كون ذلك من نتائج خشيتهم لربهم سبحانه[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير سورة البينة بعون شارع الملة القيمة قبيل صلاة العصر من يوم الخميس الخامس عشر من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين.

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة مدنية، نزلت بعد سورة النساء في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول: ابن مسعود وعطاء وجابر. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة، وآياتها: ثمان، وكلماتها[1] خمس وثلاثون كلمة، وحروفها: مئة وتسعة وأربعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه تعالى لما ذكر فيما قبلها جزاء المؤمنين والكافرين بيَّن في هذه السورة وقت ذلك الجزاء وعلامته، وعبارة أبي حيان: لما ذكر فيما قبلها كون جزاء الكفار النار، وجزاء المؤمنين جنات عدن، فكأن قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، وسميت سورة الزلزلة؛ لذكر الزلزلة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الزلزلة محكمة كلها ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: وفضائلها كثيرة ورد بها أحاديث صحيحة:

فمنها: ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشُّعَب» عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى رجل رسولَ الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء» فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثاً من ذوات حم» فقال مثل مقالته الأولى، فقال له: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات» فقال مثل مقالته الأولى، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ثم قال عليَّ به، فجاءه فقال له: أمرت بيوم الضحى

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال الرجل: أريت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحي بها قال: «لا ولكنك تأخذ من شعرك، وتقلم أظافرك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذلك تمام أضحيتك عند الله عز وجل».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ عدلت بثلث القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ عدلت له بربع القرآن» وقوله: «تعدل بنصف القرآن، وذلك؛ لأن أحكام القرآن تنقسم على قسمين: أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة كلها إجمالاً».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل ياأيها الكافرون تعدل ربع القرآن» قال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة.

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج به قال: أليس معك قل هو الله أحد؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك قل ياأيها الكافرون؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك إذا زلزلت الأرض؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن تزوج» قال الترمذي هذا حديث حسن.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ ليلة إذا زلزلت الأرض كان له عدل نصف القرآن» وروي أن جد الفرزدق ابن صعصعة بن ناجية أتاه ﷺ ليستقرئَهُ، فقرأ عليه النبي ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾، فقال: حسبي حسبي، وهي أحكم آية في القرآن، ويسمونها الجامعة الفاذة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

أسباب النزول

ذكر في سبب نزولها: أن الكفار كانوا كثيراً ما يسألون عن يوم الحساب، ومتى هو، فيقولون: أيان يوم القيامة؟ ويقولون: متى هذا الوعد وما أشبه ذلك، فذكر لهم الخالق عز وجل في هذه السورة علامات ذلك اليوم فقط؛ ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذي يعرض الناس فيه على ربهم؛ ليجازي كلاً بعمله ويعاقب المذنبين ويثيب المحسنين، وأنه تعالى سيجازي على أصغر الأعمال، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ...﴾ الآية، كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، ويقولون: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فأنزل الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي[2]: حركت تحريكاً عنيفاً شديداً متداركاً، فإن تكرر حروف لفظه ينبيء عن تكرر معنى الزلل، وجواب الشرط قوله الآتي: ﴿تُحَدِّثُ﴾،

---

(١) الباب المنقول.
(٢) روح البيان.

والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها، قال مجاهد: وهي النفخة الأولى لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝﴾ ﴿زِلْزَالَهَا﴾؛ أي: الزلزال المخصوص بها الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها في حكمة الله سبحانه ومشيئته، وهو الزلزال الشديد الذي لا غاية وراءه، وهو معنى ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بالإضافة العهدية، وذكر المصدر للتأكيد، فهو مصدر مضاف إلى فاعله.

يقال: زلزله زلزلة وزلزالاً مثلثة الزاي حركه حركة شديدة، كما في «القاموس»، وقال أهل التفسير الزلزال ـ بالكسر ـ مصدر، وبالفتح اسم بمعنى المصدر، وفعلال بالفتح لا يوجد إلا في المضاعف كالصلصال، وقال القرطبي: والزلزال ـ بالفتح ـ مصدر كالوسواس والقلقال والصلصال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي، وقرأ الجحدري وعيسى بفتحها، وهما مصدران بمعنًى، وقال الزمخشري: المكسور مصدر والمفتوح اسم، وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف. انتهى.

أما قوله: والمفتوح اسم فجعله غيره مصدراً جاء على فعلال بالفتح، ثم قيل: قد يجيء بمعنى اسم الفاعل، فتقول: فضفاض بمعنى مفضفض، وصلصل بمعنى مصلصل، وأما قوله: فليس في الأبنية إلخ فقد وُجد فيها فعلال بالفتح من غير المضاعف، قالوا ناقة بها خزعال بفتح الخاء، وليس بمضاعف، والمعنى: إذا تحركت[2] الأرض حركة شديدة واضطربت، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

وفي ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ، ولفتٌ لأنظار الكفار إلى أن يتدبروا الأمر ويعتبروا، وكان يقال لهم إذا كان الجماد يضطرب لهول ذلك اليوم، فهل لكم أن تستيقظوا من غفلتكم وترجعوا عن عنادكم.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾؛ أي: ما في جوفها[3] من الأموات والدفائن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

والأثقال جمع ثِقْل، قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقْل لها، وإذا كان فوقها فهو ثِقْل عليها، قال مجاهد: ﴿أَثْقَالَهَا﴾ موتاها تخرجهم في النفخة الثانية، وقيل: للإنس والجن الثقلان، وإظهار ﴿الْأَرْضُ﴾ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

وعبارة «الروح» قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ اختيار الواو على الفاء، مع أن الإخراج مسبب عن الزلزال، للتفويض إلى ذهن السامع، وإظهار ﴿الْأَرْضُ﴾ في موضع الإضمار؛ لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها، والأثقال كنوز الأرض وموتاها، جمع ثِقْل بكسر فسكون، وأما ثَقَل محركة فمتاع المسافر، وحشمه، على ما في «القاموس»، والمعنى: وأخرجت الأرض ما في جوفها من دفائنها وكنوزها، كما عند زلزال النفخة الأولى الذي هو من أشراط الساعة، وكذا من أمواتها عند زلزال النفخة الثانية، وفي الخبر: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوانة من الذهب، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع رحمه، فيقول في هذا: قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً» أخرجه مسلم في «صحيحه» قوله: أفلاذ كبدها أراد أنها تخرج الكنوز المدفونة فيها وقيئها إخراجها، ويدخل في الأثقال الثقلان، وفيه إشارة إلى أن الجن تُدفن أيضاً.

والمعنى: ولشدة الزلزال والاضطراب تشقق الأرض ويثور باطنها، فتقذف بما في جوفها من الأثقال من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك مما يكون في باطن الأرض وجوفها الملتهب، وهذا مثل ما يقع في بعض مناطق الأرض من زلازل وجبال من نار تنشق لها الأرض وتقذف بالحمم وبما فيها من نيران ومعادن ومياه ونحو ذلك، وقد تبتلع مدينة كبيرة كاملة بسكانها، وتأتي على الأخضر واليابس فتدمره، وتدمر من عليها من الناس، كما حدث ذلك في إيطاليا سنة: (١٩٠٩م) من ثوران جبال نار وابتلاعها مدينة مسينا، ولم تُبق منها دَيَّاراً ولا نافخ نار.

وعند قرب الساعة تكثر في جميع الأرض الزلازل والخسوف، وهي علامة من أشراط الساعة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي[1]: وقال كل فرد من أفراد الناس لما يغشاهم من الأهوال ويلحق بهم من فرط الدهشة وكمال الحيرة. ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: أي شيء ـ للأرض زلزلت هذه المرة الشديدة من الزلزال وأخرجت ما فيها من الأثقال استعظاماً لما شاهده من الأمر الهائل، وتعجباً لما يرونه من العجائب التي لم تسمع بها الأذان ولا ينطق بها اللسان، لكن المؤمن يقول بعد الإفاقة: هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون، والكافر: مَن بعثنا من مرقدنا.

وقوله: ﴿مَا لَهَا﴾ مبتدأ وخبر، وفيه معنى التعجب؛ أي: أي شيء ثبت لها؟ أو لأي شيء زلزلت، وأخرجت أثقالها؟ والمعنى[2]؛ أي: وقال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال الذي يخالف أمثاله في شدته، ويحار العقل في معرفة أسبابه، ويصيبه الدهش مما يرى ويبصر ما لهذه الأرض وما الذي وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾ وقوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ عامل فيهما، وهو جواب الشرط كما مر، وهذا على القول[3] بأن العامل في ﴿إِذَا﴾ الشرطية جوابها، و﴿أَخْبَارَهَا﴾ مفعول ثان لـ﴿تُحَدِّثُ﴾ والأول محذوف؛ لعدم تعلق الغرض بذكره؛ إذ الكلام مسوق لبيان تهويل اليوم، وأن الجمادات تنطق فيه، وأما ما ذكر ابن الحاجب من أن حدَّث وأنبأ ونَبَّأ لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، فغير مسلم الصحة على ما فُصِّل في محله، والمعنى: يوم إذا زلزلت الأرض وأخرجت أثقالها تحدث الخلق وتخبرهم أخبارها إما بلسان الحال، حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها، وإخراج أثقالها، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويخوفون منه، وإما بلسان المقال؛ وهو قول الجمهور حيث ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عُمل على ظهرها من خير وشر حتى يود الكافر أنه سيق إلى النار بما يرى من الفضوح.

روي: أن عبد الرحمٰن بن صعصعة كان يتيماً في حجر أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ فقال أبو سعيد: يا بني إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر ولا شجر إلا شهد له».

وروي: أن أبا أمية صلى في المسجد الحرام المكتوبة ثم تقدم فجعل يصلى ههنا وههنا، فلما فرغ. قيل له: يا أبا أمية، ما هذا الذي تصنع؟ قال: قرأت هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فأردت أن يشهد لي يوم القيامة، فطوبى لمن شهد له المكان بالذكر والتلاوة والصلاة ونحوها، وويل لمن شهد عليه بالزنا والشرب والسرقة والمساوىء. ويقال: إن لله عليك سبعة شهود: المكان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾، والزمان؛ كما في الخبر: «ينادي كل يوم: أنا يوم جديد، وأنا على ما تعمل فيّ شهيد»، واللسان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾، والأركان؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، والملكان؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠﴾، والديوان؛ كما قال تعالى: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، والرحمٰن؛ كما قال: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، فكيف يكون حالك أيها العاصي إذا شهد عليك هؤلاء الشهود؟.

والمعنى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾؛ أي: في[1] ذلك الوقت، وقت الزلزلة تحدثك الأرض أحاديثها.

والمعنى: أي إن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانقلاب وما لم يعهد له نظير من الخراب تُعْلِم السائل وتفهمه أن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التي وضعت لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا الكون، ثم بين سبب ما يرى، فقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي[2]: تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث بلسان المقال على ما عليه الجمهور أو بسبب أن أحدث فيها أحوالاً دالة على الإخبار، كما إذا كان التحديث بلسان الحال، و﴿اللام﴾[3] في ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بمعنى إلى، وإنما أوثرت اللام على إلى مع كون المشهور تعديتها بأل لموافقة الفواصل قال العجاج يصف الأرض:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أَوْحَىٰ لَهَا ٱلْقَرَارَ فَٱسْتَقَرَّتِ وَشَدَّهَا بِٱلرَّاسِيَاتِ ٱلثُّبَّتِ

فعداها باللام، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة..

قال الفراء: تحدث أخبارها بوحي الله وإذنه لها. وقيل: إن ﴿أَوْحَىٰ﴾ يتعدى باللام تارةً وبإلى أخرى. وقيل: إن اللام على بابها مع كونها للعلة. والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة المتصرفين فيها لأجل الأرض؛ أي: لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى، وإذا كان الإيحاء إليها.. احتمل أن يكون وحي إلهام، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة.

والمعنى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي: إن ما يكون للأرض يومئذٍ إنما هو بأمر إلٰهي خاص، فيقول لها: كوني خراباً، كما قال لها حين بدأ النشأة الأولى: كوني أرضاً، وإنما سمي ذلك وحياً لأنه أتى على خلاف ما عُهد منذ نشأة الأرض. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقع ما ذكر ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي[1]: يرجع الناس من قبورهم إلى موقف الحساب، والظرف إما بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ قبله، وإما منصوب بـ﴿يَصْدُرُ﴾، وإما باذكر مقدراً. والصَّدْر - بسكون الدال -: مصدر بمعنى الرجوع والانصراف بعد الورود والمجيء. قال الجمهور: الورود كونهم مدفونين، والصدر قيامهم من قبورهم، والاسم منه: الصَّدَرُ - بالتحريك - ومنه طواف الصَّدَرِ، وهو طواف الوداع. وقوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ حال من الناس، جمع شت - بالفتح - أي: متفرق؛ أي: متفرقين في النظام.

وعبارة الخطيب: يوم إذ زلزلت الأرض وأخرجت أثقالها يرجع الناس من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد؛ ليفصل بينهم، حال كونهم متفرقين بحسب مراتبهم في الذوات والأحوال، من مؤمن وكافر، وآمن وخائف، ومطيع وعاص. وعن ابن عباس: متفرقين على قدر أعمالهم، أهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة، أو متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنّة وآخذ ذات الشمال إلى النار، أو متفرقين بيض الوجوه والثياب آمنين، ينادي المنادي بين أيديهم: هؤلاء أولياء الله سبحانه، وسود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال فزعين،

---

(١) روح البيان.

ينادي المنادي بين أيديهم: هؤلاء أعداء الله تعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ يوماً، فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، وهو يقول: مالي أراك مغموماً ـ وهو أعلم به ـ؟ فقال ﷺ: يا جبريل، قد طال تفكري في أمر أمتي يوم القيامة، قال: يا محمد، في أمر أهل الكفر أم في أمر أهل الإسلام؟ قال: يا جبريل، لا بل في أمر أهل لا إله إلا الله، قال: فأخذ بيده حتى أقامه على مقبرة بني سلمة، فضرب بجناحه الأيمن علىٰ قبر ميت فقال: قم بإذن الله، فقام رجل مبيض الوجه وهو يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، الحمد لله ربّ العالمين، فقال له جبريل: عد، فعاد كما كان، ثم ضرب بجناحه الأيسر على قبر ميت، فقال: قم بإذن الله، فخرج رجل مسود الوجه أزرق العين، وهو يقول: واحسرتاه، واندامتاه، واسوأتاه، فقال له جبريل: عد، فعاد كما كان، ثم قال جبريل: هكذا يبعثون يوم القيامة على ما ماتوا عليه» و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ متعلقة بـ﴿يَصۡدُرُ﴾ أي: يومئذٍ يصدر الناس من قبورهم إلى ربهم ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ جزاء ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ خيراً كان أو شراً والكلام على حذف مضاف، وإلا.. فنفس الأعمال لا يتعلق بها الرؤية البصرية؛ إذ الرؤية هنا بصرية لا علمية؛ لأن قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ إلخ تفصيل ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾، والرؤية فيه بصرية لتعديتها إلى مفعول واحد، اللهم إلاّ أن يُجعل لها صور نورانية أو ظلمانية، أو يتعلق الرؤية بكتبها كما سيجيء، فحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير مضاف. أي: ليري الله سبحانه المحسن منهم والمسيء بواسطة من يشاء من جنوده أو بغير واسطة، حتى يكلم سبحانه وتعالى كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة، كما أخبر ذلك رسوله ﷺ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيعلمون جزاءها أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله.

وقرأ الجمهور: ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول، وهو من رؤية البصر؛ أي: ليريهم الله سبحانه أعمالهم. وقرأ الحسن والأعرج، وقتادة وحمّاد بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف، والزهري وأبو حيوة وعيسى، ونافع في رواية بفتحها على البناء للفاعل، والمعنى: ليروا جزاء أعمالهم.

وقصارى ذلك: يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم الأرضي، ويظهر ذلك الكون الجديد، كون الحياة الأخرى.. يصدر الناس متفرقين متمايزين، فلا يكون

محسن في طريق واحد مع مسيء، ولا مطيع مع عاص؛ ليريهم الله جزاء ما قدمت أيديهم، ويجنوا ثمر ما غرسته أيديهم. ثم فصل ذلك بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ...﴾ إلخ تفصيل للواو في قوله: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كما في «البيضاوي».

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزن نملة صغيرة، وهي أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾؛ أي: يرى ذلك الخير يوم القيامة في كتابه فيفرح به، ﴿و﴾ كذلك ﴿من يعمل﴾ في الدنيا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾؛ أي، يرى ذلك الشر يوم القيامة في كتابه فيسوءه. ومثل هذه الآية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ والمثقال[1] الوزن، والذرة النملة الصغيرة، وكل مئة منها زنة حبة شعير، وأربع ذرات وزن خردلة. اهـ قسطلاني. وقيل: الذرة جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً من الشعيرة. اهـ عيني. وفي الخطيب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا وضعت يدك ـ أي: راحتك ـ على الأرض ثم رفعتها.. فكل واحدة مما لزق من التراب ذرة. وقيل: الذرة ما يرى في شعاع الشمس الداخل من الكوة من الهباء الطائرة. وقال يحيى بن عمار: حبة الشعير أربع أرزات، والأرزة أربع سمسمات، والسمسمة أربع خردلات، والخردلة أربع أوراق نخالة، وورق النخالة ذرة. والأول أولى وفي بعض الأحاديث: أن الذرة لا زنة لها، وهذا مثل ضربه الله سبحانه ليبين أنه لا يغفل عن عمل ابن آدم، صغيراً ولا كبيراً، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ اهـ خطيب. ومعنى رؤية إما يعادل الذرة من خير أو شر، وإما مشاهدة أجزيته، ﴿فَمَن﴾ الأولى مختصة بالسعداء، والمخصوص قوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ من السعداء ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ومن الثانية بالأشقياء، بقرينه ﴿أَشْتَاتًا﴾ أيضاً؛ أي: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ من الأشقياء ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ وذلك لأن حسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة. وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب وقد ورد أن حاتماً الطائي يخفف الله عنه لكرمه وورد مثله في أبي طالب وغيره.. يرده قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ وقوله ﷺ في حق عبد الله بن جدعان: «لا ينفعه» لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم

---

(١) روح البيان.

الدين وذلك حين قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ وقوله ﷺ في حق أبي طالب: «ولولا أنا.. كان في الدرك الأسفل من النار» فتلك الشفاعة مختصة به وأما حسنات الكفار: فمقبولة بعد إسلامهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه أما المؤمن: فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر: فيرد حسناته تحسيراً له). وفي «تفسير البقاعي» الكافر يوقف على ما عمله من خير على أنه جوزي به في الدنيا، أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان، فهو صورة بلا معنى، ليشتد ندمه ويَقْوَى حزنه وأسفه، والمؤمن يراه ليشتد سروره به، وفي جانب الشر يراه المؤمن ويعلم أنه قد غفر له فيكمل فرحه، والكافر يراه فيشتد حزنه وترحه. وقال محمد بن كعب[1]: (فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ونفسه وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عليه عند الله شر). والتفسير الأول أولى. قال مقاتل: (نزلت في رجلين، كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يؤتيه التمر والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين).

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَـرَهُۥ﴾ في الموضعين بفتح الياء فيهما مبنياً للفاعل؛ أي: يرى جزاءه من ثواب وعقاب، وقرأ ابن عباس وابن عمر، والحسن والحسين ابنا علي، وزيد بن علي وأبو حيوة، وعبد الله بن مسلم والكلبي، وخُليد بن نشيط وأبان عن عاصم، والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه، والجحدري والسلمي وعيسى: ﴿يُره﴾ بضم الياء فيهما على البناء للمفعول، أي: يريه الله إياه. وقرأ عكرمة ﴿يَرَاهُ﴾ على توهم أن ﴿مَن﴾ موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة في آخر الفعل، على لغة حكاها الأخفش. وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَـرَهُۥ﴾ في الموضعين بضم الهاء وصلاً وسكونها وقفاً وقرأ هشام بسكونها وصلا ووقفا ونقل أبو حيان عن هشام وأبي بكر سكونها فيهما، وعن أبي عمرو ضمها فيهما، مشبعة

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

موصولة بواو، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية، وفي هذا النقل نظر، والصواب ما ذكرنا. والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل. وعبارة أبي حيان: وقرأ عكرمة[1]: ﴿يراه﴾ بالألف في الموضعين، وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة في حروف العلة، حكاه الأخفش، أو على توهم أن ﴿مَن﴾ موصولة لا شرطية، كما قيل في ﴿إنه من يتقي ويصبر﴾ في قراءة من أثبت ياء يتقي وجزم يصبر، توهم أن ﴿مَن﴾ شرطية لا موصولة، وجزم ﴿ويصبر﴾ عطفاً على التوهم.

والرؤية هنا رؤية بصر كما مر وقال النقاش: ليست برؤية بصر، وإنما المعنى: يصيبه ويناله، انتهت.

وحاصل المعنى[2]: أي فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره. فإنه يجد جزاءه، ومن يعمل الشر ولو قليلاً.. يجد جزاءه، ولا فرق بين المؤمن والكافر، وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء وما نطق من الآيات بحبوط عمل الكافرين وأنها لا تنفعهم.. فالمراد به أنها لا تنجيهم من عذاب الكفر وإن خففت عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم من السيئات الأخرى أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شيء، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء، وأن كلاً يوفَّى يوم القيامة جزاءه، وقد ورد: أن حاتماً يخفف عنه لكرمه، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي ﷺ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية.

وقيل في معنى ﴿يَرَهُۥ﴾؛ أي: يرى جزاء عمله ولا يرى العمل نفسه، لأن ما عمله قد مضىٰ وعُدِم فلا يرى، وأنشدوا:

إِنَّ مَنْ يَعْتَدِي وَيَكْسِبُ إِثْمَاً ... وَزْنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ سَيَرَاهُ
وَيُجَازَى بِفِعْلِهِ ٱلشَّرَّ شَرَّاً ... وَبِفِعْلِ ٱلْجَمِيْلِ أَيْضَاً جَزَاهُ

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

هَــكَـــذَا قَـــوْلُـــهُ تَـــبَـــارَكَ رَبِّـــيْ فِـــيْ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وَجَـــلَّ ثَـــنَـــاه

قال الإمام الرازي في «تفسيره»: لقائل أن يقول: إذا كان الأمر إلى هذا الحد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ فأين الكرم؟.

والجواب: هذا هو الكرم؛ لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف والكريم لا يحتمله، وفي الطاعة تعظيم وإن قل فالكريم لا يضيعه، وكأنَّ الله سبحانه يقول: لا تحسب مثقال ذرة من الخير صغيراً؛ فإنك مع لؤمك وضعفك لم تضيع مني الذرة، بل اعتبرتها ونظرت فيها واستدللت بها على ذاتي وصفاتي، واتخذتها مركباً به وصلت إِليَّ، إذا لم تضيع أنت ذرتي.. أفأضيع أنا ذَرَّتك؟ ثم التحقيق: أن المقصود هو النية والقصد فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة.. فقد حصل المطلوب وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة.. فالمقصود فائت، ومن ذلك ما روى عن كعب: لا تحقروا شيئاً من المعروف؛ فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت المقدس فدخلت الجنة. وعن عائشة رضي الله عنها: كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها، فجاء سائل، فأمرت له بحبة من ذلك العنب، فضحك بعض من عندها فقالت: إن فيما ترون مثاقيل الذر، وتلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ ولعلها كان غرضها التعليم، وإلا.. فهي كانت في غاية السخاوة. روي: أن ابن الزبير بعث إليها بمئة ألف درهم في غرارتين، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية، هَلُمِّي فطوري، فجاءت بخبز وزيت، فقيل لها: أما أمسَكْتِ لنا درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذَكَّرْتِني لفعلت ذلك. وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» متفق عليه.

الإعراب

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ الآتي؛ لأنه جوابها ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل

﴿زِلۡزَالَهَا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، وقيل: ﴿إِذَا﴾ لمجرد الظرفية والعامل فيها محذوف، تقديره: يحشرون، وقيل: اذكر، فهي مفعول به، ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زُلۡزِلَتِ﴾ ﴿أَثۡقَالَهَا﴾: مفعول به ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿زُلۡزِلَتِ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل الرفع مبتدأ، ﴿لها﴾ خبر لها، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرف مضاف لمثله، في محل النصب على الظرفية على أنه بدل من ﴿إِذَا﴾ والعامل فيه هو العامل في المبدل منه ﴿يوم﴾: مضاف. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والتنوين عوض عن المضاف إليه، تقديره: إذ تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض أثقالها، ويقول الإنسان مالها.. تحدث الأرض أخبارها بسبب إيحاء ربك إليها، فحذفت هذه الجمل الثلاث وناب منابها التنوين، فاجتمع ساكنان وهما الذال والتنوين، فكسرت الذال لالتقاء الساكنين، وليست هذه الكسرة في الذال بكسرة إعراب، وإن كانت ﴿إذ﴾ في موضع جر بإضافة ما قبلها إليها، وإنما الكسرة فيها لالتقاء الساكنين، ويسمى هذا التنوين: تنوين العوض ﴿تُحَدِّثُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ ﴿أَخۡبَارَهَا﴾: مفعول به ثان، والأول محذوف تقديره: أي الخلق. والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذ﴾ مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أنّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿رَبَّكَ﴾ اسمها ﴿أَوۡحَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوۡحَىٰ﴾ و﴿اللام﴾ بمعنى إلى، أو على بابها كما مر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ تقديره: بأن ربك موحٍ إليها، وجملة ﴿أنّ﴾ مع معموليها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إيحاء ربك إليها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، بدل من ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ قبله، أو متعلق

بـ﴿يَصۡدُرُ﴾، أو هو مفعول به لـ اذكر، مقدراً ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل مضارع وفاعل، ﴿أَشۡتَاتٗا﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسُ﴾. والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾، أو مستأنفة ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يروا﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بأن مضمرة بعد (لام) كي وعلامة نصبه: حذف النون، والواو نائب فاعل، وهو المفعول الأول ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: مفعول ثان له، والرؤية بصرية ولذلك عديت إلى مفعولين؛ لأن أرى إذا كانت علمية تتعدى إلى ثلاث والجملة الفعلية صلة (أن) المضمرة، و(أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإراءة الله سبحانه إياهم جزاء أعمالهم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَصۡدُرُ﴾. ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت أنهم يصدرون إلى ربهم وأردت تفاصيل أحوالهم.. فأقول لك ﴿من يعمل﴾، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿يَعۡمَلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾، تقديره: هو، ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿خَيۡرٗا﴾: تمييز ذات ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ منصوب به، ﴿يَرَهُۥ﴾: ير فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: هو، يعود على ﴿مَن﴾ و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية كما مر، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وجملة قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، مماثلة لها في إعرابها حرفاً بحرف فلا حاجة إلى إعرابها.

التصريف مفردات اللغة

﴿زِلۡزَالَهَا﴾ الزلزلة: الحركة الشديدة مع اضطراب، قال الزمخشري: وقرىء بكسر الزاي وفتحها، فالمكسور مصدر، والمفتوح اسم مصدر، وليس في الأبنية فعلال ـ بالفتح ـ إلا في المضاعف. اهـ.

وهذا بالنظر إلى الغالب، وإلا فقد ورد: ناقة خزعال، قال في «القاموس»: وخزعل الضبع عرج وخمع، وخزعل الماشي نفض رجليه، وناقة بها خزعال ظلع،

وليس فعلال من غير المضاعف سواه، وقسطال وخرطال، وفيه أيضاً: وزلزلهُ زلزلةً وزلزالاً مثلثة: حركه.

والزلازل البلايا، وقال ابن عرفة الزلزلة والتلتلة واحد، والزلازل والتلاتل كذلك، وأنشد للراعي:

فَـأَبُـوْكَ سَـيِّـدُهَـا وَأَنْـتَ أَشَـدُّهَـا زَمَـنَ ٱلـزَّلاَزِلِ فِـيْ ٱلـتَّـلاتِـلِ جُـوْلاَ

﴿أَثْقَالَهَا﴾: جمع ثِقْل ـ بكسر فسكون ـ كحمل وأحمال كما في «المختار» وعبارة الزمخشري: وجعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها. والثقل في الأصل متاع البيت، كما قال تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ والمراد به هنا: ما في جوف الأرض من الدفائن، كالموتى والكنوز.

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: الإنسان فيه قولان، أحدهما: أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر، أي: يقول الجميع ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، والثاني: أنه الكافر خاصة؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ يقال: أوحى له وأوحى إليه، ووحىٰ له ووحى إليه، إذا كَلَّمه خفية أو ألهمه كما جاء في قوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ والوحي الإعلام خفية أو الإلهام ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يرجع، فالوارد هو الآتي للماء ليشرب أو يستقي، والصادر هو الراجع عنه ﴿أَشۡتَاتٗا﴾جمع شَتٍّ، يقال: أمر شت وشتات؛ أي: متشتت ومتفرق، وهو وصفٌ بالمصدر، ويقال: جاؤوا أشتاتاً، وجاؤوا شتات شتات؛ أي متفرقين وقال عدي بن زيد:

قَـدْ هَـرَاقَ ٱلـمَـاءَ فِـي أَجْـوَافِـهَـا وَتَـطَـايَـرْنَ بِـأَشْـتَـاتٍ شَـقَـقْ

﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ أصله لِيُرْأَيُوا، بوزن يُفعَلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزنها، وهو مَثَلٌ في الصغر، والذرة النملة الصغيرة أو هي الهَباء الذي يُرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ﴿يَـرَهُۥ﴾: أصله يَرْأَيُهُ بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت للتخفيف، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لَمَّا جُزِم الفعل.

نادرة: قال أبو عبد الله: حدَّثني أبو العيناء عن الأصمعي، قال: قرأ أعرابي: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة شراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ فقدم وأخر فقلت له: قدمت وأخرت فقال:

خُـذَا جَـنْـبَ هَـرْشَـى أَوْ قَـفَـاهَـا فَـإِنَّـهُ   كِـلاَ جَـانِـبَـيْ هَـرْشَـى لَـهُـنَّ طَـرِيْـقُ

وروى هذه النادرة الزمخشري في «كشافه» أيضاً، وأضاف: وهرشى كسكرى، ثنية في طريق (مكة) عند الجحفة؛ أي: اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها، فإنه ـ أي الحال والشأن ـ كلٌّ من جانبيها طريق للإبل التي تطلبانها، وتكرير لفظ هرشى لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها، والمقام كان مقام هداية فحسن فيه ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾.

ومنها: الإضافة للتهويل والتفظيع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لأن المخرج حقيقة هو الله سبحانه، نظير قولهم: أنبت الربيع البقل.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لزيادة التقرير والتوكيد، ولتفخيم هول الساعة.

ومنها: إيثار الواو على الفاء في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ مع أن الإخراج متسبب عن الزلزال؛ للتفويض إلى ذهن السامع.

ومنها: الاستفهام للتعجيب والاستغراب في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾.

ومنها: إيثار (اللام) على (إلى) في قوله: ﴿بأن ربك أوحي لها﴾؛ لمراعاة الفواصل، ولأن ما يتعدى بـ(إلى) يجوز أن يتعدى بـ(اللام)، ولا عكس.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ وبين قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين:

١ ـ اضطراب الأرض يوم القيامة ودهشة الناس حينئذ.

٢ ـ ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمّ تفسير سورة الزلزلة قبيل الغروب من يوم السبت السابع عشر من شهر ذي الحجة المبارك، من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة العاديات

سورة العاديات مكية، نزلت بعد سورة العصر في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنيَّة في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العاديات بـ(مكة).

وآياتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: أربعون كلمة، وحروفها: مئة وستة وستون حرفاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما ذكر في السابقة الجزاء على الخير والشر.. أتبعه بتعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ولا يستعدون لحياتهم الثانية بتعويد أنفسهم فعل الخير، وقد نزلت سورة العاديات بعد سورة العصر ووضعت بعد سورة الزلزلة لبيان أن من ألهاه الفاني العاجل عن الباقي الآجل خاسر هالك يوم الزلزلة. وسميت بالعاديات: لذِكر لفظها فيها، وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة العاديات كلها محكم لا ناسخ ولا منسوخ.

ومن فضائلها[2]: ما أخرجه أبو عبيد في «فضائله» عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ تعدل نصف القرآن، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ تعدل نصف القرآن» وهو مرسل. وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رياح عن ابن عباس مرفوعاً مِثله، وزاد: و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ تعدل ربع القرآن».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ
لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

أسباب النزول

سبب نزول سورة العاديات: ما قاله الكلبي: أن النبي ﷺ بعث سرية إلى أناس من كنانة، فمكث ما شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر، فتخوف عليها، فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها، وكأنه سبحانه وتعالى أقسم بخيل تلك السرية المجاهدة في سبيل الله. وذكر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» سبب نزول هذه السورة، فقال: قال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حيٍّ من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري[1] وكان أحد النقباء، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها وعن سلامتها وبشرهم بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم العاديات ضبحا؛ يعني تلك الخيل. ثم ذكر الواحدي رواية عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً فأسهبت شهراً لم يأته منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ ضبحته بمناخرها إلى آخر السورة ومعنى أسهبت أمضت في السهوب، وهي الأرض الواسعة جمع سهب صفحة: (٢٥٨) أسباب النزول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أي أقسم بالخيول العاديات التي تعدو وتجري بسرعة وتضبح ﴿ضَبْحًا﴾؛ أي: تصوت بأنفاسهن صوتاً شديداً لشدة جريهنَّ وعَدْوهن. والعاديات جمع عادية؛ وهي الجارية بسرعة، من العدو وهو المشي بسرعة، وياؤها مقلوبة عن

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

الواو لكسر ما قبلها، كالغازيات من الغزوة. وقوله: ﴿ضَبْحًا﴾ مصدر منصوب إما بفعله المحذوف الواقع حالاً منها؛ أي: أقسم بالعاديات حالة كونها تضبح ضبحا؛ أي: تَنَفَّسُ نفساً شديداً لشدة جريها. والضبح: صوت يسمع من أفواه الفرس وأجوافها إذا عدون، وهو صوت غير الصهيل والحمحمة، والصهيل: صوت الفرس عند طلب الأكل، والحمحمة: صوت البرذون عند أكل الشعير. أو منصوب بالعاديات، فإن العدو مستلزم للضبح، كأنه قيل: والضابحات ضبحا، أو منصوب على الحال على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي حالة كونها ضابحات؛ أي: رافعاتٍ أنفاسهن لشدة العدو. وقيل: الضبح صوت حوافرها إذا عدت. وقيل: الضبح نوع من السير من العدو، ويقال: ضبح الفرس إذا عدا بشدة فيكون مصدراً معنوياً مؤكداً للعاديات ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾؛ أي: فأُقسم بالخيول اللاتي توريٰ وتوقد ﴿قَدْحًا﴾؛ أي: ناراً؛ أي: تخرج النار بحوافرها من الحجارة التي في طريقها لشدة جريها، ويتطاير منها الشرر أثناء جريها. فالإيراء إخراج النار، والقدح الضرب، فجعل ضرب الخيل بحوافرها الحجارة بعضها ببعض حتى يخرج منها الشرر كالقدح بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة.. انقدح منها النيران. والكلام في انتصاب ﴿قَدْحًا﴾ كالكلام في انتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ في الأوجه الثلاثة؛ أي: تقدح قدحا، فالقادحات قدحاً أو قادحات وعبارة الروح: الإيراء إخراج النار، والقدح الضرب، فإن الخيل يضربن بحوافرهن الحجارة فيخرجن منها ناراً، يقال: قدح الزند فأورى، وقدح فأصلد؛ أي صوَّت ولم يور، فالقدح يتقدم على الإيراء بخلاف الضبح حيث يتأخر ويتسبب عن العدو.

والمعنى: فبالخيول التي تورى النار بحوافرها إذا مشت في الأرض ذات الحجارة ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾؛ أي: فبالخيول التي تعدو وتغير على العدو لتأخذه بغتة ﴿صُبْحًا﴾؛ أي: في وقت الصباح، يقال: أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل، وأغار الفرس اشتد عدوه في الغارة وغيرها، أسند الإغارة ـ التي هي مباغتة العدو للنهب والقتل والأسر ـ إلى الخيل، وهي حال أهلها، إيذاناً بأنها العمدة في إغارتهم وقوله: ﴿صُبْحًا﴾ نُصب على الظرفية؛ أي: في وقت الصبح، وخصه بالذكر لأنه المعتاد في الغارات؛ لأنهم يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً على حين غفلة ليروا ما يأتون وما يذرون، ومنه قولهم عند خوف الغارة: يا

صباحاه؛ أي: يا قوم احذروا من شر توجه إلينا صباحاً.

وقوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾؛ أي: هيجن ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: في وقت الصباح ﴿نَقْعًا﴾؛ أي: غباراً معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل، إذ المعنى: والخيول اللاتي عدون فأورين فأغرن ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: فهيجن في ذلك الوقت وأصله أَثْوَرْن، من الثور وهو الهيجان، كما سيأتي بسطه في مبحث التصريف، والنقع: الغبار المرتفع، من نقع الصوت إذا ارتفع، سمي الغبار نقعاً لارتفاعه، أو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار خاض فيه كما يخوض الرجل في الماء. وتخصيص إثارة النقع بالصبح لأنه لا يثور ولا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا يظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل. قال سعدي المفتي: وإثارة النقع لأنهم يكونون حال الإغارة مختلفين يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً، بحَسَب الكر والفر في المجاولة إثر المدبر الهارب، والمصاولة مع المقبل المحارب، فينشأ الغبار الكثير. ويجوز أن يجعل الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لفعل الإغارة فـ﴿الباء﴾ للسببية أو للملابسة؛ أي: فأثرن بسبب الإغارة، أو حال كونها متلبسات بالإغارة.

والمعنى: فهيجن في وقت الصبح غباراً لشدة عدوهن، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ من الأعداء؛ أي: تواسطن جمعاً من جموع الأعداء ففرقنه وشتتن شمله؛ أي: دخلن في وسطهم في وقت الصباح فوسطن بمعنىٰ توسطن و﴿الباء﴾ في ﴿به﴾ للظرفية، والضمير عائد إلى صبحاً، أو للملابسة، والضمير للنقع؛ أي: توسطن ـ حال كونهن متلبسات بالنقع والغبار ـ جمعاً من الأعداء؛ أي: دخلن بينهم للقتل والأسر والنهب، وقوله: ﴿جَمْعًا﴾ مفعول به، والفاءات[1] في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها، فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على الإيراء المترتب على العدو، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ جواب القسم؛ أي: أقسمت بتلك الخيول الموصوفات بالصفات المذكورة على أن جنس الإنسان لشديد الكفران لنعم ربه، حيث خلقه وأنعمه بنعمة الإيجاد والتربية، فجعل له شريكاً. وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ بتخفيف الثاء والسين، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة بشدهما، وقرأ علي

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى بشد السين، وقال الزمخشري: وقرأ أبو حية: ﴿فأثَّرن﴾ بالتشديد، بمعنى: فأظهرن غباراً؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار، أو قلب ثورن إلى وثرن، وقلب الواو همزة. وقرىء: ﴿فوسَّطن﴾ بالتشديد للتعدية، و﴿الباء﴾ مزيدة للتوكيد، كقوله: وأُتُوا به، وهي مبالغة في وسطن، انتهى. أما قوله: أو قلب فتمحُّلٌ بارد. وأما إن التشديد للتعدية.. فقد نقلوا أن وسط مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد، وأنهما لغتان.

وعبارة الخازن هنا: قوله عز وجل: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فيه[1] قولان:

أحدهما: أنها الإبل في الحج، قال علي كرم الله وجهه: (هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى). وعنه أيضاً قال: (كانت أول غزاة في الإسلام بدراً. وما كان معنا إلا فَرَسان، فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات فيها؟) فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها: مد أعناقها في السير، وأصله من حركة النار في العود. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ يعني: أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها، فيضرب بعض الحجارة حجراً آخر فيوري النار. وقيل: هي النيران بجَمْعٍ ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾؛ يعني: الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسُّنَّة أن لا يدفع حتى يصبح. والإغارة: سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نغير. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾؛ أي: هيجن بمكان سيرها غباراً، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾؛ أي: وسطن بالنقع جمعاً، وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا القول: أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للترغيب، وفيه تقريع لمن لم يحج بعد الاستطاعة عليه، فإن الكُنود هو الكفر ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك.

والقول الثاني: في تفسير ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ قال ابن عباس وجماعة: هي الخيل العادية في سبيل الله، والضبح: صوت أجوافها إذا عدت، قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح سوى الفرس والكلب والثعلب. وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب، وهو من قول العرب: ضبحته النار، إذا غيرت لونه. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ يعني: أنها توري النار بحوافرها إذا سارت في

---

(١) الخازن.

الحجارة، وقيل: هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها، وقال ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيوري أصحابها ناراً ويصنعون طعامهم. وقيل: هو مكر الرجال في الحرب، والعرب تقول ـ إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه ـ: أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾؛ يعني: الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصباح؛ لأن الناس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: المكان ﴿نَقْعًا﴾: غباراً. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾؛ أي: دخلن به؛ أي: بذلك النقع، وهو الغبار. وقيل: صرن بعدوهن وسط جمع العدو، وهم: الكتيبة.

وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصحة وأشبه بالمعنى؛ لأن الضبح من صفة الخيل، وكذا إيراء النار بحوافرها وإثارة الغبار أيضاً. وإنما أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، الأجر والغنيمة، وتنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله عز وجل، ويؤيده ما سبق في أسباب النزول من أن رسول الله ﷺ بعث إلى أناس من بني كنانة سرية، واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وكان أحد النقباء، فأبطأ عليه ﷺ خبرها شهراً، فقال المنافقون: إنهم قتلوا، فنزلت السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وإشارة له بإغارتها على القوم، ونعياً على المرجفين في حقهم ما هم فيه من الكفر والكفران. فـ﴿اللام﴾ في ﴿العاديات﴾ إن كانت للعهد.. كان المقسَمُ به خيلَ تلك السرية، وإن كانت للجنس.. كان ذلك قسماً بكل خيل عدت في سبيل الله تعالى واتصفت بالصفات المذكورة، وعلى التقديرين فهي مستحقة لأن يقسم لاتصافها بتلك الصفات الشريفة. وفي تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة ما لا مزيد عليه، كأنه قيل: وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت، وإذا كان شرف خيل الغزاة بهذه المرتبة حتى أقسم الله بها.. فما ظنك بشرف الغزاة وفضلهم عند الله تعالى؟.

والحاصل: أن الله سبحانه أقسم[1] بالخيل التي لها هذه الصفات والتي تعمل تلك الأعمال ليُعِلي من شأنها في نفوس عباده المؤمنين أهل الجد والعمل؛ وليُعْنوا بتربيتها وتعويدها الكر والفر، وليحملهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب

---

(١) المراغي.

الخيل والإغارة بها على العدو؛ ليكون كل امرىء مسلم منهم عاملاً ناصباً إذا جد الجد واضطرت الأمة إلى صد عدو أو بعثها باعث على كسر شوكته، يرشد إلى ذلك قوله في آية آخرى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وفي إقسام الله بها بوصف العاديات المغيرات الموريات إشارة إلى أنه يجب أن تقتنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة، وأن الركوب الذي يحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء وخضد شوكتهم وصد عدوانهم.

وقصارى ذلك: أن للخيل في عدوها فوائد لا يحصى عدها، فهي تصلح للطلب وتسعف في الهرب، وتساعد جِد المساعدة في النجاء والفر والكر على الأعداء وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل. ثم ذكر المحلوف عليه بتلك الأيمان الشريفة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾؛ أي: إن جنس[1] الإنسان طبع على نكران الحق وجحوده، وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له، إلا من عصم الله تعالى وهم الذين روَّضوا أنفسهم على فعل الفضائل وترك الرذائل ما ظهر منها وما بطن. وعبارة الرازي: لما ذكر المقسم به، وهو ثلاثة أمور: ذكر المقسم عليه، وهو أمور ثلاثة، أولها: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾، ثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ ثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ...﴾ إلخ، شروع في تخويف الإنسان بعد تعديد قبائح أفعاله عليه، فأقسم بثلاثة على ثلاثة اهـ. وروي: أن النبي ﷺ قال: «الكَنود: الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده»؛ أي: عطاءه، أي: أنه لا يعطي شيئاً مما أنعم الله به عليه، ولا يرأف بعباده كما رأف به، فهو كافر بنعمته مجانف لما يقتضي به العقل والشرع. وسر الجِبِلَّة: أن الإنسان يحصر همه فيما حضره وينسى ماضيه وما عسى أن يستقبله، فإذا أنعم الله عليه بنعمة.. غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده. وقال ابن عباس: الكنود: الكفور الجحود لنعمة الله تعالى. وقيل: ﴿الكنود﴾ العاصي، وقيل: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم، وقيل: هو قليل الخير، مأخوذ من الأرض الكنود وهي التي لا تنبت شيئاً. وقال الفضيل بن

---

(١) روح البيان.

عياض: ﴿الكنود﴾: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان[1]، وضده الشكور، وهو الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة. يقال: كَنَدَ النعمة كُنوداً كفر بها، فالكُنود ـ بالضم ـ كفران النعمة، وبالفتح الكَفور، ومنه سمي كندة ـ بالكسر ـ وهو لقب ثور بن عفير أبي حي من اليمن؛ لأنه كند أبوه النعمة ففارقه ولحق بأخواله. وقال الكلبي: ﴿الكنود﴾ بلسان كندة: العاصي، وبلسان بني مالك: البخيل، وبلسان مضر وربيعة: الكفور. قيل: كان ثلاثة نفر من العرب في عصر واحد، أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي، والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب، وبخله أنه كان لا يوقد النار للخير إلا إذا نام الناس، فإذا انتبهوا.. أطفأ ناره؛ لئلا ينتفع بها أحد، والثالث آية في الطمع، وهو أشعب بن جبير مولى مصعب بن الزبير بن العوام، قرأ صبي في المكتب وعنده أشعب جالس: إن أبي يدعوك، فقام ولبس نعليه، فقال الصبي: أنا أقرأ حزبي! وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه.. يظن أنه ينتزع قميصه ليدفعه إليه، وكان إذا رأى دخاناً ارتفع من دار.. ظن أن أهلها تأتي بطعام، وكان إذا رأى عروساً تزف إلى موضع.. جعل يكنس باب داره لكي تدخل داره، قال: ما رأيت أطمع مني إلا كلباً تبعني على مضغ العلك فرسخاً.

وقال الحسن: ﴿لَكَنُودٌ﴾؛ أي: لوام لربه، يذكر المصيبات وينسى النعم. وقال: القاشاني: لكفور لربه باحتجاجه بنعمه عنه ووقوفه معها، وعدم استعماله لها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه، وقيل غير ذلك. والمراد بالإنسان: بعض أفراده؛ أي: إنه لنعمة ربه خصوصاً لكفور؛ أي: شديد الكفران. فقوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿كنود﴾، قدم عليه لإفادة التخصيص ومراعاة الفواصل، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن الإنسان، ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: على كُنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهد يشهد على نفسه بالكنود لظهور أثره عليه، فالشهادة هنا بلسان الحال لا بلسان المقال، ويحتمل أن يجعل من الشهود، بمعنى أنه لكفور مع علمه بكفرانه، والعمل السيء مع العلم به غاية المذمة. والمعنى أي[2]: وإنه مع كنوده ولجاجته في الطغيان وتماديه في الإنكار والبهتان إذا خلى ونفسَه.. رجع إلى الحق وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

نعمه إلا أن أعماله كلها جحود لنعم الله تعالى، فهي شهادة منه على كنوده، وشهادة بلسان الحال وهي أفصح من لسان المقال. وقيل: المعنىٰ: وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، وبه قال الجمهور، وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب، وهو أرجح من قول الجمهور؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لحب المال، فإن الضمير راجع إلى الإنسان، والمعنى[1]: وإنه لحب المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: قوي مطيق مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه، والخير المال، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن زيد: سمى المال خيراً، وعسى أن يكون شراً بأن كان حراماً، ولكن الناس يجدونه خيراً فسماه خيراً جرياً على عادتهم، كما سمى الجهاد سوءاً فقال: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾؛ أي: قتال، والقتال ليس بسوء، ولكن ذكره سوءاً جرياً على عادتهم. وحب المال: إيثار الدنيا وطلبها، و﴿اللام﴾ في ﴿لِحُبِّ﴾ متعلقة بـ﴿شديد﴾ قدم عليه لمراعاة الفاصلة، يقال: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً؛ يعني: أنه قوي مجد في طلب المال وتحصيله متهالك عليه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس. وقيل: الشديد البخيل الممسك؛ يعني: وإنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسك. والمعنى عليه أي: وإن الإنسان بسبب محبته للمال وشغفه به وتعلقه بجمعه وادخاره لبخيل.. شديد في بخله، حريص متناه في حرصه، ممسك مبالغ في إمساكه متشدد فيه، قال: طرفة:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ يَعْتَامُ ٱلْكِرَامَ وَيَصْطَفِيْ   عَقِيْلَةَ مَالِ ٱلْفَاحِشِ ٱلْمُتَشَدِّدِ

ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال؛ لأنهم بما يظهرون من الإسلام يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيباً.

ثم هدد الإنسان الذي هذه صفاته وتوعده بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ ﴿الهمزة﴾[2] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيفعل ما يفعل من القبائح، أو ألا يلاحظ فلا يعلم في الدنيا أن الله مجازيه ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ وأُخرِج ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى لمجازاتهم على

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.

أعمالهم، فناصب ﴿إِذَا﴾ محذوف كما قدرناه، وهو مفعول يعلم ﴿لا يعلم﴾ لأن الإنسان لا يراد منه العلم في ذلك الوقت، وإنما يراد منه ذلك في الدنيا، أي: لا يعلم أن الله مجازيه وقت إذ بعث وأخرج ما في القبور من الموتى، وإيراد ﴿ما﴾ لكونهم إذ ذاك بمعزل عن مرتبة العقلاء، قال أبو عبيدة: يقال: بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾. وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ معطوف على ﴿بُعْثِرَ﴾؛ أي: مُيِّز وبُيِّن ما فيها من الخير والشر؛ أي: ميز خير ما في القلوب من الأسرار من شره، للمجازاة على كل منهما بموجبه من الثواب والعقاب، فالتحصيل[1] بمعنى التمييز، ومنه قيل للمنخل: المحصل؛ أي آلة التحصيل وتمييز الدقيق من النخالة، فإنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد منها حكماً على حدة، فتمييز البعض من البعض وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللاحق هو التحصيل.

وقيل المعنى: أي جُمع في الصحف وأُظهر ما في الصدور من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي، فضلاً عن الأعمال الجلية؛ أي: أُظهر محصَّلاً مجموعاً، وأصل التحصيل: إخراج المستور بإخراج المغمور فيه وأخذه منه، كإخراج اللب من القشر، وإخراج الذهب من حجر المعدن، والبر من التبن، والدهن من اللبن، ومن الدُّردي، والجمع والإظهار من لوازمه. وتخصيص[2] أعمال الصدور بالذكر لأنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، فالقلب أصل وأعمال الجوارح تابعة له، ولذا قال تعالى: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وقال النبي ﷺ: «يبعثون على نياتهم» وعبارة «الجمل» هنا: ﴿وَحُصِّلَ﴾؛ أي: أُخرج وجُمع بغاية السهولة ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من خير وشر مما يظن أنه لا يعلمه أحد أصلاً وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال، وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها، اهـ خطيب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بُعْثِرَ﴾ بالعين، مبنياً للمفعول، وقرأ عبد الله ﴿بحثر﴾ بالحاء وقرأ الأسود بن يزيد ﴿بحث﴾ وقرأ نصر بن عاصم: ﴿بحثر﴾ على بنائه

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

للفاعل. وقرأ الجمهور: ﴿وَحُصِّلَ﴾ بضم الحاء وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول، وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، ومحمد بن أبي سعدان: ﴿حَصَلَ﴾ بفتح الحاء والصاد مخففاً، مبنياً للفاعل؛ أي: ظهر. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ بكسر الهمزة، على الاستئناف الإخباري، وبإثبات لام ﴿لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: إن رب المبعوثين كنى عنهم بعداً لإحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم بما في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ بناء على تفاوتهم في الحالين، فحين كانوا في القبور كانوا كجمادات بلا عقل ولا علم وإن كان لهم نوع حياة فيها، بخلاف وقت الحشر ﴿بِهِمْ﴾؛ أي: بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما في القبور. وتحصيل ما الصدور، والعامل في ﴿بِهِمْ﴾ وفي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بظواهرهم وبواطنهم علماً موجباً للجزاء متصلاً به، كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم، وإلا فمطلق علمه تعالى محيط بما كان وما سيكون. وقُدِّما عليه مراعاة للفواصل، واللام غير مانعة لعمله فيهما، لكنه ضَمَّن خبير معنى مجاز لهم في ذلك اليوم، أي: إن رب المبعوثين لخبير بهم يوم إذ بعث ما في القبور وحصل ما في الصدور، لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً، قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: أن الله يجازيهم في ذلك اليوم، ومثلُه قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم، انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ بكسر الهمزة واللام في ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ كما مر آنفاً وقرأ أبو السمال والحجاج بفتح الهمزة وإسقاط اللام، ويظهر في هذه القراءة تسلط ﴿يَعْلَمُ﴾ على ﴿أَنَّ﴾ لكنه لا يمكن إعمال خبير في ﴿إِذَا﴾؛ لكونه في صلة أن المصدرية، لكنه يمكن أن يقدر له عامل فيه من معنى الكلام، فإنه يقال: يجزيهم إذا بعثر.

والمعنى[2]: أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله تعالى عليه الجاحد لفضله وأياديه أنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه نفسه، وأنه مجازيه على جحده وإنكاره يوم يحصل ما في الصدور ويبعثر ما في القبور. وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم وهذا كثير في الكلام، تقول

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

لشخص في معرض التهديد: سأعرف لك عملك هذا، مع أنك تعرفه الآن قطعاً، وإنما عرفانه الآتي هو ظهور أثر المعرفة، وهو مجازاته بما يستحق، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلاً، فالمراد: سنجازيهم بما قالوا الجزاء الذي هم له أهل، والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿العاديات﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قَسَم محذوف وجوباً لكون القسم بالواو تقديره: أقسم بالعاديات، والجملة القَسَمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ضَبْحًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يضبحن ضبحا، والجملة المقدرة حال من العاديات، ويجوز أن يكون ﴿ضَبْحًا﴾ مصدراً وقع موضع الحال من ﴿العاديات﴾؛ أي: أقسم بالعاديات حالة كونها ضابحات، ويجوز أن يكون منصوباً بالعاديات، ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿الموريات﴾ معطوف على ﴿العاديات﴾، ﴿قَدْحًا﴾ وقد جاء فيه الأوجه الثلاثة التي في ﴿ضَبْحًا﴾. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿المغيرات﴾: معطوف على ﴿الموريات﴾ لا على ﴿العاديات﴾ كما توهمه بعضهم؛ لأن العطف إذا كان بحرف مرتب فكل معطوف على ما قبله كما بيّناه في «باكورتنا على الأجر ومية» نقلاً عن الشيخ الحامدي، و﴿صُبْحًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿المغيرات﴾ أي: اللاتي تغير في وقت الصبح، قال أبو حيان وأجاد: وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب، والظاهر، أنها الخيل التي يُجاهَد عليها العدو من الكفار كما مرّ بسطه في مبحث التفسير.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أثرن﴾ فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أثرن﴾ و﴿نَقْعًا﴾: مفعول به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على العدو أو على الصبح، و﴿الباء﴾ حينئذٍ بمعنى (في)، أي: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ في وقت الصبح ﴿نَقْعًا﴾: قال أبو حيان: وهذا أحسن

من الأول؛ لأن المرجع مذكور بالصريح، والجملة الفعلية معطوفة على صلة (أل) الداخلة على الصفات المذكورة لأنها موصولة، والتقدير: واللاتي عدون ضبحاً، فأورين قدحاً، فأغرن صبحاً، فأثرن به نقعاً، ﴿فَوَسَطْنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿وسطن﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أثرن﴾ ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وسطن﴾ والضمير للصبح، و﴿الباء﴾ بمعنى: (في)، أو على النقع، و﴿الباء﴾ للتعدية، وقيل: ﴿الباء﴾ متعلقة بمحذوف حال من ضمير الفاعل، و﴿الباء﴾ للملابسة، أي: حالة كونهن متلبسات بالغبار ﴿جَمْعًا﴾ مفعول به على الأوجه الثلاثة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لِرَبِّهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كنود﴾، ﴿لَكَنُودٌ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿كنود﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنه﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿شهيد﴾، ﴿لَشَهِيدٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿شهيد﴾: خبر إن، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿شديد﴾. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿شديد﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، لأن العاطف هنا غير مرتب كما مرت الإشارة إليه.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾: نافية ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الإنسان، معطوف على ذلك المحذوف ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف تقديره: أيفعل الإنسان ما يفعل من القبائح فلا يعلم أن الله يجازيه إذا بعث ما في القبور؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بمفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ المحذوف لا به كما مرّ بسطه؛ أي: أفلا يعلم أن الله مجازيه وقت بعث ما في القبور؟ ﴿بُعْثِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، ﴿فِى ٱلْقُبُورِ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة في محل الخفض بإضافة الظرف إليها، ﴿وَحُصِّلَ﴾: فعل ماض مغير الضيغة ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل

﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة الفعلية في محل الخفض معطوفة على ما قبلها، ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿بهم﴾ متعلق بـ﴿خبير﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ﴿خبير﴾ أيضاً، ﴿بخبير﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿خبير﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل عامل ﴿إذا﴾ المحذوف؛ أي: أفلا يعلم أن الله مجازيه وقت ما ذكر لأنه خبير بأحوالهم وأعمالهم بتفاصيلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾: جمع عادية، كغازيات جمع غازية، وهي: الخيل الجارية بسرعة، من العدو، وهو المشي بسرعة، ففيه إعلال بالقلب، أصله: العادوات، فقلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة، يقال: عدا يعدو عدواً، فهو عاد وهي عادية اهـ، «سمين». ﴿ضَبْحًا﴾ والضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو، وليس بصهيل، وفي «المختار»: ضبحت الخيل من باب قطع والضبح: صوت أنفاسها إذا عدت اهـ، وفي «القاموس»: ضبحت الخيل ضبحاً وضباحاً أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، قال عنترة:

وَٱلْخَيْلُ تَكْدَحُ حِيْنَ تَضْـ ... ـبَحُ فِيْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ ضَبْحَا

والكدح: الجد في العدو. وشبه عنترة الموت بالسيل على طريق الاستعارة المكنية، والحياض تخييلُ ذلك.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: جمع مورية، من الإيراء، وهو إخراج النار من الحجارة، ففيه حذف همزة أفعل من الوصف، يقال: أورى فلان إذا أخرج النار بزند، ونحوه، وفي «المصباح»: وَرَىٰ الزندِ، يَرِيْ، من باب وعد، وفي لغة: ورى ـ بكسرهما ـ وأورى بالألف، وذلك إذا أخرج ناره، وفي «المختار»: وأوراه غيره اهـ، فاستفيد من مجموعها أنه يستعمل ثلاثياً لازماً لا غير، ورباعياً لازماً ومتعدياً، وما في الآية من قبيل المتعدي. ﴿قَدْحًا﴾: والقدح الضرب لإخراج النار، كضرب الزناد بالحجر، وفي «القرطبي»: وأصل القدح الاستخراج، ومنه: قدحت العين إذا أخرجت منها الفاسد، واقتدحت الزند واقتدحت المرق غرفته، والمقدحة ـ بكسر الميم ـ ما تقدح به النار، والقداحة والقدح: الحجر الذي يوري النار اهـ. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: فيه إعلال بالنقل، نقلت حركة حرف العلة إلى الغين قبلها فسكن فصار حرف مد،

فأصله المغْيِرات، نقلت حركة الياء إلى الغين، يقال: أغار يغير إغارة، إذا باغت عدوه لنهب أو قتل أو أسر، وفي «المصباح»: وأغار الفرس إغارة، والاسم الغارة، مثل أطاع إطاعة والاسم الطاعة، إذا أسرع في العدو، وأغار القوم إغارة أسرعوا في السير اهـ. وفي «القاموس»: أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل، وأغار الفرس اشتد عدوه في الغارة وغيرها اهـ. قال الشاعر:

أَغَارَ عَلَىٰ ٱلْعَدُوِّ بِكُلِّ طَرْفٍ وَسَلْهَبَةٍ تَجُولُ بِلاَ حِزَامِ

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾؛ أي: هيجن في وقت الصبح غباراً، يقال: ثار يثور ثوراً، وثوراناً وثؤوراً، أهاج، ومنه ثارت الفتنة بينهم، وثار الغبار أو الدخان ارتفع، وثار الجراد ظهر، وثارت نفسه جشأت وجاشت، وثار إليه وبه، وثب عليه. وما في الآية من الإثارة وهو التهييج وتحريك الغبار، وأصله: أَثْوَرْن من الثور وهو الهيجان، نقلت حركة الواو إلى الثاء قبلها، وقلبت الواو ألفاً فصار أثارن، فحذفت الألف لاجتماع الساكنين، فبقي أثرن بوزن أفلن. ﴿نَقۡعٗا﴾: والنقع الغبار؛ والنقع أيضاً: أن يروى الإنسان من شرب الماء، يقال: نقعت غُلِّي بشربة ماء، وقال بشار:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَىٰ كَوَاكِبُهْ

﴿فَوَسَطۡنَ﴾؛ أي: توسطن، وفي «المصباح»: ويقال: وسطت القوم والمكان أسط وسطاً ـ من باب وعد ـ إذا توسطت بين ذلك، والفاعل واسط، وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم، وفي «المختار»: تقول: جلست وَسْط القوم بالتسكين؛ لأنه ظرف، وجلست وَسَط الدار بالتحريك؛ لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته، وكل موضع صلح فيه (بين) فهو وسط بالسكون، وإن لم يصلح فيه (بين) فهو وسط بالتحريك، وربما سكن وليس بالوجه اهـ.

وعبارة «القاموس»: ووَسَطَهُم كوعد، وَسَطاً وسِطَة جلس وسطهم كتوسطهم وهو وسيط فيهم؛ أي: أوسطهم نسباً، وأرفعهم محلاً، والوسيط بين المتخاصمين إلى آخر ما ذكره. ﴿لَكَنُودٞ﴾: وفي «المختار»: كند النعمة كفر بها، وبابه: دخل، فهو كنود وامرأة كنود أيضاً، وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ قال: الكنود الذي يذكر المصائب وينسى النعم. وقال: النمر بن تولب:

كَـنُـودٌ لاَتَـمُـنُّ ولاَ تُـفَـادِيْ إِذَا عَـلِـقَـتْ حَـبَـائِـلُـهَـا بِـرَهْـنِ
لَـهَـا مَـا تَـشْـتَـهِـي عَـسَـلٌ مُـصَـفًّـىٰ إِذَا شَـاءَتْ وَحُـوَّارَىٰ بِـسَـمْـنِ

وقال غيره:

كَنَد النعمةَ كَفَرها ولم يَشْكُرها.

وأنشدوا:

كَـنُـوْدٌ لِـنَـعْـمَـاءِ ٱلـرِّجَـالِ وَمَـنْ يَـكُـنْ كَـنُـوْداً لِـنَـعْـمَـاءِ ٱلـرِّجَـالِ يُـبَـعَّـدُ

وأصل الكنود: الأرض التي لا تنبت شيئاً، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات ومعروفات ﴿لَشَهِيدٌ﴾؛ أي: لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: لأجل حب الخير ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: لبخيل، والخير المال، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾. ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ البعثرة بالعين، والبحثرة بالحاء: استخراج الشيء وٱستكشافه كما تقدم في سورة الانفطار عن «المختار».

فإذا قيل: لم قال: ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾، ولم يقل: من في القبور، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾؟ أجيب عن الأول: بأن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء. ﴿وَحُصِّلَ﴾؛ أي: أُظهِر محصَّلاً مجموعاً في صحائف الأعمال، قال في «القاموس»: التحصيل تمييز ما يحصل، والحاصل من كل ما يبقى وثبت وذهب ما سواه اهـ. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: ما في القلوب من العزائم والنوايا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المخالفة بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ إذ عطف الفعل على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل، ففيها سر بديع، وهو تصوير هذه الأفعال في النفس وتجسيدها أمام

العين، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير والتجسيد بالأسماء المتناسقة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ حيث شبه الخيول العادية اللاتي تضرب بحوافرها الحجارة بالجماعة الذين يورون الزند، فالقدح استعارة لضرب الحجارة، أو يقال: شبه الحرب بالنار المشتعلة وحذف المشبه وأبقى المشبه به، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ حيث أسند الإغارة التي هي مباغتة العدو للنهب والقتل والأسر إلى الخيل وهي حال أهلها، إيذاناً بأنها العمدة في إغارتهم.

ومنها: تخصيص إثارة النقع بالصبح؛ لأنه لا يثور، ولا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا يظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل.

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ واللام واسمية الجملة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ لزيادة التقرير والبيان.

ومنها: الجناس المحرف في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ وهو الذي يكون الضبط فيه فارقاً بين الكلمتين أوبعضهما، وهو أيضاً ما اتفق ركناه في أعداد الحروف واختلفا في الحركات، سواء كانا من اسمين أو فعلين أو اسم وفعل أو من غير ذلك، والغاية فيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ولا يقال: إن اللفظين متحدان في المعنى فلا يكون بينهما تجانس؛ لأنا نقول: المراد بالأول: اسم الفاعل، وبالثاني: اسم المفعول، فالاختلاف ظاهر، ومنه قوله ﷺ: «اللهم كما حسنت خَلْقِي فحسن خُلُقي» ومنه قولهم: جُبة البُرد جُنة البرد.

ومنها: الجناس اللاحق في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وهو الذي أبدل في إحدى الكلمتين حرف واحد بغيره من غير مخرجه، وسواء كان الإبدال من الأول نحو قوله: تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ أو في الوسط كهذه الآية التي نحن بصددها، أو في الآخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ ومن أمثلة الشعر على هذا الترتيب المذكور أيضاً قول أبي فراس:

إِنَّ ٱلْـغَـنِـيَّ هُـوَ ٱلْـغَـنِـيُّ بِـنَـفْـسِـهِ وَلَـوْ أَنَّـهُ عَـارِيْ الْـمُـنَـاكِـبِ حَـافِـيْ
مَـا كُـلُّ مَـا فَـوْقَ ٱلْـبَـسِـيْـطَـةِ كَـافِـيَـاً وَإِذَا قَـنِـعْـتَ فَـكُـلُّ شَـيْءٍ كَـافِـيْ

ومن الثاني قول البحتري:

وَقُـعُـودِيْ عَـنِ ٱلـتَّـقَـلُّـبُ وَالأَرْ ضُ لِـمِـثْـلِـي رَحِـيْـبَـةُ الأَكْـنَـافِ
لَـيْـس عَـنْ ثَـرْوَةٍ بَـلَـغْـتُ مَـدَاهـا غَـيْـرَ أَنِّـي ٱمْـرُؤٌ كَـفَـانِـي كَـفَـافِـيْ

ومن الثالث قول بعضهم:

شَوْقِي لِذَاكَ ٱلْمُحَيَّا ٱلزَّاهِرِ الزَّاهِيْ شَوْقٌ شَدِيْدٌ وَجِسْمِيْ ٱلوَاهِنُ ٱلْوَاهِيْ
أَسْهَرْتُ طَرْفِي وَوَلَّهْتُ ٱلْفُؤَادَ هَوًى فَٱلْقَلْبُ وَٱلطَّرْفُ بَيْنَ ٱلسَّاهِرِ ٱلسَّاهِيْ

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ لإفادة التهديد والوعيد.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ضمن لفظ ﴿خبير﴾ معنى المجازاة؛ أي: مجازيهم على أعمالهم.

ومنها: إيثار ﴿ما﴾ على (من) في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ لكونهم إذ ذاك بمعزل عن مرتبة العقلاء.

ومنها: تخصيص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ دون أعمال الجوارح؛ لأنها تابعة لأعمال القلوب فإنه لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، اهـ «زاده».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

* * *

(١) إلى هنا تَمَّ تفسير هذه السورة الكريمة في يوم الخميس، وقت ضحوة اليوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة، في تاريخ (٢٢/ ١٢/ ١٤١٦): ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين آمين.

سورة القارعة

سورة القارعة مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة قريش، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

وآياتها: إحدى عشرة آية، أو عشرة، أو ثمان، كلماتها: ست وثلاثون كلمة، وحروفها: مئة واثنان وخمسون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[1]: أن آخر السابقة كان في وصف يوم القيامة، من بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، ومجازاة الناس على ما كسبت أيديهم، وهذه السورة بأسرها في وصف ذلك اليوم الشديد وما يكون فيه من الأهوال، من كون الناس كالفراش المبثوث، وكون الجبال كالعهن المنفوش.

قال الرازي: واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ فكأنه قيل: وما ذاك اليوم؟ فقيل هي: القارعة، اهـ من «تفسير الكبير».

ومما يدل على فضلها: ما ورد عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة القارعة.. ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة» اهـ «بيضاوي» ولكن فيه مقال.

التسمية: وسميت سورة القارعة لذكر لفظ القارعة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة القارعة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ اتفقوا[1] على أن القارعة اسم من أسماء القيامة، كـ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾.

وسبب تسميتها بالقارعة: أن القارعة هي الصيحة التي يموت منها الخلائق، وهي الصيحة الأولى التي تموت منها الخلائق سوى إسرافيل، ثم يميته الله تعالى ثم يحييه فينفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون. وقيل: القارعة هي التي تفزع الخلائق بالأهوال والأفزاع؛ أي: تؤثر فيهم على وجوه شتى، وذلك في السمٰوات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، في الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، وهو قول الكلبي. وقيل: إنها تخوف أعداء الله بالعذاب والخزي، وهو قول مقاتل. قال بعض المحققين: وهذا أولى من قول الكلبي؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ اهـ. وهي مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ على أن ﴿مَا﴾ الاستفهامية مبتدأ والقارعة خبر عنها، أي القارعة؛ أي: شيء هي؟ هي شيء عجيب في الفخامة والفظاعة، فوضع الظاهر موضع المضمر تأكيداً للتهويل من شأنها. والاستفهام هنا للتعجيب، وفيما سيأتي للإنكار، والمراد بالقارعة هنا: النفخة الثانية التي تقرع القلوب؛ أي: تفزعها بفنون الأفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال كما مر آنفاً. والعرب تقول: قرعتهم القارعة، إذا وقع بهم أمر فظيع، قال الشاعر:

---

(١) الفتوحات.

وَقَــارِعَــةٌ مِـــنَ الأَيَّـــامِ لَـــوْلاَ   سَبِيْـلُـهُـمُ لَـرَاحَـتْ عَـنْـكَ حِيْـنَـا

وقال الآخر:

مَـتَـى نَـقْـرَعْ بِـمَـرْأَتِـكُـمْ نَـسُـؤْكُـمْ   وَلَـمْ يُـوْ قَـدْ لَـنَـا فِـي ٱلْـقِـدْرِ نَـارُ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ بالرفع على أنها مبتدأ و﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستعظام والتعجيب، في محل الرفع مبتدأ ثان، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: خبره والجملة خبر للأول كما تقدم تقريره في ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ وقال الزجاج: معنى الكلام التحذير، والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد قول الشاعر:

لَــجَــدِيْــرُوْنَ بِــٱلْــوَفَــاءِ إِذَا قَــا   لَ أَخُـو ٱلـنَّـجْـدَةِ ٱلـسِّـلاَحُ ٱلـسِّـلاَحُ

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى، ويؤيده وضع الظاهر موضع المضمر، فإنه أدل على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم. وقرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة، أو اذكروا القارعة و﴿ما﴾ زائدة للتوكيد، و﴿القارعة﴾ تأكيد لفظي للأولى ذكره في «البحر».

والحاصل[2]: أن القارعة من أسماء القيامة، كالحاقة مثلاً، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعةً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾؛ أي: حادثة عظيمة تقرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها. ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾؛ أي: أي شيء هي القارعة، وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها، كأنها لشدة ما يكون فيها من الأهوال التي تفزع منه النفوس وتدهش لها العقول يصعب تصورها ويتعذر إدراك حقيقتها، ثم زاد أمرها تعظيماً فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ و﴿ما﴾ للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبرها، ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

والجملة في محل النصب على أنها مفعول لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، والمعنى أي: وأي شيء أعلمك يا محمد ـ أو أيها المخاطب ـ ما شأن القارعة؟ فإن عظم شأنها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدرك بها، ولما كان هذا منبئاً عن وعد الكريم بإعلامها أنجز ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: هي يوم يكون الناس، على أن يوم مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف، وفتحتُه فتحةُ بناء لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً على ما هو رأي الكوفيين. أو: اذكر يوم يكون الناس إلخ، فإنه يدريك ما هي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، وتخريجه كما ذكرنا، وقرأ زيد بن علي ﴿يومُ﴾ برفع الميم على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: وقتها يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾: جمع فراشة، وهي التي تطير وتتهافت على السراج فتحترق، والمبثوث: المفرق، وبه شبه فراشة القفل، وهو ما ينشب فيه، ولم يقل: المبثوثة، بل قال: المبثوث؛ لأن الكل جائز، كما في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ كما مر بيان وجه ذلك،

والمعنى: هي ـ أي: القارعة ـ يوم يكون الناس كالفراش المفرق في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والاضطراب والتطاير إلى الداعي كتطاير الفراش إلى النار، وبه يضرب المثل في الطيش والهوج، ويقال: أطيش من فراشة.

قال الشاعر:

فَرَاشَةُ ٱلْحِلْمِ فِرْعَوْنُ ٱلْعَذَابِ وَإِنْ   يُطْلَبْ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُوْنَهُ كَلَبُ

وقال الآخر:

وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ رَدَدْتُ حُلُوْمَهُمْ   عَلَيْهِمْ وَكَانُوْا كَٱلْفَرَاشِ مِنَ ٱلْجَهْلِ

وقال جرير:

إِنَّ ٱلْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتَ وَقَوْمَهُ   مِثْلُ ٱلْفَرَاشِ غَشَيْنَ نَارَ ٱلْمُصْطَلِيْ

وهذا يدل على كثرة الفراش ولو في بعض المواضع، فسقط ما قال سعدي[2]

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

المفتي فيه: إن الفراش لا يعرف بالكثرة بحيث يصلح أن يكون مشبهاً به لأهل المحشر فيها إلا أن يفسر بصغار الجراد. وقال ابن الشيخ: شبه الله سبحانه الخلق وقت البعث في هذه الآية بالفراش المبثوث، وفي الآية الأخرى بالجراد المنتشر فيجمع بينهما بأن وجه التشبه بالجراد هو الكثرة والاضطراب، وبالفراش المبثوث اختلاف جهات حركاتهم، فإنهم إذا بعثوا.. فزعوا، فيذهب كل واحد منهم إلى جهة غير جهة الآخر، كالفراش؛ فإنها إذا طارت لا تتجه إلى جهة واحدة بل تختلف جهاتها، انتهى.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾: في محل الخفض معطوف على جملة ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾، و﴿العهن﴾: الصوف المصبوغ بألوان مختلفة، والنفش: نشر الشعر والصوف والقطن، بالأصبع، وخلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها، قال السجاوندي: شبه خفتها بعد رزانتها بالصوف، وتلونها بالمصبوغ، ومرها بالمندوف، واختصاص العهن لألوان الجبال، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ والمعنى: ويوم تكون الجبال كالصوف الملون بالألوان المختلفة المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الحق، وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلائق، يبدل الله الأرض غير الأرض ويغير هيئاتها، ويسيِّر الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة، يشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت عند النفخة الأولى ولكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية. والمعنى: إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم، لا يدرون ماذا يفعلون، ولا ماذا يراد بهم، كالفراش الذي يتجه إلى غير جهة واحدة، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى. وإن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش الذي نفش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح، فلا تلبث الجبال أن تذهب وتتطاير، فكيف يكون الإنسان حين حدوث القارعة، وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال؟.

وقد كثر في القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وقال: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ كل ذلك ليبين أن هذه الأجسام العظيمة التي من طبعها الاستقرار

والثبات تؤثر فيها هذه القارعة، فما بالك أيها المخلوق الضعيف الذي لا قوة له؟ فمراتب الجبال ثلاثة: تفتتها أولاً، ثم صيرورتها كالعهن، ثم صيرورتها هباءً منبثاً كما بينه ذو الجلال في سورة النمل، ونص عبارته هناك: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾؛ أي: المطر إذا ضربته الريح، أي: تسير مسيرة حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبسوسة، ثم تصير كالعهن، ثم تصير هباءً منثوراً، اهـ. وفي هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما لا يخفى. وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض الخلائق.. أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾: جمع الموزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى، أو جمع ميزان. وثقلها رجحانها؛ لأن الحق ثقيل والباطل خفيف، والجمع للتعظيم، أو لأن لكل مكلف ميزاناً، أو لاختلاف الموزونات وكثرتها.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن ميزانه له لسان وكفتان، لا يوزن فيه إلا الأعمال ليبين الله أمر العباد بما عهدوه فيما بينهم، قالوا: توضع فيه صحف الأعمال إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، أو تبرز الأعمال العرضية بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح؛ يعني: يؤتىٰ بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور سيئة، فتوضع في الميزان؛ أي: فمن ترجحت حسناته.. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾﴾؛ أي: عشية طيبة، فهو من قبيل الإسناد إلى السبب؛ لأن العيش سبب الرضى من منَعَّم العيش، وقال بعضهم: معنىٰ راضية؛ أي: راضٍ عنها صاحبها، يقال: ثَقُل ميزان[1] فلان، إذا كان له قدرومنزلة رفيعة، كأنه إذا وضع في ميزان كان له به رجحان، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجحة، فهؤلاء يجزون النعيم المقيم الدائم، ويكونون في عيشة راضية تقر بها أعينهم وتسر بها نفوسهم، ويرى بعض المفسرين: أن الذي يوزن هو الصحف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾﴾؛ أي: عيشة طيبة مرضية له وحياة هنيئة يتقلب فيها قال البقاعي: ولعله ألحقها بالهاء الدالة على الوحدة، والمراد: العيش، ليُفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا؛ لأن أُمه أو مسكنه جنة

(١) المراغي.

عالية، ومعنى ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضا، بأن يرضاها صاحبها على أنها للنسب كلابن وتامر.

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ⁽٨⁾﴾ بأن لم يكن له حسنة يعشو بها، أو ترجحت على حسناته، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة.. دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة.. دخل النار ﴿فَأُمُّهُۥ﴾؛ أي: مأواه ﴿هَاوِيَةٌ﴾: هي من أسماء النار، سميت[(١)] بها لغاية عمقها وبعد مهواها. روي: أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفاً. وعبر عن المأوى بالأم لأن أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمه، وفيه تهكم به، أو لأنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد، أو لأن الأم هي الأصل والكافر خلق من النار، وكل شيء يرجع إلى أصله، وهو اللائح. وفي «الكشاف» من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة. هوت أمه؛ لأنه إذا هوى؛ أي: سقط وهلك.. فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً، فكأنه قيل: فقد هلك، وعن قتادة: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾؛ أي: فأم رأسه ﴿هَاوِيَةٌ﴾؛ أي: ساقطة في جهنم؛ لأنه يطرح فيها منكوساً. وأم الرأس: الدماغ أو الجلدة الرقيقة التي عليها، يقال خف ميزانه؛ أي: سقطت قيمته، فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع في كفة ميزان لم يرجح بها على أختها، ومن كان في الدنيا كثير الشر قليل فعل الخير فدس نفسه بالشر واجتراح المعاصي وعاث في الأرض فساداً. لم يكن شيئاً، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ⁽٨⁾﴾؛ أي: حسناته بسبب ثقل سيئاته.

وبقي قسم ثالث غير مذكور في الآية وهو[(٢)]: من استوت حسناته وسيئاته، وفي «المناوي» فمن رجحت حسناته بسبب زيادتها على السيئات فهو في الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فيحاسب حساباً يسيراً، ومن رجحت سيئاته على حسناته؛ أي: بسبب زيادتها.. فيشفع فيه أو يعذب اهـ. وعلى الجملة[(٣)]: فعلينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ومن وزن الأعمال وتمييز مقدار لكل عمل، وليس علينا

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

أن نبحث وراء ذلك، فلا نسأل كيف يزن ولا كيف يقدر؛ فهو أعلم بغيبه ونحن لا نعلم. أما إن الميزان له لسان وكفتان.. فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يلزمنا التصديق به، وكيف يوزن بهذا الميزان الذي تعلمه الإنسان في مهد البداوة الأولىٰ ويترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس؟ علىٰ أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأثقال الجسمانية لا ميزان للمعاني المقولة كالحسنات والسيئات، فلنفوض أمر ذلك إلى الله تعالى عالم الغيب. و﴿الهاوية﴾: اسم طبقة من طبقات النار السبع وهي آخرها، والمراد من كون أمه هاوية: أن مرجعه الذي يأوي إليه مهواة سحيقة في جهنم يهوي فيها كما يأوي الولد إلى أمه، قال: أمية بن أبي الصلت:

وَٱلأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمُّنَا فِيْهَا مَقَابِرُنَا وَفِيْهَا نُوْلَدُ

وقال الآخر:

يَا عَمْرُوْ لَوْ نَالَتْكَ أَرْمَاحُنَا كُنْتَ كَمَنْ تَهْوِيْ بِهِ ٱلْهَاوِيَهْ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ بضم الهمزة، وطلحة بكسرها، قال ابن خالويه وحكى ابن دريد: أنها لغة، وأما النحويون.. فإنهم يقولون: لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء، انتهى. والمهوىٰ والمهواة ما بين الجبلين، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يا محمد ﴿مَا﴾؛ أي: جواب ما الهاوية وما حقيقتها، فضمير ﴿هي﴾[2] يعود إلى ﴿الهاوية﴾ و﴿الهاء﴾ للسكت والاستراحة والوقف، وإذا وصل القارىء.. حذفها وقيل: حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج؛ لأنها ثابتة في المصحف، وقد أجيز إثباتها مع الوصل، قال أبو الليث: قرأ حمزة والكسائي بغير هاء في الوصل، وبالهاء عند الوقف، والباقون بإثباتها في الوصل والوقف، وقد سبق مفصلاً في الحاقة. والاستفهام هنا للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن حدود المعهود، فلا يدريها أحد، ثم أعلمها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾؛ أي: هي نار متناهية نهاية الحرارة، يقال: حمي الشمسُ والنارُ حَمْياً وحُمِيّاً وحموًّا، إذا اشتد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

حرهما، والمعنى أي: وأي شيء يخبرك بما هي تلك الهاوية وأنها أي شيء تكون؟ ثم فسرها بعد إبهامها، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾؛ أي: هي نار ملتهبة يهوي فيها ليلقىٰ جزاء ما قدم من عمل وما اجترح من سيئات. وفي هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها.. لم تكن حامية، وذلك دليل على قوة حرارتها وشدة استعارها، وقانا الله سبحانه شر هذه النار الحامية، وآمننا من سعيرها بمنه وكرمه.

الإعراب

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾: مبتدأ أول، ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجيبي في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني مع خبره للأول، والرابط: تكرار لفظ المبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام التعظيمي في محل الرفع مبتدأ، ﴿أدرى﴾: فعل ماض، و﴿الكاف﴾: في محل النصب مفعول أول لـ﴿أدرىٰ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ وهو الرابط، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية والجملة الاستفهامية معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبرها، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد مفعولَي ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني والثالث، معلقة عنهما باسم الاستفهام؛ لأن أدرىٰ ينصب ثلاثة مفاعيل؛ لأنه بمعنى أعلم ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلّق بمحذوف دلّ عليه لفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾، تقديره تقرع القلوب يوم يكون الناس... إلخ، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بالقارعة الأول؛ للفصل بينهما بالخبر، ولا بالثاني والثالث؛ لعدم التئام الظرف معهما من حيث المعنى ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمها ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: خبرها ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ صفة للفراش، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليها، ويجوز أن تكون ﴿يَكُونُ﴾ تامة و﴿ٱلنَّاسُ﴾: فاعلاً و﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: حالاً من فاعل

﴿يَكُونُ﴾ التامة؛ أي: يوجدون ويحشرون حال كونهم كالفراش، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: خبره، ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: صفة لـ﴿العهن﴾، والجملة الناقصة في محل الخفض معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من أحوال الناس في يوم القيامة وأردت بيان مآلهم.. فأقول لك: أما من ثقلت إلخ ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها للثقل، ﴿هو﴾ مبتدأ ثان، ﴿فِي عِيشَةٍ﴾: خبره، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: صفة لـ﴿عِيشَةٍ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أما﴾: حرف شرط ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ ﴿أمه﴾: مبتدأ ثان ﴿هَاوِيَةٌ﴾: خبره والجملة الثانية في محل الرفع خبر للأول وجملة الأول جواب ﴿أما﴾ الشرطية، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ ومفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الثانية، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿هيه﴾ ﴿هي﴾ ضمير للمفرد المؤنثة الغائبة في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾ الاستفهامية، و﴿الهاء﴾ حرف سكت لا محل لها من الإعراب، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعولين الثاني والثالث لـ﴿أدرى﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام، ﴿نَارٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي نارٌ ﴿حَامِيَةٌۢ﴾: صفة لـ﴿نَارٌ﴾ والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة استئنافاً

بيانياً لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها، من القرع وهو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة والمراد بها ههنا: القيامة كما مر. وفي «المختار»: قرع من باب قطع، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر، وهي الداهية، وفي «المصباح»: وقرعت الباب قرعاً، بمعنى طرقته ونقرت عليه. ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: وفي «القاموس»: والفراشة ـ بفتح الفاء ـ الطير التي تتهافت في السراج، والجمع فراش، ومن القفل ما ينشب فيه، وكل عظم رقيق، والماء القليل، والرجل الخفيف، وقرية بين بغداد والحلة، وموضع بالبادية، وعلم، ودرب فراشة محلة ببغداد، والفراش كسحاب ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض، ومن النبيذ: الحبب الذي يبقى عليه، وعرقان أخضران تحت اللسان، والحديدتان يربط بهما العلوان في اللجام، وبالكسر: ما يفرش، ويجمع على فُرُش، وزوجة الرجل، قيل ومنه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ وعش الطائر وموقع اللسان في قعر الفم، وقد خلط صاحب المنجد فمزج الفراشة والفراش في مادة واحدة، وجعل معاني الفراش الرجل الخفيف وإنما هو فراشة. ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾: المتفرق المنتشر، ويقال: بسط فلان خبره وبثه وبقه، إذا وسعه، قال:

وَبَسَطَ ٱلْخَيْرَ لَنَا وَبَقَّهُ   فَٱلنَّاسُ طُرّاً يَأْكُلُونَ رِزْقَهُ

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: العهن الصوف الأحمر، واحدها عهنة، ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: اسم مفعول من النَّفْش، وهو كما في «القاموس» تشعيث الشيء بأصبعك حتى ينتشر كالتنفيش، والنَّفَش ـ بالتحريك ـ الصوف، وعبارة ابن خالويه: يقال: نفشت الصوف والقطن وسبخته إذا نفشته وخففته كما يفعل النادف. ويقال لقطع القطن وما يتساقط عند الندف: السبيخة، وجمعها سبائخ، ويقال: سبخ الله عنك الحمى؛ أي: خففها وسَلَّها عنك. ومن ذلك: أن النبي ﷺ رأى عائشة تدعو على سارق سرقها، فقال: «لا تُسبِّخي عنهُ بِدُعائِكِ عَلَيْهِ» وعبارة القرطبي: كالصوف الذي ينفش باليد، اهـ. وهي أنسب باللغة؛ فإن النفش يكون باليد من غير آلة، والندف يكون بالآلة.

وفي «القاموس» أيضاً: ندف القطن يندفه ـ من باب ضرب ـ ضربه بالمندف، والمندفة بكسر أولهما؛ أي: بالخشبة التي يطرق بها الوتر ليرق القطن، وهو مندوف ونديف اهـ.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾: وقد اختلف في الموازين هنا، فقيل: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وبه قال الفراء وغيره. وقيل: هي جمع ميزان وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال، وعبر عنه بلفظ الجمع كما يقال لكل حادثة ميزان، وقيل: المراد بالموازين الحجج والدلائل، كما في قول الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ عِنْدِيْ لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيْزَانُهُ

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾؛ أي: في حياة طيبة، وفي «المختار»: العيش: الحياة، وقد عاش يعيش ـ من باب سار ـ عيشاً وعيشة ومعاشاً ـ بالفتح ـ ومعيشاً بوزن مبيت، وأعاشه الله عيشة راضية، والمعيشة جمعها معايش بلا همزة إذا جمعتها على الأصل، وأصلها مَعْيشة، بوزن مَفْعلة، والياء متحركة أصلية، فلا تقلب في الجمع همزة، وإن جمعتها على الفرع.. همزت وشبهت مفعلة بفعلية كما همزت المصائب؛ لأن الياء ساكنة، ومن النحويين من يرىٰ الهمز لحناً. والتعيُّش: تكلف أسباب العيش. وعائشة مهموزة، ولا تقل: عَيْشة. اهـ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية لصاحبها، فهي فاعلة بمعنىٰ مفعولة. ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾؛ أي: فمأواه هاوية، فهو من قبيل زيد أسد، شبهت النار للعصاة بالأم لكونها تهوي بهم فتضمهم إلى نفسها كما تضم الأم الأولاد إليها، اهـ «زاده».

وعبارة الخطيب: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أي: نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوى فيها نازلاً فهو في عيشة ساخطة، فالآية من الاحتباك، ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً، والهاوية اسم من أسماء جهنم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ تهويلاً من شأنها وتفخيماً لفظاعتها.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ لغرض التفخيم.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ تأكيداً للتهويل، والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ ففيهما تشبيهان رائعان، وهو تشبيه مرسل مجمل؛ لأن وجه الشبه حذف فيهما، ففي الأول وجوه الشبه كثيرة منها:

١ ـ الطيش الذي لحقهم.

٢ ـ وانتشارهم في الأرض.

٣ ـ وركوب بعضهم بعضاً.

٤ ـ الكثرة لاغناء فيها.

٥ ـ والضعف والتذلل وإجابة الداعي من كل جهة.

٦ ـ والتطاير إلى النار للاحتراق من حيث لا تريد الاحتراق.

وفي تشبيه الجبال بالعهن المنفوش أوجه كثيرة أيضاً، منها:

١ ـ تفتتها وانهيارها.

٢ ـ صيرورتها كالعهن.

٣ ـ ثم صيرورتها كالهباء.

وقد تشبث الشعراء بهذه المعاني، فقال جرير يهجو الفرزدق:

أَبْلِغْ بَنِيْ وَقْبَانَ أَنَّ حُلُوْمَهُمْ   خَفَّتْ فَمَا يَزِنُوْنَ حَبَّةَ خَرْدَلِ
أَزْرَىٰ بِحِلْمِكُمُ ٱلْفِيَاشُ فَأَنْتُمُ   مِثْلُ ٱلْفَرَاشِ غَشِيْنَ نَارَ ٱلْمُصْطَلِيْ

وقال أبو العلاء المعري في رثاء والده:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ يَحِقُّ وَقَارُهُ إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِيْ ٱلْقِيَامَةِ كَٱلْعِهْنِ
وَهَلْ يَرِدُ ٱلْحَوْضَ ٱلرَّوِيَّ مُبَادِراً مَعَ ٱلنَّاسِ أَمْ يَأْبَىٰ ٱلزِّحَامَ فَيَسْتَأْنِيْ

ومنها: جمع الموازين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ للتعظيم، أو لأن لكل مكلف ميزاناً أو لاختلاف الموزونات وكثرتها، كما مر.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ ثم قابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ففيه إسناد ما للشيء إلى محله؛ لأن الذي يرضى بها الذي يعيش فيها، ففيها إسناد مجازي علاقته المحلية نحو: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ وقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾؛ وهو: أن يحذف من كل من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، فحذف هنا من الأول: فأمه الجنة، وذكر فيه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ وحذف من الثاني فهو في عيشة ساخطة، وذكر فيه فأمه هاوية فحذف من كل منهما نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾، أو لأنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة القارعة قبيل العشاء في ليلة الاثنين السادس والعشرين من شهر ذي الحجة من شهور سنة ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وعلى آله وصحبه ما سُطِرت السطور وشُرِحت الصدور بمعاني كتابه الكريم. آمين.

سورة التكاثر

سورة التكاثر مكية عند الجميع، نزلت بعد سورة الكوثر، وروىٰ البخاري: أنها مدنية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه في السابقة وصف القيامة وبعض أحوالها، وجزاء الأخيار والأشرار، وأن في هذه ذكر الجحيم وهي: الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال في الحياة الدنيا، وهذا بعض أحوال الآخرة.

وهي ثمان آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً. وسميت بسورة التكاثر لذكر لفظ التكاثر فيها، وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة التكاثر كلها محكمة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها[2]: ما أخرجه الحاكم والبيهقي في «الشُّعَب» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم» قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قال: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ألهاكم التكاثر؟» وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» والديلمي عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألف آية.. لقي الله وهو ضاحك في وجهه» قيل: يا رسول الله، ومن يقوى على ألف آية؟ فقرأ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم: ألهاكم التكاثر... إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ألف آية». ومنه ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، عن عبد الله بن الشخير قال: وانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر. وفي لفظ: وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر، فقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟» وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ـ ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها ـ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثة:

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ما أكل فأفنى، وما لبس فأبلى، أو تصدق فأَبقىٰ، وما سوى ذلك.. فهو ذاهب وتاركه للناس». ومنه ما أخرجه الحكيم، والترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي في «الشعب» وضعفه عن جرير بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إني قارىء عليكم سورة ألهاكم التكاثر، فمن بكى.. فله الجنة» فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي فلم نقدر عليه، فقال: «إني قارئها عليكم الثانية، فمن بكى.. فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي.. فليتباكَ».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بريدة قال: نزلت ألهاكم التكاثر في قبيلتين من الأنصار؛ وهما: بنو حارثة، وبنو الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: أفيكم مثل فلان وفلان، وقالت الأخرى: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: أفيكم مثل ذلك وتشير إلى القبر ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وقيل غير ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها يقال: ألهاه عن كذا، وألهاه إذا شغله، ومنه قول امرىء القيس:

فَمِثْلِكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ   فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِيْ تَمَائِمَ مُحْوِلِ

يقال[1]: لهوت بكذا، ولهوت عن كذا؛ أي: اشتغلت عنه بلهو، واللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، ويعبر به عن كل ما به استمتاع، ويقال: ألهى عن كذا؛ أي: شغل عما هو أهم، والتكاثر التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، وهؤلاء: نحن أكثر، والمعنى: شغلكم عن الآخرة التغالب في الكثرة والتفاخر بها. قال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ أي: حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال ولحقتم بالقبور، وقال قتادة: إن

(١) روح البيان.

التكاثر والتفاخر بالقبائل والعشائر، وقال الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش، وقال مقاتل وقتادة أيضاً وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا، وقال الكلبي: نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم تعادَوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائداً، فكثر بنو عبد مناف على بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم بهم، فنزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ فلم ترضوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ مفتخرين بالأموات، وقيل: نزلت في حيين من الأنصار كما مر، والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها.

وفي الآية: دليل[١] على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وحذف[٢] المُلهىٰ عنه؛ أي: الذي أُلهِيَ عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدنيا للتعظيم، والمبالغة، أما الأول فلأن الحذف كالتنكير قد يُجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام، وأما الثاني فلأن تذهب النفس كل مذهب ممكن، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام مثل: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات، والمندوبات مما يتعلق بالقلب كالعلم والتفكر والاعتبار، أو بالجوارح كأنواع الطاعات، وتعريف التكاثر للعهد. والعهد المذموم هو التكاثر في الأمور الدنيوية الفانية، كالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء، وأما التفاخر بالأمور الأخروية الباقية، فممدوح، كالتفاخر بالعلم والعمل والأخلاق الكريمة والصحة والقوة والغنى والجمال وحسن الصوت إذا كان بطريق تحديث النعمة، ومنه تفاخر العباس ـ رضي الله عنه ـ بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن مفتاح البيت بيده إلى أن قال علي ـ رضي الله عنه ـ: وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي، فصار الكفر مثلة، ومعنى ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: مكاثرة اثنين مالاً أو عدداً بأن يقول كل منهما لصاحبه: أنا أكثر منك مالاً وأعظم نفراً، كما كثر بنو عبد مناف على بني سهم، كما سبق آنفاً.

والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى زرتم المقابر؛ أي: استوعبتم عددهم وصرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات، فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

القبور؛ أي: جُعلت كناية عنه تهكماً بهم. قال الطيبي: إنما كان تهكماً؛ لأن زيارة القبور شُرعت لتذكر الموت ورفض حب الدنيا، وترك المباهاة والمفاخرة، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة والاستغراق في حب الدنيا، والتفاخر في الكثرة، وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ، والغاية تدخل تحت[1] المغيَّا في هذا الوجه، وقيل المعنى: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيِّعين أعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعي لأخراكم، فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت، والتكاثر هو التكاثر بالمال والولد.

وفي الآية: إشارة إلى أنهم يُبعثون، فإن الزائر منصرف لا مقيم، وقرأها عمر بن عبد العزيز، فقال: ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى بيته إما إلى الجنة أو إلى النار، وفيه تحذير عن الدنيا وترغيب في الآخرة والاستعداد للموت.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ على الخبر، وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة بالمد على الاستفهام، وقد روي كذلك عن الكلبي ويعقوب وعن أبي بكر الصديق وابن عباس أيضاً وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية: ﴿أألهاكم﴾ بهمزتين، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع على قبح فعلهم.

وحاصل معنى الآية: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ أي: شغلكم[3] التفاخر والتباهي بكثرة الأنصار والأشياع وصرفكم ذلك عن الجد في العمل، فكنتم في لهو بالقول عن العمل، وفي غرور وإعجاب بالآباء والأعوان وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فُرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهليكم، وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذي سرتم عليه.

وروى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ أي: حتى هلكتم وصرتم من الموتى، فأضعتم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

أعماركم فيما لا يُجدي فائدة، ولا يعود عليكم بعائدة، في حياتكم الباقية الخالدة، قال العلماء: إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر بالموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، ومن ثم قال ﷺ: «كنت نهيكتم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا وتذكركم الآخرة».

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الشرع، كاختلاط الرجال بالنساء وحدوث فتن لا تحمد عقباها، ثم نبههم إلى خطأ ما هم عليه، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة، فقال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردع[1] عما هم عليه من التكاثر؛ أي: ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء من أن فضل الإنسان وسعادته بكثرة أعوانه وقبائله وأمواله؛ أي: ارتدعوا عن هذا وتنبهوا عن الخطأ به، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن لا يكون معظم همه مقصوراً على الدنيا، فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول المحشر، فالعلم بمعنى المعرفة، ولذا قُدر له مفعول واحد، وهذا إنذار وتخويف ليخافوا وينتبهوا من غفلتهم.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: لا يغرنك كثرة من ترىٰ حولك، فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، والمعنى؛ أي[2]: ازدجروا عن مثل هذا العمل الذي لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران والضغينة والأحقاد، وَٱلْجَؤوا إلى التناصر على الحق، والتكاتف على أعمال البر، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات من تقويم الأخلاق وتطهير الأعراق، وإنكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صالح نافع لكم في العقبى، ثم أكد هذا وزاد في التهديد، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ كرر الردع تأكيداً للزجر والإنذار، وفي ﴿ثُمَّ﴾[3] دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول؛ لأن فيه تأكيداً خلا عنه الأول؛ لأن فيه تنزيلاً لبعد المرتبة، مرتبة بعد الزمان، واستعمالاً للفظ ﴿ثُمَّ﴾ في مجرد التدرج في درج الارتقاء، كما تقول للمنصوح:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، أو الأول عند الموت في وقت ما بشر به المحتضر من جنة أو نار، وفي القبر حين سؤال منكر ونكير: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ والثاني عند النشور حين ينادي المنادي: شقي فلان شقاوة لا سعادة بعدها، وحين يقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، فعلى هذا لا تكرار في الآية لحصول التغاير بينهما بتغاير زمانَي العِلْمَين ومتعلقيهما، فإنه يلقى في كل واحد من الزمانين نوعاً آخر من العذاب، و﴿ثُمَّ﴾ على بابها من المهلة لتباعد ما بين الموت والنشور، وكذا ما بين القبور والنشور.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: سوف تعلمون في القبر ثم في القيامة. ﴿كَلَّا﴾ تكرير للتنبيه تأكيداً ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً لعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا.. لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، و﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع الثالث للزجر والردع كالموضعين الأولين جيء بها للتأكيد، وقال الفراء: هي[1] بمعنى حقاً، وقيل: هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف كما قدرنا للتهويل، فإنه إذا حُذف الجواب يذهب الوهم كل مذهب ممكن، و﴿عِلْمَ﴾ مصدر أضيف إلى مفعوله، و﴿ٱلْيَقِينِ﴾: صفة لذلك المفعول، وهو المتيقَّن به؛ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم من الأهوال علم الأمر المتيقن به كمال التيقن حتى كأنه عين اليقين.. لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، لكنكم ضُلاَّل جهلة، فاليقين بمعنى المتيقن به، وإلا فيلزم إضافة أحد المترادفين إلى الآخر؛ إذ العلم في اللغة بمعنى اليقين، ويمكن أن تكون الإضافة فيه من إضافة العام إلى الخاص بناء على أن اليقين أخص من العلم، فإن العلم قد يعم الظن واليقين، فتكون إضافته كإضافة بلد بغداد، ويدل قولهم: العلم اليقين بالوصف.

والمعنى: أي[2] ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر، وصرفكم إلى صالح الأعمال، وإن ما تدَّعونه علماً ليس

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

في الحقيقة بعلم، وإنما هو وهم وظن. لا يلبث أن يتغير؛ لأنه لا يطابق الواقع، والجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين المطابق للواقع بناء على العيان والحس، أو الدليل الصحيح الذي يؤيده العقل والنقل الصحيح عن المعصوم ﷺ، وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة في زجرهم عن تغريرهم بأنفسهم، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا إنهم يعلمون العواقب وإنهم في منتهى اليقظة وسداد الفكرة، ثم ذكر لهم بعض ما ينتهي إليه هذا اللهو، وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا، فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواب قسم محذوف، أكد به الوعيد حيث إن ما أوعدوا به مما لا مدخل فيه للريب، وشدد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً، تقديره: والله لترون الجحيم في الآخرة بأبصاركم، ولا يجوز أن يكون جواب ﴿لَوْ﴾: لأن رؤية الجحيم مثبتة محققة الوقوع وليست بمعلقة. قال الرازي: وليس هذا جواب ﴿لَوْ﴾؛ لأن جواب ﴿لَوْ﴾ يكون منفياً وهذا مثبت، ولأنه عطف عليه.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾: وهو مستقبل لا بد من وقوعه، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ كثير، فلو جعل جواب ﴿لَوْ﴾ لكان المعنى: إنكم لا ترونها لكونكم جهالاً، وهو غير صحيح، وقال بعضهم: يصح أن يكون جواباً، فيكون المعنى: سوف تعلمون الجزاء، ثم قال: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لترون الجحيم يعني: يكون الجحيم دائماً في نظركم لا يغيب عنكم أصلاً اهـ.

والرؤية هنا بصرية؛ أي: وعزتي، وجلالي: إنكم لترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، فلذلك تعدت إلى مفعول واحد، ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾؛ أي: ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعاينة، وقيل: الأولى[1] إذا رأوها من مكان بعيد ببعض خواصها وأحوالها مثل رؤية لهبها ودخانها، والثانية إذا أُوردوها، فإن معاينة نفس الحفرة وما فيها من الحيوانات المؤذية وكيفية السقوط فيها أجلى وأكشف من الرؤية الأولى، فعلى هذا يتنازع الفعلان في عين اليقين، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة، والمعاينة.

---

(١) روح البيان.

وقوله: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي[1]: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة للمحسوسات أقصى مراتب اليقين، فلا يرد أن أعلى اليقينيات الأوليات وهي ما يحكم فيها العقل من أول وهلة لعدم توقفها على شيء بعد تصدر الطرفين، وتسمى الضروريات كقولهم: السكين قاطع، والسماء فوقنا، والأرض تحتنا اهـ «صبان» بتصرف.

وإنما قيَّد الرؤية بعين اليقين احترازاً عن رؤية فيها غلط الحس، فانتصاب ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ على أنه صفة المصدر ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾، وجعل الرؤية التي هي سبب اليقين نفس اليقين مبالغة.

والمعنى: أي[2] لترونها رؤية هي اليقين إلى أي دين، أو إلى أي شخص كانت نسبتكم، فلتتقوا الله ربكم ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة، ولترعوا حق الله فيها، فاستعملوها فيما أمر أن تُستعمل فيه، ولا تجترحوا السيئات، ولا تقترفوا المنكرات، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ويزحزحكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامي، وتلقيبكم بألقابه مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملكم عمل أعداء الإسلام.

وقرأ ابن عامر والكسائي[3]: ﴿لترون﴾ بضم التاء وباقي السبعة بالفتح، وقرأ علي وابن كثير في رواية، وعاصم في رواية بفتحها في: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وضمها في: ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ومجاهد والأشهب وابن أبي عبلة بضمهما، وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلاف عنهما أنهما همزا الواوين، استثقلوا الضمة على الواو، فهمزوا كما همزوا في: وقتت، وكان القياس أن لا تهمز؛ لأنها حركة عارضة لالتقاء الساكنين، فلا يعتد بها، لكنها لما تمكنت من الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية فهمزوا، وقد همزوا من الحركة العارضة ما يزول في الوقت نحو: استرؤوا الصلاة فهمز هذه أولى.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قال في «التيسير»: كلمة[4] ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

في الإخبار لا في الوجود، فإن السؤال بأنك أَشكرت على تلك النعمة أم كفرت يكون في موقف الحساب قبل دخول النار، والمعنى: ثم لتسألن يوم رؤية الجحيم وورودها عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه، فتعذبون على ترك الشكر، فإن الخطاب في ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، يقَطِّعُ أوقاته باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمِّل على نفسه مشاقهما، فإن من تمتع بنعمة الله وتقوَّى بها على طاعته وكان ناهضاً بالشكر، فهو من ذلك بمعزل بعيد، فدخل في الآية كفار مكة ومن لحق بهم في وصفهم من فسقة المؤمنين، وقيل: الآية مخصوصة بالكفار، وقال بعضهم: المراد بالنعيم هو الصحة والفراغ، وقال أبو حيان: الظاهر العموم في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ وهو كل ما يلتذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب، فالمؤمن يُسأل سؤال إكرام وتشريف، والكافر سؤال توبيخ وتقريع، وعن ابن مسعود ومجاهد والشعبي وسفيان: هو الأمن والصحة، وعن ابن عباس: البدن والحواس فيم استعملها، وعن ابن جبير: كل ما يتلذذ به، وفي الحديث: «بيت يكنك وخرقة تواريك، وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم» انتهى.

وفي «الشوكاني» قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾؛ أي: نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، قال قتادة: يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيُسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به، قال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار، وقال قتادة: إن الله سبحانه سائلٌ كلَّ ذي نعمة عما أنعم عليه، وهذا هو الظاهر كما مر عن أبي حيان، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد أو نوع من الأفراد؛ لأن تعريفه للجنس أو للاستغراق، ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي يُسأل عنها، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها وبم عمل فيها؛ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر عليها، وقيل: السؤال عن الأمن والصحة، وقيل: عن الإدراك بالحواس، وقيل: عن ملاذ المأكول والمشروب، وقيل: عن الغداء والعشاء، وقيل: عن بارد الماء وظلال المساكن، وقيل: عن اعتدال الخلق، وقيل: عن لذة النوم، وقيل: عن الصحة والفراغ، والأولى العموم كما ذكرنا، وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من

الناس الصحة والفراغ» أخرجه البخاري، وفي هذا الحديث دلالة على عظم محل هاتين النعمتين وجلالة خطرهما، وذلك لأن بهما يستدرك مصالح الدنيا، ويكتسب درجات الآخرة، فإن الصحة تنبىء عن اجتماع القوى الذاتية، والفراغ يدل على انتظام الأسباب الخارجة المنفصلة، ولا قدرة على تمهيد مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة إلا بهذين الأمرين، ثم سائر النعم بَعْدُ من توابعهما، وقال معاوية بن قرة: شدة الحساب يوم القيامة على الصحيح الفارغ، يقال: كيف أديت شكرهما؟، وفي «عين المعاني»: يسأل عن النعم الخمس: شبع البطون، وبرد الشراب، ولذة النوم، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق.

والمعنى: أي إن هذا النعيم الذي تتفاخرون به وتعدونه مما يباهي به بعضكم بعضاً ستسألون عنه ماذا صنعتم به، هل أديتم حق الله فيه، وراعيتم حدود أحكامه في التمتع به؟ فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء في دار البقاء.

روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أي نعيم نُسأل عنه يا رسول الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا، فقال رسول الله ﷺ: «ظلال المساكن والأشجار، والأخبية التي تقيكم الحر والبرد، والماء البارد في اليوم الحار»، وروي عن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ قال الزبير: يا رسول الله: وأي نعيم نُسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «أما إنه سيكون» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وروى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوما فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ

وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم شاة، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا، فلما شبعوا ورووا.. قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وأخرجه الترمذي بأطول من هذا، وقال فيه: «والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة ظل بارد ورطب طيب وماء بارد»، وكنَّى الرجل من الأنصار، فقال أبو الهيثم بن التيهان، واسمه: مالك بن التيهان وذكر قصته.

قال الرازي: قيل السؤال إنما هي عن الزائد على ما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر، وأنه عن جميع النعم سواء كانت النعم مما لا بد منه أو لا، والسؤال إنما هو في موقف الحساب، و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الإخباري لا المعنوي؛ لأن السؤال قبل رؤية الجحيم. انتهى.

تتمة: والفرق بين علم اليقين وعين اليقين أن علم اليقين: هو إدراك الشيء من غير مشاهدة، وعين اليقين: الرؤية التي هي العلم به مع المشاهدة، وأما حق اليقين فهو: مع الملاصقة والممازجة، وقد أخبر الله سبحانه هنا بالأولين، وأخبر بالثالث في سورة الواقعة، حيث قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ...﴾ الآية، والله أعلم.

الإعراب

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾: فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، أو عاطفة. ﴿زُرْتُمُ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بأن مضمرة؛ لأنه ماض في اللفظ مستقبل في المعنى بالنسبة إلى ما قبل ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: ألهاكم التكاثر إلى زيارتكم المقابر، أو الجملة معطوفة على جملة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر عن التشاغل عن الطاعات. ﴿سَوْفَ﴾:

حرف استقبال. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، والمفعول محذوف تقديره: ما أمامكم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿كَلَّا﴾ سبق إعرابه ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: معطوف على الجملة الأولى، وجعله ابن مالك من باب التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع مكرر للتأكيد. ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: لو تعلمون عاقبة التلهي والتفاخر والتكاثر، وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف تقديره: ما شُغِلتم بالتكاثر والتفاخر، وجملة ﴿لَوۡ﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة. وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة؛ لأن الغرض هو الفعل لا متعلقه، والعلم بمعنى المعرفة، فيتعدى إلى مفعول واحد. ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مصدر مبين للنوع، وأصله العلم اليقين، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، ولا يصح أن يكون قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هو الجواب؛ لأنه محقق الوقوع، فلا يعلق ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف، تقديره: والله لترون الجحيم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿ترونَّ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحركة بالضم لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾: مفعول به، والرؤية هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وأصله: لتَرْأَيون، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، وحُذفت لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم ألقيت حركة الهمزة التي هي عين الكلمة على الراء، وحُذفت لثقلها، ثم دخلت نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وحُركت الواو بالضم لالتقاء الساكنين، ولم تُحذف؛ لأنها لو حذفت لاختل الفعل بحذف عينه ولامه وواو الضمير.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۞ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۞﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ﴿ترونَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل، مرفوع بثبات النون، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه مصدر معنوي لرأى؛ لأن رأى وعاين بمعنى واحد، أو لأنها صفة لمصدر محذوف؛ أي: لترونها رؤية عين اليقين. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة

رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الضمير المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿تسألن﴾، و﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: متعلق بـ﴿تسألن﴾ أيضاً على أنه في موضع المفعول الثاني.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ أي: شغلكم التفاخر بالأموال والأولاد عن دينكم، واللهو: ما يشغل الإنسان سواء أكان مما يسر أم لا، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور، وإذا أُلهي المرء بشيء فهو غافل به عما سواه، والتكاثر: التباهي بالكثرة بأن يقول كل للآخر: أنا أكثر منك مالاً، أنا أكثر منك ولداً، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب.

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ أي: حتى صرتم من الموتى، قال جرير:

زَارَ ٱلْقُبُوْرَ أَبُوْ مَالِكٍ ... فَأَصْبَحَ أَلأَمَ زُوَّارِهَا

والمقابر: جمع مقبرة بضم الباء وفتحها، وهي مدفن الموتى، والقبور: جمع قبر، قال الشاعر:

أَرَىٰ أَهْلَ ٱلْقُبُوْرِ إِذَا أُمِيْتُوْا ... بَنَوْا فَوْقَ ٱلْمَقَابِرِ بِٱلصُّخُوْرِ
أَبَوْا إِلاَّ مُبَاهَاةً وَفَخْرَاً ... عَلَىٰ ٱلْفُقَرَاءِ حَتَّىٰ فِيْ ٱلْقُبُوْرِ

﴿كَلَّا﴾ وفي «القرطبي»: قيل إن ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة بمعنى ألا، قاله ابن أبي حاتم، وقال الفراء: هي بمعنى حقاً في المواضع الثلاثة، وقيل: هي للردع والزجر في المواضع الثلاثة اهـ بتصرف.

وقوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ أصله: أَلْهَيَكم بوزن أفعَلَ، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقوله: ﴿زُرۡتُمُ﴾ فيه إعلال بالقلب والحذف، أصله: زَوَرَ قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم أُسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، فسُكِّن آخره فالتقى ساكنان، فحُذفت الألف، ثم حذفت حركة فاء الفعل، وعُوِّض عنها حركة مناسبة للعين المحذوفة التي هي الواو، والمناسب لها الضمة، فقيل: زرتم بوزن فلتم.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ أصله: لتَرْأَيُون بوزن تفعلون، كما مر آنفاً، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت بعد النقل تخفيفاً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد

فتح، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، ثم دخلت نون التوكيد الثقيلة على الفعل فاجتمع ثلاث نونات، فحذفت نون الرفع فالتقى ساكنان: واو الجماعة ونون التوكيد الثقيلة، فحُركت الواو بالضم، فالفعل مُعْرَب لعدم مباشرة نون التوكيد لآخره؛ لأن المحذوف لعلة كلا محذوف، فنون الرفع المحذوفة لتوالي الأمثال مقدرة، وكذلك يقال: في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: علم الأمر الميقون الموثوق به.

﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أصله: لتسألون، اتصلت بالفعل نون التوكيد الثقيلة، فاجتمع ثلاث نونات، فحذفت نون الرفع، فصار لتسألون، فالتقى ساكنان فحُذفت الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التذكير والتوبيخ في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ لأنه قد خرج الخبر فيه عن حقيقته إلى التوبيخ والتذكير.

ومنها: حذف المُلهىٰ عنه؛ أي: الذي أُلهِيَ عنه، وهو ما يعنيهم من أمر الدين في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ للتعظيم والمبالغة، أما الأول فلأن الحذف كالتنكير قد يُجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام، وأما الثاني فلأن تذهب النفس كل مذهب ممكن، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، مثل ألهاكم التكاثر عن ذكر الله تعالى، أو ألهاكم التكاثرعن الواجبات أو عن المندوبات أو عن المهمات مثلاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ لأنه عبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة القبور؛ أي: جُعلت الزيارة كناية عنه تهكماً بهم، قال الطيبي: إنما كان تهكماً؛ لأن زيارة القبور شُرعت لتذكر الموت ورفض حب الدنيا وترك المباهاة والتفاخر، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة والاستغراق في حب الدنيا والتفاخر بالكثرة.

ومنها: التكرار للتهديد والإنذار في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، وعطفه بـ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول

العظيم لعبده: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزِّل منزلة المغايرة، فعُطف بـ﴿ثُمَّ﴾.

ومنها: حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل والتفخيم في قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ تقديره: لرأيتم ما تشيب له الرؤوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال؛ لأنه إذا حذف الجواب يذهب الوهم كل مذهب ممكن.

ومنها: القسم في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾؛ لتوكيد الوعيد.

ومنها: تكرار القسم معطوفاً بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ تغليظاً في التهديد، وزيادة في الوعيد.

ومنها: جعل الرؤية ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وخالصته مبالغة خاصة.

ومنها: حذف متعلق العلم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ . . .﴾ إلخ في الأفعال الثلاثة إشعاراً بأن الغرض هو الفعل لا متعلقه، كما في «السمين».

ومنها: الإطناب بتكرار الفعل في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ لبيان شدة الهول.

ومنها: تكرار القسم معطوفاً في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ تغليظاً في التهديد وزيادة في الوعيد.

ومنها: التعريف بـ﴿أل﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إشعاراً بأن السؤال عن جميع أنواع النعم وأفرادها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا انتهى تفسير سورة التكاثر ضحوة يوم الجمعة اليوم الثلاثين من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة العصر

سورة العصر مكية عند الجمهور نزلت بعد سورة الشرح، وقال قتادة: هي مدنية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة، وهي ثلاث آيات، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر، وبكل ما من شأنه أن يُلهي عن طاعة الله، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية إلى البوار، وموقعة له في الدمار، إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه، فكأن هذا تعليل لما سلف. إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه، وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة، وهنا ذكر من تجمل بأجمل الطباع، فآمن بالله وعمل الصالحات، وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق، والاصطبار على مكارهه.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه لما قال فيما قبلها: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ووقع التهديد بتكرار ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣﴾.. بيَّن هنا حال المؤمن والكافر اهـ. وسميت سورة العصر؛ لذكر لفظ العصر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة العصر[2] كلها محكم، وفيها خلاف، فقيل المنسوخ فيها آية واحدة، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ نُسخت بالاستثناء المذكور بعدها، وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اهـ.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه[3] الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر،

---

(١) المراغي. (٢) الناسخ والمنسوخ. (٣) الشوكاني.

ثم يسلم أحدهما على الآخر.

ومنها: ما روي عن النبي ﷺ: من قرأ سورة العصر غفر الله له، وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وروي[1] عن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - أنه قال: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، أو قال: لو لم يُنزَل من القرآن سواها لكفت الناس.

وهذه السورة من أجلِّ سور القرآن العظيم وأوجزها لفظاً وأكثرها معنىً وحكمة وبياناً، ولجلالة ما جمعت من المعاني السامية أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، كما مر آنفاً ذلك؛ ليُذكّر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه من امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وفي هذه السورة أعظم دلالة على إعجاز القرآن، ألا ترى أنها مع قلة حروفها تدل على جميع ما يحتاج إليه الناس في الدين علماً وعملاً، وفي وجوب التواصي بالحق والصبر إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بالعصر، أقسم سبحانه[1] بالعصر وهو الدهر؛ لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

وَلَمْ يَنْتَهِ ٱلْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَمَنَّيَا

ويقال للغداة والعشي عصران، ومنه قال الشاعر:

وَأَمْطُلُهُ ٱلْعَصْرَيْنِ حَتَّىٰ يَمَلَّنِيْ ... وَيَرْضَىٰ بِنِصْفِ ٱلدَّيْنِ وَٱلأَنْفُ رَاغِمُ

وقال قتادة والحسن: المراد به في الآية: العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، ومنه قول الشاعر:

يَرُوْحُ بِنَا عَمْرٌو وَقَدْ قَصُرَ ٱلْعَصْرُ ... وَفِيْ ٱلرَّوْحَةِ ٱلأُوْلَىٰ ٱلْغَنِيْمَةُ وَٱلأَجْرُ

وقال ابن عباس: العصر هو الدهر والزمن، قيل: أقسم الله به لما فيه من العبر والعجائب للناظر، وفي «تفسير الرازي»: أقسم[2] الله تعالى بالدهر لما فيه من الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيَّعتَ ألف سنة فيما لا يعني، ثم ثبتت السعادة في اللمحة الأخيرة من العمر بقيتَ في الجنة آبد الآباد، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم، ولأن الزمان أشرف من المكان فأقسم به سبحانه؛ لكونه نعمة خالصة لا عيب فيه إنما الخاسر والمعيب الإنسان.

---

(١) الشوكاني. (٢) الرازي.

وقد ورد في الحديث: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» رواه مسلم وغيره، وذلك لأنهم كانوا يضيفون النوائب والنوازل إلى الدهر، فأقسم به تنبيهاً على شرفه، وأن الله هو المؤثر فيه فما حصل فيه من النوائب والنوازل كان بقضاء الله تعالى وقدره، وقيل: الكلام على حذف مضاف تقديره: ورب العصر، ورُوي عن قتادة أيضاً أنه: آخر ساعة من ساعات النهار، فالعصر هو الطرف الأخير من النهار، وقد أقسم الله سبحانه به لما في ذلك من الدلالة على قدرة الله تعالى في تصرفه في هذا الكون العظيم ووحدانيته بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس، فقد أقسم هنا بالطرف الأخير من النهار، كما أقسم في آية أخرى بالطرف الأول من النهار، حيث قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، وهو الطرف الأول من النهار؛ لما فيه من حدوث سلطان الشمس وإقبال النهار، وأيضاً إنه كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا في شؤونهم، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق من خبث الحديث، وما يؤذي به بعضهم بعضاً، فيتوهم الناس أن الوقت مذموم، وأن الدهر مشاكس ملعون، كما يفعل بعض الجهلة في زماننا هذا، فأقسم الله تعالى بالعصر؛ لينبه على أن الزمان في نفسه ليس مما يُذم ويسب ويلعن، كما اعتاد بعض الناس أن يقولوا زمان مشؤوم ووقت نحس ودهر سوء، وما يشبه ذلك، بل الدهر ظرف للحسنات، كما هو ظرف للسيئات، وهو ظرف لشؤون الله العظيمة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع وإحياء وإماتة. فكيف يُذم في ذاته وإنما يُذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة، فالله تعالى يُقسم بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص، والزمان الذي هو العصر مملوء بالعبر والعظات مشحون بالحوادث والوقائع.

والزمان هو الأستاذ الأكبر والمعلم الأول الذي يُعلِّم الأفراد والشعوب أن العاقبة للعاملين المخلصين المتقين، وأن الخسران للعاملين الخائنين الظالمين، ومن لم يؤدبه الأبوان أدّبه الزمان؛ لأن الزمان إنما هو مؤدب أكبر ومرشد أعظم، وصروف الدهر وتقلبات الأيام كلها عبر وآيات بينات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومن أجل ذلك أقسم الله تعالى به إرشاداً إلى علو مرتبته وإلى أنه شاهد صدق على أن الناس جميعاً في خسارة إلا المؤمنين الصالحين.

وقال مقاتل إن المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله

سبحانه بالمحافظة عليها، وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ قال الزجاج: قال بعضهم معناه: ورب العصر، والأول أولى، وقرأ سلاّم[1]: ﴿والعصِر﴾ بكسر الصاد، و﴿الصبِر﴾ بكسر الباء، قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: ﴿بالصبِر﴾ بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف. انتهى.

وفي «الكامل» للهذلي: ﴿والعصر﴾ و﴿الصبر﴾ ﴿والفجر﴾ ﴿والوتر﴾ بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها، وقرأ هارون وابن موسى عن أبي عمرو والباقون بالإسكان كالجماعة. انتهى.

وقال ابن خالويه: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ بنقل الحركة عن أبي عمرو، وقال صاحب «اللوامح»: قرأ عيسى البصرة: ﴿بالصبر﴾ بنقل حركة الراء إلى الباء؛ لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يسكن فيجتمع ساكنان، وذلك لغة شائعة، وليست شاذة بل مستفيضة، وفي ذلك دلالة على الإعراب وانفصال عن التقاء الساكنين، وتأدية لحقّ الموقوف عليه من السكون. انتهى.

وقد أنشدنا في الدلالة على هذا في شرح «التسهيل» عدة أبيات، كقول الراجز:

أَنَا جَرِيْرٌ كُنْيَتِيْ أَبُوْ عُمِرْ أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَسَعْدٌ فِيْ الْعَصِرْ

يريد أبو عمر والعصر.

وحاصل المعنى: أن الله سبحانه وتعالى أقسم[2] بالدهر؛ لما فيه من أحداث وعبر يُستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه، أنظر إلى ما فيه من تعاقب الليل والنهار، وهما آيتان من آيات الله، كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وإلى ما فيه من سراء وضراء، وصحة وسقم، وغنى وفقر، وراحة وتعب، وحزن وفرح إلى نحو ذلك مما يسترشد به حصيف الرأي إلى أن للكون خالقاً ومدبراً، وهو الذي ينبغي أن يوجه إليه بالعبادة، ويُدعى لكشف الضر وجلب الخير إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر، فيقولون: هذه نائبة من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

نوائب الدهر، وهذا زمان بلاء، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خَلْقٌ من خلقه، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها، فإن وقعت للمرء مصيبة، فبما كسبت يداه، وليس للدهر فيها من سبب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ جواب القسم، و﴿أل﴾ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ استغراقية بدليل ذكر الاستثناء بعدها، فإن صحة الاستثناء من جملة أدلة العموم والاستغراق، وهي: التي يخلفها كل، ويصح الاستثناء من مدخولها؛ أي: إن كل فرد من أفراد الإنسان لفي خسران في مُتاجَره، وغبن في مساعيه، وصرف أعماره في أعمال الدنيا وضلال وخطأ عن الحق، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقيل: إن ﴿أل﴾ فيه عهدية؛ أي: للعهد الحضوري، وهي ما عهد مصحوبها ذهناً؛ أي: إن الإنسان المعهود في ذهنك يا محمد وهم جماعة من صناديد قريش، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ولدلالة الاستثناء عليه، والخسر[1] والخسران: النقصان وذهاب رأس المال وفي حق جنس الإنسان هو نفسه وعمره، والتنكير فيه للتفخيم؛ أي: لفي خسران عظيم، لا يعلم كنهه إلا الله في متاجرهم وصرف أعمارهم في مباغيهم، ويجوز أن يكون التنوين فيه للتنويع؛ أي: نوع من الخسران غير ما يتعارفه الناس، قال الأخفش: ﴿في خسر﴾؛ أي: في هلكة، وقال الفراء: عقوبة، وقال ابن زيد: ﴿لفي شر﴾، وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ بضم الخاء وسكون السين، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى: ﴿خسر﴾ بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم، والمعنى: إن جنس الإنسان لفي نقصان؛ لأنه ينقص عمره كل يوم وهو رأس ماله، فإذا ذهب رأس ماله ولم يكتسب به الطاعة يكون على نقصان طول دهره وخسران، إذ لا خسران أعظم من استحقاق العقاب الدائم، وكيف لا يكون الإنسان في خسران ووراءه ذلك المصير المحتوم الذي قد صدر فيه الحكم من رب العزة، وكل نفس ذائقة الموت وإن عاشوا، فإلى أمد قصير وعيش حقير، ثم يتركون لذائذ الدنيا وبهجتها إلى الرمس الضيق الصغير، ثم يواريهم التراب وإن كان ملكاً كبيراً، وكأن لم يكونوا شيئاً مذكورا، فإذا لم يكونوا

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ممن استثناهم الله تعالى وهم الذين آمنوا الخ، فهم لا شك في خسران عظيم يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يستعتبون.

والخلاصة: أي إن هذا الجنس من المخلوقات لخاسر في أعماله ضرباً من الخسران إلا من استثناهم الله تعالى، فأعمال الإنسان هي مصدر شقائه، لا الزمان ولا المكان، وهي توقعه في الهلاك، فذنب المرء في حق بارئه ومن يمن عليه بنعمه الجليلة وآلائه الجسيمة جريمة لا تعدلها جريمة أخرى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا واعترفوا وأيقنوا بالخالق عز وجل وآمنوا به وبرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، وصدقوا بالقدر خيره وشره من الله تعالى، واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً أن للعالم كله إلٰهاً خالقاً قادراً يرضى عن المطيع ويغضب على العاصي، وأن هناك فرقاً بين الفضيلة والرذيلة، فدفعهم ذلك إلى عمل البر والخير.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: اكتسبوا الفضائل والخيرات الباقية، فربحوا بزيادة النور الكمالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس مالهم، فهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها من صفقة ما أربحها، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم، واستدل بعض الطوائف بالآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار؛ لأنه لم يستثن من الخسران إلا الذين آمنوا إلخ.

والتقصي منه أن غير المستثنى في خسر لا محالة؛ إما بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً لم يُغفر له، وإما بفوات الدرجات العالية إن غُفر له.

والمعنى: أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، والاستثناء متصل، ومن قال: إن المراد بالإنسان الكافر فقط، فيكون منقطعاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل من أن المراد بهم الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾؛ أي: أوصى وأمر بعضهم بعضاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ويتحاثوا عليه؛ أي: بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره،

وهو الخير كله من الإيمان بالله، واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل؛ أي: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه، قال قتادة: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن، وقيل: بالتوحيد، والحمل على العموم أولى.

﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً وتحاثوا ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾؛ أي: عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها، وعلى ما يبلو الله به عباده من البلايا، وتخصيص[1] هذا التواصي بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي به الله تعالى، والثاني عبارة عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله سبحانه وتعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه من فعل أو ترك، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به ظاهراً وباطناً، ولعله سبحانه إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاءً ببيان المقصود، فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، وإشعاراً بأن ما عدا ما عُدَّ يؤدي إلى خسر ونقص حظ أو تكرماً، فإن الإبهام في جانب الخسر كرم؛ لأنه ترك تعداد مثالبهم وأعرض عن مواجهتهم به، وكرر التواصي لاختلاف المفعولين، وهما قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾، وعبارة «الشوكاني»: هنا: وفي جعل[2] التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها وارتفاع طبقته عنها. انتهى.

وخلاصة ما سلف[3]: أن الناس جميعاً في خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فيعملون الخير ويدعون إلى العمل به، ولا يزحزحهم عن الدعوة إليه ما يلاقونه من مشقة وبلاء،

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

والإنسان جميعه خسر مساعيه وضل مناهجه، وصرف عمره في غير مطالبه فهو قد جاء إلى الأرض؛ ليخلص نفسه من الرذائل، ويتحلى بالفضائل، حتى إذا رجع إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحاً وأمضى سلاحاً، لكنه حين رجع إلى مقره في عالم السموات لم يجد إلا نقصاً يحيط به، وجهلاً يرديه، فندم إلا طائفة منه عاشوا في الدنيا مفكرين، فآمنوا بأنبيائهم وصدقوا برسلهم، وأحبوا بني جنسهم، وأحسنوا إلى إخوانهم، فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم، وصاروا معهم متعاضدين متعاونين، وصبروا على ما نزل بهم من الحدثان، ورُموا به من البهتان، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون، وفي الآخرة يفرحون بالنعيم المقيم.

أقسام الصبر: والصبر من الخلال الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتدرع بها ويروِّض نفسه عليها منذ الحداثة والصغر، على الآباء والأمهات أن يربوا أولادهم على الصبر واحتمال الأذى، والصبر في أصل معناه اللغوي: الحبس، وهو باعتبار متعلَّقه ينقسم ثلاثة أقسام:

١ ـ حبس النفس عن فعل السوء والشر ودواعي الهوى والشهوة، وكل ما يمس كرامة الإنسان ويشوّه سمعته.

٢ ـ الصبر على المكروه والألم وتحمل الرزايا والمصائب، وكل ما يقلق الراحة وينغص العيش، ومثل ذلك الصبر على ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية.

٣ ـ الصبر في مواطن الخوف والذعر، بل في مواطن الخطر أحياناً دفاعاً عن حق، أو حماية لمصلحة أو وقاية لعرض وشرف، وهذا النوع من الصبر يسمى: الشجاعة والإقدام، والشجاعة ضرب من الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

قال بعض الحكماء: ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب؛ لأن هذا تشاركه فيه الدابة، ولكن أن يكون للنفس غَلُوباً، وللخطوب حَمُولاً، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً؛ أي: مالكاً نفسه عند الغضب، قال لقمان لابنه: الذهب يجرَّب بالنار، والعبد الصالح يجرب بالبلاء،

وقال الفضيل بن عياض: إن الله ليتعهد عبده المؤمن بالبلاء، كما يتعهد الرجل أهله بالخير، ولولا أن في حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفاً من الأوزار، وحطاً من الذنوب، ومحواً من السيئات ما استطعنا عليهم صبراً، ولولا أن في موافقة اللذات ومقارنة الشهوات أنواعاً من المكاره، وأصنافاً من الشدائد؛ ما وجدنا عنها صبراً، ولكثر إسراعنا، وقل عنها امتناعنا، لا جرم أن جميع خلال الخير وخصال البر وأحوال الطاعة وما يجعل الله في الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة ودواعي الإيمان إنما هي كلها مرتبطة بالصبر، وراجعة إلى الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر كيفما تأملتها، وعلى أي حال تدبرتها، فإنه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة، لذا أمر الله سبحانه بالتواصي به؛ لأنه جماع صفات الخير، ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال وعلى حبه، وأن العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شق، وأن الصدق صبر، فربما خالطه شوائب تكره، وإن الحلم جامع لأشتات الصبر، فما منح الله الصبر عبداً من عبيده، وهو يريد به شيئاً سوىٰ الخير، وكل شيء في الوجود يولد صغيراً، ثم يكبر إلا المصائب، فإنها تولد كباراً، ثم تصغر وتضمحل، والصبر محمود الأثر شريف الغاية، ولو لم يكن فيه إلا أنه مظهر من مظاهر الكمال والرجولة اللائقة بكل إنسان. . لكفى، قال الشاعر:

فَلَوْ كَانَ يُغْنِيْ أَنْ يُرَىٰ ٱلْمَرْءُ جَازِعَاً ... لِحَادِثَةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِيْ ٱلتَّذَلُّلُ
لَكَانَ ٱلتَّعَزِّيْ عِنْدَ كُلِّ مُصِيْبَةٍ ... وَنَائِبَةٍ بِٱلْحُرِّ أَوْلَىٰ وَأَجْمَلُ

قال بعض الحكماء: الجزع على الفائت آفة، وعلى المتوقع سخافة، فهو لا يخلو عمره من النكد، ولا يستفيق من التعذيب والكمد، وإذا استولى الجزع تضاعف الكرب، واشتد حتى أصبح لا يطاق، كما قال ابن الرومي:

إِنَّ ٱلْبَلاَءَ يُطَاقُ غَيْرَ مُضَاعَفٍ ... فَإِذَا تَضَاعَفَ صَارَ غَيْرَ مُطَاقِ

ومن الحكم المشهورة: من أكثر الشكوى عظمت عليه البلوى، ومن كلام بعض العلماء: من كثر جزعه كثرت زلته وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله، وإذا كان الجزع يحبط الحسنات فإن الصبر يربي الحسنات، وهو من أجل القربات، قال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

فوجدته قد أثَّر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زاد على أن قال:

اِصْبِرْ عَلَىٰ مَضَضِ ٱلإِدْلاَجِ فِيْ ٱلسَّحَرِ ... وَفِيْ ٱلرَّوَاحِ عَلَىٰ ٱلطَّاعَاتِ فِيْ ٱلْبُكَرِ
إِنِّيْ رَأَيْتُ وَفِيْ ٱلأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةٌ مَحْمُوْدَةَ ٱلأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِيْ شَيْءٍ يُؤَمِّلُهُ ... وَٱسْتَشْعَرَ ٱلصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِٱلظَّفَرِ

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ ... وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ مِمَّا فِيْهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لاَ بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

وقد رُكب في طباع الإنسان حب تفضيله على جنسه، فما أحد إلا ويحب أن يكون أعلى درجة من غيره، فإذا وقعت نكبة بإنسان أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغي له أن يتجلد؛ لئلا يُرىٰ بعين النقص، وليتجمل بالصبر، فإنه عدة الرجال الكَمَلة قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِيْ لِلشَّامِتِيْنَ أُرِيْهِمُ ... أَنِّيْ لِرَيْبِ ٱلدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

فأهل الكمال يُظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء؛ لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها على بعض النفوس لأشد من كل نائبة، لذا كان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية، وإليكم هذا المثل من الشريعة الغراء حين قدم الرسول ﷺ مكة المكرمة أصابتهم الحمى، وقد أراد المسلمون الطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والمشركون ينظرون إلى المسلمين، فخاف النبي ﷺ أن يشمت بهم الأعداء حين رأوا ضعفهم عن السعي، فقال مخاطباً للمسلمين: «رحم الله من أظهر من نفسه التجلد»، فرملوا، والرمَل شدة السعي، وقد زال ذلك السبب، وبقي الحكم في أعمال الحج ليُتذكَّر السبب فيفهم معناه ومغزاه لهذه الأسباب وغيرها من معاني الصبر وآثاره في حياة الفرد والجماعة، فقد أمر الله سبحانه بالصبر، وأمر بالتواصي بالصبر بين المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

الإعراب

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿العصر﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالعصر والدهر، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في خسر﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مستثنى من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في محل النصب على الاستثناء، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: فعل ماض وفاعل مبني بفتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلق به.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ قال في «القاموس»: العصر مثلثة العين، وبضمتين الدهر، والجمع أعصار وعصور وأعصر وعُصُر، والعصر اليوم والليلة والعشي إلى احمرار الشمس، ويحرك، والغداة والحبس والرهط والعشيرة، والمطر من المعصرات والمنع والعطية، يقال: عصره يعصره، وبالتحريك الملجأ والمنجاة كالعصر بالضم إلى آخر هذه المادة الطويلة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والإنسان هو هذا النوع من المخلوقات، وهو لفظ يقع على الذكر والأنثى من بني آدم، وربما أنثت العرب، فقالوا: إنسان وإنسانة، فقال:

إِنْسَانَةٌ تَسْقِيكَ مِنْ إِنْسَانِهَا   خَمْراً حَلاَلاً مُقْلَتَاهَا عِنَبُهْ

و﴿أل﴾ فيه لاستغراق الجنس، فيشمل المؤمن والكافر بدليل الاستثناء.

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أي: لفي خسران ونقصان، وذلك لأن الإنسان لا ينفك عن خسران، لأن الخسران هو تضييع عمره، وذلك لأن كل ساعة من عمر الإنسان إما

أن تكون تلك الساعة في طاعة أو معصية، فإن كانت في معصية فهو الخسران البين الظاهر، وإن كانت في طاعة فلعل غيرها أفضل وهو قادر على الإتيان به، فكان فعل غير الأفضل تضييعاً وخسراناً، فبان بذلك أنه لا ينفك أحد من خسران اهـ «جمل».

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أي: لفي غبن وخسارة، وفي «المصباح»: خسر في تجارته خسارة ـ بالفتح ـ وخسراً وخسراناً، ويتعدى بالهمزة، فقال: أخسرته فيها، وخسر خسراً وخسراناً أيضاً هلك، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فحكم بالخسران على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذه الأمور اشتملت على ما يخص نفسه، وهو الإيمان والعمل الصالح وما يخص غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهما معطوفان على ما قبلهما من عطف الخاص على العام للمبالغة .اهـ. «رازي».

والحاصل: أن كل ما مضى من عمر الإنسان في طاعة الله فهو في صلاح وخير، وما كان بضده فهو في خسر وفساد وهلاك .اهـ. «خازن».

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ فعل ماض من باب تفاعل مأخوذ من المواصاة، وهي التقديم إلى الغير بما يعمل به مقروناً بوعظ ونصيحة من قولهم: أرض واصية؛ أي: متصلة بالنبات، يقال: واصيت إليه بكذا؛ أي: قدمته إليه إذا أمرته قبل الحاجة إلى الفعل .اهـ. «كرخي» بتصرف.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: وهو كل ما حكم الشرع بصحته، ولا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .اهـ. «خطيب»، وقيل: الحق هو ما تصدّر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع، أو عيان ومشاهدة، أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ والصبر: هو قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل

الطيب، وتهون عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأعراض الشريفة، والتواصي بالحق أن يوصي بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير، والتواصي بالصبر أن يوصي بعضهم بعضاً به ويحثه عليه، ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمَّل المرء نفسه به، وإلا صدق عليه قول أبي الأسود الدؤلي:

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا ٱلتَّعْلِيْمُ

تَصِفُ ٱلدَّوَاءَ لِذِيْ ٱلسِّقَامِ وَذِيْ ٱلضَّنَىٰ ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيْمُ

لاَ تْنَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

وأصل ﴿تواصوا﴾: تواصَيُوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، فالتقى ساكنان وهما الألف والواو، ثم حذفت الألف لبقاء دالِّها، فصار: ﴿تواصوا﴾ بوزن تفاعوا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إدخال ﴿أل﴾ الاستغراقية على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ ليعم المؤمن والكافر بدليل الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أو العهدية؛ ليخص الكافر المعهود، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ ليدل على التفخيم والتعظيم؛ أي: لفي خسر عظيم ودمار شديد، لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه.

ومنها: تكرار ﴿تواصوا﴾؛ لاختلاف المفعولين، وهما قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿بِٱلصَّبْرِ﴾.

ومنها: تخصيص ذكر التواصي بالصبر مع اندراجه تحت التواصي بالحق؛ لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأن الأول: عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الرب سبحانه، والثاني: عبارة عن العبودية التي هي الرضا بما فعل الرب سبحانه.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأن الصبر داخل في عموم الحق إلا أنه خصه بالذكر إشارةً بفضيلة الصبر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة العصر قُبيل الغروب من يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة: ١٤١٧/١/٤ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الهمزة

سورة الهمزة مكية، نزلت بعد سورة القيامة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١﴾ نزلت بمكة، وهي: تسع آيات، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله.. ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها أنه لما قال فيما قبلها: إن الإنسان لفي خسر.. بيَّن هنا حال الخاسر.

التسمية: سميت سورة الهمزة؛ لذكر لفظ الهمزة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ سورة: الهمزة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾.

أسباب النزول

قال عطاء والكلبي والسدي[1]: نزلت هذه السورة في الأخنس بن شُريق كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ، وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة: كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن فيه في وجهه، وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر الجمحي، وأخرج ابن المنذر عن محمد بن إسحاق صاحب السيرة، قال: كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾... السورة كلها، وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان وابن عمر قالا: ما زلنا نسمع أن: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾ نزلت في أبي بن خلف.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيۡلٞ﴾؛ أي: هلاك شديد، وهو مبتدأ سوَّغ الابتداء به مع كونه نكرة، كونه دعاء عليهم، خبره قوله: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، والمعنى[2]: خزي شديد وعذاب أليم، أو هلاك هائل أو واد في جهنم من قيح ودم كائن لكل همزة لمزة، قال أبو عبيدة والزجاج: الهمزة الذي يغتاب الناس، وعلى هذا فهما بمعنى واحد، وقيل: هما من الهمز، وهو الكسر كالهزم. واللمز، وهو الطعن كاللهز، شاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وفي «القاموس»: الهامز والهمزة الغماز، واللمزة: العياب للناس، أو الذي يعيبك في وجهك، والهمزة من يعيبك في الغيب انتهى، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الهمزة الذي يغتاب الرجل

(١) لباب المنقول.
(٢) روح البيان.

في وجهه، واللمزة الذي يغتابه من خلفه، وقال قتادة: عكس هذا، وروي عن قتادة ومجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يغتاب الناس في أنسابهم، وفي «الخازن» قال ابن عباس: هم المَشَّاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب، وقيل: معناهما واحد، كما مر آنفاً، وهو العياب المغتاب للناس في بعدهم، قال الشاعر:

إِذَا لَقِيْتُكَ مِنْ كُرْهٍ تُكَاشِرُنِيْ   وإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ ٱلْهَامِزَ ٱللُّمَزَا

وقيل: بل يختلف معناهما، فقيل: الهمزة: الذي يعيبك في الغيب، واللمزة: الذي يعيبك في الوجه، وقيل: هو على ضده، وقيل: الهمزة: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقيل: هو الذي يهمز بلسانه ويلمز بعينه، وقيل: الهمزة: الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة الذي يرمق بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبيه، وقيل: الهمزة: المغتاب للناس، واللمزة: الطعان في أنسابهم.

وحاصل هذه الأقاويل[1]: يرجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب، وأصل الهمز: الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد منه هنا: الكسرُ من أعراض الناس، والغَضُّ منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم؛ ليضحكوا منه، وهما نعتان للفاعل على وزن فُعَلة نحو سُخَرة وضُحَكة ولُعَنة وهُزَأة للذي يسخر من الناس، ويضحك منهم، ويلعنهم ويهزأ منهم، يقال: رجل هُزَأة لمن يهزأ بالناس.

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية كما مر، فقيل: نزلت في الأخنس بن شُريق بن وهب، كان يقع في الناس ويغتابهم، وقال محمد بن إسحاق: مازلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: هي عامة في كل شخص هذه صفته كائناً من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال: إنها في إناس معينين قال: إن كون اللفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً،

---

(١) الخازن.

وهو تخصيص العام بقرينة العُرف، والأولى أن تُحمل على العموم في كل مَن هذه صفته. انتهى من «الخازن».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ - بفتح الميم فيهما مع ضم أولهما - بوزن فُعَله، وقال في «الروح»: بناء فُعَلة يدل على الاعتياد، فلا يقال: ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود، وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما، وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش: ويل للهمزة اللمزة بإدخال أل عليهما، وفي «أدب الكاتب» لابن قتيبة: فُعْلة بسكون العين من صفات المفعول، وفُعَلة بفتح العين من صفات الفاعل، يقال: رجل هُزْأة للذي يُهزأ به، وهُزَأة لمن يَهزأ بالناس، وعلى هذا القياس لعنة ولعنة، ولمزة ولمزة، وهمزة وهمزة وغيرها اهـ.

ومعنى الآية: سخط[2] وعذاب من الله سبحانه لكل طَعَّان في الناس، أَكَّال للحومهم، مؤذ لهم في غيبتهم، أو في حضورهم، ثم ذكر سبب عيبه وطعنه في الناس، فقال: ﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ بدل من كل، كأنه قيل: ويل للذي جمع مالاً، وإنما وصفه الله بهذا الوصف المعنوي؛ لأنه يجري مجرى السبب للهمزة واللمزة، من حيث إنه أعجب بنفسه مما جمع من المال، وظن أن كثرة المال سبب لعزة المرء وفضله، فلذا استنقص غيره، وقيل: في محل النصب على الذم وهذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح، وإنما لم يُجعل وصفاً نحوياً لكل؛ لأنه نكرة لا يصح توصيفها بالموصولات، وتنكير مالاً للتفخيم والتكثير الموافق؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ أي: عده مرة بعد أخرى من غير أن يؤدي حق الله منه، ويؤيد أنه من العد وهو الإحصاء، لا من العُدَّة أنه قرىء: ﴿وعدَّده﴾ بفك الإدغام، على أنه فعل ماض بمعنى أحصاه وضبط عدده، وقيل: معنى عدده: جعله عُدَّة وذخيرة لنوائب الدهر، وكان للأخنس المذكور أربعة آلاف دينار، أو عشرة آلاف.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿جَمَعَ﴾ مخففاً، وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتشديد، وقرأ الجمهور: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ بتشديد الدال الأولى؛ أي: أحصاه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

وحافظ عليه، وقيل: جعله عدة لحوادث الدهر، وقرأ الحسن والكلبي ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف؛ أي: جمع المال وضبط عدده، وقيل: جمع عدداً من عشيرته وأقاربه، وفي «الشوكاني» والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير، وهو جمع الشيء وتعديده مرة بعد أخرى، قال الفراء: معنى ﴿عدَّده﴾ أحصاه، وقال الزجاج: وعدده لنوائب الدهر، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته، وقال السدي: أحصى عدده، وقال الضحاك: أعد ماله لمن يرثه، وقيل المعنى: فاخر بكثرته وعدده، والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه وعدم إنفاقه في سبيل الخير، وقيل: المعنى على قراءة التخفيف في عدده أنه جمع عشيرته وأقاربه، قال المهدوي: من خفف ﴿وعدده﴾ فهو جعله معطوفاً على المال؛ أي: وجمع عدده.

وخلاصة معنى الآية: أي[1] إن الذي دعاه إلى الحط من أقدار الناس والزراية بهم هو جمعه للمال، وتعديده مرة بعد أخرى شغفاً به وتلذذاً بإحصائه؛ لأنه يرى أن لا عزة إلا به ولا شرف بغيره، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته، وهزأ بكل ذي فضل ومزية دونه، ثم هو لا يخشى أن تصيبه قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس؛ لأن غروره أنساه الموت، وأعمى بصيرته عن النظر في مآله والتأمل في أحواله، ثم بين خطأه في ظنه، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

ويجوز[2] أن تكون هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانا واقعاً في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما باله يجمع المال ويهتم به، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل جمع، و﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ ماض معناه المضارع؛ أي: يخلده اهـ «سمين».

أي: يظن لجهله أن ماله الذي جمعه وعدده يخلده؛ أي: يوصله إلى رتبة الخلود والدوام في الدنيا، فيصير خالداً فيها، فلا يموت أو يعمل من تشييد البنيان وإيثاقه بالصخر والآجر وغرس الأشجار وجري الأنهار عمل من يظن أنه لا يموت، بل ماله يبقيه حياً ويزيد في عمره، وإظهار[3] المال في موضع الإضمار؛ لزيادة التقريع والتوبيخ، فالحسبان ليس بتحقيقي، بل هو محمول على التمثيل، أو هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فأما المال فما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

أخلد أحداً فيه، وقال[1] أبو بكر بن طاهر ـ رحمه الله تعالى ـ: يظن أن ماله يوصله إلى مقام الخلد والدوام، وإنما قال: أخلده بصيغة الماضي ولم يقل يخلده بصيغة المضارع؛ لأن المراد أن هذا الإنسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود والبقاء في الدنيا وأعطاه الأمان من الموت، فكأنه حُكم قد فُرغ منه، ولذلك ذكره بلفظ الماضي، قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت. ونعم ما قال.

ومعنى الآية: أي[2] يظن هذا الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود في الدنيا، وأعطاه الأمان من الموت، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حياً أبد الدهر، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال، وبعد أن توعد مَن هذه صفاته بشديد العقاب، وأردفه ذكر السبب الذي حمله على ارتكاب هذه الخصال الممقوتة من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت.. أعقبه بتفصيل ما أعد له من هذا العذاب المحتوم، فقال: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ ﴿كَلَّا﴾: ردع له عن ذلك الحسبان؛ أي: ارتدع أيها الحاسب عما حسبته وظننته من أن هذا المال الذي جمعته وعددته يخلدك في الدنيا، فليس الأمر على ما حسبته؛ أي: لا عن همزه ولمزه، كما توهم؛ لبعده لفظاً ومعنى اهـ «شهاب»، وقيل: ﴿كَلَّا﴾ معناه حقاً اهـ خطيب، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ واقعة في جواب قسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة مبينة لعلة الردع؛ أي: والله ليطرحن ذلك الذي يحسب وقوع الممتنع بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة، وقال بعضهم[3]: ولك أن ترد الضمير إلى كل من الهمزة واللمزة، ويؤيده قراءة: ﴿لينبذانِ﴾ بألف التثنية. ﴿فِى ٱلۡحُطَمَةِ﴾؛ أي: في النار التي شأنها أن تحطم وتكسر كل ما يُلقى فيها، كما أن شأنه الكسر بأعراض الناس وجمع المال، قال بعضهم: قولهم: إن فُعَلة بفتح العين للمتكثر المتعود ينتقض بالحطمة، فإنها أُطلقت على النار، وليس الحطم عادتها، بل طبيعتها وجوابه أن كونه طبيعياً، لا ينافي كونه عادة؛ إذ العادة على ما في «القاموس» الديدن والشأن والخاصية، وهو يعم الطبيعي وغيره، ومنه يُعلم أن النبذ في الحطمة كان جزاء وفاقاً لأعمالهم، فإنه لما كان

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

الهمز واللمز عادتهم كان الحطم أيضاً عادة، فقوبل صيغة فعلة بفعلة، وكذا ظنوا أنفسهم أهل الكرامة والكثرة، فعبر عن جزائهم بالنبذ المنبىء عن الاستحقار والاستقلال، يعني: شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً بعددهم بحصيات أخذهن أحد في كفه، فطرحهن في البحر، وفيه إشارة إلى الإسقاط عن مرتبة الفطرة إلى مرتبة الطبيعة الغالبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول المسند إلى ضمير الواحد، وقرأ علي والحسن بخلاف عنه ومحمد بن كعب وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو ومجاهد ونصر بن عاصم: ﴿لينبذانِ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول المسند إلى ضمير اثنين؛ أي: لينبذن الهمزة وماله، وقرأ الحسن أيضاً ﴿لَيَنْبُذَنَّ﴾ بضم الباء على صيغة المعلوم؛ أي: لينبذن ذلك الجامع مالَهُ في النار، وقرأ الجمهور: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ وقرأ زيد بن علي: ﴿في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة﴾، وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يُلقى فيها كما مر آنفاً.

وقال الضحاك: ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ الدرك الرابع من النار، وقال الكلبي: الطبقة السادسة من جهنم، وحكى عنه القشيري: أنها الدركة الثانية، وعنه أيضاً: الباب الثاني، وقال الواحدي: باب من أبواب جهنم.

والمعنى: أي[2] ازدجر أيها العياب عما خُيّل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك، بل الذي ينفع هو العلم وصالح العمل، فإنك والله مطروح في النار لا محالة، لا يؤبه لك ولا يُنظر إليك، وأُثر عن علي ـ كرم الله وجهه ـ من عظة له: يا كميل هلك خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر. أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يريد أن خزان الأموال ممقوتون مكروهون عند الناس؛ لأنهم لا ينالون شيئاً، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر ما بقي على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم، ويغترف من بحار فضلهم، وروي أن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ زار موسراً وعاده في مرضه، وقال: ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم، ولا تفضلت بها على كريم، قال الحسن: ولكن لماذا جمعت؟ قال الموسر:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

لنبوة الزمان وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر، قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك، وتَرِدُ على من لا يعذرك، وما أجاد قول الشاعر:

شَغَلَتْنَا ٱلدُّنْيَا بِهَاكَ وَهَاتِ وَنَسِينَا مَصَارِعَ ٱلأَمْوَاتِ

نَحْنُ مَوْتَىٰ وَإِنَّمَا بَيْنَ مَنْ يَمْـ ضِيْ وَيَبْقَىٰ تَفَاوُتُ ٱلأَوْقَاتِ

فاحذروا أيها المسلمون أن تسقط ورقتكم من شجرة الحياة قبل أن تتوبوا إلى الله تعالى، وتتركوا ما حرم عليكم ربكم، فإن حياتكم والله معلقة بشجرة الحياة، فإذا هبت عليها ريح القدرة تمايلت وتساقطت، فلا تغتروا بالدنيا ولا تحقروا أحداً من الناس ولا تهمزوا ولا تلمزوا، واحذروا وعيد الله، فإنه عز وجل قد أوعد في هذه السورة مَن هذه صفاته بالويل والثبور والهلاك والنكال، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾، ثم أخذ يهول أمر هذه النار ويعظم شأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾، والاستفهام[1] فيه للتهويل والتعظيم والتفظيع، حتى كأنها ليست مما تُدركه العقول وتبلغه الأفهام؛ أي: وما أعلمك يا محمد جواب هذا الاستفهام؛ لأنها من الأمور التي تنالها عقول الخلق؛ أي: إن هذه الحطمة مما لا تحيط بها معرفتك على حقيقتها فلا يعلم شأنها، ولا يقف على كنهها إلا من أعدها لمن يستحقها، ثم فسر هذه الحطمة بعد إبهامها، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾؛ أي: هي: نار الله الموقدة الملتهبة بأمر الله سبحانه وتعالى، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها، وكذلك في وصفها بالإيقاد، فما أوقد وأُشعل بأمره تعالى لا يقدر أن يُطفئه غيره تعالى، وفيه دلالة على أنها ليست كسائر النيران، وفي الحديث: «أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت، ثم ألف سنة حتى ابيضت، ثم ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة»، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: عجباً بمن يعصي الله على وجه الأرض، والنار تُسعر من تحته.

أي: إنها[2] النار التي لا تُنسب إلا إليه سبحانه؛ إذ هو الذي أنشأها وأعدها لعقاب العصاة والمذنبين، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تُخمد أبداً، بل

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

هي ملتهبة التهاباً لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها، ثم وصفها بأوصاف تخالف بها نيران الدنيا؛ ليؤكد مخالفتها لها، فقال:

١ - ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ ويخلص حرها إلى القلوب، فيعلوها ويغشاها؛ أي: إن تلك النار تعلو أوساط القلوب وتغشاها، فإن الفؤاد وسط القلب ومتصل بالروح، يعنيك أن تلك النار تحطم العظام وتأكل اللحوم، فتدخل في أجواف أهل الشهوات، وتصل إلى صدورهم، وتستولي على أفئدتهم إلا أنها لا تحركها بالكلية؛ إذ لو احترقت لماتت أصحابها، ثم إن الله تعالى يُعيد لحومهم وعظامهم مرة أخرى، وتخصيص الفؤاد بالذكر لما أنها ألطف ما في الجسد وأشدُّ تألماً فأدنىٰ أذى يمسه، أو لأنه محل العقائد الزائغة والنابات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة، فاطلاعها على الأفئدة التي هي خزانة الجسد ومحل ودائعه يستلزم الاطلاع على جميع الجسد بطريق الأولى.

وقد يكون[١] المراد بالاطلاع المعرفة والعلم، وكأن هذه النار تدرك ما في أفئدة الناس يوم البعث، فتميز العاصي من المطيع، والخبيث من الطيب، وتفرق بين من اجترحوا السيئات في حياتهم الأولى، ومن أحسنوا أعمالهم، يعني: أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بأمارات عرَّفها الله بها، وإنا لنكل أمر ذلك إلى علاَّم الغيوب، وفي وصفها بالاطلاع على الأفئدة التي أودعت باطن الإنسان في أخفى مكان منه إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولاً وأكثر تغلباً.

٢ - ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾؛ أي: أن تلك[٢] النار الموصوفة مطبقة أبوابها عليهم تأكيداً؛ ليأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد، من آصدت الباب وأوصدته؛ أي: أطبقته، وقد سبق بيانه في سورة البلد؛ أي: إنها مطبقة مغلقة عليهم لا يخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا فهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

٣ - ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ جمع عمود، كما في «القاموس»، والعمود كل مستطيل من خشب أو حديد، قاله أبو عبيدة، ومعنى كون العمد ممدودة أنها

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

مطولة، وهي أرسخ من القصيرة، وهو في محل نصب على الحال من ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: حال كونهم موثقين في أعمدة مطولة مغلولين عليها بأغلال في أعناقهم، وقيل[١]: هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم مغلولون بأغلال في أعناقهم في أعمدة طوال في وسط جهنم، والنار ملتهبة من تحتهم، أو صفة لـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ و﴿فِي﴾ بمعنى الباء، والمعنى: أنها مؤصدة مطبقة مغلقة عليهم أبوابها مشدودة تلك الأبواب بعمد ممددة؛ أي: بأعمدة طوال تعرض عليها وتشد بها، يعني[٢]: إن أبواب جهنم أغلقت عليهم ممدودة على أبوابها عمد تشديداً في الإغلاق، كما قاله ابن جزيّ.

وفي «القرطبي»: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ ﴿فِي﴾ بمعنى الباء؛ أي: مؤصدة بعمد ممددة، قاله ابن مسعود وهي قراءته: ﴿بعمد ممدودة﴾ وفي حديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثم إن الله تعالى يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار، وعمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد بتلك المسامير، وتمد بتلك العمد، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه غم، وينساهم الرحمٰن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يبعثون بعدها، وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً»، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ وقال قتادة: هم في عمد يعذبون، واختار هذا القول ابن جرير الطبري، وقال ابن عباس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم، وقيل: قيود في أرجلهم، قال: أبو صالح[٣]، وقال القشيري: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تُطبق على أهل النار، تشد تلك الأطباق بالأوتاد التي هي العمد حتى يرجع عليها غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روح، وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم، وهم في عمد في سلاسل وأغلال مطولة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة، وقيل: هم في عمد ممددة؛ أي: في عذابها وألمها يضربون بها، وقيل المعنى: في دهر ممدد؛ أي: لا انقطاع له. والله أعلم اهـ.

والمراد بذلك: تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم، والمبالغة في ذلك؛ ليودع في قلوبهم اليأس من الخلاص منها، وعلينا أن نؤمن

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

بذلك، ولا نبحث عن كون العمد من نار أو حديد، ولا في أنها تمتد طولاً أو عرضاً، ولا في أنها مشبهة بعمد الدنيا أم لا، بل نكل أمر ذلك إلى الله تعالى، لأن شؤون الآخرة غير شؤون الدنيا، ولم يأتنا خبر من الرسول ﷺ يبين ذلك، فالكلام فيه قول بلا علم وافتراء على الله بكذب.

وقرأ الأخوان[1] ـ حمزة والكسائي ـ وأبو بكر ﴿في عُمُد﴾ ـ بضمتين ـ جمع عمود كرسول ورسل، وقيل: جمع عماد نحو كتاب وكتب، وقرأ هارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم، وهو تخفيف لهذه القراءة، وقرأ الباقون: ﴿عَمَد﴾ بفتحتين، فقيل اسم جمع لعمود، وقيل: بل هو جمع له، وقال الفراء جمع عمود كأديم وأدم، وقال أبو عبيدة: جمع عماد، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم قراءة الفتحتين، وقال الجوهري: العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكثرة: عَمَد وعُمُد، وقرىء بهما اهـ.

الإعراب

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء عليهم بالهلكة كما مر، وقيل: إنه معرفة؛ لأنه اسم واد في جهنم، ويجوز في غير القرآن نصبه على الدعاء، فيقال: ويلاً لكل همزة؛ أي: الزمه الله ويلاً، قال جرير:

كَسَا الْلُؤْمُ تَيْمَاً خُضْرَةً فِيْ جُلُودِهَا ... فَوَيْلاً لِتَيْمٍ مِنْ سَرَابِيْلِهَا ٱلْخُضْرِ

بالنصب على الرواية الصحيحة ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ أي: ويل كائن لكل همزة، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿لُّمَزَةٍ﴾: بدل من ﴿هُمَزَةٍ﴾، وقيل: تأكيد لـ﴿هُمَزَةٍ﴾ تأكيداً لفظياً بالمرادف ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كل بدل المعرفة من النكرة، أو منصوب على الذم بفعل محذوف، وأعربها ابن خالويه نعتاً ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ وهو غير صواب، لكونه معرفة. ﴿جَمَعَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود إلى الموصول. ﴿مَالًا﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جَمَعَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

﴿يَحْسَبُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿جَمَعَ﴾؛ أي: جمع مالاً حالة كونه حاسباً ظاناً أن المال سيخلده؛ أي: يوصله إلى رتبة الخلود فلا يموت، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما باله يجمع المال ويهتم به؟ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب سادة مسد مفعولَي ﴿يَحْسَبُ﴾ تقديره: إخلاد ماله إياه. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر له عن حسبانه؛ أي: ارتدع عن حسبانك؛ أي: ليس الأمر كما دار في خَلَده من أن المال يخلده. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿ينبذن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على الحاسب، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبذن﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، وجملة ﴿ما﴾ الاستفهامية معطوفة على جملة القسم، أو مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: خبر، والجملة الاسمية المعلقة بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾. ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي نار الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: صفة لـ﴿النار﴾ ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة ثانية لـ﴿النار﴾، وجملة ﴿تَطَّلِعُ﴾ صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: متعلق بـ﴿تَطَّلِعُ﴾ وفاعل ﴿تَطَّلِعُ﴾ ضمير يعود على النار. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾، و﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فِى عَمَدٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾، وإليه ذهب أبو البقاء، فتكون النار داخل العمد، أو حال من ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: حال كونهم موثقين في عمد

﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيْلٌ﴾ والويل: كلمة يدعى بها العذاب، ويُسأل بها على من استحقه، وعلى هذا يكون المعنى: اللهم ألحق الويل وأنزله بكل همزة، فتكون الجملة إنشائية، أو عَلَم لواد في جهنم، فيكون معرفة، وتكون الجملة خبرية، أخبرت بأن هذا الوادي ثابت معد لكل همزة لمزة، وقال بعضهم: الويل كلمة عذاب وهلاك وخزي، وهو لفظ يستعمل في الذم والتقبيح، والمراد به هنا: التنبيه على قبح ما سيذكر بعد من صفاتهم، والويس كلمة أخف، من الويل، والويح كلمة أخف من الويس، والويب كلمة أخف من الويح، يقال: ويل لزيد، ويقال: ويله وويحه وويسه وويبه، فمتى انفرد جاز فيه الرفع والنصب، ومتى أضيف لم يكن إلا منصوباً؛ لأنه يبقى بلا خبر، ومتى انفصل جُعلت اللام خبراً، وقال الحسن: ويح كلمة رحمة، فإن قيل: كيف تَصرَّف الفعل من ويح وويس وويل؟ فقل: ما صرفت العرب منها فعلاً، فأما هذا البيت المعمول:

فَــمَـــا وَالَ وَمَـــا وَاحِ   وَمَـــا وَاسَ أَبُـــوْ زَيْـــدِ

فلا تلتفتن إليه، فإنه مصنوع خبيث.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ في «المختار»: الهمز كاللمز وزناً ومعنى، وبابه ضرب، وفيه أيضاً واللمزُ العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وبابه: ضرب ونصر، والتاء فيهما للمبالغة في الوصف، وقد تقدم أن بناء فُعَلة بضم الفاء وفتح العين لمبالغة الفاعل؛ أي: المكثرة لمأخذ الاشتقاق، وبناء فُعْلة بضم الفاء وسكون العين لمبالغة المفعول، يقال: رجل لُعَنة ـ بضم اللام وفتح العين ـ لمن كان يُكثر لعن غيره، ولُعْنة ـ بضم اللام وسكون العين ـ إذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه.

وعبارة «السمين»: والعامة على فتح ميميهما، على أن المراد الشخص الذي يكثر منه ذلك الفعل، وقرأ الباقون: بالسكون، وهو الذي يهمز ويلمز؛ أي: يأتي بما يهمز به ويلمز، والضُحَكة لمن يكثر ضحكه، والضُحْكة لم يأتي بما يُضحَك منه، وهو مطرد أعني: أن فعلة بفتح العين لمن يكثر منه الفعل، وبسكونها لمن يكثر الفعل بسببه، والهاء في همزة لمزة دخلت للمبالغة في الذم، كقولهم: رجل همزة

لمزة؛ أي: عيَّاب مغتاب، فلما دخلت الهاء لذلك استوى المذكر والمؤنث فيه، فيقال: امرأة همزة ورجل همزة، ولا يُثنّى ولا يُجمع، فيقال: رجال همزة ونساء همزة، والمهمزة عصاً في رأسها حديدة، تكون مع الرائض يهمز بها الدابة، والجمع: مهامز، ويقال: همزه يهمُزه ـ بضم الميم وبكسرها ـ همزاً إذا غمزه وضغطه ونخسه ودفعه وضربه وعضّه، واغتابه في غيبته فهو هماز وهمزة، وهمز الشيطان الإنسان همس في قلبه وسواساً، وهمز به الأرض صرعه، وهمز الفرس نخسه بالمهماز ليعدو.

ويقال: لمزه يلمُزه ـ بضم الميم وبكسرها ـ لمزاً إذا عاب، وأشار إليه بعينه ونحوها مع كلام خفي ودفعه وضربه، ولمزه الشيب ظهر فيه، وقال سعيد بن جبير: الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيّبهم إذا غابوا، ومنه قول حسان ـ رضي الله عنه ـ:

هَمَزْتُكَ فَٱخْتَضَعْتَ بِذُلِّ نَفْسٍ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَٱلشُّوَاظِ

وأصل الهمز الكسر يقال: همز كذا إذا كسره، وأصل اللمز الطعن، يقال: لمزه بالرمح؛ أي: طعنه، ثم شاع استعمالهما فيما ذكرنا، قال زياد الأعجم:

إِذَا لَقِيْتُكَ عَنْ كُرْهٍ تُكَاشِرُنِيْ ... وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ ٱلْهَامِزَ ٱللُّمَزَا

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ قُرىء بالتخفيف والتشديد، فمن شدد ميمه نظر للمبالغة والتكثير، ومن خففها جعله محتملاً للتكثير وعدمه، والمعنى: جمعه وضبط عدده وأحصاه.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ قال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين: العامة على تثقيل الدال الأولى، وهو أيضاً للمبالغة، وقرأ الحسن والكلبي بتخفيفها كما مر، وقال ابن خالويه: ومن شدد جعله فعلاً ماضياً يقال: عدَّد المال يعدده تعديداً إذا عده مرة بعد أخرى شغفاً به، فهو معدد، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ومن خفف جعله مصدراً واسماً؛ أي: جمع مالاً وعرف عدده وأحصاه.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾؛ أي: سيخلده ويوصله إلى رتبة الخلود، أي: ضمن له الخلود في الدنيا، وفي «المختار»: الخلد بالضم: البقاء، وبابه دخل، وأخلده الله وخلَّده تخليداً إذا أبقاه.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن، والنبذ: الطرح مع الإهانة والتحقير، وعبارة ابن خالويه: ومعنى ﴿ينبذَنَّ﴾ يتركَنَّ في جهنم، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: تركوه.

﴿فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾: وهي من أسماء النار من الحطم، وهو الكسر يقال: رجل حطمة إذا كان شديداً لا يُبقي على شيء، وفي أمثالهم: شر الرعاء الحطمة؛ أي: الذي يحطم ماشيته ويكسرها بشد سوقها، قال الشاعر:

قَدْ لَفَّهَا ٱللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ   لَيْسَ بِرَاعِيْ إِبِلٍ وَلاَ غَنَمْ
وَلاَ بِجَزَّارٍ عَلَىٰ ظَهْرِ وَضَمْ

وفي «المختار»: حطمه ـ من باب ضرب ـ أي: كسره فانحطم وتحطم، والتحطيم التكسير، والحطمة من أسماء النار؛ لأنها تحطم ما تلتقم اهـ، والمراد بها هنا النار؛ لأنها تحطم العظام، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ وزنها: مفعلة من أُوقِدت أُوقِد إيقاداً، فأنا مُوقِد، والنار مُوقَدَة، وقد وقدت النار نفسها تَقِدُ وَقْداً ووقوداً بضم الواو، فهي واقدة، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ يعني حجارة الكبريت، والوَقود ـ بالفتح ـ: الحطب، قال حاتم الطائي:

لَيْلُكَ يَا مُوْقِدُ لَيْلٌ قَرُّ   وَٱلرِّيْحُ مَعْ ذَلِكَ رِيْحٌ صِرُّ
أَوْقِدْ يَرَىٰ نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ   إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفَاً فَأَنْتَ حُرُّ

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ﴾ أصله: تفتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء؛ لوقوعها بعد طاء، فأدغمت الطاء في الطاء؛ أي: تعلو أوسط القلوب وتغشاها.

﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ جمع فؤاد، وهو خالص القلب ولبه، وهو للقلب كالقلب للصدر.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾؛ أي: مطبقة من أوصدت الباب إذا أغلقته، قال الشاعر:

تَحِنُّ إِلَىٰ أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِيْ   وَمِنْ دُوْنِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤْصَدَهْ

﴿فِي عَمَدٍ﴾: جمع عمود، كأديم وأدم ﴿مُّمَدَّدَةٍۭ﴾؛ أي: مطولة، تقدم لك البسط

في هاتين الكلمتين، فلا حاجة إلى تطويل الكلام بهما.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ لأن بناء فُعَلة يدل على التكثير، والمبالغة في الفعل.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَالًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً لا يكاد يحصى؛ ليدل على فخامته وكثرته بدليل قوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾؛ لزيادة التقرير والتأكيد، ومقتضى السياق أن يقال: يحسب أنه أخلده.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي دون المضارع في قوله: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ حيث لم يقل: يخلده؛ لكونه أمراً محققاً عنده؛ لأن هذا الإنسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود، وإعطاء الأمان من الموت، فكأنه حكم قد فُرغ منه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ حيث شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً بعددهم بحصيات أخذهن أحد في كفه، فطرحهن في البحر، ويمكن أن تكون استعارة تصريحية تبعية، حيث استعار النبذ الذي هو الطرح للترك؛ لأن المعنى هنا: لَيُتْرَكَنَّ في جهنم.

ومنها: المقابلة اللفظية الرائعة بين قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ وقوله: ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾؛ لأنه لما وصفه بهذه الصفة بصيغة دلت على أنها راسخة فيه ومتمكنة منه.. أتبع المبالغة المتكررة في الهمزة واللمزة بوعيده بالنار التي سماها بالحطمة؛ لما يكابد فيها من هول ويلقى فيها من عذاب، واختار في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها ذنب المقترف حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء.

ومنها: التفخيم والتهويل في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ تهويلاً لشأن جهنم.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿لُّمَزَةٍ﴾ و﴿هُمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الغير التام.

ومنها: تخصيص ذكر ﴿ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾؛ لما أن الفؤاد ألطف ما في الجسد، وأشده تألماً بأدنى أذى يمسه، أو لأنه محل العقائد الزائغة، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الهمزة عقيب صلاة العشاء ليلة السبت الثامنة من شهر المحرم من شهور سنة: ١٤١٧ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. آمين.

سورة الفيل

سورة الفيل مكية، نزلت بعد سورة الكافرون، وهي مكية بلا خلاف، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أُنزلت بمكة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ وهي: خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[١]: أنه بيَّن في السورة السابقة أن المال لا يُغني من الله شيئاً، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة.. أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا، وقال بعضهم: مناسبتها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في السورة السابقة ما أعده من العذاب لمن عاب الناس، واغتابهم، وطعن في أعراضهم، وركن إلى الدنيا، وظن أن المال سيخلده، فظلم نفسه، واستحق عذاب الله، ونزل به وعيده وتهديده، وتحطم في الحاطمة المدمرة جهنم وساءت مصيراً.. بيَّن سبحانه هنا ما فعله بأصحاب الفيل، وهم الظالمون المعتدون الذين ظلموا أنفسهم، وأغاروا على حرم الله وبيته في مكة المكرمة، فجعل الله لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فرجعوا خائبين، وارتدوا منكسرين هالكين بعذاب الله تعالى، ونقمته التي صبها عليهم صباً، وجعل كيدهم في تضليل، ثم جعلهم كعصف مأكول. وسميت سورة الفيل؛ لذكر لفظ الفيل فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الفيل كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الفيل عافاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ» ذكره «البيضاوي» ولكن لا أصل له.

---

(١) المراغي. (٢) الصاوي.

إعجاز هذه السورة: وهذه السورة من آيات الله البينات، ومن أعظم المعجزات القاهرات والدلائل الباهرة التي أظهرها الله تعالى في ذلك الزمان، ليدل على وجوب معرفته عز وجل وجليل قدرته وعظيم جبروته، وفيها إرهاص لنبوة نبينا محمد ﷺ، وقد وُلد في ذلك العام الذي فيه أرخ العرب، وقالوا: ولد في عام الفيل.

وما كان لأحد أن ينكر هذا، فإنه ﷺ لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك عليه ﷺ، بل أقروا به وصدقوه فيما قال، مع شدة حرصهم على تكذيبه واعتنائهم بالرد عليه، وكانوا قريب عهد بأصحاب الفيل، ولو لم يكن لذلك عندهم حقيقة واضحة وأصل بيّن.. لأنكروه وجحدوه، وشنعوا على الرسول به وكذبوه، ولكنهم صمتوا ولاذوا بالفرار أمام عظمة القرآن وصدق من أُنزل عليه القرآن سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وكيف ينبس أحدهم ببنت شفة، وقد أرخوا بعام الفيل، وتناقل خبره الكبير والصغير، كما أرخوا ببناء الكعبة وموت قصي بن كعب وغير ذلك، كما أكثر الشعراء من ذكر عام الفيل، ونظموها في شعرهم، ونقلته الرواة عنهم، من ذلك ما قاله أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة قال:

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَاقِيَاتٌ   مَا يُمَارِيْ فِيْهِنَّ إِلاَّ ٱلْكَفُوْرُ
خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ فَكُلٌّ   مُسْتَبِيْنٌ حِسَابُهُ مَقْدُوْرُ
ثُمَّ يَجْلُوْ ٱلنَّهَارَ رَبٌّ رَحِيْمٌ   بِمَهَاةٍ شُعَاعُهَا مَنْشُوْرُ
حَبسَ ٱلْفِيْلَ بِٱلْمُغَمَّسِ حَتَّىٰ   صَارَ يَحْبُوْ كَأَنَّهُ مَعْقُوْرُ
حَوْلَهُ مِنْ مُلُوْكِ كِنْدَةَ أَبْطَا   لٌ مَلاَوِيْثُ فِيْ ٱلْحُرُوْبِ صُقُوْرُ
كُلُّ دِيْنٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ ٱلـ   ـلَّهِ إِلاَّ دِيْنُ ٱلْحَنِيْفَةِ بُوْرُ

قال عبد الله بن عمرو بن مخزوم:

أَنْتَ ٱلْجَلِيْلُ رَبُّنَا لَمْ تُدْنَسِ   أَنْتَ حَبَسْتَ ٱلْفِيْلَ بِٱلْمُغَمَّسِ
مِنْ بَعْدِ مَا هَمَّ بِشَيْءٍ مُبْلِسِ   حَبَسْتَهُ فِيْ هَيْئَةِ ٱلْمُنَكَّسِ

قال الحافظ بن كثير في «تفسيره»: هذه من النعم التي امتن الله سبحانه بها

على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها، فأبادهم الله تعالى، وأرغم آنافهم، وخيّب سعيهم، وأضل أعمالهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن من باب الإرهاص والتوطئة لنبوة محمد ﷺ ومبعثه، فإنه في ذلك العام وُلد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرِّفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التعجيبي والتقريري؛ لتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها، وتعجيبه بما فعله الله تعالى، والخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له، والرؤية[1] علمية لا بصرية؛ لأنه لم يكن وقت الواقعة موجوداً، وحُذفت ألف ﴿تَرَ﴾ للجازم، والمعنى: أقر بأنك علمت قصة أصحاب الفيل. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ يا محمد و﴿كَيْفَ﴾ معلقة للرؤية منصوبة على المصدرية بالفعل المذكور بعدها، و﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والتقدير[2]: أي فعل فعله ربك، والجملة سدت مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾، ولا يصح نصب ﴿كَيْفَ﴾ على الحال من الفاعل؛ لأنه يلزم وصفه تعالى بالكيفية، وهو غير جائز اهـ «شهاب».

وقرأ السلمي: ﴿ألم ترْ﴾ ـ بسكون الراء ـ وهو جزم بعد جزم، ونُقل عن صاحب «اللوامح»: ﴿ترأْ﴾ بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل، وهي لغة لتيم، ذكره في «البحر».

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾. وهم أبرهة بن الصباح الأشرم الحبشي ملك اليمن وقومه، ومعنى أبرهة بلسان الحبشة: الأبيض الوجه، ولُقِّب بالأشرم؛ لأنه قُطع حاجبه وأنفه وعينه وشفته؛ أي: شُقَّت وخدشت كما سيأتي في القصة، وقيل: لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه، والمراد بالفيل: هو الفيل الأعظم الذي اسمه محمود، وكنيته أبو العباس، كما سيجيء، ونسبوا إليه؛ لأنه مقدمهم، وهو الذي برك وضربوه في رأسه فأبى، وكان معه اثنا عشر فيلاً، وقيل ثمانية عشر، وقيل ألف، وأفرده حينئذ موافقة لرؤوس الآي، أو لكونه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذي يقال

---

(١) الصاوي.

(٢) الشوكاني.

له: محمود، والفيل: حيوان معروف يُجمع على أفيال وفيول وفيلة، قال ابن السكيت: ولا تقول أفيلة، وصاحبه فيَّال، ومن شأن الفيل المقاتلة، ولذلك كان في مربط ملك الصين ألف فيل أبيض، وهو مع عظم جسمه ضعيف يخاف من السنور ويفزع منه، والمعنى: قد علمت[١] يا محمد أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون، وتعليق[٢] الرؤية بكيفية فعله تعالى لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك إلخ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئات عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته، وعزة بيته وشرف رسوله، فإن ذلك من الإرهاصات، والإرهاص أن يتقدم على دعوى النبوة ما يشبه المعجزة تأسيساً لها ومقدمةً، كإظلال الغمام له ﷺ، وتكلم الحجر والمدر معه، قال بعضهم: الإرهاص الترصد؛ سميت الأمور الغريبة التي وقعت للنبي ﷺ إرهاصات؛ لأن كلاً منها مما يترصد بمشاهدته نبوته، فالإرهاص إنما يكون بعد وجود النبي ﷺ وقبل مبعثه، وفي كلام بعضهم: أن الإرهاص يكون قبل وجوده أيضاً قريباً من عهده، كما دل عليه قصة أصحاب الفيل، ورجحوا الأول.

فإن قيل: اتحاد السنة بأن يكون وقوع القصة عام المولد أمر اتفاقي لا يمنع عن كون الواقعة لتعظيم الكعبة، قلنا شرفها أيضاً بشرف مكانه ﷺ، ألا ترى أنه تعالى كيف قيَّد الإقسام بالبلد بحلوله ﷺ فيه، حيث قال ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

قال في «فتح الرحمٰن»: كان هذا عام مولد النبي ﷺ، في نصف المحرم، ووُلد ﷺ في شهر ربيع الأول، فبين الفيل ومولده ﷺ خمس وخمسون ليلة، وهي سنة: ستة آلاف ومئة وثلاث وستين من هبوط آدم عليه السلام على حكم التواريخ اليونانية المعتمدة عند المؤرخين، وبين قصة الفيل والهجرة الشريفة النبوية ثلاث وخمسون سنة والتاريخ الآن سبعة آلاف وست مئة وأربع وعشرون من هبوط آدم عليه السلام على ما أرخه اليونانيون هو الأصح. والمقصود من ذكر القصة إما تسلية النبي ﷺ بأنه سيجزي من يظلمه، كما جزى من قصد الكعبة، وإما تهديد الظلمة،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وتفصيل القصة سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومعنى الآية: أي ألم تعلم[1] يا محمد الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام، فتلك حال قد جاءت على غير ما يُعرف من الأسباب والعلل؛ إذ لم يُعهد أن يجيء طير في جهة، فيقصد قوماً دون قوم، وهم معهم في جهة واحدة، فذلك أمارة على أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين.

وإنما عبر عن العلم بالرؤية؛ للإيماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض، فالعلم به مساو في قوة الثبوت مع الوضوح للعلم الناشىء عن الرؤية والمشاهدة.

وخلاصة ذلك: أنك قد علمت ذلك علماً واضحاً لا لبس فيه ولا خفاء، ثم بيَّن الحال التي وقع عليها فعله، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ ربك يا محمد: ﴿كَيْدَهُمْ﴾ ومكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ وخيبة وخسران فيما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم، والهمزة[2] فيه للاستفهام التقريري، كأنه قال: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم، ويقال: ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ وضل الماء في اللبن، إذا ذهب وغاب، وقيل لامرىء القيس: الضليل؛ لأنه ضلل ملك أبيه؛ أي: ضيّعه، والمعنى[3]: قد جعل مكرهم وحيلتهم في تعطيل الكعبة عن الزوار وتخريبها في تضييعٍ وإبطالٍ بأن أهلكهم أشنع إهلاك، وجزاهم بعد إهلاكهم بمثل ما قصدوا حيث خرَّب كنيستهم.

قال في «إنسان العيون»: لما أُهلك صاحب الفيل وقومه.. عزت قريش وهابتهم الناس كلهم، وقالوا: هم أهل الله؛ لأن الله معهم، ومُزقت الحبشة كل ممزق، وخُرّب ما حول تلك الكنيسة التي بناها أبرهة بصنعاء، فلم يعمرها أحد، وكثرت حولها السباع والحيات ومردة الجن، وكل من أراد أن يأخذ منها شيئاً

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

أصابته الجن، واستمرت كذلك إلى زمان السفاح الذي هو أول خلفاء بني العباس، فذُكر له أمرها، فبعث إليه عامله الذي باليمن فخربها، وأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التي تساوي قناطير من الذهب، فحصل له منها مال عظيم، وعفا من حينئذ رسمها، وانقطع خبرها، واندرست آثارها.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أصحاب الفيل ﴿طَيْرًا﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾؛ لأن الهمزة فيه للاستفهام التقريري كما سبق، فيكون في معنى الإثبات، والتقدير: فجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً ﴿أَبَابِيلَ﴾ صفة أولى لـ﴿طَيْرًا﴾؛ أي: طيراً أقاطيع؛ أي: جماعات يتبع بعضها بعضاً؛ لأنها كانت أفواجاً، فوجًا بعد فوج، متتابعة، بعضها على إثر بعض، أو من هٰهنا وهٰهنا، جمع أَبَّالة مشددة، وحكي تخفيفه، وهي الحزمة الكبيرة من الحطب، شُبِّهت بها الجماعة من الطير في تضامها، وقيل: ﴿أَبَابِيلَ﴾: مفرد، كعباديد، ومعناه: الفِرَق من الناس الذاهبون في كل وجه، وكشماطيط، ومعناه: القطع المتفرقة، وفيه أنها لو كانت مفردات لأشكل قول النحاة أن هذا الوزن من الجمع يُمنع صرفه؛ لأنه لا يوجد في المفردات.

قال النحاس: وحقيقته أنها جماعات عظام، يقال: فلان تَوَبَّل على فلان؛ أي: تعظم عليه وتكبر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له .اهـ، وقال بعضهم: واحدهُ إِبَّوْل، مثل عِجَّول لغة في العجل، وقال بعضهم: أبيل، قال الواحدي: ولم نر أحداً يجعل لها واحداً، قال الفراء: لا واحد له من لفظه، وزعم الرؤاسي، وكان ثقة: أنه سُمع في واحدها: أَبَّالة مشدداً وحكى الفراء أيضاً أبالة بالتخفيف.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها قال قتادة: هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجران في رجليه وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه، وقيل: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع، وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الفيل، وأكف كأكف الكلاب، وأنيابها جاءت من جهة البحر ليست نجدية ولا

---

(١) البحر المحيط.

تهامية ولا حجازية سوداء، وقيل: خضراء على قدر الخطاف، كل طائر منها في منقاره حجر، وفي رجليه حجران، كل حجر فوق حبة العدس، ودون حبة الحمص، مكتوب في كل حجر اسم من يُرمى به، ينزل على رأسه، ويخرج من دبره، ومرض أبرهة فتقطع أنملة أنملة، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت أبو مكسوم وزيره وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي، وأخبره بما جرى للقوم، فرماه الطائر بحجره، فمات بين يدي الملك، ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿تَرْمِيهِم﴾ صفة أخرى لـ﴿طَيْرًا﴾، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَرْمِيهِم﴾ بالتاء، والطير اسم جمع يؤنث، كما في هذه القراءة، ويذكَّر كما في القراءة الآتية، وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة في رواية عنه وابن يعمر: ﴿يرميهم﴾ بالتحتية؛ لأن اسم الجمع يذكر ويؤنث كما مر آنفاً، وقيل الضمير في ﴿يرميهم﴾ على هذه القراءة عائد على ﴿رَبُّكَ﴾ عز وجل. ﴿بِحِجَارَةٍ﴾: جمع[2] حجر بالتحريك بمعنى الصخرة، ويقال: رمى الشيء ورمى به ألقاه، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طين متحجر، وهو الآجر معرب من سَنْك ِ وكِلْ، وقال بعضهم: متحجر من هذين الجنسين، وهما سنج الذي هو الحجر وجيل الذي هو الطين، أو هو عَلَم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجينا علم للديوان الذي تُكتب فيه أعمالهم، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال.

قال في «الصحاح»: قالوا هي حجارة من طين طُبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم، قال عبد الرحمٰن بن أبزى:﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم التي هي سجين، ثم أُبدلت النون لاماً، ومنه قول ابن مقبل:

وَرُفْقَةٍ يَضْرِبُوْنَ ٱلْبِيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبَاً تَوَاصَتْ بِهِ ٱلأَبْطَالُ سِجِّيْلاَ

وإنما هو سجينا، قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري، وكان الحجر كالحمصة، وفوق العدسة، وقد

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

قدمنا الكلام في ﴿سِجِّيلٍ﴾ في سورة هود.

والمعنى: أي إنه تعالى[١] أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، فابتُلي بمرض الجدري، أو الحصبة حتى هلكوا، وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذا الطير، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه، فأثار فيه قروحاً تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، ولا شك أن الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض، فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس، فإذا أراد الله أن يُهلك جيشاً كثير العدد ببعوضة واحدة.. لم يكن ذلك بعيداً عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام النهر الإلٰهي، وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة، وتقض مضجعه بعوضة، ويؤذيه هبوب الريح.

قال الإمام: فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة، وهي نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظاً لبيته حتى يُرسل إليه من يحميه بقوة دينه ﷺ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه اهـ.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ معطوف على ﴿أرسل﴾؛ أي: فجعل ربك أولئك الأقوام الذين قصدوا بيته المشرف، يعني: أصحاب الفيل كعصف؛ أي: كزرع مأكول؛ أي: كزرع وقع فيه الأكال، وهو السوس الدود المعروف الذي يأكل الحبوب حتى يصير دقيقاً، والكلام على حذف مضاف؛ أي: كحب[٢] زرع مأكول حبه، وسُمي ورق الزرع بالعصف؛ لأن شأنه أن يُقطع، فتعصفه الرياح؛ أي: تذهب به إلى هنا وهٰهنا، شبههم به في فنائهم وذهابهم بالكلية، أو من حيث إنه حدثت فيهم بسبب رميهم منافذ وشقوق كالزرع الذي أكله الدود، ويجوز أن

---

(١) روح البيان.

يكون المعنى: كورق زرع أُكل حبه، فبقي صفراً منه، فيكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أيضاً، شبههم بزرع أُكل حبه، في ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم، أو كتبن أكلته الدواب وألقته روثاً فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، وفيه تشويه لحالهم ومبالغة حسنة، وهو أنه لم يكتف بجعلهم أهون شيء في الزرع وهو التبن الذي لا يُجدي طائلاً، حتى جعلهم رجيعاً إلا أنه عبر عن الرجيع بالمأكول، أو أشير إليه بأول حاله على طريق الكناية مراعاةً لحسن الأدب، واستهجاناً لذكر الروث، كما كنى بالأكل في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ عما يلزم الأكل من التبول والتغوط لذلك، فدأب القرآن هو العدول عن الظاهر في مثل هذا المقام.

قال بعضهم: من كان اعتماده على غير الله أهلكه الله بأضعف خلقه، ألا ترى أصحاب الفيل لما اعتمدوا على الفيل من حيث أنه أقوى خلق الله تعالى بأضعف خلق من خلقه، وهو الطير.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَّأْكُولِۭ﴾ بسكون الهمزة وهو الأصل؛ لأنه صيغة مفعول من فعل، وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه بفتح الهمزة إتباعاً لحركة الميم وهو شاذ، وهذا كما أتبعوا في قولهم: محموم بفتح الحاء لحركة الميم.

المعنى الإجمالي لهذه السورة: ذكَّر الله[2] سبحانه نبيه ومَن تبلغه رسالته بعمل عظيم دال على بالغ قدرته، وأن كل قدرة دونها فهي خاضعة لسلطانها، ذاك أن قوماً أرادوا أن يتعززوا بفيلهم ليبلغوا بعض عباده على أمرهم، ويصلوا إليهم بشر وأذى، فأهلكهم الله تعالى ورد كيدهم، وأبطل تدبيرهم بعد أن كانوا في ثقة بعددهم وعددهم، ولم يفدهم ذلك شيئاً.

قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث، فيقولون: وُلد في عام الفيل، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل، ونحو ذلك، وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم كما سيأتي بسطه: أن قائداً

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

حبشياً ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدي على الكعبة المشرفة ويهدمها؛ ليمنع العرب من الحج إليها، فتوجه بجيش جرار إلى مكة، واستصحب معه فيلاً أو فيلة كثيرة زيادةً في الإرهاب والتخويف، ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه، حتى وصل إلى المغمَّس، وهو موضع بالقرب من مكة، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، ففزعوا منه وانطلقوا إلى شعف الجبل ينظرون ما هو فاعل، وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة، قال: عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذُعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الحبشي، ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء.

فصل

وحاصل تفصيل قصة أصحاب الفيل: أن ملك[1] حمير وما حولها وهو ذو نواس اليهودي لما أحرق المؤمنين بنار الأخدود ذات الوقود على ما سبق في سورة البروج.. هرب رجل منهم إلى ملك الحبشة، وهو أصحمة بن بحر النجاشي - بتخفيف الياء - جد النجاشي الذي آمن بالنبي ﷺ وأخبره بذلك، وحرّضه على قتال ذي نواس، فبعث أصحمة سبعين ألفاً من الحبشة إلى اليمن، وأمَّر عليها أرياطاً، ومعه في جنده أبرهة بن الصباح الأشرم، فركبوا البحر حتى نزلوا ساحلاً مما يلي أرض اليمن، وهزم أرياط ذا نواس، وقتله في المعركة، أو ألقى هو نفسه في البحر فهلك، واستمر أمر أرياط في أرض اليمن زماناً، وأقام فيها سنين في سلطانه ذلك، ثم نازعه أبرهة في أمر الحبشة، فكان من أمراء الجند، فتفرقت الحبشة فرقتين فرقة مع أرياط وفرقة مع أبرهة، فكان الأمر على ذلك إلى أن سار أحدهما إلى الآخر، فلما تقارب الفرقتان للقتال.. أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تفعل شيئاً بأن تُغري الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها، فابرز لي وأبرز لك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفت فاخرج، فخرج

---

(١) روح البيان.

إليه أبرهة وكنيته أبو يكسون، وكان رجلاً قصير الجثمان لحيماً ذا دين في النصرانية، وخرج إليه أرياط وكان رجلاً طويلاً عظيماً وفي يده حربة، وخلف أبرهة غلام يقال له: عتودة يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة، فضرب أبرهة يريد يافوخه، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته؛ أي: شقت وقطعت وخدشت، فبذلك سمي أبرهة الأشرم، وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة في اليمن بلا منازع، وكان ما صنع أبرهة من غير علم النجاشي، فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً، فقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري، ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته، فلما بلغ هذا الخبر أبرهة حلق رأسه، وملأ جراباً تراباً من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي مع هدايا جليلة كثيرة، وكتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك، وكل طاعة لك إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط له، وأسْوَس منه، وقد حلقت رأسي حين بلغني حلف الملك، وبعثت إليه بجراب من أرض ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فيَّ، فلما وصل كتاب أبرهة إلى النجاشي لان ورضي عنه، وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري، فأقام أبرهة باليمن، ثم إنه رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله الحرام، فتحرك منه عرق الحسد، فبنى بصنعاء كنيسة من رخام ملون وجواهر مرصع؛ أي: مزين.

وفي «إنسان العيون»: واجتهد في زخرفتها، فجعل فيها الرخام المجذع، والحجارة المنقوشة بالذهب، وكان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس، وسماها القُلَّيْس ـ كجميز ـ لارتفاع بنائها وعلوها، ومنها القلانيس؛ لأنها في أعلى الرأس، وأراد أن يصرف إليها الحجاج، وكتب أبرهة إلى النجاشي: أيها الملك إني بنيت لك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك قبلك، ولست أرضى حتى أصرف إليها حجاج العرب، فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من بني كنانة يقال له: مالك بن كنانة، فخرج لها ليلاً، فدخل إليها فقعد فيها، ولطخ بالعذرة قبتها، فبلغ ذلك أبرهة، فقال: من اجترأ علي؟ فقيل له: صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت قد سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن

إلى الكعبة ثم يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان فيلاً يقال له: محمود، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً وجسماً وقوةً، فبعث به إليه، فخرج أبرهة سائراً إلى مكة وخرج معه بالفيل، فسمعت العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له: ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ ذا نفر، فقال لأبرهة: يا أيها الملك استبقني، فإن بقائي خير لك من قتلي، فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع من قبائل اليمن فهزمهم، وأخذ نفيلاً، فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب، فاستبقاه وخرج معه يدله؛ إذ مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف، فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه أبارغال مولى لهم، وأبو رغال ـ بوزن كتاب ـ وهو رجل من ثمود، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال، وهو الذي يرجم قبره الآن.

وفي «القاموس»: المغمس ـ كمعظم ومحدث ـ موضع بطريق الطائف، فيه قبر أبي رغال، دليل أبرهة، ويُرجم، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة، يقال له: الأسود بن مسعود مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نَعَم الناس، فجمع الأسود إليه أموال أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير، ثم إن أبرهة أرسل حناطة الحميري إلى أهل مكة، وقال له: سل عن شريفها، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أني لم آت لقتال، إنما جئت لإهدام هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب، فقال له: إن الملك أرسلني لأخبرك أنه لم يأت لقتال، ولا أن تقاتلوه، وإنما جاء لهدم هذا البيت، ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، ولا لنا يد أن ندفعه عما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يحل بينه وبين ذلك، فوالله مالنا بدفعه قوة، قال: فانطلق معي إليه، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها، وركب معه بعض بنيه حتى قدم العسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب، فقال: ياذا نفر هل عندك من غناء؟ أي: نفع فيما نزل بنا، قال: أنا رجل أسير، لا آمن أن أُقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل،

فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم حظوتك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أُنيس، فأتاه فقال: إن هذا سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملك له مئتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أُنيس على أبرهة، فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن عليك، وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك، فقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة أن يجلسه معه على سريره، فجلس على بساطه، وأجلس عبد المطلب بجنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال له عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يرد إلي مئتي بعير أصابها، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، قال: لم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه، لم تكلمني فيه وتكلمني في مئتي بعير غصبتها لك، قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه منك، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فرُدَّت عليه، فلما رُدت الإبل على عبد المطلب خرج، فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ويتحرزوا في رؤوس الجبال خوفاً عليهم من معرة الجيش ففعلوا، وأتى عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من رجال قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لَاهُمَّ إِنَّ ٱلْمَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَٱمْنَعْ حِلَالَكْ

فَٱنْصُرْ عَلَىٰ آلِ ٱلصَّلِيْـ ... ـبِ وَعَابِدِيْهِ ٱلْيَوْمَ آلَكْ

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ غَدْوَاً مِحَالَكْ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْـ ... ـبَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

وقال:

يَا رَبِّ لاَ أَرْجُوْ لَهُمْ سِوَاكَا ... يَا رَبِّ فَٱمْنَعْ مِنْهُمُ حِمَاكَا

إِنَّ عَـــدُوَّ ٱلْــبَـيْــتِ مَـنْ عَـادَاكَـا   امْـنَـعْـهُـمُ أَنْ يَـخَـرُبُـوَا حِـمَـاكَـا

ولا هم أصله: اللهم، فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفي بما بقي، والحِلال ـ بكسر الحاء المهملة ـ جمع حلة، وهي البيوت المجتمعة، والمحال ـ بكسر الميم ـ الشدة والقوة، والغَدْوُ ـ بالغين المعجمة ـ أصل الغد، وهو اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه.

فلما فرغ من دعائه توجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمغمَّس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه، وهيأ فيله، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة، ويقال: كانت الأفيال اثني عشر فيلاً، فأقبل أنيس إلى الفيل الأعظم، ثم أخذ بأذنه وقال له: ابرك محموداً وارجع رشيداً، فإنك ببلد الله الحرام، فبرك، فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه، فأدخل محاجنه تحت مراقه ومرافقه، ففزعوه ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى قدامه ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى، وخرج أنيس يشتد حتى صعد الجبل، وأرسل الله سبحانه طيراً من البحر مثل الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجران في رجليه وحجر في منقاره، أكبر من العدسة وأقل من الحمصة، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاءوا منه، وصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وبعث الله على أبرهة داء في جسده فجعل تتساقط أنامله، كلما سقطت أنملة أتبعها المدة من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء، وهو مثل فرخ الطير، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، ثم هلك وانفلت وزيره أبو يكسوم، وطائره فوق رأسه حتى وقف بين يدي النجاشي، فلما أخبره الخبر سقط عليه الحجر، فمات بين يديه، وأما محمود فيل النجاشي فربض، ولم يشجع على الحرم، فنجا لما وقع منه من الفعل الجميل الذي لم يقع مثله من العقلاء، ولذا قال البوصيري في همزيته:

كَـمْ رَأَيْـنَـا مَـا لَـيْـسَ يَـعْـقِـلُ أُلْـهِـ   ـمَ مَـا لَـيْـسَ يُـلْـهَـمُ ٱلْـعُـقَـلَاءُ

إِذْ أَبَى ٱلْـفِـيْـلُ مَـا أَتَىٰ صَاحِبُ ٱلْفِيْـ   ـلِ وَلَـمْ يَـنْـفَـعِ ٱلْـحِـجَـا وَٱلـذَّكَـاءُ

وأما الفيلة الأخرى فشجعت على دخول الحرم، فرُميت بالحصباء فهلكت.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، و﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على المصدرية والعامل فيه ما بعده، لأنه في تقدير أيَّ فعلٍ فَعَل ربك، ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سدت مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾ معلقة عنها، بالاستفهام لأن الرؤية هنا قلبية ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿فَعَلَ﴾. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَجْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبُّكَ﴾ ﴿كَيْدَهُمْ﴾: مفعول به أول. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: في موضع المفعول الثاني، والجملة مستأنفة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَرْسَلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾: لأن الاستفهام فيه تقريري، فيكون المعنى: قد جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم إلخ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أرسل﴾. ﴿طَيْرًا﴾: مفعول به. ﴿أَبَابِيلَ﴾: صفة أولى لـ﴿طَيْرًا﴾؛ لأنه اسم جمع مجرور بالفتحة، لأنه اسم لا ينصرف؛ لكونه على صيغة منتهى الجموع. ﴿تَرْمِيهِم﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿طَيْرًا﴾ ومفعول به. ﴿بِحِجَارَةٍ﴾: متعلق بـ﴿تَرْمِيهِم﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿طَيْرًا﴾. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: صفة لـ﴿حجارة﴾. ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جعلهم﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول معطوف على ﴿أرسل﴾. ﴿كَعَصْفٍ﴾: في موضع المفعول الثاني. ﴿مَّأْكُولٍ﴾: صفة لـ﴿عصف﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وأصل ﴿تَرَ﴾: تَرْأَي بوزن تفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصارت ألفاً لفظاً، وياءً خطاً، ونقلوا فتحة الهمزة إلى الراء وأسقطوها تخفيفاً؛ لأن

الماضي من ترى رأيت مهموزاً، والمصدر من ذلك الرؤية، تقول: رأيت زيداً بعيني أراه رؤية، فأنا راءٍ ـ بوزن فاعٍ ـ أصله: رائي بوزن فاعل، فاستثقلوا الضمة على الياء المتطرفة، فحذفوها، فالتقى ساكنان الياء والتنوين، فأسقطوا الياء لالتقاء الساكنين، فصار راء بوزن فاع كقاض وراع وباغ، فالهمزة في راء بإزاء الضاد في قاض، فإن شئت أثبته خطاً، فجعلت بعد الألف ياء عوضاً عن الهمزة، وإن شئت كتبته بألفٍ، ولم تثبت الهمزة؛ لأن الهمزة، إذا جاءت بعد الألف تخفى وقفاً، فحذفوها خطاً، وكذلك جاء وشاء وساء ومراء جمع مراءة، كل ذلك أنت مخير فيه في الحذف والإثبات، فإذا أمرت من رأيت قلت: رِ يازيد براء واحدة، فإذا وقفت قلت: ره، وإنما صار الأمر فيه على حرف واحد، والأصل ثلاثة؛ لأن الهمزة سقطت تخفيفاً، والألف سقطت للجزم، فبقي الأمر على حرف واحد، ومثله قوله: عِ كلامي، شِ ثوبك، قِ زيداً، لِ الأمر، فِ الوعدَ، أمراً من وعى ووشى ووقى وولي ووفى، كما هو مبسوط في كتب النحو والصرف.

﴿ٱلْفِيلِ﴾ حيوان من أضخم الحيوانات جسماً، له خرطوم طويل يرفع به العلف والماء إلى فمه ويضرب به، وهو مع عظم جسمه ضعيف يخاف من السنور ويفزع منه، ومعنى بروك الفيل في القصة السابقة: سقوطه على الأرض لما جاءه من أمر الله، أو لزوم موضعه كالذي برك، وإلا فالفيل لا يبرك، كما قال عبد اللطيف البغدادي: الفيلة تحمل سبع سنين، وإذا تم حملها وأرادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها؛ لأنها تلد وهي قائمة ولا فواصل لقوائمها، فتلد والذكر عند ذلك يحرسها وولدها من الحيتان. انتهى.

وقال بعضهم: الفيل صنفان صنف لا يبرك وصنف يبرك كالجمل، انتهى، ويُجمع على أفيال وفِيْلة وفيول، ومؤنثه فِيْلة، والفيل أيضاً الخسيس الثقيل، وداء الفيل مرض يحدث منه غلظ كثيف في القدم والساق، تتخلله عجر صغيرة ناتئة، والفيَّال صاحب الفيل، والجمع فيالة، وفال الرأي وفائله وفيله ضعيفه، والفيالة ضعيف الرأي.

﴿كَيْدَهُمْ﴾ والكيد: إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ والتضليل: التضييع والإبطال، تقول: ضلَّلت كيد فلان إذا جعلته

باطلاً ضائعاً، والمعنى: جعل كيدهم في ضياع وخسار وهلاك، وقيل لامرىء القيس الملك الضليل؛ لأنه ضلل ملك أبيه؛ أي: ضيَّعه، كما مر.

﴿طَيْرًا﴾ والطير: كل ما طار في الهواء صغيراً كان أو كبيراً، وهو اسم جنس يذكر ويؤنث.

﴿أَبَابِيلَ﴾ قال ابن خالويه: وأبابيل نعت للطير؛ أي: جماعات جماعات، جمع إبَّوْلٍ مثل عجَّول وعجاجيل، والعِجَّول ـ بوزن سكِّيت ـ لغة في العجل ولد البقرة، وقال أبو جعفر الرؤاسي: واحدتها أبيل، وقال آخرون: أبابيل لا واحد لها، ومثلها أساطير، والإبِّيل في غير هذا الموضع الراهب، والوبيل العصا، يقال: رأيت إبِّيلاً؛ أي: راهباً متكئاً على وبيل يسوق أفيلاً، والأفيل ولد الناقة، قال عدي:

أَبْلِغِ ٱلنُّعْمَانَ عَنِّيْ مَأْلَكاً ... قَوْلَ مَنْ خَافَ آظّناناً وَٱعْتَذَرْ
إِنَّنِيْ وَٱللَّهِ فَٱقْبَلْ حَلِفِيْ ... بِإِبِيْلٍ كُلَّمَا صَلَّىٰ جَأَرْ

﴿بِحِجَارَةٍ﴾: جمع حجر بالتحريك بمعنى الصخرة.

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل: طين مطبوخ محرق كالآجر، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال كما مر؛ لأن العذاب موصوف بذلك.

﴿كَعَصْفٍ﴾ والعصف: ورق الزرع الذي يبقى بعد الحصاد، وتعصفه الرياح فتأكله الماشية.

﴿مَّأْكُولٍ﴾؛ أي: أكلت الدواب بعضه، وتناثر الآخر من بين أسنانها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري التعجيبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ لتشريف المضاف إليه النبي ﷺ، وفيه التعبير بعنوان الربوبية، إشارة بشأن قدرة الله سبحانه وتعالى.

ومنها: تعليق الرؤية بكيفية فعله تعالى لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك إلخ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئات عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وعزة بيته، وشرف رسوله ﷺ، فإن ذلك من الإرهاصات، كما مر.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾؛ لأن فيه ذكر الأداة، وحذف وجه الشبه حيث شبههم في فنائهم وذهابهم بالكلية بورق الزرع المأكول؛ لأن شأنه أن يقطع فتعصفه الرياح؛ أي: تذهب به إلى هٰهنا وهٰهنا، أو شبههم بزرع أُكِل حَبُّه في ذهاب أرواحهم، وبقاء أجسادهم، فالكلام على حذف مضاف؛ أي: كعصف مأكول الحب، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير الفيل بتوفيقه وتيسيره تعالى عصر يوم الخميس اليوم الثالث عشر من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ومن شهور سنة: ٧٦٣٣ سبعة آلاف وست مئة وثلاث وثلاثين من هبوط آدم عليه السلام من الجنة. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة قريش

سورة قريش مكية عند الجمهور، وقال الضحاك والكلبي هي مدنية نزلت بعد سورة التين، ويقال لها: سورة لإيلاف قريش.

وهي أربع آيات، وسبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها(١): أن كلاً من السورتين تضمن ذكر نعمة من نعم الله تعالى على أهل مكة، فالأولى تضمنت إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم بيتهم، وهو أساس مجدهم وعزهم، والثانية ذكرت نعمة أخرى، وهي اجتماع أمرهم والتئام شملهم؛ ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاءً في تجارتهم، وجلب المبرة لهم، ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبي بن كعب يعتبرهما سورة واحدة، حتى روي عنه أنه لم يفصل بينهما ببسملة، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هاتين إنما هما سورة واحدة فصل بينهما بالبسملة، وقالوا: إن هذه السورة متعلقة بالتي قبلها، وأن ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾؛ أي: إنه أرسل الجماعة من الطير على أصحاب الفيل ترميهم بالحجارة حتى أصيبوا وهلكوا ودمروا، وقد فعل ذلك كله فيهم لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف.

ومن قال: إنهما سورة واحدة قال: إن الفصل بالبسملة إنما هو لإظهار العناية بما احتوت عليه كل سورة من السورتين، حتى إن كل جملة مما حوتا يصح أن تقصد لذاتها، وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية؛ لأن الخطاب والتذكير كان لهم، وهم قوم النبي ﷺ والسامعون لدعوته والحاملون لرسالته المبشرون بها، فحق لهم أن يفصل ما يختص بهم عما قبله بفاصل يلتفت الذهن إليه وإن كان مرتبطاً به، والأصح أنهما سورتان منفصلتان.

قال ابن جرير: الصواب أن ﴿اللام﴾ لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا

---

(١) المراغي.

لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

ونقل الإمام الطبري في «تفسيره» قال: قال عمرو بن ميمون الأزدي: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وقرأ في الركعة الأولى سورة والتين والزيتون، وفي الثانية ألم تر كيف ولإيلاف قريش، وسميت سورة قريش، لذكر لفظ قريش فيها، وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة قريش كلها محكم لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

فضائلها: ومما يدل على فضلها: ما أخرجه[1] البخاري في «تاريخه» والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «فضَّل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: أني فيهم، ـ وفي لفظٍ: النبوةُ فيهم ـ، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سنين ـ وفي لفظ عشر سنين ـ لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يُذكر فيها أحد غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾» وفيه إشارة إلى أنهم سبب نزولها، قال ابن كثير هو حديث غريب، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، وهي: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾»، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية، وأخرج الخطيب في «تاريخه» عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الشوكاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ متعلقة[1] بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ وهو قول الزجاج، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم رحلتين، ودخلت ﴿الفاء﴾؛ لما في الكلام من معنى الشرط؛ إذ المعنى: إن نعم الله عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة التي هي إيلافهم الرحلتين، فإنها أظهر نعمة عليهم؛ أي: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف؛ أي: ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة، فالإيلاف مصدر مضاف إلى مفعوله الأول مطلقاً عن المفعول الثاني الذي هو الرحلة كما قيد به في الإيلاف الثاني، والمعنى[2]: لتأليف الله لهم؛ أي: لتحبيبه لهم الرحلتين؛ أي: لجعلهم آلفين ومحبين لهما مسترزقين بهما؛ لتيسيرهما عليهم فليعبدوه شكراً له.

وقيل[3]: متعلقة بآخر السورة التي قبلها، كأنها قال سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل؛ لأجل إيلاف قريش هاتين الرحلتين ولزومهم إياهما؛ أي: أهلكت من قصدهم من الحبشة؛ لأجل أن يألفوا هاتين الرحلتين ويجمعوا بينهما، ويلزموا إياهما ويثبتوا عليهما متصلاً لا منقطعاً، بحيث إذ فرغوا من هذه أخذوا في هذه وبالعكس، وذلك لأن الناس إذا تسامعوا بذلك الإهلاك تهيبوا لهم زيادة تهيب واحترموهم فضل احترام، فلا يجترىء عليهم أحد فينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، وكان لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز، فلا يتعرض لهم، والناس حولهم بين متخطف ومنهوب، وذلك أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع، وضربوا على أنفسهم خباء

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

حتى يموتوا، وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه، فقام خطيباً في قريش، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، قالوا: نحن تبع لك، فليس عليك منا خلاف، فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام؛ لأن بلاد اليمن حامية حارة، وبلاد الشام مرتفعة باردة؛ ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات، فما ربح الغني قسم بينه وبين فقرائهم حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وكان هاشم أول من حمل السمراء من الشام، وقيل تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، وذلك لأنهم كانوا يزدادون كل يوم غياً وانغماساً في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه، وتكون ﴿اللام﴾ للتعجب، أو بمعنى إلى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ بالياء مهموزاً مصدر آلف الرباعي، ومنه قول الشاعر:

اَلْمُنْعِمِيْنَ إِذَا ٱلنُّجُوْمُ تَغَيَّرَتْ ... وَٱلظَّاعِنِيْنَ لِرِحْلَةِ ٱلإِيْلاَفِ

وقرأ ابن عامر: ﴿لإلاف﴾ بدون ياء - على وزن فعال - كتاب - مصدر ألف الثلاثي، يقال: ألف الرجل الأمر إلفاً وإلافاً، وقرأ أبو جعفر ﴿لإلْف﴾ بوزن حِمْل، وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلاَفُ

جمع بين مصدري ألف الثلاثي، ولم يختلف القراء السبعة في قراءة ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ مصدراً للرباعي، وقرأ عكرمة: ﴿لَيألف قريش﴾ بفتح اللام على أنها لام الأمر، وكذلك في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة معروفة كما سيأتي.

ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين[2]: أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول في اتفاق المصاحف على إثباتها خطاً، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطاً، فهو أدل دليل على أن القراء

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

متبعون الأثر والرواية، لا مجرد الخط.

وقرأ عاصم في رواية: ﴿إئلافهم﴾ بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة وهي شاذة؛ لأنه يجب في مثله إبدال الثانية حرفاً مجانساً كإيمان، وروي عنه أيضاً بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة، وخُرِّجت على أنه أشبع كسرة الهمزة الثانية، فتولد منها ياء، وهذه أشذ من الأولى، ونقل أبو البقاء أشذ منها، فقال بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهو بعيد، ووجهها: أنه أشبع الكسرة، فنشأت الياء، وقصد بذلك الفصل بين الهمزتين، كالألف في ﴿أأنذرتهم﴾، وعن أبي جعفر وابن كثير: ﴿إلفهم﴾، وعن أبي جعفر أيضاً، وعن ابن عامر: ﴿إلافهم﴾ مثل كتابهم، وعن ابن عامر أيضاً: ﴿ليلاف﴾ بياء ساكنة بعد اللام، وقرأ عكرمة: ﴿ليألف قريش﴾ فعلاً مضارعاً، وعنه أيضاً ﴿ليألف﴾ على الأمر واللام مكسورة، وعنه فتحها مع الأمر، وهي لغة كما مر اهـ «سمين».

و﴿قُرَيْشٍ﴾ مصغراً، هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولده النضر فهو قريش دون من لم يلده النضر، وإن ولده كنانة وهو الصحيح، وقيل: هم، ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فمن لم يلده فهر فليس بقريش، وإن ولده النضر، فوقع الاتفاق على أن بني فهر قرشيون، وعلى أن بني كنانة الذين لم يلدهم النضر ليسوا بقرشيين، ووقع الخلاف في بني النضر وبني مالك، وفهر هو الجد الحادي عشر من أجداده ﷺ، والنضر هو الثالث عشر، ويسمى فهر قريشاً أيضاً، وذلك لأنه ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، واسمه قريش بن مالك بن النضر بن كنانة إلى آخر النسب الشريف اهـ من «المواهب».

واختُلف في اشتقاقهم على أوجه[1]:

أحدها: أنه من التقريش، وهو التجمع، سموا بذلك لاجتماعهم إلى الحرم بعد افتراقهم، قال الشاعر:

أَبُـونَـا قُـرَيْـشٌ كَـانَ يُـدْعَـىٰ مُـجَـمِّـعَـاً بِـهِ جَـمَّـعَ ٱللهُ ٱلْـقَـبَـائِـلَ مِـنْ فِـهْـرِ

(١) الفتوحات.

والثاني: أنه من القرش وهو الكسب، وكانت قريش تجاراً، يقال: قرش يقرش؛ أي: اكتسب.

والثالث: أنه من التقريش بمعنى التفتيش، يقال: قرش، يقرش عني؛ أي: فتش، وكانت قريش يفتشون على ذوي الخلات من الحجاج وغيرهم ليسدوا خلتهم، قال الشاعر:

أَيُّهَا ٱلشَّامِتُ ٱلْمُقَرِّشُ عَنَّا ... عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ

وقيل: سموا بتصغير القرش، وهو دابة عظيمة في البحر، تعبث بالسفن وتقلبها وتضربها فتكسرها، ولا تطاق إلا بالنار، فشبهوا بها؛ لأنها تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تُعلى، والتصغير للتعظيم، فكأنه قيل: قريش عظيم، فيكون وجه الشبه وصف الآكلية وعدم المأكولية، ووصف الغلبة وعدم المغلوبية.

قال الزمخشري: سمعت[1] بعض التجار بمكة ونحن قعود عند باب بني شيبه يصف لي القرش، فقال: مدور الخلقة كما بين مقامنا هذا إلى الكعبة، ومن شأنه أن يتعرض للسفن الكبار، فلا يرده شيء إلا أن يأخذ أهلها المشاعل، فيمر على وجهه كالبرق، وكل شيء عنده قليل إلا النار، وبه سميت قريش، قال الشاعر:

وَقُرَيْشٌ هِيَ ٱلَّتِيْ تَسْكُنُ ٱلْبَحْـ ... ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

تَأْكُلُ ٱلْغَثَّ وَٱلسَّمِيْنَ وَلاَ تَتْـ ... ـرُكُ فِيْهِ لِذِيْ جَنَاحَيْنِ رِيْشَا

هَكَذَا فِيْ ٱلْبِلاَدِ حَيُّ قُرَيْشٍ ... يَأْكُلُوْنَ ٱلْبِلاَدَ أَكْلاً كَمِيْشَا

وَلَهُمْ آخِرَ ٱلزَّمَانِ نَبِيٌّ ... يُكْثِرُ ٱلْقَتْلَ فِيْهِمُ وَٱلْخُمُوْشَا

الخموش: الخدوش، وأكلاً كميشاً؛ أي: سريعاً، وأجمعوا[2] على صرفه هنا مراداً به الحي، ولو أريد به القبيلة؛ لامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، قال سيبويه في معد وثقيف وقريش وكنانة: هذه للأحياء أكثر، وإن جعلتها أسماء للقبائل فهو جائز حسن اهـ «سمين».

وقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ بدل من ﴿إيلاف قريش﴾ وقيل: إنه تأكيد له، والأول

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

أولى، ورجحه أبو البقاء، وقوله: ﴿رِحْلَةَ﴾ مفعول[1] به لـ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾، وقيل: منصوب بمصدر مقدر؛ أي: ارتحالهم رحلة، وهي بكسر الراء الارتحال، وبالضم الجهة التي يُرحَل إليها، وأصل الرحلة السير على الراحلة، وهي: الناقة القوية، ثم استعمل في كل سير وارتحال، وإفرادها مع أنه أراد رحلتي الشتاء والصيف؛ لأمن الإلباس مع تناول اسم الجنس للواحد والكثير، وفي إطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً، ثم إبدال المقيد منه تفخيم لأمره، وتذكير لعظيم النعمة فيه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رِحْلَةَ﴾ - بكسر الراء - وأبو السمال بضمها، فبالكسر مصدر، وبالضم الجهة التي يرحل إليها كما مر آنفاً، والجمهور على أنها رحلتان، فقيل: إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَرَيْنِ بَيْنَهُمَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ ... سَفَرُ ٱلشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ ٱلأَصْيَافِ

وقوله: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ أي: انتقالهم إلى اليمن والشام، والشتاء والصيف فصلان من فصول السنة الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

رَبِيْعُ صَيْفٍ مِنَ ٱلأَزْمَانِ ... خَرِيْفُ شِتَاءٍ فَخُذْ بَيَانِيْ

والمراد بالصيف هنا زمن الحرارة، فيشمل الربيع، وبالشتاء زمن البرودة، فيشمل الخريف.

والحاصل: أنه كان[3] لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأنه أدفأ، وفي الصيف إلى الشام؛ لأنه أبرد، فكانت أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأهل بلدهم ما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وإنما كانوا يربحون في أسفارهم؛ لأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة، حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة.. لزال عنهم هذا العز، ولبطلت تلك المزايا من التعظيم والاحترام، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يُتخطفون من كل جانب، ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم، فلما أهلك الله أصحاب الفيل.. ازداد شرف أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراح.

لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ ولولا هاتان الرحلتان لم يكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف، هذا وتعلق أول هذه السورة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، أو من قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ ليس بحجة على أنهما سورة واحدة؛ لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، بل كالآية الواحدة في أنه يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه معنى بعض، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ متعلق بما قبله من ذكر القرآن، وأما قراءة سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة؛ لأن الإمام له أن يقرأ سورتين في ركعة واحدة.

وقيل: إن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة، فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة؛ لأنه كان أحدهما شتاءً والآخر صيفاً، وموسم منافع مكة يكون بهما، ولو كان تم لأصحاب الفيل ما أرادوا لعُطِّلت هذه المنفعة.

قيل: وأول من سن[1] لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم، واتبع هاشماً على ذلك إخوته، فكان هاشم يؤالف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجاه هؤلاء الإخوة؛ أي: بعهودهم التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي اهـ «خطيب».

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، كما في «السمين» تقديره: إن لم يعبدوه لسائر نعمه عليهم فليعبدوا ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ العتيق؛ لإيلافهم هاتين الرحلتين؛ أي: لتأليف الله وتمكينه لهم من هاتين الرحلتين؛ أي: لتحبيبه لهم الرحلتين؛ أي: لجعله إياهم آلفين ومحبين لهما مسترزقين بهما لتيسيرهما عليهم، وقيل: ﴿الفاء﴾ زائدة، ولذلك جاز تقديم معمول ما بعدها عليها، قاله الشهاب، والأول أصح.

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾ بسبب تين الرحلتين اللَّتين تمكنوا منهما بواسطة كونهم من جيران هذا البيت وسكان حرمه، وقيل: بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا﴾ ﴿مِّن جُوعٖ﴾؛ أي: من بعد جوع شديد كانوا فيه قبلهما بحمل المِيرة إليهم من البلاد النائية في البر والبحر بسبب كونهم جيران البيت، وكان الجوع يصيبهم لعدم زرع بمكة إلى أن جمعهم عمرو العلي وهو هاشم المذكور على الرحلتين، قال أبو حيان: ﴿مِّن﴾ هٰهنا للتعليل مع تقدير مضاف؛ أي: أنعم عليهم وأطعمهم لأجل إزالة الجوع عنهم الحاصلة بالرحلتين؛ أي: بالتجارة فيهما وبإزالة الخوف عنهم، وقال سعدي المفتي: الجوع لا يجامع مع الإطعام، والظاهر أنها للبدلية، يقول الفقير: الظاهر أن مآل المعنى: نجاتهم من الجوع بسبب الإطعام والترزيق.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ عظيم لا يقادر قدره، وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقال صاحب «الكشاف»: الفرق بين عن ومن أن عن يقتضي حصول جوع قد زال بالإطعام، ومن يقتضي المنع من لحاق الجوع، ولذلك اختارها هنا.

والمعنى[1]: أطعمهم فلم يلحقهم جوع، وآمنهم فلم يلحقهم خوف، فتكون ﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية.

والخلاصة: أطعمهم في بدء جوعهم قبل لحاقه إياهم وآمنهم في بدء خوفهم قبل اللحاق، وقيل في معنى الآية: إنهم لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها سنيناً كسني يوسف، فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجهد والجوع، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا، فإنا مؤمنون، فدعا رسول الله ﷺ وأخصبت البلاد، وأخصب أهل مكة بدل القحط والجهد، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ لمكان الحرم، وكونهم من أهل مكة، حتى لا يتعرض لهم أحد، قال ابن زيد: كان العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فآمن قريشاً لمكان الحرم، وقيل: آمنهم من خوف الجذام، فلا ترى بمكة مجذوماً،

---

(١) روح البيان.

قاله ابن عباس والضحاك: والتنكير في ﴿جُوعٍ﴾[1] و﴿خَوْفٍ﴾؛ لشدتهما يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوف عظيم، خوف أصحاب الفيل وخوف التخطف، كما مر آنفاً.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾ بإظهار النون عند الخاء، والمسيبي عن نافع بإخفائهما، وكذلك مع العين نحو من علي، وهي لغة حكاها سيبويه.

وخلاصة معنى قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾؛ أي: فلتعبد[2] قريش ربها شكراً له أن جعلهم قوماً تَجْراً ذوي أسفار في بلاد غير ذات زرع ولا ضرع، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التي تأتي من بلاد الهند والخليج الفارسي إلى تلك البلاد، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام؛ لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها.

وقد كان العرب يحترمونهم في أسفارهم؛ لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة، فيذهبون آمنين ويعودون سالمين لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التي لا تنقطع، فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التي تحتمي بها قريش في الأسفار، فلهذا ألفتها نفوسهم وتعلقت بالرحيل استدراراً للرزق، وهذا الإجلال الذي ملك قلوب العرب ونفوسهم من البيت الحرام إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه، وقد حفظ حرمته، وزادها في نفوس العرب، رد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً بل قبل أن يدنوا منه، ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب، ونقصت حرمته عندهم، واستطالت الأيدي على سفارهم.. لنفروا من تلك الرحلات، فقلَّت وسائل الكسب بينهم؛ لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم، وهم في عقر ديارهم ليأخذوا منها، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق، وينقطع عنهم ينابيع الخيرات.

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ الذي حماها من الحبشة وغيرهم، ومكن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

منزلته في النفوس، وكان من الحق أن يفردوه بالتعظيم والإجلال والعبادة دون الأصنام والأحجار التي يدعونها، ثم وصف رب هذا البيت بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾؛ أي: إنه هو الذي أوسع لهم الرزق، ومهد لهم سبله، ولولاه لكانوا في جوع وضنك عيش. ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾؛ أي: وآمن طريقهم، وأورثهم القبول عند الناس، ومنع عنهم التعدي والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان، فعاشوا في ضنك وجهد شديد.

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت، فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره وتوسيط سواه عنده، مع أنه لا فضل لأحد ممن يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها، نعمة الأمن ونعمة الرزق وكفاية الحاجة، وقال ابن الأسلت يخاطب قريشاً:

فقوموا فصَلُّوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمُ منه بلاء ومصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبتُه بالسهل تمشي ورحلة ... على العادقات في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش رَدَّهم ... جنود مليء بين ساق وحاجب
فوَلَّوا سراعاً هاربين ولم يَؤُبْ ... إلى أهله مجليش غير عصائب

الإعراب

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾: بدل من ﴿إيلاف﴾ الأول بدل مقيد من مطلق، وهو مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾: مفعوله؛ ﴿وَٱلصَّيْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾، أو مضاف إلى مفعوله الأول؛ أي: إيلافنا إياهم رحلة الشتاء والصيف، وتمكيننا إياهم من رحلتين. ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف تقديره: إن لم يعبدوا الله لسائر نعمه السابغة المترادفة عليهم، فليعبدوه لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، وهي نعمة سابغة أتاحت لهم الإتجار، وضمنت لهم ميسور الرزق،

و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يعبدوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿رَبَّ﴾: مفعول به وهو مضاف، ﴿هَٰذَا﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْبَيْتِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة استئنافاً نحوياً، وقيل: الجار والمجرور في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ متعلق بـ﴿جعلهم﴾ في قوله في السورة السابقة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾؛ لأن السورتين بمنزلة سورة واحدة، وإلى هذا ذهب الأخفش، وعلى هذا القول فـ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفوا أن الله تعالى جعل أصحاب الفيل كعصف مأكول، وأرادوا بيان ما هو اللازم لهم في شكر هذه النعمة، فأقول لهم: ليعبدوا رب هذا البيت، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وقيل: متعلق بمحذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، و﴿الفاء﴾ في ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ فاء الفصيحة أيضاً. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿رب﴾، أو بدل منه. ﴿أَطْعَمَهُم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّن جُوعٍ﴾: متعلق بـ﴿أطعم﴾. ﴿وَءَامَنَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أَطْعَمَهُم﴾. ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾: متعلق بـ﴿آمن﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ والإيلاف إما مصدر آلف الرباعي بوزن أكرم، تقول: آلف يؤلف إيلافاً، فهو مُؤْلِف، مثل آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، وعلى هذا يكون أصله: إئلافاً بوزن إفعال كإكرام؛ لأن آلف أصله: أألف، ومصدره: إئلاف بوزن إفعال، فأُبدلت الهمزة الساكنة في المصدر ياء؛ لكسر ما قبلها، فصار: إيلافاً، وهذا على قراءة من قرأ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ بالياء، وأما على قراءة من قرأ ﴿إِلْفهم﴾، أو ﴿إلافِهِم﴾ بلا ياء، فهو مصدر لأَلِفَ الثلاثي، يقال: ألف يألف إلفاً، كعلم يعلم علماً، فهو عالم، والأمر من الممدود آلف يا زيد، ومن المقصور: إيلف يا زيد، تقول: ألفت الشيء إلفاً وإلافاً من الثلاثي، وآلفته إيلافاً من الرباعي إذا لزمته وعكفت عليه من الأنس به وعدم النفور منه، والإيلاف إيجاب الإلْف بحسن التدبير والتلطف، فالإيلاف نقيض الإيحاش ونظير الإيلاف: الإيناس.

و ﴿قُرَيْشٍ﴾: اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة كما مر، وفي «القاموس»: قرشه يقرُشه ويقرِشه قطعه، وجمعه هٰهنا وهٰهنا، وضم بعضه إلى بعض، ومنه قريش؛ لتجمعهم إلى الحرم، أو لأنهم يتقرشون البيعات فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً، فقالوا: تقرش، أو لأنه جاء إلى قومه، فقالوا: كأنه جمل قريش؛ أي: شديد، والنسبة إليه: قرشي وقريشي. انتهى.

﴿رِحْلَةَ﴾ والرِحلة ـ بالكسر ـ ارتحال القوم؛ أي: شدهم الرحال للمسير، وبالضم الجهة التي يُرتَحَل إليها، وأصل الرحلة السير على الراحلة؛ وهي الناقة القوية، ثم استُعمل في كل سير وارتحال، وإفرادها مع أنه أراد رحلتي الشتاء والصيف؛ لأمن الإلباس مع تناول اسم الجنس للواحد والكثير، كما مر.

﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ والشتاء الفصل المقابل للصيف، وفي «القاموس»: الشتاء: أحد أرباع الأزمنة والموضع المشتي، وفيه إعلال الإبدال أصله: الشتاو من شتا يشتو، أبدلت الواو همزة لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة.

﴿وَٱلصَّيْفِ﴾ والصيف: القيظ، أو بعد الربيع، والقيظ صميم الصيف من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل.

﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم﴾؛ أي: وسَّع لهم الرزق، ومهد لهم سبيله.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ أي: جعلهم في أمن من التعدي عليهم، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ على عامله في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③﴾ تذكيراً للنعمة واعتناء ببيانها.

ومنها: تصغير لفظ ﴿قُرَيْشٍ﴾؛ للتعظيم، فكأنه قيل: قريش عظيم على ما قيل، والأوجه أن التصغير على حقيقته ومعناه، كما مر.

ومنها: إطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ ثم

إبدال المقيد منه في قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾ تفخيماً لأمره، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ و﴿الصيف﴾ في قوله: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ وبين الجوع والإطعام في قولهم: ﴿أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ وبين الأمن والخوف في قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه وتكريمه في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾.

ومنها: التنكير في لفظة ﴿جُوعٖ﴾ ولفظة ﴿خَوۡفِۭ﴾؛ لبيان شدتهما وعظمهما؛ أي: جوع شديد وخوف عظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال الإمام الرازي في «تفسيره»: اعلم أن الإنعام على قسمين:

أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل.

والثاني: جلب النفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله سبحانه عنهم الضر وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان.. أمرهم بالعبودية في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾... الآيات، أداء لشكر هذه النعمة العظيمة[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الإيلاف بتوفيقه سبحانه وقت العشاء من الليلة السابعة من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ. ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين.

سورة الماعون

سورة الماعون، ويقال لها سورة الدين، وسورة اليتيم، وهي نزلت بعد سورة التكاثر في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس، ومدنية في قول قتادة وآخرين.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: أريت الذي يكذب بالدين بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقيل: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، والنصف الثاني بالمدينة في عبد الله ابن أبي ابن سلول المنافق.

وآياتها: سبع، وكلماتها: خمس وعشرون، وحروفها: مئة وخمسة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: من ثلاث أوجه:

١ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، وذم في هذه من لم يحض على إطعام المسكين.

٢ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾، وهنا ذم من سها عن صلاته.

٣ ـ أنه هناك عدد نعمه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الماعون كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الماعون؛ لذكر الماعون فيها.

فضلها: وروي في فضلها: أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً»، وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

أسباب النزول

قيل نزلت[١] هذه السورة في أبي جهل، أو الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، أو عمر بن عائذ، أو رجل من المنافقين، أو أبي سفيان بن حرب كان ينحر في كل أسبوع جزورين، فأتاه يتيم، فسأله شيئاً، فقرعه بعصاه، أقوال آخرها لابن جريج، وأخرج ابن المنذر[٢] عن طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾...﴾ الآية، قال نزلت في المنافقين: كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنحونهم العاريَّة.

التفسير وأوجه القراءة

والخطاب في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين، والرؤية بمعنى المعرفة تتعدى لمفعول واحد، وهو: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ والدين: الجزاء والحساب في الآخرة، وقيل: بالقرآن، وقال ابن عباس: ﴿بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بحكم الله.

وفي الكلام حذف، والتقدير: هل عرفت يا محمد الذي يكذب بالبعث والجزاء في الآخرة؟ إن طلبت معرفته، فذلك الذي يدع اليتيم إلخ.

قيل: التقدير: أمصيب هو أم مخطىء؟ وأبدى[٣] فيه السمين احتمالين آخرين: ونصه: وفي ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هذه وجهان:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

(٣) الفتوحات.

أحدهما: أنها بصرية، فتتعدى لمفعول واحد وهو الموصول، كأنه قال: أبصرت المكذب بالدين.

والثاني: أنها بمعنى أخبرني، فتتعدى لاثنين، فقدره الحوفي: أليس مستحقاً العذاب، وقدره الزمخشري: من هو، ويدل لذلك قراءة عبد الله: أريتك بكاف الخطاب، و﴿الكاف﴾ لا تلحق البصرية اهـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بإثبات الهمزة الثانية، وقرأ الكسائي بإسقاطها، قال الزجاج: لا يقال في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً.

والمعنى: أي هل عرفت ذلك الذي يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلٰهية والشؤون الغيبية، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع والبرهان الساطع، فإن كنت لا تعرفه بذاته فاعرفه بصفاته، وهي:

١ ـ ﴿فَذَٰلِكَ﴾ المكذب بالدين هو: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً، ويزجره زجراً قبيحاً إذا جاء يطلب منه حاجة احتقاراً لشأنه وتكبراً عليه، و﴿الفاء﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، و﴿ذلك﴾: مبتدأ، والموصول خبره، والجملة الاسمية جواب لذلك الشرط المقدر، والتقدير: إن طلبت معرفة ذلك المكذب بصفاته، فهو الذي يدع اليتيم، ويزجره زجراً عنيفاً إذا طلب منه حاجةً وهو أبو جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً، فأيس الصبي، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء به، وهو ﷺ كان لا يرد محتاجاً، فذهب معه إلى أبي جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فعيَّره قريش وقالوا: أصبوت، فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ، فـ﴿ٱلَّذِى﴾ للعهد، ويحتمل الجنس، فيكون عاماً لكل من كان مكذباً بالدين، ومن شأنه أذية الضعيف ودفعه بعنف وخشونة؛ لاستيلاء النفس السبعية عليه، ويجوز أن تكون ﴿الفاء﴾ عاطفة على الذي يكذِّب إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة، ويكون اسم الإشارة في

---

(١) الشوكاني.

محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب، ويصح حمل الحق على الميراث، فقد تقدم في سورة النساء أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام اهـ «قرطبي».

٢ ـ ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾؛ أي: ولا يحث أهله وغيرهم من الموسرين ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والمحاويج؛ أي: على إطعامه، وإذا كان لا يحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه، فهو لا يفعله بالأولى، وفي هذا توجيه[1] لأنظارنا إلى أَنَّا إذا لم نستطع مساعدة المسكين.. كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك، كما تفعل جماعات الخير، والجمعيات الخيرية.

وقصارى ما سلف: أَن للمكذبين صفتين:

أولاهما: أن يُحقِّر الضعفاء ويتكبر عليهم.

وثانيهما: أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج، أو يبخل لسعيه لدى الأغنياء؛ ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بكفاف العيش، وسواء أكان المحتقِر للحقوق البخيل بالمال والسعي لدى غيره، مصلياً أو غير مصل، فهو في صف المكذبين، ولا تخرجه صلاته منهم؛ لأن المصدق بشيء لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدق به، فلو صدق بالدين حقاً.. لصار منكسراً متواضعاً لا يتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم، فمن لم يفعل شيئاً من ذلك فهو مراء في عمله، كاذب في دعواه، ومن ثم قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④...﴾ إلخ.

والخلاصة[2]: أنه يمنع المعروف عن المستحق لاستيلاء النفس البهيمية ومحبة المال عليه، واستحكام رذيلة البخل فيه، فإنه إذا ترك حث غيره، فكيف يفعل هو بنفسه، فعُلم أن كلاً من ترك الحث وترك الفعل من أمارات التكذيب، وفي العدول من الإطعام إلى الطعام وإضافته إلى المسكين دلالة على أن للمساكين شركة وحقاً في مال الأغنياء، وأنه إنما منع المسكين مما هو حقه، وذلك نهاية البخل وقساوة البخل وخساسة الطبع.

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

فإن قلت: قد لا يحض المرء في كثير من الأحوال، ولا يعد ذلك إثماً، فكيف يذم به؟.

قلت: إما لأن عدم حضه لعدم اعتقاده بالجزاء، وإما لأن ترك الحض كناية عن البخل ومنع المعروف عن المساكين، ولا شبهة في كونه محل الذم والتوبيخ، كما أن منع الغير من الإحسان كذلك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَدُعُّ﴾ ـ بضم الدال وشد العين ـ من دع من باب رد، كما في «المختار» بمعنى دفع، وقرأ علي والحسن وأبو رجاء واليماني بفتح الدال وتخفيف العين من وَدَعَ بمعنى ترك؛ أي: يترك اليتيم بمعنى: لا يحسن إليه، ويجفوه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ مضارع حض الثلاثي، وقرأ زيد بن علي: ﴿يحاض﴾ مضارع حاضض الرباعي، ولما ذكر أولاً عمود الكفر وهو التكذيب بالدين.. ذكر ما يترتب عليه مما يتعلق بالخالق، وهو عبادته بالصلاة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ ﴿الفاء﴾[2]: لربط ما بعدها بشرط محذوف، كأنه قيل: إذا كان ما ذُكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ.. فويل للمصلين؛ أي: فشدة عذاب، أو هلاك عظيم، أو واد في جهنم كما سبق الخلاف في الويل، كائن للمصلين؛ ﴿فَوَيْلٌ﴾: مبتدأ. ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: خبره. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ ومعرضون عنها، سهو ترك لها وقلة التفاتٍ إليها وعدم مبالاةٍ بها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة من المؤمنين، وهو معنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولذا قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم، وذلك أنه لو قال: في صلاتهم.. لكان المعنى: أن السهو يعتريهم، وهم فيها إما بوسوسة شيطان أو بحديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم، والخلوص منه عسير، ولما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: هذه خير لكم من أن يُعطىٰ كلُّ واحد منكم مثلَ جميع الدنيا، ومعنى ﴿سَاهُونَ﴾[3]: غافلون غير مبالين بها، ويجوز أن تكون ﴿الفاء﴾؛ لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذُكر من قبائحهم ووضع المصلين موضع ضميرهم؛ للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صَلَّوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صَلَّوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾؛ أي: يراؤون الناس بصلاتهم إن صلَّوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر؛ ليثنوا عليهم، قال النخعي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ هو الذي إذا سجد قال: برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً، وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله، وقرأ ابن مسعود: ﴿الذين هم عن صلاتهم لا هون﴾.

فإن قلت[1]: هل صدر عن النبي ﷺ سهو أم لا؟.

قلت: نعم، كما قال: «شغلونا عن صلاة العصر»؛ ـ أي: يوم الخندق ـ «ملأ الله قلوبهم ناراً» وأيضاً سها عن صلاة الفجر ليلة التعريس، وأيضاً صلى الظهر ركعتين، ثم سلم، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: صليت ركعتين، فقام وأضاف إليهما ركعتين، وكذلك في قصة ذي اليدين، لكن سهوه ﷺ فيما ذكر، وفي غيره ليس كسهو سائر الناس، وهو في الاستغراق والإنجذاب دائماً، وقد قال: تنام عيني ولا ينام قلبي، وأيضاً سهوه لحكمة تشريع سجود السهو وأحكامه، فعلى العاقل أن لا تفوته الصلاة التي هي من باب المعراج والمناجاة، ولا يعبث فيها باللحية والثياب، ولا يكثر التثاؤب والالتفات ونحوهما ومن المصلين من لا يدري عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السورة.

وخلاصة معنى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾؛ أي: فعذاب[2] شديد لمن يؤدي الصلاة بجسمه ولسانه من غير أن يكون لها أثر في نفسه، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التي شُرعت لأجلها؛ لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان وتفعله الجوارح، فيركع وهو لاه عن ركوعه، ويسجد وهو لاه عن سجوده، ويكبر وهو لا يعني ما يقول، وإنما هي حركات اعتادها، وكلمات حفظها، ولا تُدرك نفسه معناها، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾؛ أي: يُرون الناس أعمالهم؛ ليروهم الثناء عليها؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: إنهم يفعلون أفعالاً ظاهرة بقدر ما يرى الناس دون أن تستشعر قلوبهم بها، أو تصل إلى معرفة حكمها وأسرارها، وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، ويكون فعل ذلك على ضروب:

١ - بتحسين السمت مع إرادة الجاه وثناء الناس.

٢ - بلبس الثياب القصار، أو الخشنة، ليأخذ بذلك هيبة الزهاد في الدنيا.

٣ - بإظهار السخط على الدنيا، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير.

٤ - بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة، لرؤية الناس له، قال في «الكشاف»: والعمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها؛ لقوله ﷺ: «ولا غمة في فرائض الله»؛ لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفي؛ لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، وإن أظهره قاصداً للاقتداء فيه كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح، واجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص، ومن ثم قال ﷺ: «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود»، والمسح كساء من صوف خشن يلبسه الزهاد، والفرق[١] بين المرائي والمنافق أن المنافق يُبطِن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر زيادة الخشوع وآثار الصلاح؛ ليعتقد من يراه أنه من أهل الصلاح.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿يُرَآءُونَ﴾ مضارع راءَى من باب فاعل، وقرأ ابن أبي إسحاق والأشهب: مهموزة مقصورة مشددة الهمزة من باب فعل المضعف، وعن ابن أبي إسحاق بغير شد في الهمزة، فتوجيه الأُولى إلى أنه ضعف الهمزة تعديةً، كما عَدَّوا بالهمزة، فقالوا في رأى أرى، وقالوا: راءى، فجاء المضارع يُرَئِّيْ كيصلي، وجاء الجمع يُرَؤُّون كيصلون، وتوجيه الثانية أنه استثقل التضعيف في الهمزة، فخففها أو حذف الألف من يرأون حذفاً لا لسبب.

﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ الناس ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أي: محقرات الأموال وقلائلها مما يتعاطاه

---

(١) روح البيان.　　(٢) البحر المحيط.

الناس فيما بينهم ويتعاورونه يعتادون التسامح من أثاث البيت وغيره، كالدلو والقدر والإبريق والفأس والسكين والإبرة والخيط والخمير وبقايا الطعام والماء والملح والنار من الأشياء التافهة التي جرى عرف الناس بالتسامح بها فيما بينهم.

أي: يمنعون الناس ما لم تجر العادة بمنعه مما يسأله الغني والفقير، ويُنسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق، وقال الطبري في «تفسيره»: الماعون: هو ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر، وما لا يُمنع كالماء والملح والنار والخيط والمخيط، نُقل هذا عن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير، ثم قال: وروى أبو بصير عن أبي عبد الله قال: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ هو القرض تقرضه، والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تعيره، قال: فقلت: إن لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال: لا ليس عليك جناح أن تمنعهم إذا كانوا كذلك، وقال الكلبي: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ المعروف كله، وقال علي وابن عمر وابن عباس أيضاً: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ هو الزكاة، ومنه قول الراعي:

أَخَلِيفَةَ ٱلرَّحْمَنِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنُفَاً نُسَجِّدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ
عُرْبٌ نَرَىٰ لِلَّهِ فِيْ أَمْوَالِنَا حَقَّ ٱلزَّكَاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيْلاَ
قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ لَمَّا يَمْنَعُوْا مَا عُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوْا ٱلتَّهْلِيْلاَ

يعني بالماعون الزكاة، وهذا القول يناسبه ما ذكره قطرب من أن أصله من المعن، وهو الشيء القليل، فسميت الزكاة ماعوناً؛ لأنها قليل من كثير؛ لأنها ربع أو عشر، وقال عبد الله بن عمر منع الماعون هو منع الحق، وقال ابن عباس أيضاً: هو العارية، وقيل الماء والكلأ، قال أبو الليث: الماعون بلغة الحبشة المال، وفي «برهان القرآن» قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾، ثم بعده ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ كرر ولم يقتصر على مرة واحدة؛ لامتناع عطف الفعل على الاسم، ولم يقل: الذين هم يمنعون؛ لأنه فعل، فحسن العطف على الفعل وهذه دقيقة. انتهى.

والمعنى: ويمنعون الزكاة، كما دل عليه ذكره عقيب الصلاة، أو ما يتعاور عادة، فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان من عدم الاعتقاد بالجزاء موجب للذم والتوبيخ، فعدم المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام، وسوء المعاملة مع الخلق

أحق بذلك، ولم يُرَ من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة، فيا مصيبتاه، والمراد بما يتعاوروه عادةً؛ أي: يتداوله الناس بالعارية، ويعين بعضهم بعضاً بإعارته هو مثل الفأس والقدر والدلو والإبرة والقصعة، والغربال والقدوم والمقدحة والنار، والماء والملح، ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم، وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استُعيرت عن اضطرار، وقبحاً في المروءة في غير حال الضرورة، وفي هذه الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل، قال العلماء: يستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم ويتفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب اهـ «صاوي».

قال الإمام: وحاصل معنى هذه السورة؛ أي: فأولئك الذين يصَلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم، أو نقصاً يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم، وطمأنينتهم ولا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذبين بالدين، لا فرق بين من وَسَموا أنفسهم بسِمَة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع.

فخاصة المصدق بالدين التي تميزه عمن سواه من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عمن يستحق من الناس.

فهل للمسلمين الذين يزعمون أنهم آمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون في هذه السورة الشريفة؛ ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التي لا أثر لها إلا في ظواهر أعضائهم، وبهذا الجوع الذي يسمونه صياماً، ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم وبذاذة ألسنتهم وضياع أوقاتهم في اللهو والبطالة، ويرجعوا إلى

الحق من دينهم، فيقيموا الصلاة، ويحيوا صورتها بالخشوع للعليِّ الأعلى، فلا يخرجوا من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد الله يلتمسون رضاه في رعاية حقوقه بما يراه، ويجعلوا من الصوم مؤدِّباً للشهوة ومهذباً للرغبة رادعاً للنفس عن الأثرة فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم، ثم يؤدون الزكاة المفروضة عليهم ولا يبخلون بالمعونة فيما يمنع الخاصة والعامة اهـ. والله أعلم.

الإعراب

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التعجبي، ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، والخطاب لمحمد ﷺ، أو عام كما مر، والرؤية هنا إما بصرية تتعدى إلى مفعول، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿رأيت﴾. ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَذِّبُ﴾، والمعنى: أبصرت يا محمد المكذب بالدين، وهل عرفته بذاته؟ وإما بمعنى أخبرني فتتعدى لاثنين: الأول: الموصول، والثاني محذوف قدَّره الحوفي بقوله: أليس مستحقاً للعذاب؛ أي: أخبرني يا محمد المكذبَ بالدين أليس مستحقاً العذاب، والجملة الفعلية على كلا التقديرين مستأنفة. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر تقديره: إن طلبت معرفة ذلك المكذب بصفاته، فهو الذي يدع اليتيم. ﴿ذلك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، وجملة ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية في محل الجزم بذلك الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة. ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحُضُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحُضُّ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. ﴿فَوَيْلٌ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة أيضاً في جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ، فويل للمصلين المذكورين؛ لأن السهو عن الصلاة من سمة التكذيب

بالدين، ﴿ويل﴾: مبتدأ. ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بالشرط المقدر، وجملة الشرط المقدر مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة لـ﴿المصلين﴾: ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾: متعلق بما بعده. ﴿سَاهُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول على كونه صفة لـ﴿المصلين﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُرَآءُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية صلة الموصول. ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿يُرَآءُونَ﴾ داخلة في حيز الصلة، ومفعول ﴿يمنعون﴾ الأول محذوف تقديره: أي: الناس والطالبين، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ مفعوله الثاني.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفع بعنف وجفوة، وفي المختار: دَعَّ من باب رد، قال ابن دريد: دعه ودحه بمعنى واحد، وامرأة دعوع ودحوح بمعنى، وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي:

قَدْ أَغْتَدِيْ وَٱللَّيْلُ فِيْ حِرِّيْمِهِ ... مُعَسْكِراً فِيْ ٱلْغُرِّ مِنْ نُجُوْمِهِ
وَٱلصُّبْحُ قَدْ نَسَّمَ فِيْ أَدِيْمِهِ ... يَدُعُّهُ بِضِفَّتَيْ حَيْزُوْمِهِ
دَعَّ ٱلرَّبِيْبِ لِحَيَّتَيْ يَتِيْمِهِ

وأصله: يَدْعُع بوزن يفعُل، نقلت حركة العين الأولى إلى الدال فسكنت فأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿يَحُضُّ﴾ أصله: يَحْضُض بوزن يفعل.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ أصله: المصليين بيائين، الأولى لام الكلمة والثانية ياء الجمع، سكنت لام الكلمة للتخفيف، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء الأولى، فصار المصلين بوزن المفعيّن.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ من باب فاعل، كيقاتلون، ومعنى المفاعلة فيه أن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرُونه الثناء عليه، فالمشاركة فيهما واضحة، وأصله: يرائيون كيقاتلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، حذفت الياء لالتقائهما، وضمت الهمزة لمناسبة الواو، فصار ﴿يُرَآءُونَ﴾ بوزن

يفاعون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أصله: ساهيون جمع ساه، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت للتخفيف، ثم ضمت الهاء لمناسبة الواو وأصل هذه الياء الواو؛ لأنه من سها يسهو قلبت ياء لتطرفها إثر كسرة.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ منع يتعدى لمفعولين: ثانيهما: قوله ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾، وأولهما محذوف تقديره: الناس، حُذف للعلم به، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ فاعول من المعن، وهو الشيء القليل، يقال: مال معن؛ أي: قليل، أو اسم مفعول من أعان يعين، فأصله معوون، دخله القلب المكاني فصار: موعون، تحركت الواو الأولى وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وفي «المختار»: والماعون اسم جامع لمنافع البيت، كالقدر والفأس ونحوهما اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر، وتعجيبه منه في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾؛ لأنه حذف منه الشرط، تقديره: إن أردت أن تعرف ذلك المكذب بصفاته، فذلك المكذب هو الذي يدع اليتيم.

ومنها: وضع الظاهر، وهو قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ موضع المضمر، وهو لهم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فويل لهم؛ لأنهم مع التكذيب وما أضيف إليه ساهون عن الصلاة غير مكترثين بها، وهذا على أن السورة كلها إما مكية أو مدنية، وعلى القول بالتنصيف، فالويل متعلق بالمصلين الموصوفين بكونهم عن صلاتهم ساهين، وما بعده فلا ارتباط له بما قبله، و﴿الفاء﴾ واقعة في جواب شرط مقدر تقديره: إن أردت معرفة جزاء أهل النفاق في الصلاة وغيرها، فويل للمصلين الخ اهـ من «الصاوي».

ومنها: تسميتهم مصلين مع أنهم تاركون لها رأساً؛ لأنها مفروضة عليهم، فكانت جديرة بأن تضاف لهم.

ومنها: التعبير بـ﴿عَن﴾ دون في، في قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ إشعاراً بأن صلاة المؤمن لا تخلو عن السهو فيها، فالمذموم السهو عنها بمعنى تركها والتفريط فيها لا السهو فيها؛ لوقوعه من الأنبياء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿سَاهُونَ﴾ حيث استعار السهو للترك بجامع الإعراب في كل؛ لأنهم تاركون لها رأساً، أو إن حصلت منهم تكون رياءً وسمعة، فهي كلاصلاة.

ومنها: حذف المفعول الأول لـ﴿يمنعون﴾ في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾؛ أي: يمنعون الناس، للعلم به.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يمنعون﴾ و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾.

فائدة: السهو خطأ عن غفلة، وذلك ضربان:

أحدهما: أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولداته، كمجنون سب إنساناً.

والثاني: أن يكون منه مولداته كمن شرب خمراً، ثم ظهر منه منكر، لا عن قصد إلى فعله، فالأول معفو عنه، والثاني مأخوذ به، ومنه ما ذم الله سبحانه في الآية، انتهى من «الروح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

---

(١) وإلى هنا تم تفسير سورة الماعون أواخر عصر يوم الخميس اليوم العشرين من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة الكوثر

سورة الكوثر مكية نزلت بعد سورة العاديات في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، وكذا قاله الجمهور، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة، وهي ثلاث آيات، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه سبحانه وصف في السابقة الذي يكذب بالدين بأمور أربع: البخل، الإعراض عن الصلاة، الرياء، منع المعونة، وهنا وصف ما منحه رسوله ﷺ من الخير والبركة، فذكر أنه أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، والحرص على الصلاة ودوامها، والإخلاص فيها، والتصدق على الفقراء.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر فيما قبلها وصف المنافق بالبخل، وترك الصلاة والرياء، ومنع الزكاة.. قابل في هذه السورة البخل بـ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾، والسهو في الصلاة بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾، والرياء بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ومنع الزكاة بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أراد به التصدق بلحم الأضاحي، فقابل أربعة بأربع. انتهى. وسميت سورة الكوثر؛ لذكر الكوثر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الكوثر كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها[2]: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى من كل نهر له في الجنة، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر» ولكن فيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أسباب النزول

قيل: إن هذه السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص بن وائل قالوا: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال ذلك الأبتر دعوه، فإنه رجل لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، وكان في تلك الأيام قد توفي عبد الله بن رسول الله ﷺ، (وقيل: ولده إبراهيم)، وهو من خديجة الكبرى، ففرح أعداء رسول الله ﷺ، ومبغضوه، وقالوا: قد بتر محمد، وسينقطع ذكره، ولم يبق له أثر في أولاده من بعده، وكانوا يعدون ذلك عيباً يلمزونه به، وسينفرون الناس من اتّباعه، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وعن عطاء قال: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ ذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بُتِر محمد الليلة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل.. قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بُتر محمد، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت في أبي جهل، وفي رواية أخرى عنه قال: نزلت في كعب بن الأشرف؛ إذ قدم مكة، فقالت له قريش: أنت سيد أهل المدينة وخيرهم، ألا ترى هذا الصابئى المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

قال ابن عباس: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يعني: عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف

بذلك ممن ذكروا وغيرهم من أعداء الإسلام، ومبغضي رسول الله ﷺ الذين كانوا يستهزئون به وبدعوته، واستمروا كذلك حتى كفاه الله شرهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وقضى الله عليهم، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله على كل شيء قدير.

وحاصل أسباب نزول هذه السورة[1]: أنه كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي ﷺ، ويلمزونه بأمور:

١ ـ أنه إنما اتبعه الضعفاء، ولم يتبعه السادة الكبراء، ولو كان ما جاء به من الدين صحيحاً.. لكان أنصاره من ذوي الرأي والمكانة بين عشائرهم، وهم ليسوا ببدع في هذه المقالة، فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أن يسرع في إجابة دعوة الرسل الضعفاء من قبل أنهم لا يملكون مالاً، فيخافوا في سبيل الدعوة الجديدة ولا جاهاً ولا نفوذاً، فيخافوا أن يضيَّعا أمام الجاه الذي منحه صاحب الدعوة، وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا في دين الله، وهم له كارهون، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسل الله تعالى، ويأخذون في انتقاصهم وكيل التهم لهم تهمة بعد تهمة، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشد أزرهم، وعلى هذا السنن سار أهل مكة مع النبي ﷺ، فقد تخلف عنه سادتهم وكبراؤهم حسداً له ولقومه الأدنين.

٢ ـ أنهم كانوا إذا رأوا أبناءه يموتون يقولون: انقطع ذكر محمد وصار أبتر، يحسبون ذلك عيباً، فيلمزونه به، ويحاولون تنفير الناس عن اتباعه.

٣ ـ أنهم كانوا إذا شدة نزلت بالمؤمنين.. طاروا بها فرحاً، وانتظروا أن تدول الدولة عليهم، وتذهب ريحهم، فتعود إليهم مكانتهم التي زعزعها الدين الجديد، فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن ما يرجف به المشركون، وهم لا حقيقة له، ولتمحص نفوس الذين لم تصلب قناتهم، ولترد كيد المشركين في نحورهم، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لا محالة، وأن أتباعه هم المفلحون.

---

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾: و﴿إن﴾[1]: جار مجرى القسم في تأكيد الجملة. ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ يا محمد، عبر بصيغة الماضي مع أن العطايا الأخروية وأكثر ما يكون في الدنيا لم تحصل بعد إشعاراً بتحقق وقوعها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ بالعين، وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني: ﴿أنطيناك﴾ بالنون، وهي قراءة مروية عن رسول الله ﷺ، قال الترمذي: هي لغة للعرب العاربة من أولي قريش، ومن كلامه ﷺ: «اليد العليا المُنطِية، واليد السفلى المُنطاة» ومن كلامه ﷺ أيضاً: «وأنْطوا المنيحة»، وقال الأعمش:

جِيَادُكَ خَيْرُ جِيَادِ ٱلْمُلُوكْ   تُصَانُ ٱلْحَلَالَ وَتُنْطِيْ ٱلسَّعِيْرَا

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبريزي: أبدل من العين نوناً، ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾؛ أي: الخير المفرِط في الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين، والكوثر[3] فوعل من الكثرة، وُصِف به للمبالغة في الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثراً، ومنه قول الشاعر:

وَقَدْ ثَارَ نَقْعُ ٱلْمَوْتِ حَتَّىٰ تَكَوْثَرَا

قيل لأعرابية آب ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر؛ أي: بالعدد الكثير من الخير، فالمعنى على هذا[4]: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية.

وذكر أكثر المفسرين كما حكاه الواحدي: إلى أن ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. نهر في الجنة، وقيل: هو حوض النبي ﷺ في الموقف، قاله عطاء، وقال عكرمة: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: النبوة، وقال الحسن: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: القرآن، وقال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأمة،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

وقال ابن كيسان هو: الإيثار، وقيل: هو الإسلام، وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: هو المعجزات، وقيل: إجابة الدعوة، وقيل: لا إلٰه إلا الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس.

وذكر صاحب «التحرير» في الكوثر ستة وعشرين قولاً، والصحيح هو ما فسر به رسول الله ﷺ، فقال: «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وعليه جمهور العلماء، كما جاء مبيناً في عدة أحاديث:

منها: ما رواه[1] الشيخان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: فإنه نهر وَعَدَنيه ربي عز وجل خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك» هذا لفظ مسلم، وللبخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه ـ أو طينته ـ مسك أذفر» شك الراوي.

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذلك نهر أعطانيه ـ يعني في الجنة ـ أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزور».

قال عمر: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أنعم منها»، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة،

---

(١) الخازن.

حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رواه عامر بن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - قال: سألت عائشة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ فقالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء. أخرجه البخاري.

ومنها: ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها لا يظمأ أبداً» زاد في رواية «وزواياه سواء» متفق عليه.

ومنها: ما رواه ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «أمامكم حوضي، ما بين جنبيه كما بين جرباء وأذرح» متفق عليه، وقال بعض الرواة هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وفي رواية: «فيه أباريق كنجوم السماء، مَن وَرَدَهُ فشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً».

ومنها: ما رواه أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين ناحيتي» - وفي رواية: «لابَتَيْ حوضي، كما بين صنعاء والمدينة» وفي رواية «مثل ما بين المدينة وعمان» وفي رواية قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء» متفق عليه.

ومنها: ما روي عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، لآنِيَتُهُ أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثله طوله، ما بين عمَّان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» أخرجه مسلم.

وبقي في هذا الباب أحاديث كثيرة لا يسعها هذا المختصر. قال القاضي عياض: وفي بعض هذه الأحاديث ما يقتضي كون الحديث متواتراً، وأما صفة الحوض ومقداره فقد قال في رواية «حوضي مسيرة شهر» وفي رواية: «ما بين جنبيه كما بين جرباء وأذرح» وفي رواية: «كما بين أيلة وصنعاء اليمن» وفي رواية: «مثل

طوله ما بين عمان إلى أيلة» وفي رواية: «إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن»، فهذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس موجباً للاضطراب فيها؛ لأنه لم يأت في حديث واحد، بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصحابة سمعوها من النبي ﷺ في مواطن مختلفة، ضربها النبي ﷺ مثلاً لبعد أقطار الحوض وسِعَته، وقرَّب ذلك على أفهام السامعين، لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لا على القدر الموضوع للتحديد، بل لإعلام السامعين عظم بُعد المسافة وسعة الحوض بقدر ما يعرفه كل من السامعين، وليس في ذكر القليل من هذه المسافة منع من الكثير، فإن الكثير ثابت على ظاهره، وصحت الرواية به، والقليل داخل فيه، فلا معارضة ومنافاة بينهما، وكذلك القول في آنية الحوض من أن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره، وأنها أكثر عدداً من نجوم السماء، ولا مانع يمنع من ذلك، إذ قد وردت الأحاديث الصحيحة الثابتة بذلك، وقوله في الأحاديث: «كما بين جرباء وأذرح» جرباء قرية بالشام، وأذرح مدينة في طرف الشام قريبة من الشوبك، وأما عمان بليدة بالبلقاء من أرض الشام، وأيلة مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين دمشق ومصر بينها وبين المدينة، نحو خمس عشرة مرحلة، وهي: آخر الحجاز وأول الشام، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمن وأكبر مدنه، وإنما قيدها باليمن في الحديث؛ لأن بدمشق موضعاً يُعرف بصنعاء دمشق.

والمعنى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ①﴾؛ أي[1]: إنا أعطيناك من المواهب الشيء الكثير الذي يعجز عن بلوغه العد، ومنحناك من الفضائل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته، وإن استخف به أعداؤك واستقلوه، فإنما ذلك من فساد عقولهم وضعف إدراكهم؛ أي[2]: إنا بجلالنا وعظمة قدرتنا، فالإتيان بـ﴿إن﴾ ونون العظمة؛ للتأكيد ولزيادة تشريفه ﷺ، والمعنى: قضينا به لك، وخصصناك به، وأنجزناه لك في علمنا، وتقديرنا الأزلي، وإن لم تستول عليه، والتصرف فيه إلا في القيامة، فالعطاء ناجز، والتمكن والاستيلاء عليه مستقبل.

إن قلت: إنه عبر هنا بالماضي، وفي الضحى بالمضارع، حيث قال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾، فكيف الجمع بينهما؟.

---

(١) المراغي. (٢) الصاوي.

قلت: أجيب عنه بأن في الضحى باعتبار التمكن والاستيلاء، وذلك يحصل في المستقبل في يوم القيامة، وما هنا بتقدير التقدير الأزلي.

والصحيح: أن للنبي ﷺ نهرين:

أحدهما: بعد دخول الجنة يسمى كوثراً.

والثاني: قبل الصراط، ويسمى حوضاً، كما يدل عليه مجموع الأحاديث السابقة، واختُلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر؟ فقيل: الميزان قبل، وقيل: الحوض قبل.

قال الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل، قلت: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً، فيقدم قبل الصراط والميزان، والله أعلم اهـ من «تذكرة القرطبي».

وبعد أن أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الخبر بأن الذي أعطاه هو الكوثر الذي لا يُستقل عدده ولا يُنتقص قدره، وأن ما يعدونه كثيراً وعظيماً من خيراتهم ونعيمهم، فهو بالنسبة إليه قليل وحقير، طالبه الله سبحانه بالشكر على ذلك، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾؛ أي: وانحر له، فحذف اكتفاء بما قبله، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فصل لنا، فانتقل إلى الاسم الظاهر؛ لأنه يوجب عظمة ومهابة، و﴿الفاء﴾[1] لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن إعطاءه تعالى إياه ﷺ ما ذُكر من العطية التي لم يعطها، ولن يعطيها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور به أي استيجاب، والنحر يكون في اللبة كالذبح في الحلق، ويصح أن تكون ﴿الفاء﴾ للإفصاح، والمعنى على الأول: فدم يا محمد على الصلاة لربك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا تضاهيها نعمة خالصاً لوجهه، كما دل عليه اللام الاختصاصية، خلافاً للساهين عنها المرائين فيها أداء لحقوق شكرها، فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر، وهي ثلاثة: الشكر بالقلب؛ وهو أن يعلم أن تلك النعم منه تعالى لا من غيره، والشكر باللسان؛ وهو أن يمدح المنعم ويثني عليه، والشكر بالجوارح، وهو أن يخدمه ويتواضع له، والصلاة جامعة لهذه الأقسام، والمراد الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة.

---

(١) روح البيان.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ البُدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدق بها على المحاويج، خلافاً لمن يَدُعُّهم ويمنع منهم الماعون، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد، والنحر بالتضحية، وهذا يناسب كون السورة مدنية.

وعن عطية هي صلاة الفجر بجَمْعٍ، والنحر[1] بمنى، وقال محمد بن كعب: إن ناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: النحر هٰهنا وضع اليدين في الصلاة على النحر، وقال محمد بن كعب: النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر، وقيل: هو، أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبير إلى حذاء نحره، وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص، وروي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره اهـ.

وقال سليمان التيمي: المعنى وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص، فهو في حكم التقييد له، والمعنى؛ أي[2]: اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك وما هو نسك لك لله أيضاً، فإنه هو الذي رباك، وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما قال تعالى آمراً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ وبعد أن بشر رسوله ﷺ أعظم البشارة وطالبه بشكره على ذلك، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهوراً ذليلاً.. أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: إن مبغضك يا محمد كائناً من كان كأبي جهل وأضرابه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ أي: المنقطع عن كل خير على العموم، المقطوع ذكره في الدنيا والآخرة؛ لبغضه لك؛ لأن[3] نسبة أمر إلى المشتق تفيد علية المأخذ، يقال: شنأه ـ كمنعه وسمعه ـ شنأً إذا أبغضه، والبغض ضد الحب، والبتر يستعمل في قطع الذَّنَب، ثم أجري قطع العقب مجراه، فقيل: فلان أبتر إذا لم يكن له عقب يخلفه، والمعنى: إن مبغضك على العموم هو الذي لا عقب له، حيث لا يبقى له نسل ولا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان.

وشانئوه[1] ما كانوا يبغضونه لشخصه؛ لأنه كان محبباً إلى نفوسهم، بل كانوا يمقتون ما جاء به من الهدى والحكمة؛ لأنه سفه إحلامهم وعاب معبوداتهم، ونادى بفراق ما ألفوه ونشؤوا عليه، وقد حقق الله سبحانه في شانئيه من العرب وغيرهم في زمنه ﷺ ما يستحقونه من الخذلان والخسران ولم يبق لهم إلا سوء الذكر. أما النبي ﷺ ومن اهتدى بهديه، فإن الله سبحانه رفع منزلتهم فوق كل منزلة وجعل كلمتهم هي العليا.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: عنى المشركون بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله سبحانه بيَّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك اهـ.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما[2] ـ: نزلت هذه السورة في كعب بن الأشرف وجماعة قريش، وذلك أنه لما قدم كعب بن الأشرف قالت له قريش: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، أفنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه؟ فقال: أنتم خير منه، فنزلت فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ . . .﴾ الآية، ونزلت في الذين قالوا: إنه أبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾؛ أي: المنقطع عن كل خير، وقولهم في النبي ﷺ: هذا الصنبور أرادوا أنه فرد ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره، شبهوه بالنخلة المنفردة يدق أسفلها، وتسمى الصنبور، وقيل: هي النخلة التي يخرج في أصل أخرى لم تغرس، وقيل: الصنابر سعفات تنبت من جذع النخلة تضر بها، ودواؤها أن تُقطع تلك الصنابر منها، فأراد كفار مكة أن محمداً ﷺ بمنزلة الصنبور ينبت في جذع نخلة، فإذا انقطع استراحت النخلة، فكذا محمد ﷺ إذا مات انقطع ذكره، وقيل: الصنبور الوحيد الضعيف الذي لا ولد له ولا عشيرة ولا ناصر من قريب ولا غريب، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، ورد عليهم أشنع رد، فقال: إن شانئك يا محمد هو الأبتر الضعيف الوحيد الحقير، وأنت الأعز الأشرف الأعظم. والله أعلم.

---

(١) المراغي.   (٢) الخازن.

وظاهر الآية: العموم وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل أو غيره، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مر غير مرة. والله أعلم بمراده.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَانِئَكَ﴾ بالألف، وقرأ ابن عباس: ﴿شنيك﴾ بغير ألف، فقيل: هو مقصور من شانىء، كما قالوا: بَرَر وبَر في بارِر وبار، ويجوز أن يكون بناء على فعل، وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال، وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريين، وقد قالوا: حذر أموراً، ومزقون عرضي، فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول، ولفظ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، والأحسن الأعرف في المعنى أن يكون ضمير فصل؛ أي: هو المنفرد بالبتر المخصوص به لا رسول الله ﷺ، فجميع المؤمنين أولاده، وذكره مرفوع على المنائر والمنابر، ومسرود على لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يُبدأ بذكر الله تعالى، ويثَنَّى بذكره ﷺ، وله في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ﷺ وعلى آله وصحبه وشرَّف وكرَّم صلاة وسلاماً دائمين ما بقي الدهر.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعْطَيْنَـٰكَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَعْطَيْنَـٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: مفعول به ثان؛ ﴿فَصَلِّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية؛ لكون ما بعدها مرتباً على ما قبلها، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إعطاءنا إياك الخير الكثير الذي لا يُعد ولا يحصى، وأردت بيان ما يلزمك في شكره، فأقول لك صل لربك، ﴿صل﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، تقديره: أنت. ﴿لِرَبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿صل﴾، والجملة الفعلية على القول الأول معطوفة على جملة ﴿إن﴾، وعلى الثاني مقول لجواب إذا

---

(١) البحر المحيط.

المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱنْحَرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿صل﴾. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، أو ضمير فصل. ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبر. ﴿هُوَ﴾، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، أو ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مؤكدة لما قبلها، ولا أدري كيف أجاز أبو البقاء أن يُعرب هو تأكيداً؛ لأن المُظهَر لا يؤكد بالمضمر، وعبارة ابن هشام: ووهم أبو البقاء هنا، فأجاز في ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ التوكيد، ويحتمل أنه أراد أنه توكيد لضمير مستتر في ﴿شَانِئَكَ﴾ لا لنفس ﴿شَانِئَكَ﴾، وذلك لأن شانىء اسم فاعل بمعنى مبغضك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ في «القاموس»: والكوثر الكثير من كل شيء، والكثير الملتف من الغبار، والإسلام، والنبوة، وقرية بالطائف كان الحجاج معلِّماً بها، والرجل الخير المعطاء، والسيد، والنهر، ونهر في الجنة، وعبارة الزمخشري: والكوثر فوعل من الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر، قال الكميت الأسدي:

وَأَنْتَ كَثِيْرٌ يَا بْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَانَ أَبُوْكَ ٱبْنَ ٱلْعَقَائِلِ كَوْثَرَا

والعقائل: خيار النساء، والكوثر بليغ النهاية في الخير، والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى، وما فيه سعادة الدنيا والآخرة، والكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل، وجوهر من الجهر، وفي «المفردات»: وقد يقال للرجل السخي كوثر، ويقال: تكوثر الشيء إذا كثر كثرة متناهية، والواو فيه زائدة مثل كوسج وجوهر ونوفل، وعبارة ابن خالويه: والكوثر نهر في الجنة، حافتاه الذهب وحصباؤه المرجان والدر، وحاله المسك يعني الحمأة، وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ والنحر في اللبة كالذبح في الحلق.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك، وفي «المصباح»: شَنِئَه ـ كسَمِعَه ومَنَعَه ـ شنأً مثل فلس وشَنَآناً ـ بفتح النون وسكونها ـ إذا أبغضه، والفاعل شانئٌ في المذكر، وشانئة في المؤنث، وشنئت بالأمر اعترفت به، وقال ابن خالويه: والشانِىء

المبغض قال الأعمش:

وَمِنَ شَانِىءٍ كَاسِفٍ وَجْهُهُ ... إِذَا مَا ٱنْتَسَبْتَ لَهُ أَنْكَرَنْ

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾: هو الذي لا عقب له، وهو في الأصل الشيء المقطوع من بتره إذا قطعه، وحمار أبتر لا ذنب له، ورجل أُباتر بضم الهمزة؛ أي: قاطع رحمه، قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذنب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، وأصل البتر: القطع، يقال: بترت الشيء بتراً إذا قطعته.

وعبارة ابن خالويه: معناه أن مبغضك يا محمد هو الأبتر؛ أي: لا ولد له، والأبتر الحقير، والأبتر الذليل، والأبتر من الحيات المقطوع الذنب، والأبتر ذنب الفيل، كانت قريش والشانئون لرسول الله ﷺ يقولون: إن محمداً صنبور؛ أي: فرد لا ولد له، فإذا مات انقطع ذكره، فأكذبهم الله تعالى، وأعلمهم أن ذكر محمد مقرون بذكره إلى يوم القيامة، إذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله قال: أشهد أن محمداً رسول الله، والصنبور: النخلة، تبقى مفردة ويدق أسفلها، قال: ولقي رجل رجلاً، فسأله عن نخلِهِ، فقال: صنبرَ أسفله، وعشَشَ أعلاه، والصنبور أيضاً ما في فم الإداوة من حديد أو رصاص، والصنبور الصبي الصغير، قال أوس بن حجر:

مُخَلَّفُوْنَ وَيَقْضِيْ ٱلنَّاسُ أَمْرَهُمُ ... غِشَّ ٱلْأَمَانَةِ صُنْبُوْرٌ فَصُنْبُوْرُ

وفي «المختار»: بتره قبل التمام وبابه نصر، والانبتار الانقطاع، والأبتر المقطوع الذنب، وبابه طرب، والأبتر أيضاً لا عقب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم في قوله: ﴿إِنَّآ﴾ فإنه بمنزلة أن يقال: إنا نحن والله أعطيناك.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ مع أن العطايا الأخروية وأكثر ما يكون في الدنيا لم تحصل بعد إشعاراً بتحقق وقوعها.

ومنها: صيغة الجمع الدالة على التعظيم في ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ تفخيماً لشأن المعطى له، حيث لم يقل: أنا أعطيتك.

ومنها: المبالغة في لفظ ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فصل لنا، فانتقل إلى الاسم الظاهر؛ لأنه يوجب عظمة ومهابة، وفيه أيضاً التفات من التكلم إلى الغَيبة، والأصل: فصل لنا، ولكنه عدل عن ذلك؛ لأن في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به؛ لأن من يربيك يستحق العبادة منك.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: وانحر له، فحذف له اكتفاء بما قبله.

ومنها: الإضافة للتشريف، والتكريم في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

ومنها: إفادة الحصر في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾؛ أي: إن مبغضك لا محبك من المؤمنين هو الأبتر عن كل خير.

ومنها: المطابقة بين أول السورة وآخرها يعني بين: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾، فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة مع وجازتها جمعت فنوناً من البلاغة والبيان والبديع، ولولا خوف الإطالة مع كون كتابنا من المختصرات.. لأشبعنا من مباحث بلاغتها ومعانيها أوراقاً وصحائف كثيرة، كالمذهب الكلامي الذي يطول بذكره الكلام.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة في اليوم السابع والعشرين من شهر الله المحرم قبيل المغرب من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الكافرون

سورة الكافرون نزلت بعد سورة الكوثر مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ياأيها الكافرون بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت سورة ياأيها الكافرون بالمدينة، وآياتها: ست، وكلماتها: ست وعشرون، وحروفها: أربعة وتسعون.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه سبحانه وتعالى في السورة السابقة أمر رسوله ﷺ بعبادته والشكر له على نعمه الكثيرة بإخلاص العبادة، وفي هذه السورة التصريح بما أشير إليه في السالفة، سميت سورة الكافرون، لذكر لفظ (الكافرون) فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الكافرون فيها آية واحدة منسوخة، وهي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ نُسخت بآية السيف.

فضلها: وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث شريفة تنبه إلى أهمية هذه السورة وعظيم قدرها.

فمنها[2]: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف.

وفي «صحيح مسلم» أيضاً من حديث أبي هريرة ما أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ (قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين أو بضع عشرة مرة. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾).

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

ومنها: ما أخرجه الحاكم وصححه عن أُبيٍّ قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾.

ومنها: ما أخرجه محمد بن نصر والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ تُعدل ربع القرآن» وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ كانت له عدلَ ربع القرآن»، ومنها ما أخرجه الطبراني في «الصغير»، والبيهقي في «الشعب» عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن».

ومنها: ما أخرجه أحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زنجويه في «ترغيبه» عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجت مع النبي ﷺ في سفر، فمر برجل يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾، فقال: «أما هذا فقد بريء من الشرك، وإذا آخر يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾، فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة»، وفي رواية «أما هذا فقد غفر له».

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن فروة بن نوفل بن معاويةَ الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك» وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمٰن بن نوفلٍ الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي: «إذا أتيت مضجعك للنوم، فاقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ فإنك إذا قلتها فقد برئت من الشرك».

ومنها: ما أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» عن الحارث بن جبلة، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة قال: قلت يا رسول الله

علمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل، فاقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك».

ومنها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك».

ومنها: ما أخرجه أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرؤون ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عند منامكم».

ومنها: ما أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه عن خباب أن النبي ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك، فاقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾» وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى يختم، وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله بسورتين، فلا حساب عليه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه أبو عبيد في «فضائله»، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾. و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

أسباب النزول

ذكر المفسرون رحمهم الله تعالى: أن هذه السورة نزلت في نفر من قريش، منهم الحارث بن العاص السهمي، والعاص بن أبي وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمية بن خلف في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: له هلم يا محمد، فاتبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت حظك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، وأنزل الله رداً على هؤلاء هذه السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه ملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم هذه السورة حتى فرغ منها، فأيسوا منه عند ذلك، وطفقوا يؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة، قال ابن عباس: وفيهم نزل أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استلَمْتَ آلهتنا لعبدنا إلٰهك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١...﴾ السورة كلها.

التفسير وأوجه القراءة

و﴿الألف﴾[1] و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره.. كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه السورة من أسلم وعبد الله تعالى.

قال المفسرون: في مناداتهم[2] بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدتهم ومحل عزهم وشوكتهم إيذان بأنه ﷺ محروس منهم، ففيها عَلَم من أعلام النبوة، وفي التعبير بالجمع الصحيح دلالة على قلتهم أو حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة كالوليد بن المغيرة وأبي جهل والعاص بن وائل وأضرابهم ممن قد علم الله أنه لا يأتي ولا يتأتى منهم الإيمان أبداً على ما هو مضمون السورة، فالخطاب للرسول ﷺ بالنسبة إلى قوم مخصوصين، فلا يرد أن مقتضى هذا الأمر أن يقول كل مسلم ذلك لكل جماعة من الكفار، مع أن الشرع ليس حاكماً به؛ أي: قل لهم يا محمد يا هؤلاء الكفرة الذين علم الله عدم إيمانهم يعني صناديد قريش المذكورين آنفاً.

﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أنا فيما يُستقبل من الزمان ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: الأصنام التي تعبدونها؛ لأن لا، لا تدخل غالباً إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما، لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا، قال الخليل في: لن أصله لا، والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾؛ أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلٰهي، والمراد: ولا أنتم عابدون عبادة يعتد بها؛ إذ العبادة مع إشراك الأنداد لا تكون في حيز الاعتداد.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾؛ أي: وما كنت عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه؛ أي: لم يُعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف يرجى مني في الإسلام.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته وهو الله تعالى، فليس في السورة تكرار.

وقيل: هاتان الجملتان لنفي العبادة حالاً، كما أن الأوليين لنفيها استقبالاً، وإنما لم يقل[١]: ما عبدت ليوافق ما عبدتم؛ لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله ومشتهراً بكونه عابداً لله على سبيل الامتثال لأمره يعني ما يقتضيه جعل العبادة صلة للموصول، ثم عدم الموسومية بشيء لا يقتضي عدم ذلك الشيء، فلا يلزم أن لا يكون ﷺ عابداً لله قبل البعثة، بل يكون ما وقع منه قبلها من قبيل الجري على العادة المستمرة القديمة، وفي «القاموس»: كان ﷺ على دين قومه على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في حجهم ومناكحهم وبيوعهم وأساليبهم، وأما التوحيد فإنهم كانوا بذلوه والنبي ﷺ لم يكن إلا عليه. انتهى.

وإيثار ﴿مَا﴾ في ﴿أَعۡبُدُ﴾ على من؛ لأن المراد هو الوصف، كأنه قيل: ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته قال[٢]: الأخفش والفراء، المعنى: لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، قال الزجاج: نفىٰ رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل، وقيل: إن كل واحد من الجملتين يصلح للحال والاستقبال، ولكنا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار.

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ للاستقبال وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ للاستقبال؛ لأن الجملة تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات، فدخول النفي عليهما يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما يندفع هذا يندفع ما

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

قيل من العكس؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة؟ وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى، وحمل هذا على معنى آخر مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل.

وإذا تقرر لك هذا[١]: فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تجحد واستعمالاتهم التي لا تُنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، وهذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل، وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمٰن وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

يَا لَبَكْرٍ ٱنْشُرُوْا لِيْ كُلَيْبَا يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ ٱلْفِرَارُ

وقول الآخر:

هَلاَّ سَأَلْتِ جُمُوْعَ كِنْـ ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقول الآخر:

يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ خَيْرَ تَمِيْمٍ كُلِّهَا وَأَكْرَمَهْ

وقول الآخر:

لاَ يَا ٱسْلَمِيْ ثُمَّ ٱسْلَمِيْ ثُمَّ ٱسْلَمِيْ ثُلاَثَ تَحِيَاتٍ وَإِنْ لَمْ تُكَلَّمِ

وقول الآخر:

(١) الشوكاني.

يَـا جَـعْـفَـرٌ يَـا جَـعْـفَـرٌ يَـا جَـعْـفَـرُ   إنْ أَكُ دَحْـدَاحَـاً فَـأَنْـتَ أَقْـصَـرُ

وقول الآخر:

فَـأَيْـنَ إِلَـىٰ أَيْـنَ ٱلـنَّـجَـاةُ بِـبَـغْـلَـتِـيْ   أَتَاكِ أَتَاكِ ٱللاَّحِقُوْنَ ٱحْبِسِ ٱحْبِسِ

وقد ثبت عن الصادق المصدوق؛ وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادة آلهتهم، قلت التأسيس كما قالوا أولى من حمله على التأكيد، لما في التأسيس من أهمية كل جملة بإفادتها لعلم لم تفده الأخرى، كما أشرنا إليه في سورة الرحمٰن والمرسلات، وإنما عبر سبحانه بـ﴿ما﴾ التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك، كما في قوله: سبحان ما سخركن لنا ونحوه.

والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ولا يختلف، وقيل: إنه أراد الصفة كما مر، كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، وقيل: إن ما، في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة؛ أي: لا أعبد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي، إلخ. انتهى من «الشوكاني».

وعبارة أبي حيان هنا: وللمفسرين في هذه الجمل أقوال[1]:

أحدها: أنها للتأكيد، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ توكيد لقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ ثانياً تأكيد لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أولاً، والتوكيد في لسان العرب كثير جداً نثراً ونظماً، وفائدة هذا التوكيد: قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبداً.

والثاني: أنه ليس للتوكيد، واختلفوا فقال الأخفش: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، فزال التوكيد؛ إذ قد تقيَّدت كل جملة بزمان مغاير.

---

(١) البحر المحيط.

وقال أبو مسلم[1]: ﴿مَا﴾ في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، و﴿مَا﴾ في الأُخريين مصدرية؛ أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، وقال ابن عطية: لما كان قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستأنُف منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أبداً وما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً، كالذي كشف الغيب، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ ولكن ﴿مَا﴾ هنا في قوم معينين، وقوم نوح عموا بذلك، لهذا معنى الترديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيما ذكرته. انتهى.

وقد ذكر النحاة: أن دخول لا على المضارع يراد به الحال، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو اهـ من «البحر».

وخلاصة معنى السورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾؛ أي: قل لهم يا محمد[2]: إن الإلٰه الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده؛ لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد، أو يحل في شخص، أو يتجلى في صورة معينة، أو نحو ذلك مما تزعمون، وأنا أعبد إلٰهاً لا مثيل له ولا ند، وليس له ولد ولا صاحبة، ولا يحل في جسم، ولا تُدرك كنهه العقول، ولا تحويه الأمكنة، ولا تمر به الأزمنة، ولا يُتقرب إليه بالشفعاء، ولا تقدم إليه الوسائل، وعلى الجملة فبين ما تعبدون وما أعبد فارق عظيم وبون شاسع، فأنتم تصفون معبودكم بصفات لا يجمل بمعبودي أن يتصف بها.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: إنكم لستم بعابدين إلٰهي الذي أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلٰهكم، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال، وبعد أن نفى الاختلاف في المعبود نفى الاختلاف في العبادة من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم، أو في المعابد التي أقاموها لها، أو في خلواتهم، وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله، وأن النبي ﷺ لا يفضلهم في شيء، فقال:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾؛ أي: ولا أنا بعابد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي، قاله أبو مسلم الأصفهاني كما مر.

وخلاصة ما سلف: الاختلاف التام في المعبود والاختلاف البين في العبادة، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة؛ لأن معبودي منزه عن الند والنظير، متعال عن الظهور في شخص معين وعن المحاباة لشعب أو واحد بعينه، والذي تعبدونه أنتم على خلاف ذلك، كما أن عبادتي خالصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى، فلا تسمى على الحقيقة عبادة، ثم هددهم وتوعدهم، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، وهذه الجملة تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾، وأما قوله: ﴿وَلِيَ﴾ - بفتح ياء المتكلم - ﴿دِينِ﴾ - بحذف الياء إذ أصله: ديني - فتقرير لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

والمعنى[1]: إن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضاً، كما تطمعون، فلا تعلّقوا به أمانيكم الفارغة، فإن ذلك من المحال، وإن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً، لأنكم علقتموه بالمَحال الذي هو عبادتي لآلهتكم، أو استلامي إياها؛ ولأن ما وعدتموه عين الإشراك، وحيث كان مبنى قولهم: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، على شركة الفريقين في كلتا العبادتين.. كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتماً؛ أي: إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بديني، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم على أعمالكم، ولي جزائي على عملي؛ لأن الدين هو الجزاء، وقال أبو الليث: وفي هذه الآية دليل على أن الرجل إذا رأى منكراً أو سمع قولاً منكراً، فأنكره ولم يقبلوا منه،

لا يجب عليه أكثر من ذلك، وإنما عليه مذهبه وطريقه، وتركهم على مذهبهم وطريقهم اهـ.

وهذه الآية: منسوخة بآية السيف كما مر، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ.

---

(١) روح البيان.

وفي الحديث: «مروا صبيانكم، فليقرؤوا هذه السورة عند المنام، فلا يعرض لهم شيء».

ومن خرج مسافراً فقرأ هذه السور الخمس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ رجع سالماً غانماً، وقرأ الجمهور[1]: بإسكان الياء من قوله: ﴿وليْ﴾ وقرأ نافع وهشام وحفص والبزي بفتحها، وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من ديني وقفاً ووصلاً، وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلاً ووقفاً، قالوا: لأنها اسم فلا تُحذف، ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسماً.

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب على المفعولية مبني على الضم، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، أو نعت لها، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا، يعود على محمد ﷺ. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما تعبدونه، ويجوز أن تكون مصدرية، فتكون مؤولة مع ما بعدها بمصدر مفعول مطلق. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها. ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، ووقعت للعقلاء على سبيل التعظيم، وجملة ﴿أَعْبُدُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما

---

(١) الشوكاني.

أعبده، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر منصوب على أنه مفعول مطلق. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنَاْ عَابِدٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿عَابِدٌ﴾، وجملة ﴿عَبَدتُّمْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة كانت أو مصدرية. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَـٰبِدُونَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿عَـٰبِدُونَ﴾، وجملة ﴿أَعْبُدُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿دِينُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ مقرِّرة لما قبلها. ﴿وَلِىَ﴾ خبر مقدم. ﴿دِينِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، دين مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت في إعراب السورة: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ...﴾ إلى آخر السورة مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾؛ لأن مرادنا لفظها لا معناها، والمقول منصوب بالقول، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الحكاية، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلْ﴾ أمر مقتطع من مضارعه المجزوم، وأصله: لم يقل، حذف الجازم وحرف المضارعة، فصار ﴿قُلْ﴾ بوزن فل، والمحذوف منه عين الكلمة، يقال: قال يقول قولاً إذا تلفظ بكلمة، والقول: لفظ مفرد وضع لمعنى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: جمع سلامة من كفر، مفرده كافر، والكفر بالضم والسكون ضد الإيمان، ويُفتح كالكُفور والكفران بضمهما، يقال: كفر بنعمة الله من باب نصر، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر، وقد كفره من باب دخل كفراً وكفراناً، وفي القاموس: كفر نعمة الله وبها كُفوراً وكفراناً، جحدها وسترها، وكافَرَه حقه جحده، والمكفَّر كمعظَّم المجحود النعمة مع إحسانه، والكافر الجاحد لأنعم الله تعالى، والجمع كفار وكفرة محركة، وكِفار ككتاب، وهي كافرة من

كوافر، ورجل كَفَّار كشدَّاد وكفور جمع كُفُر بضمتين، وكفر عليه يكفر ـ من باب ضرب ـ غطاه، والشيء ستره ككفَّره، والكافر الليل والبحر والوادي العظيم والنهر الكبير والسحاب المظلم والزارع والدرع ومن الأرض ما بعد عن الناس كالكَفْر بالفتح والسكون، والأرض المستوية والغائط الوطيء والنبت وموضع ببلاد هذيل، والظلمة كالكفرة بالفتح والسكون، والداخل في السلاح كالمكفر كمحدِّث، ومنه: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» أو معناه: لا تكفروا الناس، فتكفروا إلى آخر ما في هذه المادة.

فائدة: قالوا: وأول من سن الكفر والإباء والاستكبار إبليس اللعين، وأول من سن النسيان والتوبة آدم عليه السلام، وأول من سن القتل قابيل ولد آدم.

﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يقال: عبده يعبده ـ من باب نصر ـ إذا تذلل له، وأطاع، والعبد الإنسان حراً كان أو رقيقاً، والعبد أيضاً ضد الحر، والجمع عبيد مثل كلب وكَلِيب، وهو جمع عزيز وأعبُد وعِباد وعُبْدان بالضم كتمر وتمران، وعبدان بالكسر وتشديد الدال، وعِبْدان بالكسر كجحش وجحشان إلى آخر ما في هذه المادة اهـ «مختار» كما ذكرناه في رسالتنا «سلَّم المعراج على خطبة المنهاج».

﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ و﴿ما﴾ في هذه السورة يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى الذي، فإن كان المراد بها الأصنام، كما في الأولى والثالثة فالأمر واضح؛ لأنهم غير عقلاء، وما أصلها أن تكون لغير العقلاء، وإذا أريد بها الباري سبحانه، كما في الثانية والرابعة، فاستدل به من جوَّز وقوعها على أولي العلم، ومن منع جعلها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي؛ أي: مثل عبادتي، وقال أبو مسلم ﴿مَا﴾ في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، و﴿مَا﴾ في الأخريين مصدرية؛ أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، فتحصَّل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال.

والثاني: أنها كلها بمعنى الذي أو مصدرية، أو الأوليان بمعنى الذي، والأخريان مصدريتان، ولقائل أن يقول: لو قيل: بأن الأولى والثالثة والرابعة مصدرية.. لكان حسناً حتى لا يلزم وقوع (ما) على أولي العلم، وهو مقتضى قول

من يمنع وقوعها على أولي العلم، كما تقدم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: خطابهم بهذا الوصف الشنيع الرذيل في محل عزهم وشوكتهم في قوله: ﴿أيها الكافرون﴾ إيذاناً بأنه ﷺ محروس منهم.

ومنها: التعبير فيه بالجمع الصحيح الذي من أوزان جمع القلة دلالة على قلتهم أو حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة معينون، كما مر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾، فالأولى نفي، والثانية إثبات.

ومنها: المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾.

ومنها: تقديم المسند على المسند إليه في قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ إفادةً للقصر، ويكون القصر فيه قصر إفراد؛ لإفادته قصر كل من الفريقين بعبادة إلٰهه.

ومنها: التكرير في هذه السورة؛ لإفادة التأكيد عند من يقول به.

ومنها: إيثار ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على من إشعاراً بأن المراد منها الوصف، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿أَعۡبُدُ﴾ و﴿عَابِدٌ﴾، وبين ﴿عَبَدتُّمۡ﴾ و﴿عَٰبِدُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الكافرون اليوم التاسع والعشرين من شهر الله المحرم قبيل الغروب من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النصر

سورة النصر، وتسمى سورة التوديع، مدنية بلا خلاف، نزلت بعد سورة التوبة، وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ودين الكفار الذي يعكفون عليه.. أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول، وأن الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة.

وقال أبو حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: أنه لما كان في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ موادعة جاء في هذه السورة بما يدل على تخويفهم وتهديدهم، وأنه آن مجيء نصر الله وفتح مكة واضمحلال ملة الأصنام، وإظهار دين الله تعالى.

فضلها: ومما ورد في فضلها ما تقدم في تفسير سورة الزلزلة أنها تعدل ربع القرآن، وسورة إذا زلزلت تعدل أيضاً ربع القرآن، ومنه ما روي[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة إذا جاء أُعطي من الأجر كمن شهد مع محمد ﷺ يوم فتح مكة» زادها الله شرفاً، ولكن فيه مقال.

تسميتها: وتسمى هذه السورة سورة التوديع، واختُلف في أنهم من أي وجه علموا ذلك، وليس في ظاهرها نعي، فقيل: لأن التقدير: فسبح بحمد ربك فإنك حينئذٍ لاحق بالله وذائق طعم الموت، كما ذاقه من قبلك جميع الرسل، وعند الكمال يرقب الزوال، كما قال الشاعر:

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّ

وقيل: لأنه سبحانه أمره بتجديد التوحيد واستدراك الفائت بالاستغفار، وذلك

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البيضاوي.

مما يلزم عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الأبرار، وسميت سورة النصر؛ لذكر النصر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة النصر كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

أسباب النزول

قيل: نزلت منصرَفَهُ ﷺ، من غزوة خيبر، وعاش بعد نزولها سنتين، وقال ابن عمر: نزلت في أوسط أيام التشريق بمنىٰ في حجة الوداع، وعاش ﷺ بعدها ثمانين يوماً أو نحوها، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أُنزل بالمدينة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي، في «الدلائل» عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى، وهو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ حتى ختمها، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع.

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعيت إلي نفسي وقرب إليَّ أجلي»، وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضاً قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ نُعِيَتْ لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: لما أُنزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلا عمر في أمته شطر ما عُمِّر النبي الماضي قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي وعشرون سنة، وأنا ميت في هذه السنة» فبكت فاطمة، فقال النبي ﷺ: «أنت أول أهلي بي لحوقاً فتبسمت».

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.. دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نُعيت إلي نفسي»، فبكت ثم

ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعيت إليه نفسه، فبكيت، فقال: «اصبري، فإنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت».

وكان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ، فلحقت به ـ رضي الله عنها ـ بعد ستة أشهر، وقال الزمخشري إنها لما نزلت هذه السورة خطب رسول الله ﷺ، فقال: «إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله، فعلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: فديناك يا رسول الله بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: إذا حصلت إعانته تعالى وإظهاره إياك على أعدائك، فإن[1] قلت: لا شك أن ما وقع من الفتوح كان بنصرة المؤمنين، فما وجه إضافتها إلى الله؟.. قلت: لأن أفعالهم مستندة إلى دواعي قلوبهم، وهي أمور حادثة لا بد لها من محدث، وهو الله تعالى، فالعبد هو المبدأ الأقرب، والله هو المبدأ الأول والخالق للدواعي وما ينبني عليها من الأفعال، والعامل في إذا، هو ﴿سبح﴾؛ أي: فسبح إذا جاء نصر الله، ولا يمنع الفاء عن العمل على قول الأكثرين، أو فعل الشرط كما سيأتي.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ أي: فتح مكة، على أن الإضافة و﴿اللام﴾ للعهد، وهو الفتح الذي تطمح إليه الأبصار، ولذلك سمي فتح الفتوح، ووقع الوعد به في أول سورة الفتح، وقد سبقت قصة الفتح في تلك السورة، وقيل: جنس نصر الله، ومطلق الفتح على أن الإضافة و﴿اللام﴾ للاستغراق، فإن فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها، كما أن نفسَها أمُ القرى وإمامها جعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح، وعلَّق به أمره ﷺ، وأنهما على جناح الوصول إليه عن قريب.

يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً إذا أعانه عليه، قال الواحدي[2]: قال المفسرون: ﴿إِذَا جَآءَ﴾ك يا محمد ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه على من عاداك، وهم قريش ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ أي: فتح مكة، وقيل المراد: نصره ﷺ على قريش من غير تعيين، وقيل: نصره على من قاتله من الكفار، وقيل: هو فتح سائر البلاد، وقيل: هو ما

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فتحه الله عليه من العلوم.

وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجيء؛ للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ، وقيل: ﴿إِذَا﴾ بمعنى قد، وقيل: بمعنى إذ، وقال الرازي: الفرق بين النصر والفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان مغلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف عليه الفتح، أو يقال: النصر: كمال الدين، والفتح: إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة، أو يقال: النصر الظفر، والفتح الجنة. انتهى.

وهذا معنى كلامه، ويقال: الأمر أوضح من هذا وأظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء، ودخول منازلهم، فظهر من هذا أن كلاً من النصر والفتح في الآية ينبغي أن يحمل على ما هو المطلق، لكني اقتفيت أثر أهل التفسير في تقديم ما هو المقيد، لكنه قول مرجوح تسامح الله عن قائله.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي[1]: أبصرتهم أو علمتهم، يعني: العرب، و﴿اللام﴾ للعهد، أو الاستغراق العرفي، جعلوه خطاباً للنبي ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب عاماً لكل مؤمن، وحينئذ يظهر جواب آخر من أمر النبي ﷺ بالاستغفار، مع أنه لا تقصير له، إذ الخطاب لا يخصه، فالأمر بالاستغفار لمن سواه وإدخاله في الأمر تغليب.

﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها، والجملة على تقدير الرؤية بصرية حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وعلى تقديرها علمية مفعول ثان.

وقال بعضهم: ومما يختلج في القلب أن المناسب لقوله: ﴿يَدْخُلُونَ...﴾ إلخ أن يُحمل قوله: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ على فتح باب الدين عليهم، وقوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾؛ أي: يدخلون فيه حال كونهم جماعات كثيرة فوجاً بعد فوج، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً أو اثنين اثنين، قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة.. قالت

(١) روح البيان.

العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بلا قتال، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام، قال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه وفد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين، قال أبو عمر ابن عبد البر: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حُنين منهم من قدم، ومنهم من قدم وافده، وقال ابن عطية: والمراد والله أعلم: العرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب، فما أسلموا في حياته ﷺ، ولكن أعطوا الجزية.

وفي «عين المعاني» ﴿ٱلنَّاسَ﴾: هم أهل البحر، وقال ﷺ: «الإيمان يماني والحكمة يمانية»، وقال: وجدت نَفَس ربكم من جانب اليمن؛ أي: تنفيسه من الكرب، وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: أنه بكى ذات يوم، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً».

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جواب الشرط، وهو[1] العامل في ﴿إِذَا﴾، والتقدير: فسبح يا محمد حال كونك متلبساً بحمد ربك وقت حصول نصر الله إياك على أعدائك، وحصول فتح البلاد لك ورؤيتك الناس حال كونهم داخلين في دين الله جماعةً جماعةً، وقال مكي: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو ﴿جَآءَ﴾، ورجحه أبو حيان، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها.

والتسبيح هنا[2]: مجاز عن التعجب بعلاقة السببية، فإن من رأى أمراً عجيباً يقول: سبحان الله، قال ابن الشيخ: لعل الوجه في إطلاق هذه الكلمة عند التعجب، كما ورد في الأثر: «ولكل أعجوبة سبحان الله» هو أن الإنسان عند مشاهدة الأمر العجيب الخارج عن حد أمثاله يستبعد وقوعه وتنفعل نفسه منه، كأنه استقصر قدرة الله، فلذلك خطر على قلبه أن يقول من قدر عليه وأوجده، ثم إنه في هذا الزعم مخطىء، فقال: سبحان الله تنزيهاً لله عن العجز عن خلق أمر عجيب يُستبعد وقوعه؛ لتيقنه بأن الله على شيء قدير.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قال السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: والحكمة في اقتران الحمد بالتسبيح أبداً، نحو قوله: ﴿سبح بحمد ربك﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أن معرفة الله سبحانه تنقسم على قسمين: معرفة ذاته، ومعرفة أسمائه وصفاته، ولا سبيل إلى إثبات أحد القسمين دون الآخر، وإثبات وجود الذات من مقتضى العقل وإثبات الأسماء والصفات من مقتضى الشرع، فبالعقل عُرف المسمى، وبالشرع عُرفت الأسماء، ولا يتصور في العقل إثبات الذات إلا مع نفي سمات الحدوث عنها، وذلك هو التسبيح، ومقتضى العقل مقدم على مقتضى الشرع، وإنما جاء الشرع المنقول بعد حصول النظر والعقول، فنبه العقول على النظر، فعرفت ثم علَّمها ما لم تكن تعلم من الأسماء، فانضاف لها التسبيح والحمد والثناء، فما أمرنا تسبيحه إلا بحمده. انتهى.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: فقل يا محمد سبحان الله حال كونك متلبساً بحمد ربك؛ أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يكن يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم، واحمده على جميع صنعه، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن، ونحو ذلك.

وقال بعضهم: والأشبه أن يراد نزهه عن العجز في تأخير ظهور الفتح، واحمده على التأخير وصفه بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا بحِكَم لا يعرفها إلا هو. انتهى. أو المعنى[1]: فاذكره مسبحاً حامداً، وزد في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك، أو فصلِّ له حامداً على نعمه، فالتسبيح مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية؛ لأنها تشتمل عليه في الأكثر، روي أنه ﷺ لما فتح الكعبة.. صلى صلاة الضحى ثماني ركعات، وحملها بعضهم على صلاة الشكر لا على صلاة الضحى،

(١) روح البيان.

وبعضهم على أن أربعاً منها للشكر وأربعاً للضحى، أو المعنى: فنزهه عما يقول الظلمة حامداً له على أن صدق وعده.

وحاصل معنى ما تقدم: من أول السورة إلى هنا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؛ أي[1]: إذا رأيت نصر الله لدين الحق وانهزام أهل الشرك وخذلانهم، وفتح الله بينك وبين قومك بجعل الغلبة لك عليهم وإعزاز أمرك وإعلاء كلمتك: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ورأيت الناس يدخلون في دينك وينضوون تحت لوائك جماعات لا أفراداً، كما كان في بدء أمرك: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: إذا تم لك كل ذلك، فنزه ربك وقدسه عن أن يُهمل الحق ويدعه للباطل يتغلب عليه، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به بأن يجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون.

وليكن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم وشكره على ما منحك من خير والثناء عليه بما هو له أهل، فإنه هو القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي إذا أهمل الكافرين فلن يضيع أجر العاملين.

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾؛ أي: واطلب من ربك المغفرة لذنبك هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستعظاماً لحقوق الله، واستدراكاً لما فَرَط منك من ترك ما هو الأولى. وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله تعالى ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو استغفره لذنبك وللمؤمنين، وهو المناسب لما في سورة محمد، وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق، ولك أن تقول: إن في التقديم المذكور تعليم أدب الدعاء، وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول عنه.

وقيل: إن[2] الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبُّد تعبَّدَهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم، وقيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته وتعريضاً بهم، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار، وقيل: إن الله سبحانه أمره

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

بالاستغفار لأمته لا لذنبه؛ أي: واسأل أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر، والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليبها على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك الكمال، ومن ثم أمره به، وهكذا يحدث في نفوس الكملة أصحابه وأتباعه ما يقارب ذلك، والله يتقبله منهم، ثم علل طلب الاستغفار بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى كان كثير القبول لتوبة عباده مبالغاً في قبول توبتهم منذ خلق المكلفين، فليكن كل تائب مستغفر متوقعاً للقبول، وذلك لأنه يربي[1] النفوس بالمحن، فإذا وجد الضعف أنهضها إلى طلب القوة، وشدَّ عزيمتها بحسن الوعد، ولا يزال بها حتى تبلغ مرتبة الكمال، وهذه الجملة تعليل لأمره ﷺ بالاستغفار؛ أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم.

وفي اختيار[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ حتى قيل: وتب مضمر بعده، وإلا لقال: غفاراً تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود، ثم إن مَن أضمر: وتب، يحتمل أنه جعل الآية من الاحتباك، حيث دل بالأمر بالاستغفار على التعليل بأنه كان غفاراً، وبالتعليل بأنه كان تواباً على الأمر بالتوبة؛ أي: استغفره وتب.

وذكر البرهان الرشيدي: أن صفات الله تعالى التي على صيغة المبالغة كلها مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكبر وأكثر مما له وصفاته تعالى منزهة عن ذلك، واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله، وقال الزركشي في «البرهان»: التحقيق أن صيغة المبالغة قسمان:

أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

والثاني: بحسب تعدد المفعولات، ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة، إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين، وعلى هذا القسم تُنَزَّلُ صفاته

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ويُرفع الإشكال، ولهذا قال بعضهم في حكيم معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع، وقال في «الكشاف»: المبالغة في التوبة؛ للدلالة على كثرة من يتوب عليه، أو لأنه بليغ في قبول التوبة بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة رحمته وكرمه.

وخلاصة ما سلف(١): إذا حصل الفتح وتحقق النصر، وأقبل الناس على الدين الحق، فقد زال الخوف، فعليك أن تسبح ربك وتشكره وتنزع عما كان من خواطر النفس وقت الشدة، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس المخلصين من عباده ما داموا على تلك الكثرة ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة، وقد فهم النبي ﷺ من هذا أن الأمر قد تم ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى، فقال فيما روي عنه: أنه قد نُعيت إليه نفسه، وقال الحسن: أعلم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، اغفر لي إنك أنت التواب.

قال قتادة ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين. وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى...﴾ فعاش بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً.

الإعراب

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾: معطوف على ﴿نَصْرُ﴾، والمصدر مضاف إلى فاعله، ومفعوله محذوف تقديره: نصر الله إياك والمؤمنين، والجملة الفعلية في محل

(١) المراغي.

الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق فالجواب الآتي أعني: ﴿فَسَبِّحْ﴾. وقال أبو حيان: ولا يصح إعمال ﴿فَسَبِّحْ﴾ في ﴿إِذَا﴾ لأجل الفاء؛ لأن فاء الجواب لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، بل العامل في ﴿إِذَا﴾ فعل الشرط المذكور بعدها على الصحيح. ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿جَآءَ﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿قُلْ﴾، ويجوز أن تكون الرؤية إما بصرية، فتكون جملة ﴿يَدْخُلُونَ﴾ حالاً من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وأن تكون علمية، فتكون الجملة مفعولاً ثانياً لـ﴿رأيت﴾، و﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿أَفْوَاجًا﴾: حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إذا وجوباً، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: حال كونك متلبساً بحمد ربك، والجملة الفعلية جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، و﴿الباء﴾ للمصاحبة، والحمد مصدر مضاف للمفعول. ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿سبح﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالاستغفار، و﴿تَوَّابًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ النصر: العون، يقال: نصره على عدوه وينصره نصراً إذا أعانه عليه، والاسم النصرة، ونصر الغيث الأرض إذا أعان على إظهار نباتها، ومنع من قحطها، قال شاعرهم:

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزي بلاد تميم وانصري أرض عامر

ويقال: استنصره على عدوه إذا سأله أن ينصره عليه.

﴿وَٱلْفَتْحُ﴾: الفصل بينه وبين أعدائه، وإعزاز دينه وإظهار كلمته.

﴿أَفْوَاجًا﴾ والأفواج: جمع فوج، وهو الجماعة والطائفة، قال الحوفي: وقياس جمعه: أَفْوُج على وزن أفعُل، ولكن استُثقلت الضمة على الواو، فعُدل إلى أفواج، كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون معتل العين كالصحيح، فكما أن قياس فعل صحيحه أن يُجمع على أفعُل لا على أفعال، فكذلك هذا، والأمر في هذا المعتل

بالعكس، القياس فيه أفعال كحوض وأحواض، وشذ فيه أفعل كثوب وأثوب.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ أي: اسأله واطلب منه أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك.

﴿تَوَّابًا﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة عباده، وهو من صيغ المبالغة، وقد سبق لك عن الرشيدي: أن صيغة المبالغة كلها في صفات الله مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يُثبت للشيء أكثر مما كان له أصالة، وصفاته تعالى منزهة عن ذلك، واستحسنه التاج السبكي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حصل نصر الله حيث أطلق اسم المجيء على الحصول، واستعاره له، فاشتق من المجيء بمعنى الحصول جاء بمعنى حصل، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وإنما تجوَّز عن الحصول بالمجيء؛ للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، فتقرب منها شيئاً فشيئاً، فكأنها سائرة إليها.

ومنها: عطف المسبَّب على السبب في قوله: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لأن الفتح مسبَّب عن نصر الله تعالى إياه، وفيه أيضاً إطلاق العام وإرادة الخاص؛ لأن الفتح يشمل جميع الفتوح، ولكن المراد هنا فتح مكة على قول.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ كالإضافة في ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، وبيت الله.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾؛ لأن لفظ الناس عام، ولكن المراد به هنا العرب. ويقال: إن في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ استعارة مكنية تبعية، شَبَّه المقدور وهو النصر والفتح بكائن حي يمشي متوجهاً من الأزل إلى وقته المحتوم، فشبه الحصول بالمجيء وحذف المشبه به، وأخذ شيئاً من خصائصه، وهو المجيء.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ فإن التسبيح فيه مجاز عن التعجب بعلاقة السببية، فإن من رأى أمراً عجيباً يقول: سبحان الله، وقيل: هو مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية؛ لأن الصلاة تشتمل عليه غالباً.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة النصر أوائل وقت العشاء من ليلة الثلاثاء الليلة الثانية من شهر صفر من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة المسد

سورة المسد، وتسمى سورة تبَّت وسورة أبي لهب، مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الفتح، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة، قالوا: نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ بمكة.

وهي: خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستيلاء له في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وهنا ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

وعبارة أبي حيان هنا: ولما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى.. أتبع بذكر من لم يدخل في الدين وخسر، ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان اهـ.

التسمية: وسميت سورة المسد: لذكر لفظ المسد فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة المسد كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.. خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، ونادى بطون قريش، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير حتى جعل الرجل إذا لم يذهب بنفسه يُرسل رسولاً؛ لينظر ما الخبر، وكان في المجتمعين أبو لهب، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر الأيام، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾...﴾ إلى آخر السورة، وفي رواية: إنه قام بنفض يديه، ويقول: تباً لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ...﴾ إلخ، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيه هذه السورة؛ ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيه مطاوعة لهواه، وإيثاراً لما ألفه من العقائد الزائغة والعوائد الباطلة والأعمال الفاسدة، واغتراراً بما عنده من الأموال الوافرة، وبما له من الصولة والمنزلة الشامخة في قلوب الرجال، وأن النسب الحقيقي إنما هو نسب الدين والعقيدة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَّتْ﴾؛ أي: خسرت وهلكت وخابت ﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ تثنية يد، واللهب واللهيب اشتعال النار إذا خلص من الدخان، أو لهبها لسانها، ولهيبها حرها، وأبو لهب، وقد تسكَّن هاؤه أحد أعمام النبي ﷺ، واسمه: عبد العزىٰ بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وكان

كثير الإيذاء والبغضة لرسول الله ﷺ والازدراء به والتنقيص له ولدينه القويم، وكُني بأبي لهب، لإشراق وجنتيه وتلهبهما ووضاءتهما، وإلا فليس له ابن يسمى باللهب، وخص اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما، وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس، كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾؛ أي: نفسك، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يدا المنايا، كما في قول الشاعر:

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ ٱلرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَىٰ أَلاَ مُجِيْرُ

وإيثار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه؛ لما روي: أنه لما نزل قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.. رقى رسول الله ﷺ على الصفا وجمع أقاربه، فأنذرهم، فقال: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال عمه أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ وأخذ بيديه حجراً ليرميه ﷺ به، فمنعه الله من ذلك حيث لم يستطع أن يرميه، فلا كناية في ذكر اليدين على هذه الرواية، ووجه وصف يديه بالتباب والهلاك ظاهر؛ لرد ما اعتقده وقصده من إيذاء رسول الله ﷺ ورميه بالحجر.

وذكر في «التأويلات الماتريدية» أنه كان كثير الإحسان إلى رسول الله ﷺ، وكان يقول: إن كان الأمر لمحمد، فيكون لي عنده يد، وإن كان لقريش فلي عندها يد، فأخبر سبحانه أنها خسرت يده التي كانت عند محمد ﷺ بعناده وتكذيبه له، ويده التي عند قريش أيضاً لخسران قريش، وهلاكهم في يد محمد ﷺ.

وهذه الجملة دعاء عليه بهلاك نفسه وتبابه عن كل خير، ولما كانت اليد هي آلة العمل والبطش، فإذا هلكت وانقطعت وخسرت كان الشخص كأنه معدوم هالك أسند الهلاك إليها، فخسرانها كناية عن خسران الشخص نفسه، وهلاكها كناية عن هلاكه، فإذا دُعي عليه بخسران يديه فقد دُعي عليه بخسران نفسه، فكأنه قال: تب وخسر وهلك أبو لهب وضل عمله وسعيه، ولذلك قال بعد الجملة الدعائية: ﴿وَتَبَّ﴾ فـ﴿الواو﴾ فيه للاستئناف؛ أي: وقد تب أبو لهب، وتحقق ذلك التباب الذي دُعي به عليه، وحصل، قال الفراء: الأول دعاء عليه بالتباب، والثاني: إخبار عن تحقق ذلك الدعاء وحصوله، فكأنه قال: أهلكه الله سبحانه وتعالى، وقد أهلك فعلاً، كقولهم: أهلك الله فلاناً وقد هلك، والمعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه،

كما قال أبو حيان: والظاهر أن الأول دعاء، والثاني إخبار بحصول ذلك، كما قال الشاعر:

جَـزَانِـيْ جَـزَاهُ ٱلـلَّـهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ جَزَاءَ ٱلْكِلاَبِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿وقد تب﴾ فإن كلمة قد لا تدخل على الدعاء، وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه، وقيل: كلاهما دعاء عليه، ويكون في هذا شبه مجيء العام بعد الخاص، وإن كانت حقيقة اليدين غير مرادة.

والمراد هنا[١]: بيان استحقاقه، لأن يُدعى عليه بالهلاك، فإن حقيقة الدعاء شأن العاجز، والله منزه عن ذلك، وإنما ذكره سبحانه وتعالى بكنيته، مع أن التكنية من باب التكرمة، وهو لا يستحقها؛ لاشتهاره بكنيته، فليست للتكريم، أو لكراهة ذكر اسمه القبيح؛ إذ فيه الإضافة إلى الصنم؛ لأن اسمه عبد العزى، والعزى من أسماء الصنم، أو للتعريض بكونه جهنمياً؛ لأنه سيصلى ناراً ذات لهب، يعني: أن أبا لهب باعتبار معناه الإضافي يصلح أن يكون كناية عن حاله، وهي كونه جهنمياً؛ لأن معناه باعتبار إضافته مُلابس اللهب، كما أن معنى أبو الخير وأخو الحرب بذلك الاعتبار مُلابس الخير، أو الحرب واللهب الحقيقي لهب جهنم، وهذا المعنى يلزمه أنه جهنمي، ففيه انتقال من الملزوم إلى اللازم، فهي كنية تفيد الذم، فاندفع ما يقال هذا يخالف قولهم، ولا يكنى كافر وفاسق ومبتدع إلا لخوف فتنة أو تعريف؛ لأن ذلك خاص بالكنية التي تفيد المدح، لا التي تفيد الذم، ولم يشتهر بها صاحبها، أو لأن الاسم أشرف من الكنية، فعدل إلى الأنقص، ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم، ولم يكنِ أحداً منهم اهـ من «البحر».

قال في «الإتقان»: ليس في القرآن من الكنى غير أبي لهب، ولم يذكر اسمه وهو عبد العزى؛ أي: الصنم؛ لأنه حرام شرعاً. انتهى.

وفيه أن الحرام وضع ذلك لا استعماله، وفي كلام بعضهم: ما يفيد أن الاستعمال حرام أيضاً إلا أن يشتهر بذلك، كما في الأوصاف المنقِّصة كالأعمش

---

(١) روح البيان.

والأعرج. وكان بعد نزول هذه السورة لا يشك المؤمن أنه من أهل النار بخلاف غيره، ولم يقل في هذه السورة: قل تبت إلخ؛ لئلا يكون مشافهاً؛ لعمه بالشتم والتغليظ، وإن شتمه عمه؛ لأن للعم حرمة كحرمة الأب؛ لأنه مبعوث رحمة للعالمين، وله خلق عظيم، فأجاب الله عنه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَهَبٍ﴾ بفتح اللام والهاء، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء، وقال الزمخشري: وهذا من تغيير الأعلام، كقولهم: شُمْس بن مالك بالضم. انتهى، يعني: سكون الهاء في ﴿لَهَبٍ﴾ وضم الشين في شمس يعني في قول الشاعر:

وَإِنِّـيْ لَـمُـهْـدٍ مِـنْ ثَـنَـائِـيْ فَـقَـاصِـدٌ ... بِهِ لابْنِ عَمِّيْ ٱلصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ

فأما في ﴿لَهَبٍ﴾ فالمشهور في كنيته فتح الهاء، وأما شمس بن مالك فلا يتعين أن يكون من تغيير الأعلام، بل يمكن أن يكون مسمى بشمس المنقول من شمس الجمع، كما جاء أذناب خيل شمس، واتفقوا على فتح الهاء في قوله: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ لأنها فاصلة، والسكون يزيلها على حسن الفاصلة، وروىٰ صاحب الكشاف أنه قرىء: ﴿تبت يدا أبو لهب﴾ بالواو، كما قيل: علي بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان، مع أن القياس الياء؛ لكونه مضافاً إليه، كيلا يغير منه شيء فيشكل على السامع.

والحاصل: أن الكنية بمنزلة العلم، والأعلام لا تتغير في شيء من الأحوال، وكان لبعض أمراء مكة ابنان: أحدهما عبدِ الله بالجر، والآخر عبدَ الله بالفتح.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة الصادقة لرسول الله ﷺ وصدق هذا الكتاب الكريم الذي جاء به من عند ربه، فإنه سبحانه وتعالى قد أخبر عن أبي لهب وزوجته أم جميل بالشقاء وعدم الإيمان، وقد تحقق ذلك منهما، ولم يقيض الله لهما أن يؤمنا كلاهما ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، على بعد الزمان والمسافة بين نزول هذه السورة وانتهاء عصر النبوة الأعز الأيمن، فكانت من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة، وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن رجل يقال له: ربيعة بن عباد، وكان جاهلياً

---

(١) البحر المحيط.

فأسلم قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: ياأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون إليه، ووراءه رجل وضيىء الوجه، أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إني لمع أبي رجل شاب، انظر إلى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيىء الوجه، ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبائل، فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن آقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

وهكذا كان يقف هذا العم الخائب العائب لدين الله موقف الخصم المعاند الجاحد، فاستحق غضب الله ومقته وعذابه، وجعله الله عبرة ومثلاً للمخالفين إلى يوم الدين، ولم تنفعه قرابته القريبة؛ إذ لم يؤمن بهذه الرسالة الخالدة الحبيبة، واستحق أن يقال فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] ومن ذلك تعلم أن أبا لهب كان يصد عن الحق وينفِّر عن اتباعه، وذاع عنه تكذيبه للرسول ﷺ وتحديه، واتباع خطواته لدحض دعوته، والحط من شأن دينه وما جاء به، ثم ذكر أن ما كان يعتز به في الدنيا من مال وجاه.. لم يغن عنه من الله شيئاً في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ﴾؛ أي: ما دفع عن أبي لهب ما حل به من التباب وما نزل به من عذاب الله ﴿مَالُهُۥ﴾؛ أي: ما جمعه من رؤوس أمواله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ أي: ولا ما كسبه من الأرباح والجاه، أو المراد بقوله: ﴿مَالُهُۥ﴾: ما ورثه من أبيه، وبقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الذي كسبه بنفسه، قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل من كسبه.

والمعنى: أي لم يُفد حينئذ ماله، ولا عمله الذي كان يأتيه في الدنيا من

(١) المراغي.

معاداته رسول الله ﷺ طلباً للعلو والظهور، فكما أن ذلك لم يُجْدِهِ شيئاً في الدنيا؛ إذ لم يتغلب على الرسول ﷺ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل.. لم يفده في الآخرة، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار، أي: لم يُغن[1] عنه ماله حين حل به التباب، ولم ينفعه أصلاً على أن ﴿مَآ﴾ نافية، أو أي شيءٍ أغنى عنه؟ على أنها استفهامية في معنى الإنكار، منصوبة بما بعدها على أنها مفعول به، أو أيَّ إغناء أغنى عنه؟ على أنها مفعول مطلق، أصل ماله وما كسبه به من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع، ولا أحد أكثر مالاً من قارون وما دفع عنه الموت والعذاب، ولا أعظم ملكاً من سليمان عليه السلام وما دفع عنه الموت، والظاهر أن ﴿مَآ﴾ الأولى نافية، والثانية موصولة، أو المراد: ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه كما مر آنفاً، أو عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبي ﷺ، أو عمله الذي ظن أنه منه على شيء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ وقرأ عبد الله[2]: ﴿وما اكتسب﴾ بتاء الافتعال، قال ابن مسعود لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى.. قال أبو لهب: إن كان ما تقول يابن أخي حقاً، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ وقد خاب رجاه[3]، وما حصل ما تمناه، فافترس ولده عتيبة - مصغراً - أسد في طريق الشام، وذلك أن عتيبة بن أبي لهب، وكان تحته ابنة رسول الله ﷺ زينب - رضي الله عنها - أراد الخروج إلى الشام، فقال: لآتين محمداً فلأوذينه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنته وطلقها، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»، فرجع عتيبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير، فقال: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب: أعينوني يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا لعتيبة، فجاء الأسد يتخللهم ويتشمم وجوههم، حتى ضرب عتيبة فقتله، وهلك أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال، والعدسة بثرة تخرج في البدن تشبه العدسة، وهي من جنس

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الطاعون تقتل غالباً، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريش تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان واحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن الكريم.

وفي «إنسان العيون»: لم يحفروا له حفيرة، ولكن أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه، وفي رواية: حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه، وقولنا: عُتَيبة ـ بالتصغير ـ، وأما عُتبة ـ مكبَّراً ـ ومعتب فقد أسلما، قال بعضهم في أولاد أبي لهب:

كَرِهْتُ عُتَيْبَةَ إِذْ أَجْرَمَا وَأَحْبَبْتُ عُتْبَةَ إِذْ أَسْلَمَا
كَذَا مُعْتِبُ مُسْلِمٌ فَاحْتَرِزْ وَخَفْ أَنْ تَسُبَّ فَتىً مُسْلِمَا

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها، والقبر الذي يُرجم خارج باب الشبيكة الآن ليس بقبر أبي لهب، وإنما هو قبر رجلين لطخا الكعبة بالعذرة، وذلك في دولة بني العباس، فإن الناس أصبحوا يوماً، فوجدوا الكعبة ملطخة بالعذرة، فرصدوا للفاعل، فأمسكوهما بعد أيام فصلبا في ذلك الموضع فصارا يُرجمان إلى الآن، هذا وما ذُكر من العذاب مآل أمره في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة، ﴿سَيَصْلَىٰ﴾؛ أي: سيدخل لا محالة ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ أي: ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقد، وهي نار جهنم؛ أي: سيذوق حر النار ويعذب بلظاها وليس هذا نصاً في أنه لا يؤمن أبداً حتى يلزم من تكليفه الإيمان بالقرآن أن يكون مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن أبداً، فيكون مأموراً بالجمع بين النقيضين، كما هو المشهور، فإن صَلْيَ النار غير مختص بالكفار، فيجوز أن يفهم أبو لهب من هذا أن دخوله النار لفسقه ومعاصيه، لا لكفره، فلا اضطرار إلى الجواب المشهور من أن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي ﷺ إجمالاً، لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن، حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ ـ بفتح الياء وإسكان الصاد وبتخفيف اللام ـ؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: سيصلى هو بنفسه، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلي وأبو السمال والأعمش ومحمد بن السميفع: ﴿سيُصَلَّى﴾ - بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام -، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، والمعنى: سيصليه الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على الضمير[1] المستتر؛ لكون الفصل بالمفعول؛ أي: وستصلى امرأته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب، عمة معاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنه - واسمها: العوراء بنت حرب، وقيل: اسمها أروى، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان، فتنشرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وكان رسول الله يَطَؤُه كما يطأ الحرير، وفي «تفسير أبي الليث»: حتى كان النبي ﷺ وأصحابه في شدة وعناء اهـ. كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني.

وقال مجاهد وقتادة والسدي: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس والعرب: تقول فلان يحطب على فلان إذا نم به، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَـنِـيْ ٱلأَرْزَمِ حَـمَّـالُـوْ ٱلْـحَـطَـبْ   هُـمُ ٱلْـوُشَـاةُ فِـيْ ٱلـرِّضَـا وَفِـيْ ٱلْـغَـضَـبْ
عَـلَـيْـهِـمُ ٱلـلَّـعْـنَـةُ تَـتْـرَىٰ وَٱلْـحَـرَبْ

وقال الآخر:

مِنَ ٱلْبِيْضِ لَمْ يَصْطَدْ عَلَىٰ ظَهْرِ لامَةٍ   وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ ٱلْحَيِّ بِٱلْحَطَبِ ٱلرَّطْبِ

وجعل الحطب في هذا البيت رطباً؛ لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشر، ومن الموافقة للمشي بالنميمة.

وقرىء[2]: ﴿مريئته﴾ و﴿مريته﴾ بالتصغير فيهما وبالهمز وبإبدالها ياء وإدغام ياء التصغير فيها.

وخلاصة ما سلف[3]: أي خسر أبو لهب وضل عمله، وبطل سعيه الذي كان

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

يسعاه للصد عن دين الله، ولم يغن عنه ماله الذي كان يتباهى به، ولا جده ولا اجتهاده في ذلك، فإن الله أعلى كلمة رسوله ونشر دعوته وأذاع ذكره، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر ولهب وإحراق شديد، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ودحض عمله، وسنعذب معه امرأته التي كانت تعاونه على كفره وجحده، وكانت عضده في مشاكسة رسول الله ﷺ وإيذائه، وكانت تمشي بالنميمة للإفساد وإيقاد نار الفتنة والعداوة، كما قال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ وستعذب أيضاً بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعي بالنميمة إطفاءً لدعوة رسوله ﷺ، والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد بين الناس هو يحمل الحطب بينهم، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلاتٍ، وقيل: إنها كانت تحمل حزم الشوك والحسك والسعدان، وتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ لإيذائه.

فإن قلت: إنها كانت من بيت العز والشرف، فكيف يليق بها حمل الحطب؟

قلت: إنها لشدة عداوتها للنبي ﷺ لا تستعين في ذلك بأحد، بل تفعله بنفسها اهـ «صاوي».

وقال سعيد بن جبير معنى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ إنها حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، كما في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ وقيل: المعنى: حمالة الحطب في النار، وقرأ الجمهور[1]: ﴿حمالةُ﴾ بالرفع على الخبرية، على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وأما على ما قدمنا من عطف ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ على الضمير في ﴿تصلى﴾ فيكون رفع ﴿حمالة﴾ على النعت ﴿لامرأته﴾، والإضافة حقيقية؛ لأنها بمعنى المضي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي حمالة، وقرأ عاصم بنصب ﴿حَمَّالَةَ﴾ على الذم، أو الشتم؛ أي: أذم أو أشتم حمالة الحطب، قال الزمخشري: وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميلٍ من أحب شتم أم جميل. انتهى، وقيل: على أنه حال من ﴿امرأته﴾ بناء على أن الإضافة غير حقيقية؛ إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة حطب من ضريع وزقوم، وفي جيدها سلاسل النار، كما

(١) الشوكاني.

يعذب كل مجرم بما يناسب حاله في جرمه.

وعن قتادة: أنها مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها، فعيِّرت بالبخل، فالنصب حينئذ على الشتم حتماً، وقيل: كانت تمشي بالنميمة وتفسد بين الناس، تحمل الحطب بينهم؛ أي: توقد بينهم النائرة وتورث الشر، والحطب: ما أعد من الشجر شبوباً، كما في «القاموس»، قيل: الحطب: جمع حاطب كحرس وحارس.

والمعنى: تحمل الجناة على الجنايات، وقرأ أبو قلابة: ﴿حاملة الحطب﴾، وقوله: ﴿فِي جِيدِهَا﴾؛ أي: في عنقها، خبر مقدم ﴿حَبْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾؛ أي: من ليف: صفة لـ﴿مسد﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿امرأته﴾، والجيد ـ بالكسر ـ العنق ومقلده، أو مقدمه، كما في «القاموس»، والمسد: ما يفتل منه الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرهما، يقال: دابة ممسودة: شديدة الأسر والربط، وقال أبو عبيدة: المسد: هو الحبل يكون من صوف، وقال الحسن: هي حبال يتكون من شجر ينبت باليمن، تسمى بالمسد، وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها.

والمعنى: في عنقها حبل مما مُسِّد وفتل من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها، كما يفعل الحطابون تخسيساً لحالها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتغضب من ذلك، ويشق عليها، ويغضب بعلها أيضاً، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة.

وقال مجاهد: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾؛ أي: طوق من حديد، قال مرة الهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة من حسك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها، فاختنقت بحبلها حتى هلكت.

وقال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا كانت تعيِّر النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها، فخنقها الله به، فأهلكها وهو في الآخرة حبل من نار، وقال مجاهد وعروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل في فيها، وتخرج من أسفلها، وقال الزمخشري: ويحتمل أن يكون المعنى: أن حالها يكون في نار جهنم

على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا يزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجر الزقوم أو الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه انتهى.

وفي «ينبوع الحياة»: إنها لما بلغها سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، جاءت إلى أخيها أبي سفيان في بيته وهي متحرقة غضبى، فقالت له: ويحك يا أحمس؛ أي: يا شجاع، أما تغضب أن هجاني محمد، فقال: سأكفيك إياه، ثم أخذ بسيفه وخرج ثم عاد سريعاً، فقالت له: هل قتلته؟ فقال لها: يا أختي أيسرك أن رأس أخيك في فم ثعبان قالت: لا والله، قال: فقد كاد ذلك يكون الساعة؛ أي: فإنه رأى ثعباناً لو قرب منه ﷺ لالتقم رأسه، ثم كان من أمر أبي سفيان الإسلام، ومن أمر أخته الموت على الكفر، والكل من حكم الله السابق.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِيْنَهُ قَلَيْنَا

وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر. قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، وأخرجه البزار بمعناه، وقال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد، وفي قصتها قال البوصيري في همزيته:

يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـلِيَ من أحمدَ يقال الهجاءُ

فولت وما رأته ومن أيـ ـن ترى الشمسَ مقلةٌ عمياءُ

ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة

الحطب، فقال:

مَـاذَا أَرَدْتَ إِلـىٰ شَـتْـمِـيْ وَمَـنْـقَـصَـتِـيْ   أَمْ مَـا تُـعَـيِّـرُ مِـنْ حَـمَّـالَـةِ ٱلْـحَـطَـبِ
غَـرَّاءُ شَـادِخَـةٌ فِـيْ ٱلْـمَـجْـدِ سَـامِـيَـةٌ   كَـانَـتْ سَـلَـيْـلَـةَ شَـيْـخٍ ثَـاقِـبِ ٱلْـحَـسَـبِ

ولما كانت هذه المجرمة تسمي النبي ﷺ هي وبعض أعدائه من الكفار مذمَّماً. . قال النبي ﷺ: صرف الله سبحانه عني، إنهم يسمونني مذمماً وأنا محمد، وروي عن أبي عبد الله الحسين ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا قرأتم ﴿تَبَّتْ﴾ فادعوا على أبي لهب، فإنه كان من المكذبين بالنبي ﷺ وبما جاء به من عند الله والحكمة ما خص الله أبا لهب بهذه السورة من الكتاب العزيز ولو كان ذكره لمجرد عداوته لرسول الله ﷺ لذكر غيره كذلك من خصوم النبي وأعدائه الألداء أمثال عقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل وغيرهم من أكابر الأعداء وأئمة الكفر والضلال، ممن كنى عنهم الله سبحانه أحياناً بأوصافهم، ولم يذكرهم بأسمائهم.

وإنما خص أبا لهب بالذكر في سورة مستقلة والتصريح باسمه الكنية؛ لأنه اشتهر بالتكذيب والعداوة، وتعقب النبي ﷺ في حركاته وسكناته، ليحبط مساعيه ويصد الناس عن الإقبال على دعوته ورسالة ربه، حتى أصبح خطراً على الإسلام، وهو عم رسول الله ﷺ، والناس أكثر تسمُّعاً منه من تسمُّعهم من غيره، لذا ضربه الله سبحانه هذه الضربة القاصمة؛ ليجعله عبرة ومثلاً للصاد عن الحق والمنفرة للناس عن دين الله، وفهم ما أنزل على نبيه من الهدى والرشاد، وكل شخص من الناس صنع صنيع أبي لهب، فهو أبو لهب، بل وأشد من أبي لهب؛ إذ أن أبا لهب عم رسول الله وصاحب الغنى والنسب لم يغن عنه ذلك شيئاً، ومن سار سيرته فأولئك هم أبناء لهب، لا تغن عنهم أموالهم ولا أعمالهم شيئاً، وسيُصْلَون ما يصلى أبو لهب من نار ذات لهب، وكل امرأة تنم بين الناس لتفرق كلمتهم وتذهب بهم مذاهب السوء، وتصد عن سبيل الله، وتحارب دعوة الله ودين الله، فهي ممثلة في هذا المثل نازل بها ذلك النكال، وستحشر في نار ذات لهب لا يغني عنها مال ولا نسب.

وآيات القرآن كلها عبر وعظات وبراهين ساطعات على عظمة هذا القرآن، وعلى خلود هذه الشريعة الغراء التي ساوت بين الناس، ولم تجعل التفاضل بينهم

إلا بالتقوى، فلا عم ولا خال ولا ولد ولا مال ولا حسب ولا نسب، الكل عند الله سواء، أكرمهم عند الله أتقاهم، فمن آمن واتقى وصدق بالحسنى فسييسره الله لليسرى، وأما من كذب وتولى فسييسره الله للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى.

الإعراب

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

﴿تَبَّتْ﴾ ﴿تب﴾: فعل ماض، والتاء علامة تأنيث الفاعل. ﴿يَدَآ﴾: فاعل مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى يد. ﴿يَدَآ﴾: مضاف. ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء، والجملة الفعلية جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَتَبَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وَتَبَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾، والجملة الفعلية جملة مستأنفة مسوقة للإخبار بحصول التباب وتحققه له نظير قوله:

جَــزَانِــيْ جَــزَاهُ ٱلــلَّــهُ شَــرَّ جَــزَائِــهِ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

﴿مَآ﴾: نافية، أو استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أغنى﴾. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض ﴿عَنْهُ﴾ متعلق ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿مَالُهُۥ﴾: فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: مصدرية بمعنى كسبه، أو موصولة بمعنى الذي في محل الرفع معطوف على ﴿مَالُهُۥ﴾؛ أي: مكسوبه من الأرباح والجاه. ﴿كَسَبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ المصدرية؛ أي: أي شيء أغنى عنه ماله وكسبه، أو صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: والذي كسبه ﴿سَيَصْلَىٰ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يصلى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾. ﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿نَارًا﴾؛ لأنها مآل كنيته ومثابتها، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾: معطوف على الضمير المستتر في ﴿يصلى﴾، وسوغه الفصل بالمفعول وصفته. ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ ـ بالنصب ـ إما منصوب على الذم؛ أي: أذم حمالة الحطب، أو على الحال من ﴿امرأته﴾، وبالرفع إما صفة للمرأة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر لـ﴿امرأته﴾ على أنه مبتدأ. ﴿فِي جِيدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿حَبْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن مَّسَدٍۭ﴾: جار

ومجرور صفة لـ﴿حبل﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿امرأته﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ يقال: تب يتب تباً ـ من باب رد ـ كما في «القاموس»، ومن باب ضرب، كما في «المصباح» وقال الزمخشري: والتباب الهلاك، ومنه قولهم: أشابة أم تابة؛ أي: هالكة من الهرم والتعجيز، والمعنى: هلكت يداه؛ لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ، وعبارة ابن خالويه ومعناه: خسرت يداه، يقال: تب يتب تباً فهو تاب، والمفعول به متبوب، والأمر: تُبَّ، وإن شئت كسرت، وللمرأة تُبِّي، ويقال: امرأة تابة؛ أي: عجوز قد هلك شبابها، والتباب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

قال عدي:

إِذْهَبِي إِنَّ كُلَّ دُنْيَا ضَلاَلٌ ... وَٱلأَمَانِيُّ عَقْرُهَا لِلتَّبَابْ

لاَ يَرُوْقَنْكَ صَائِرٌ لِفَنَاهُ ... كُلُّ دُنْيَا مَصِيْرُهَا لِلتُّرَابْ

وقال جرير:

غُرَادَةُ مِنَ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوْطٍ ... أَلاَ تَبَّاً لِمَا عَمِلُوْا تَبَابَا

وقال كعب بن مالك يمدح النبي ﷺ:

ٱلْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَٱلْعَدْلُ سِيْرَتُهُ ... فَمَنْ يُعِنْهُ عَلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ

والتاء الثانية تاء التأنيث؛ لأن اليد مؤنثة، ومعنى تبت يداه؛ أي: تب هو؛ لأن العرب تنسب الشدة والقوة والأفعال إلى اليدين؛ إذ كان بهما يقع كل الأفعال.

﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ واللهب واللهيب اشتعال النار إذا خلص من الدخان، أو لهبها لسانها، ولهيبها حرها، كما مر، تَكَنَّىٰ به عبد العزى بن عبد المطلب لإشراق وجنتيه وتلهبها، وإلا فليس له ابن يسمى باللهب.

﴿سَيَصْلَىٰ﴾؛ أي: يحترق بها، وصَلِيَ من باب تعب، وعبارة ابن خالويه هنا: جيدة، وهي: ويقال: صليت الشاة إذا شويتها، فأنا صال، والشاة مصلية، ومن ذلك حديث رسول الله ﷺ أنه أهديت إليه شاة مصلية، وأجاز الفراء: مَصْلاة؛

لأنك تقول: أصليتها أيضاً.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ والحطب: ما أُعد من الشجر للوقود.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ الجيد: العنق، وجمعه أجياد، والجَيَد ـ بفتح الياء ـ طول العنق.

﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ المسد ما فُتل من الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرهما، وفي «القاموس»: المَسْد ـ بسكون السين ـ مصدر بمعنى الفتل وبفتحها المحْوَر من الحديد، أو حبل من ليف، أو كل حبل محكم الفتل، والجمع مساد وأمساد، يقال: مسد حبله يمسده مسداً من باب نصر.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وفي حرف ابن مسعود: ﴿مُرَيْئته﴾ مصغراً، والعرب تقول: هذه مرئتي وامرأتي وزوجي وزوجتي وحنتي وطلتي وشاعتي وإزاري ومحل إزاري وفضلتي وحرثي.

قال الشاعر:

إِذَا أَكَـلَ ٱلْـجَـرَادُ حُـرُوْثَ قَـوْمٍ   فَـحَـرْثِـيْ هَـمُّـهُ أَكْـلُ ٱلْـجَـرَادِ

وتسمى المرأة بيناً، والعرب تكني عن المرأة باللؤلؤة والبيضة والسرحة والأثلة والنخلة والشاة والبقرة والنعجة والودعة والعيبة والقوارير والربض والفراش والريحانة والظبية والدمية ـ وهي الصورة مع العاج ـ والنعل والغل والقباء والجارة والمزخة والقومدة، وكنى الفرزدق عن المرأة بالجفن، فجعلها جفناً لسلاحه، وكانت ماتت وهي حبلى، فقال:

وَجَـفْـنَ سِـلاَحٍ قَـدْ رُزِئْـتُ فَـلَـمْ أَنُـحْ   عَـلَـيْـهِ وَلَـمْ أَبْـعَـثْ عَـلَـيْـهِ ٱلْـبَـوَاكِـيَـا
وَفِـيْ جَـوْفِـهِ مِـنْ دَارِمٍ ذُوْ حَـفِـيْـظَـةٍ   لَـوَ انَّ ٱلْـمَـنَـايَـا أَنْـسَـأَتْـهُ لَـيَـالِـيَـا

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: هلك أبو لهب.

ومنها: الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية، والثاني وصف للنار.

ومنها: الكنية للتصغير والتحقير في قوله: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه، بل تشهيره كأبي جهل.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: التهكم والسخرية منها في قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ فقد صورها تصويراً فيه منتهى الخسة والقماءة، حيث أخبر عنها بأنها تحمل تلك الحزمة وتربطها في جيدها تخسيساً لحالها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن جمع ماهن، وهي الخدم؛ لتمتعض من ذلك ويمتعض زوجها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة، وقد تعلق الشعراء بأذيال هذه السخرية، فعيَّر أحدهم الفضل بن العباس بن عُتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب، فقال:

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَىٰ شَتْمِيْ وَمَنْقَصَتِيْ   أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَّالَةِ ٱلْحَطَبِ
غَرَّاءُ شَادِخَةٌ فِيْ ٱلْمَجْدِ سَامِيَةٌ   كَانَتْ سَلِيْلَةَ شَيْخٍ ثَاقِبِ ٱلْحَسَبِ

والغراء: البيضاء، والشادخة: المتسعة، وذلك مجازي عن الظهور وارتفاع المقدار، والسليلة مَن سُلَّ من غيره، والمراد بالشيخ أبوها حرب؛ لأنها أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب.

وقيل: حمل الحطب حقيقة، وقيل: مجاز عن إثارة الفتنة؛ لأنها كانت نمامة، وإلى شتمي متعلق بمحذوف، أو بأردت على طريق التضمين؛ أي: أي شيء أردته مائلاً أنت إلى شتمي، أو منضماً هو إلى شتمي؟ أو ما الذي أردته من شتمي؟ أو مع شتمي، هل أردت أنك شريف لا عيب فيك؟ ويجوز أن تكون إلى بمعنى من، كما قال النحاة: ويمكن أنها للمصاحبة، كما قالوا أيضاً في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا

﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ وتعير أصله تتعير، فحذف منه إحدى التاءين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعاني كتابه

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة المسد وقت الشروق من يوم الخميس اليوم الرابع من شهر الله صفر المبارك من شهور سنة ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الإخلاص

التسمية: سورة الإخلاص، وتسمى سورة المعرفة، وسورة الجمال، وسورة التوحيد، وسورة النجاة، وسورة النور، وسورة المعوذة، وسورة المانعة؛ لأنها تمنع فتنة القبر ولفحات النار، وسورة البراءة؛ لأنها براءة من الشرك نزلت بعد سورة الناس، وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

ولهذه السورة[1] أسماء كثيرة، وزيادة الأسماء تدل على شرف المسمى، أنهاها بعضهم إلى عشرين اسماً: أولها الإخلاص ثانيها التنزيل. ثالثها التجريد؛ لأن من تعلق بها تجرد عن الأغيار. رابعها التوحيد؛ لأنها دالة عليه. خامسها النجاة لنجاة قارئها. سادسها الولاية؛ لأن من تعلق بها أعطاه الله الولاية. سابعها النسبة لقولهم في السؤال: انسب لنا ربك. ثامنها المعرفة؛ لأن من فهمها عرف الله تعالى. تاسعها الجمال؛ لدلالتها على جمال الله تعالى؛ أي: اتصافه بالكمال وتنزيهه عن النقائص. عاشرها: المقشقشة؛ أي: المبرئة من الشرك والنفاق. الحادي عشر المعوِّذة؛ أي: المحصنة لقارئها من فتن الدنيا والآخرة. الثاني عشر الصمد، لذكره فيها. الثالث عشر الأساس؛ لأنها أصل الدين، وفي الحديث: أسست السموات والأرضون السبع على قل هو الله أحد». الرابع عشر المانعة؛ لأنها تمنع فتنة القبر وعذاب النار. الخامس عشر سورة المحتضر؛ لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قُرئت. السادس عشر المنفرة؛ لأن الشياطين تنفَّر عند قراءتها. السابع عشر سورة البراءة؛ لأنها براءة من الشرك. الثامن عشر المذكِّرة؛ لأنها تذكرالعبد خالص التوحيد. التاسع عشر المنورة؛ لأنها تنور القلب. العشرون سورة الإنسان؛ لأنه لا غنى له عنها.

وآياتها أربع، وكلماتها: خمس عشرة كلمة، وحروفها سبعة وأربعون حرفاً.

---

(١) الصاوي.

ومناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ؛ وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأوثان الذين اتخذوا مع الله آلهة.. جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد.

وقال بعضهم: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذم فيما قبلها أعداء أهل التوحيد وأعداء الرسول ﷺ.. بيَّن في هذه حقيقة التوحيد الذي هو أساس الدين ومبنى أركانه، وسميت سورة الإخلاص؛ لدلالتها على إخلاص العمل لله وتصفيته من الإشراك به.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الإخلاص كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها[2]: وورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة صحيحة:

فمنها: ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»، فشق ذلك عليهم، فقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال: «قل هو الله أحد، الله الصمد، ثلث القرآن».

ومنها: ما أخرجه مسلم عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءاً من القرآن».

ومنها: ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ حتى ختمها».

ومنها: ما أخرج أبو عبيد في فضائلها وأحمد والنسائي في «اليوم والليلة» وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء في «المختارة» عن أُبيٍّ بن كعب

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»، قال النووي - رحمه الله تعالى -: معنى كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن على ثلاثة أنحاء قصص وأحكام وصفات الله تعالى، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ متمحضة للصفات، فهي ثلث القرآن، وجزء من ثلاثة أجزاء اهـ.

وقيل معناه: أن ثواب قراءتها مرة يتضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف، وقيل غير ذلك.

ولو لم يرد في فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هذا لفظ البخاري في كتاب «التوحيد».

وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها، وتقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركت، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة»؟ فقال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة» وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

تتمة في فضائل هذه السورة: عن سهل[1] بن سعد - رضي الله عنه -: جاء رجل إلى النبي ﷺ، وشكا إليه الفقر، فقال: «إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه

---

(١) الصاوي.

أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مرة واحدة»، ففعل الرجل ذلك فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه».

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الفجر، إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذ ولو اجتهد الشيطان، وفي الحديث: «أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة واحدة»، فقيل: يا رسول الله من يطيق ذلك؟ قال: «أن يقرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرة بني له قصر في الجنة، ومن قرأها عشرين مرة بني له قصران في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة بني له ثلاثة قصور في الجنة».

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله إذاً تكثر قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره، وأمن من ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة، فإن قرأها مئة مرة كفَّر الله عنه ذنوب خمسين سنة ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها مئتي مرة كفر الله عنه مئة سنة، ومن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له».

ومنها: أن من قرأها مئة ألف فقد اشترى نفسه من الله، ونادى مناد من قبل الله تعالى في سمواته وفي أرضه، ألا إن فلاناً عتيق الله، فمن كان له قبله بضاعة فليأخذها من الله عز وجل، فهي عتاقه من النار، لكن بشرط أن لا يكون عليه حقوق العباد أصلاً أو عليه وهو عاجز عن أدائها، أما من قدر عليه فهو كالمستهزىء بربه؛ لما ورد في الحديث: «يا داود: قل للظلمة لا يذكروني، فإنهم إن ذكروني ذكرتهم وذكري لهم أن ألعنهم»، وفي أسانيد بعضها مقال، ولكن

ذكرناها استئنافاً لفضل السورة والله أعلم.

فوائدها: ومما ورد في فوائدها: ما أخرجه ابن الضريس والبزار والبيهقي في «الشعب» عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مئتي مرة غُفر له ذنب مئتي سنة».

قال البزار: لا نعلم، رواه عن أنس إلا الحسن ابن أبي جعفر والأغلب بن تميم، وهما يتقاربان في سوء الحفظ.

ومنها: ما أخرجه أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في «سننه» عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

ومنها: ما أخرجه محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ خمسين مرة غفر له ذنوب خمسين سنة» وإسناده ضعيف.

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن عدي والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مئتي مرة كتب الله له ألفاً وخمس مئة حسنة، ومُحي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين» وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره.

ولفظ الترمذي «من قرأ في يوم مئتي مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مُحي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين».

وفي إسناده حاتم بن ميمون المذكور.

ومنها: ما أخرجه الترمذي ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدي والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل، فنام على يمينه، ثم قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مئة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب: يا عبدي على يمينك ادخل الجنة»، وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المذكور.

قال الترمذي بعد إخراجه غريب من حديث ثابت، وقد روي من غير هذا

الوجه عنه، وعن أبي هريرة قال أقبلت مع رسول الله ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب صحيح والله أعلم.

وفي الباب أحاديث كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف أعرضنا عن ذكرها؛ لئلا يطول الكتاب، وفيما ذكرنا كفاية.

ومن فوائد هذه السورة أيضاً[1]: أن الاشتغال بقراءتها يفيد الاشتغال بالله، وملازمة الإعراض عما سوى الله تعالى، وهي متضمنة تنزيه الله تعالى وبراءته عن كل ما لا يليق به؛ لأنها مع قصرها جامعة لصفات الأحدية والصمدانية والفردانية وعدم النظير.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[(١)]: ما روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله ﷺ عامر بن الطفيل، فقال له عنهم: شققت عصانا ـ فرقت كلمتنا ـ، وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن كنت قد هويت امرأة زوجناكها، فقال رسول الله ﷺ: «لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته» فأرسلوه ثانية، وقالوا: قل له بيِّن لنا جنس معبودك، أمن ذهب أم من فضة؟ فأنزل الله سبحانه هذه السورة الكريمة، فقالوا له: ثلاث مئة وستون صنماً تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق، فنزلت: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ فأرسلوه أخرى، وقالوا: بيِّن لنا أفعاله، فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

وأخرج[(٢)] أحمد والبخاري في «تاريخه» والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي عاصم في «السنة» والبغوي في «معجمه» وابن المنذر وأبو الشيخ في «العظة» والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبيٍّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ ...﴾ إلخ ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد، قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء، ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً، ولم يذكر أبياً، ثم قال: وهذا أصح.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي عن جابر قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ إلى آخر السورة، وحسَّن السيوطي إسناده، وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في «العظة» عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم: كعب بن الأشرف وحُيَيُّ بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ②لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه الولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن سألك عن صفة ربك ﴿هُوَ﴾؛ أي: ربي الذي سألتموني عن صفته ونسبه ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق للعبادة من جميع المخلوقات الجامع لصفات الكمال كلها، المنزه عن صفات النقائص كلها هو ﴿أَحَدٌ﴾؛ أي: واحد لا كثرة في ذاته ولا في صفاته، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة، ولا من أصول متعددة غير مادية، فهو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد؛ لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك الأجزاء، والله لا يفتقر إلى شيء، فالضمير في قوله: ﴿قُلْ هُوَ﴾ يحتمل عوده إلى المسؤول عنه؛ أي: الذي سألتم عنه هو الله، فالضمير حينئذ مبتدأ، و﴿اللَّهُ﴾ خبره، و﴿أحد﴾ بدل منه، وإبدال النكرة المحضة من المعرفة يجوز عند حصول الفائدة على ما ذهب إليه أبو علي الفارسي؛ لما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ، فقال عامر: إلى من تدعونا يا محمد؟ فقال: إلى الله تعالى، قال: صفه لنا، أمن ذهب أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة، وأهلك الله أربد بالصاعقة، وعامر بن الطفيل بالطاعون، وقيل: نزلت بسبب سؤال النصارى، روي عن ابن عباس قال: قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك، أمن

---

(١) الخازن.

زبرجد أو ياقوت أو ذهب أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء؛ لأنه خالق الأشياء، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: الله الصمد، فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا، فنزل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم و﴿لم يولد﴾ كما وُلد عيسى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾؛ أي: ليس له نظير من خلقه، وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل صفته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، ومن ورث ومن يرثه؟ فنزلت هذه السورة، ويحتمل عوده إلى الشأن، كقولك: هو زيد منطلق، وارتفاعه بالابتداء، وخبره الجملة، ولا حاجة إلى الرابط، لأنها عين الشأن الذي عبر عنه بالضمير؛ أي: الله أحد هو الشأن هذا، أو هو أن الله أحد، والحكمة في تصدير الجملة بضمير الشأن التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، مع أن في الإبهام ثم التفسير مزيد تقرير، والله علم دال على الإلٰه الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء الحسنى كلها، والأحد اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته، كما أن الواحد اسم لمن لا يشاركه شيء في صفاته يعني: أن الأحد هو الذات وحدها بلا اعتبار كثرة فيها، فأثبت له الأحدية التي هي الغنى عن كل ما عداه، وذلك من حيث عينه وذاته من غير اعتبار أمر آخر، والواحد هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات.

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق؛ لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثان، و﴿أَحَدٌ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلاً من ﴿هُوَ﴾، والخبر ﴿أَحَدٌ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ خبراً أولاً، و﴿أَحَدٌ﴾ خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون ﴿أَحَدٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هو أحد، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير شأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى.

قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، والمعنى: إن سألتم تبيين نسبته هو الله، قيل: وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من الواو، وأصله واحد، وقال أبو البقاء: همزة

﴿أَحَدٌ﴾ أصل بنفسها غير مقلوبة، وذكر أن ﴿أَحَدٌ﴾ يفيد العموم دون واحد.

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد ودرهم واحد، قيل: والواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك: لا يقاومه أحد، وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد، وأحد لا يدخل فيه، ورد عليه أبو حيان بأنه يقال: أحد وعشرون ونحوه، فقد دخل في العدد، وهذا كما ترى. ومن جملة القائلين بالقلب الخليل.

وقرأ الجمهور: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ بإثبات ﴿قُلْ﴾، وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي ﴿هو الله أحد﴾ بدون ﴿قُلْ﴾ وكذا في المعوذتين؛ لأنه توحيد، والأخريان تعوذ، فيناسب أن يدعو بهما وأن يؤمر بتبليغهما، وقال بعضهم: إنما أثبت في المصحف ﴿قُلْ﴾ والتزم في التلاوة مع أنه ليس من دأب المأمور بقل أن يتلفظ في مقام الائتمار إلا بالمقول؛ لأن المأمور ليس المخاطب به فقط، بل كل واحد ابتلي بما ابتلي به المأمور، فأثبت ليبقى على مر الدهور منا على العباد، وقرأ الأعمش: ﴿قل هو الله الواحد﴾ وقرأ الجمهور: بتنوين ﴿أَحَدٌ﴾ وهو الأصل، وقرأ زيد بن علي وأبان بن عثمان ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن إسحاق وأبو السمال وأبو عمرو في رواية يونس ومحبوب والأصمعي واللؤلؤي وعبيد وهارون عنه: ﴿أحد الله﴾ بحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين لملاقاته مع لام التعريف، فيكون ترك التنوين لأجل الفرار من التقاء الساكنين، ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر، وقيل: حذفه للخفة، كما في قول الشاعر:

عَمْرُو ٱلَّذِيْ هَشَمَ ٱلثَّرِيْدَ لِقَوْمِهِ   وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُوْنَ عِجَافُ

بحذف تنوين عمرو للتخفيف ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ الاسم الشريف مبتدأ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ خبره، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الذي يصمد إليه في الحاجات؛ أي: يقصد لكونه قادراً على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود إليه؛ أي: مقصود إليه، قال الزجاج: الصمد: السند الذي انتهى إليه

السؤدد، فلا سيد فوقه.

قال الشاعر:

أَلاَ بَكَّرَ ٱلنَّاعِيْ بِخَيْرِ بَنِيْ أَسَدْ   بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُوْدٍ وَبِٱلسَّيِّدِ ٱلصَّمَدْ

وقيل: معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول، وقيل: معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد، وقيل: هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد، وقيل: هو المقصود في الرغائب، والمستغاث به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول، وقيل: هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقيل: هو الكامل الذي لا عيب فيه، وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي: الصمد هو المصمت الذي لا جوف له، كما سيأتي بسطه نقلاً عن «الخازن»، ومنه قول الشاعر:

شِهَابُ حُرُوْبٍ لاَ تَزَالُ جِيَادُهُ   عَوَابِسَ يَعْلِكْنَ ٱلشَّكِيْمَ ٱلْمُصَمَّدَا

وهذا لا ينافي القول الأول؛ لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استُعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ   خُذْهَا حُذَيْفُ فَأَنْتَ ٱلسَّيِّدُ ٱلصَّمَدُ

وقال الزبرقان بن بدر:

سِيْرُوْا جَمِيْعاً بِنِصْفِ ٱللَّيْلِ وَٱعْتَمِدُوْا   وَلاَ رَهِيْنَةَ إِلاَّ سَيِّدٌ صَمَدُ

وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف، والخبر هو ما بعده، والأول أولى؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة، فمعنى قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؛ أي[1]: هو الله الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى

---

(١) المراغي.

شفيع، وبهذا أبطل عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤوسهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم فيلجؤون إليهم أحياء وأمواتاً، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين، كما يخشعون لله أو أشد خشية.

وفي «الخازن[1]»: قال ابن عباس: الصمد الذي لا جوف له، وبه قال جماعة من المفسرين، ووجه ذلك من حيث اللغة أن الصمد الشيء المصمد الصلب الذي ليس فيه رطوبة ولا رخاوة، ومنه يقال لسداد القارورة: الصماد، فإن فُسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام ويتعالى الله جل وعز عن صفات الجسمية، وقيل: وجه هذا القول أن الصمد الذي ليس بأجوف معناه: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء، فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلٰهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان وهو سائر الجمادات الصلبة، والثاني أشرف من الإنسان، وأعلى منه وهو الباري جل وعلا. انتهى.

وعبارة «النسفي»: والمعنى هو[2] الله تعرفونه، وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد لا شريك له، وهو الذي يصمد إليه، ويقصد كل مخلوق ولا يستغنون عنه، وهو الغني عنهم انتهى.

ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة[3]
، فقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تنصيصاً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح وعزير، ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي حيث قال: لم يلد من غير أن يقال: لن يلد، أو لا يلد؛ أي: لم يصدر منه سبحانه وتعالى ولد؛ لأنه لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ولا يفتقر إلى ما يعينه أو

(١) الخازن.
(٢) النفي.
(٣) روح البيان.

يخلفه؛ لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه.

فإن قلت: لم قال في هذه السورة: ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ وفي سورة بني إسرائيل ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؟.

أجيب: بأن النصارى فريقان: منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة، فقوله: ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ إشارة إلى الرد عليه، ومنهم من قال: اتخذه تشريفاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً، فقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إشارة إلى الرد عليه.

﴿وَلَمْ يُولَـدْ﴾؛ أي: لم يصدر[1] عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً أو لاحقاً، وقال بعضهم: الوالدية والمولودية لا تكونان إلا بالمثلية، فإن المولود لا بد أن يكون مثل الوالد، ولا مثلية بين هويته الواجبة وهوياتنا الممكنة. انتهى.

وقال البقلي: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ ۝﴾؛ أو: لم يكن هو محل الحوادث ولاالحوادث محله، والتصريح بأنه لم يولد مع كونهم معترفين بمضمونه، لتقرير ما قبله، وتحقيقه بالإشارة إلى أنهما متلازمان؛ إذ المعهود أن ما يلد يولدُ ومالا فلا، ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد، الاعتراف بأنه لا يلد، وفي «كشف الأسرار»: قدم ذكر ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾؛ لأن من الكفار من ادعى أن له ولداً، ولم يدع أحد أنه مولود، وقال أبو الليث: ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ يعني: لم يكن له ولد يرثه ﴿وَلَمْ يُولَـدْ﴾ يعني لم يكن له والد يرث ملكه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كُفُوًا﴾؛ أي: مماثلاً في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿أَحَـدٌۢ﴾ من المخلوقات، وقوله: ﴿لَّهُۥ﴾ صلة لـ﴿كُفُوًا﴾ قدمت عليه مع أن حقها التأخر عنه للاهتمام بها؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى؛ أي: لم يكافئه ولم يماثله ولم يشاكله، بل هو خالق الأكفاء، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة، وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل، وهذه[2] الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، ولعل ربط هذه الجمل الثلاث بالعاطف؛ لأن المراد منها نفي أقسام الأمثال، فهي جملة واحدة منبه عليها بالجمل؛ أي: فهو[3] تعالى الأول الذي لم

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) الخازن.

يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد؛ أي: ليس له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه، فنفى عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ العديل والنظير والصاحبة والولد، واعلم أن الكفؤ يعم الشبيه والنظير والمثيل، فالمثيل هو المشارك لك في جميع صفاتك، والشبيه هو المشارك في غالبها، والنظير هو المشارك في أقلها، والله منزه عن ذلك كله.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُفُوًا﴾ ـ بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ـ وقرأ الأعوج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع في رواية عنه: ﴿كفأ﴾ بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد، وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس كذلك؛ أي: بكسر الكاف وفتح الفاء، كقول النابغة:

لاَ تَـقْـذِفَـنِّـيْ بِـرُكْـنٍ لاَ كِـفَـاءَ لَـهُ

والخلاصة[2]: أنّ السورة تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه، فقد نفى الله سبحانه عن نفسه أنواع الكثرة بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة لشيء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ونفى عن نفسه الحدوث والأولية بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الإعراب

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن تفسره الجملة المذكورة بعده في محل الرفع مبتدأ أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَحَدٌ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر الأول، وجملة الأول في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾، أو هو ضمير عائد على المسؤول عنه المعلوم من السياق في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره، أو خبر ثان له، أو بدل من الجلالة، وإن شئت قلت: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة مقول محكي لـ﴿قل﴾. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾، وترك العطف هنا؛ لأن هذه الجملة مؤكِّدة ومقررة لما قبلها، وكذلك ترك العطف في قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾؛ لأنه مؤكد للصمدية؛ لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والداً ولا مولوداً. ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾: جازم وفعل معلوم مجزوم وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾ مؤكدة لما قبلها. ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾: جازم وفعل مضارع مجهول مجزوم، ونائب فاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾. ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَمۡ يَكُن﴾: جازم وفعل ناقص مجزوم معطوف على ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ أيضاً. ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بـ﴿كُفُوًا﴾ أو حال منه، وقدم عليه للاهتمام به؛ إذ فيه ضمير الباري سبحانه. ﴿كُفُوًا﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها لمراعاة الفواصل. ﴿أَحَدٌ﴾: اسمها مؤخر عن خبرها، وهناك أقوال متلاطمة في إعراب هذه الجملة لا طائل تحتها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ أي: فرد في ذاته وصفاته لا يتجزأ، وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من واو؛ لأنه من الوحدة، وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة قليل، وتقدم الفرق بين أحد هذا، وأحد المراد به العموم، فإن همزة ذاك أصل بنفسها، ونقل أبو البقاء أن همزة ﴿أَحَدٌ﴾ هنا غير مقلوبة، بل أصل بنفسها، كأحد المراد به العموم والمعروف الأول، وقال مكي: إن أحداً أصله: واحد، فأبدلت الواو

همزة، فاجتمع ألفان؛ لأن الهمزة تشبه الألف، فحُذفت إحداهما تخفيفاً. فإن قلت: كيف ذُكر ﴿أَحَدٌ﴾ في الإثبات مع أن المشهور أنه يُستعمل بعد النفي، كما أن الواحد لا يُستعمل إلا بعد الإثبات، يقال في الدار واحد، وما في الدار أحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

فالجواب: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إنه لا فرق بينهما في المعنى، واختاره أبو عبيدة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ وعليه فلا يختص أحدهما بمحل دون آخر، وإن اشتهر أحدهما استعمالاً في النفي، والآخر في الإثبات، ويجوز أن يكون العدول هنا عن المشهور رعاية للفاصلة بعد، فدل بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ على صفات الكمال، وبالأحد على صفات الجلال اهـ «كرخي».

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾؛ أي: المصمود المقصود في الحوائج، فهو فَعَل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض، والنَّقَض بمعنى المنقوض، وإنما عرّفه بإدخال أل عليه دون ﴿أَحَدٌ﴾؛ لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته، وتكرير لفظ ﴿الله﴾؛ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإنما خلت هذه الجملة من العاطف؛ لأنها كالنتيجة للأولى؛ أي: كالدليل عليها اهـ «البيضاوي».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ من ولد يلد ـ من باب وعد يعد ـ أصله يَوْلِد بفتح الياء وكسر اللام؛ لأنه معلوم فحذفوا الواو؛ لوقوعها بين عدوتيها الياء والكسرة.

﴿كُفُوًا﴾ بوزن فعل، وكفيئاً على وزن فعيل، وكفاء على وزن فعال بمعنى واحد، والكفء المثل والنظير، وقال أبو حيان بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء، يقال: هذا كفاؤه وكفؤه بمعنى مثله، وكافأ فلاناً إذا ماثل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تصدير الجملة بضمير الشأن في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها مع أن في الإبهام ثم التفسير مزيد تقرير لمدلولها.

ومنها: تعريف الطرفين في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؛ لإفادة التخصيص.

ومنها: الفصل ـ أي ـ ترك العطف في جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ إشعاراً بأنها مقرِّرة مؤكدة لما قبلها، وكذلك ترك العطف في قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾؛ لأنه مؤكد لمعنى الصمدية كما مر، وقد أشار صاحب «الجوهر المكنون» إلى مواضع الفصل بقوله:

ٱلْفَصْلُ تَرْكُ عَطْفِ جُمْلَةٍ أَتَتْ ... مِنْ بَعْدِ أُخْرَىٰ عَكْسَ وَصْلٍ قَدْ ثَبَتْ

فَٱفْصِلْ لَدَىٰ ٱلتَّوْكِيْدِ وَٱلإِبْدَالِ ... لِنُكْتَةٍ وَنِيَّةِ ٱلسُّؤَالِ

وَعَدَمِ ٱلتَّشْرِيْكِ فِيْ حُكْمٍ جَرَىٰ ... أَوِ ٱخْتِلَافٍ طَلَباً وَخَبَرَا

وَفَقْدِ جَامِعٍ وَمَعْ إِيْهَامِ ... عَطْفٍ سِوَىٰ ٱلْمَقْصُوْدِ فِيْ ٱلْكَلَامِ

ومنها: الوصل بين الجمل الثلاث الأخيرة أعني قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾؛ لأنها سيقت لغرض، ومعنى واحد وهو نفي المماثلة والمجانسة عنه تعالى بوجه من الوجوه، كما قال الأخضري في الجوهر المكنون:

وَصِلْ لَدَىٰ ٱلتَّشْرِيْكِ فِيْ ٱلإِعْرَابِ ... وَقَصْدِ رَفْعِ ٱللَّبْسِ فِيْ ٱلْجَوَابِ

وَفِيْ ٱتِّفَاقٍ مَعَ ٱلاتِّصَالِ ... فِيْ عَقْلٍ اَوْ فِيْ وَهْمٍ اَوْ خَيَالِ

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾؛ لتغير الشكل وبعض الحروف.

ومنها: تكرير لفظ الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية.

ومنها: تقديم صلة ﴿كُفُوًا﴾ أعني الجار والمجرور في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ عليه؛ للاهتمام بها؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى؛ أي: لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله.

ومنها: تأخير اسم كان عن خبرها في قوله: ﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ لمراعاة الفواصل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الإخلاص بعون الله وتوفيقه أوائل ليلة السبت المبارك الليلة السادسة من شهر الله صفر المبارك من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة الفلق

سورة الفلق نزلت بعد سورة الفيل، وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وهذا أصح كما في «الخازن»، ويؤيده سبب النزول، فإنه كان بالمدينة ولم يظهر للقول بأنها مكية وجه اهـ «صاوي».

وهي: خمس آيات، وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه تعالى لما بيَّن أمر الألوهية في السورة التي قبلها.. بيَّن هنا ما يُستعاذ منه بالله تعالى؛ لأنه لا ملجأ سواه، وسميت سورة الفلق؛ لذكر الفلق فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ: سورة الفلق كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: وورد في فضل هذه السورة والتي بعدها أحاديث:

منها: قوله ﷺ: «لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما، وأنه لن يقرأ أحد أحبَّ ولا أرضى عند الله تعالى منهما». يعني المعوذتين، وقوله: «ما أنزل مثلهما»؛ أي: في التحصن، والتعوذ.

ومنها: ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ الليلةَ آيات لم أر مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه في «الشعب» عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أقرئني سورة يوسف وسورة هود، قال: «يا عقبة اقرأ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فإنك لن تقرأ سورة

---

(١) الصاوي.

أحب إلى الله وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك فافعل».

ومنها: ما أخرجه ابن سعد والنسائي والبغوي والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوذون» قال: بلى يا رسول الله قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هما المعوِّذتان».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين العرب ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك).

ومنها: ما أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال ومنها أنه كان يكره الرقىٰ إلا بالمعوذتين.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله: «مِن أَحَبَّ السور إلى الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه النسائي وابن الضريس وابن حبان في «صحيحه» وابن الأنباري وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: أخذ بمنكبي رسولُ الله ﷺ، ثم قال: ««اقرأ» قلت: ما أقرأ بأبي أنت وأمي، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ثم قال: «اقرأ» قلت: بأبي أنت وأمي ما أقرأ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ولم تقرأ بمثلهما».

ومنها: ما أخرجه مالك في «الموطأ» عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتهما)، وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من طريق مالك بالإسناد المذكور.

ومنها: ما أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» عن زيد بن أرقم قال: سَحَرَ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء، فأمره أن يحل العُقَد ويقرأ آية ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال.

وأخرجه ابن مردويه والبيهقي من حديث عائشة مطولاً، وكذلك أخرجه ابن

مردويه من حديث ابن عباس، وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول الله لهما في الصلاة أحاديث، وفيما ذكرنا كفاية.

وما روي عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أُمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما، قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وقد أثبتتا في المصحف.

وأخرج الطبراني في «الصغير» عن علي بن أبي طالب قال: لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: «لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره، ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾»، وسميت سورة الفلق لذكر الفلق فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم؛ سورة الفلق كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

أسباب النزول

سبب نزول المعوذتين: ما روي من قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسولَ الله ﷺ قال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ، فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله ﷺ وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت السورتان فيه.

فإن قلت: كيف يؤثر السحر فيه ﷺ مع أنه معصوم بنص ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

أجيب: بأن المعصوم منه ما أدى إلى خبل في عقله أو إلى ضياع شرعه أو إلى موته، وأما ما عدا ذلك فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه، كما أن جرحه وكسر رباعيته لا يقدح في عصمته.

وأخرج الشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ: سُحِر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ولم يصنع، وفي رواية أنه يخيل إليه فعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: «أشعَرْتِ يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته»؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيم ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان»، ومن الرواة من قال: في بئر زريق، فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة، فقال: «والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين» قلت: يا رسول الله

فأَخْرِجْه، قال: «أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخفت أن أثير على الناس منه شراً»، وفي رواية للبخاري أنه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك، وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوماً، وقيل: ستة أشهر، وقيل: عاماً، قاله ابن حجر وهو المعتمد، وعن زيد بن أرقم قال: سحر رجل من اليهود النبي ﷺ، فاشتكى ذلك أياماً، فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عُقَداً في بئر كذا فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نُشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجه قط أخرجه النسائي، وروي أنه كان تحت صخرة في البئر، فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة، فإذا فيه مشاطة من رأسه ﷺ وأسنان من مشطه، وقيل: كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة، وقيل: كان مغروزاً بالإبر، فأنزل الله هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نُشط من عقال، وروي أنه لبث ستة أشهر واشتد عليه ذلك ثلاث ليال، فنزلت المعوذتان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: أستعيذ وألتجيء وأتحصن وأتحفظ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ أي: بمالك الصبح أو الخلق، أو هو واد في جهنم أو جُبٌّ فيها، وقيل غير ذلك كما سيأتي، والأول أولى؛ أي: قل أستعيذ برب المخلوقات ومبدع الكائنات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من كل ضرر وأذى يصيبني من مخلوقاته طراً.

وعبارة «الروح»: والفلق[1]: الصبح؛ لأنه يفلق عنه الليل ويفرق، **فهو من باب الحذف والإيصال، فهو فَعَل بمعنى مفعول كالصمد والقَبَض بمعنى المصمود إليه والمقبوض، كما مر، فإن كل واحد من المفلوق والمفلوق عنه مفعول**، وذلك

(١) روح البيان.

إنما يتحقق بأن يكون الشيء مستوراً ومحجوباً بآخر، ثم يشقق الحجاب الساتر عن وجه المستور، ويزول فيظهر ذلك المستور وينكشف بسبب زواله، وذلك الحجاب المشقق مفلوق، والمحجوب المنكشف عنه بزواله مفلوق عنه، والصبح صار مفلوقاً عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل، يقال: في المثل هو أبين من فلق الصبح؛ أي: من الصبح المفلوق عنه؛ أي: المشقوق عنه ظلمة الليل؛ أي: المزال عنه.

وخص(١) الفلق بالذكر؛ لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم، ولأنه أنموذج من يوم القيامة؛ لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور، ثم منهم من يخرج عن داره مفلساً عرياناً، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه، وكذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى، فيجر إلى الملك الجبار، وبعضهم كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق.

وقيل الفلق(٢): الخلق؛ لأن الممكنات بأسرها كانت أعياناً ثابتة في علم الله مستورة تحت ظلمة العدم، فالله تعالى فلق تلك الظلمات بنون التكوين والإيجاد، فأظهر ما في علمه من المكونات، فصارت مفلوقاً عنها.

وقيل(٣): الفلق سجن جهنم، أو واد أو جُبٌّ فيها، روي عن بعض الصحابة أنه قدم الشام، فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش، فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق؟، فقيل له: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا افتتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، وإنما خصه بالذكر هٰهنا؛ لأنه القادر على مثل هذا التعذيب، وقد ثبت أن رحمته تعالى أعظم من عذابه، فكأنه يقول: يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأقدم من عذابك، وقيل: اسم شجرة في جهنم، وقيل: هو الجبال والصخور؛ لأنها تفلق بالمياه؛ أي: تشقق، وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خوف الله، قال النحاس: يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق، قال الرازي: وأقرب التأويلات أن الفلق هو كل ما يفلقه الله تعالى، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار،

(١) المراح.　(٢) روح البيان.　(٣) المراح.

والأرحام عن الأولاد، والبيض عن الفرخ، والقلوب عن المعارف، وكأنه تعالى قال: قل أعوذ برب جميع الممكنات وبمكوِّن المحدَثات، فيكون التعظيم فيه أعظم، ويكون الصبح وجُبُّ النار وغيرهما أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى انتهى. والقول[1] الأول أولى؛ لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه، لكنه المتبادر عند الإطلاق، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة من كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه، وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح، وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير.

وفي تعليق[2] العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبىء عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عِدَة كريمة بإعاذة العائذ مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجد، والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه والإعاذة بربه.

قالوا: إذا طلع الصبح تتبدل الثقلة بالخفة والغم بالسرور، روي أن يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً، فبات ليلته ساهراً، فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل بإذن الله تعالى يسأله ويأمره بأن يدعو ربه، فقال: يا جبريل أدع أنت وأؤمن، فدعا جبريل وأمَّن يوسف عليهما السلام، فكشف الله تعالى ما كان به من الضر، فلما طاب وقت يوسف قال: يا جبريل وأنا أدعو أيضاً وتؤمِّن أنت، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت، فلا جَرَم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: من شر وضرر ما خلقه من الثقلين وغيرهما كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار من إنس وجن وسباع وهوام، فيشمل جميع الشرور والمضار بدنية كانت أو غيرها من ضرب وقتل وشتم وعض ولدغ وسحر ونحوها.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

والجار والمجرور متعلق[1] بـ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: أعوذ برب الصبح من شر ما خلقه كائناً ما كان من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس وذريته، وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية، وقد حرَّف بعض المتعصبين من المعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الشر هذه الآية مدافعة عن مذهبه وتقويماً لباطله، فقرؤوا بتنوين ﴿شرٍ﴾ على أن ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: من شر لم يخلقه، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن عائذ، وعبارة أبي حيان هنا: وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ بإضافة ﴿شَرِّ﴾ إلى ﴿مَا﴾ و﴿مَا﴾ عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف، وجماد، كالإحراق بالنار والإغراق بالبحر والقتل بالسم، وقرأ عمرو بن عائذ: ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين، وقال ابن عطية وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين ﴿مَا خَلَقَ﴾ على النفي، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل، فالله خلق كل شيء، ولهذه القراءة وجه غير النفي، فلا ينبغي أن ترد، وهو أن يكون ﴿مَا خَلَقَ﴾ بدلاً من ﴿شَرِّ﴾ على تقدير محذوف؛ أي: من شر شر ما خلق، فحذف لدلالة شر الأول عليه، أطلق أولاً ثم عمم ثانياً. انتهى.

والخلاصة: أي أعوذ برب الفلق من شر كل ذي شر خَلَقَه الرب من إبليس ومن جهنم، ومن أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما.

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منهم، فطلب إليه التعوذ من شرهم ودفع أذاهم، وهم ما ذكره بقوله:

١ - ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾؛ أي: ومن شر ليل مختلط ظلامه شديدة ظلمته، وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع أفراده ولا لكل أجزائه، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾؛ أي: إذا دخل ظلامه في كل شيء بغيبوبة الشفق.

وهذا تخصيص[3] لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله؛ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ أدل على الاعتناء

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

بالاستعاذة، وأدعى إلى الإعاذة؛ أي: من شر ليل مختلط ظلامه مشتد، وذلك بعد غيبوبة الشفق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: اجتماع ظلمته، وفي «القاموس»: الغَسَق ـ محركة ـ أول الليل، وغسق الليل غسقاً، ويحرك اشتدت ظلمته، فالغاسق الليل المظلم، كما في «المفردات»، وأصل الغسق الامتلاء، يقال: غسقت العين إذا امتلأت دمعاً أو السيلان، وغسق العين سيلان دمعها، وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ الوقب: النقرة في الشيء كالنقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، ووقب إذا دخل في وقب، ووقبت الشمس إذا غابت، ووقب الظلام إذا دخل، والمعنى: ومن كل شر واقع في الليل وقت دخول ظلامه وتقييده به؛ لأن حدوث الشر فيه أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، وقيل: أغدر الليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر والغوث يقل في الليل، ولذا لو شهر إنسان بالليل سلاحاً فقتله المشهر عليه لا يلزمه قصاص، ولو كان نهاراً يلزمه؛ لأنه يوجد فيه الغوث.

والحاصل: أنه ينبعث أهل الحرب في الليل، وتخرج فيه عفاريت الجن والهوام والسباع وجميع المؤذيات، ونهى رسول الله ﷺ من السير في الليل، وأمر بتغطية الأواني وإغلاق الأبواب وإيكاء الأسقية وضم الصبيان، وكل ذلك للحذر من الشر والبلاء، وقيل: الغاسق القمر إذا امتلأ نوراً، ووقوبه امتلاؤه نوراً أو خسوفه واسوداده؛ لما رواه أحمد والترمذي وابن جرير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأشار إلى القمر، فقال: «تعوذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»، وقال الترمذي حسن صحيح، وشره الذي يتقىٰ منه ما يكون في الأبدان، كالآفات التي تحدث بسببه، ويكون في الأديان كالفتنة التي بها افتتن من عبده وعبد الشمس، وقيل: التعبير عن القمر بالغاسق؛ لأن جرمه مظلم، وإنما يستنير بضوء الشمس، وقيل: وقوبه محاقه في آخر الشهر، والمنجمون يعدونه نحساً، ولذلك[1] لا تشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلا في ذلك. قيل: وهو المناسب لسبب النزول، : وقيل: الغاسق الثريا، ووقوبها سقوطها؛ لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين، وإذا طلعت قلَّت الأمراض والآلام، وقيل: هو

---

(١) روح البيان.

كل شر يعتري الإنسان، ووقوبه هجومه، ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ولسعه، وفي «القاموس»: الغاسق هو الذكر من الحيات إذا قام، وهو منقول عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وجماعة، والقول الأول أولى، والمعنى عليه؛ أي: ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء بظلامه، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرهبة إلى أنه ستار يختفي في ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى إلى أنه عون لأعدائك عليك.

٢ ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ أي: ومن شر النساء أو النفوس السواحر اللاتي ينفثن وينفخن ﴿فِي ٱلۡعُقَدِ﴾؛ أي: في عقد الوتر أو الحبال عند القراءة على تلك العقد؛ ليسحرن بها، جمع نفاثة بالتشديد، صيغة مبالغة يراد منها تكرار الفعل والاحتراف به من النفث، وهو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه، فإن كان معه ريق فهو التفل، يقال منه نفث الراقي ينفُث ـ بالضم ـ وينفِث بالكسر إذا نفخ على المريض بعد القراءة عليه، والعُقَد جمع عقدة، وهي ما يعقده الساحر ويربطه ويمسكه على وتر ـ بفتحتين ـ القوس، أو حبل أو شعر، وهو ينفث عليه ويرقي، وأصله من العزيمة، ولذلك يقال: لها عزيمة، كما يقال: لها عقدة، ومنه قيل للساحر معقد.

والمعنى: وأعوذ بالله من شر النفوس، أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن في عقدة الخيط حين يرقين عليها، وتعريفها[1] إما للعهد، أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه، وقيل: المراد بالنفاثات بنات لبيد بن الأعصم اللاتي سحرن النبي ﷺ؛ لما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ، وكان عنده أسنان من مشطه ﷺ، فأعطاها اليهود فسحروه ﷺ فيها، ولذا ينبغي أن يقطع بعد التقليم، وكذا الشعر إذا أُسقط من اللحية، والرأس نصفين أو أكثر؛ لئلا يسحر به أحد، وتولاه لبيد بن الأعصم اليهودي وبناته وهن النفاثات في العقد، فدفنها في بئر أريس، وفي «عين المعاني»: في بئر لبني زريق تسمى ذروان، فمرض النبي ﷺ، روي أنه لبث فيه ستة أشهر، فنزل جبريل بالمعوِّذتين ـ بكسر الواو ـ كما في

---

(١) روح البيان.

«القاموس»، وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره، فأرسل النبي ﷺ علياً والزبير وعماراً ـ رضي الله عنهم ـ فنزحوا ماء البئر، فكأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا راعونة البئر، وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر، فأخرجوا من تحتها الأسنان، ومعها وتر قد عقد فيه أحد عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فجاؤوا بها النبي ﷺ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل شيء يؤذيك من عين وحاسد، فلذا جوِّز[1] الاسترقاء بما كان من كلام الله تعالى وكلام رسوله، لا بما كان بالعبرانية أو السريانية والهندية أو التركية أو غير ذلك من صنوف اللغات، فإنه لا يحل اعتقادُه والاسترقاءُ به، فقالوا: يا رسول الله أفلا نقتل الخبيث؟ فقال ﷺ: «أما أنا فقد عافاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما غضب رسول الله ﷺ قط لنفسه ولا انتقم إلا أن يكون شيئاً هو لله، فيغضب لله وينتقم.

والنفث[2]: النفخ مع ريق قليل، وقيل: إنه النفخ فقط، واختلفوا في جواز النفث في الرُّقىٰ والتعاويذ الشرعية المستحبة، فجوَّزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم، ويدل على ذلك حديث عائشة في «الصحيحين» وغيرهما قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات) الحديث، وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقى، وأجازوا النفخ بلا ريق، قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد، وقيل: النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان.. وجب أن لا يكون مذموماً ولا مكروهاً، بل هو مندوب إليه، ذكره في «الخازن»، وهذا الذي ذكرناه في معنى الآية هو التفسير الصحيح، وقيل: المراد[3] بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة بنفث الريق عليها؛ ليسهل حلها، فالمعنى على هذا أعوذ برب الفلق من شر النساء النفاثات؛ أي: اللاتي شأنهن أن يغلبن على الرجال، ويحولنهم عن آرائهم، ويصرفنهم عنها بأنواع المكر

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) روح البيان.

والحيلة، فمعنى الآية إن النساء لاستقرار حبهن في قلوب الرجال يتصرفن فيهم ويحولنهم من رأي إلى رأي، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتعوذ من شرهن.

وقيل المعنى(١): أعوذ برب الفلق من شر النمامات والنمامين الذين يقطعون روابط المحبة، ويبددون شمل المودة، وقد شبه عملهم بالنفث، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة، والعرب تسمي الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة، كما سمي الارتباط بين الزوجين عقدة النكاح.

فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضرباً من السحر، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها، فالنمام يأتي لك بكلام يشبه الصدق، فيصعب عليك تكذيبه، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه؛ إذ يقول كلاماً ويعقد عقدة وينفث فيها، ثم يحلها إيهاماً للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين، وهذا المعنى والذي قبله يخالف ما ورد في سبب نزول السورتين، كما أشرنا إليه آنفاً.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ـ بفتح النون ـ جمع نفاثة على صيغة المبالغة، وقرأ الحسن بضم النون، وقرأ عيسى بن عمر ويعقوب في رواية، وعبد الرحمٰن بن ساباط وعبد الله بن القاسم والحسن أيضاً ﴿النافثات﴾ جمع نافثة، وقرأ أبو الربيع والحسن أيضاً ﴿النَّفِثات﴾ بغير ألف نحو الحذرات.

فصل

واعلم(٣): أن السحر تخيل لا أصل له عند المعتزلة، وعند الشافعي: تمريض بما يتصل به، كما يخرج من فم المتثائب ويؤثر في المقابل، وعند الحنفية: سرعة الحركة ولطافة الفعل فيما خفي فهمه، وقيل: طلسم يبنى على تأثير خصائص الكواكب، كتأثير الشمس في زئبق عصا سحرة فرعون، والمعتزلة أنكروا صحة رواية الأحاديث المذكورة، وتأثير السحر في النبي ﷺ، وقالوا: كيف يمكن القول بصحتها؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة، ولأن الكفار كانوا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

يعيرونه بأنه مسحور، فلو وقعت هذه الواقعة.. لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى، ولحصل ذكرالعيب في النبي ﷺ، ومعلوم أن ذلك غير جائز، وقال أهل السنة: صحة القصة لا تستلزم صدق الكفرة في قولهم: إنه مسحور، وذلك لأنهم كانوا يريدون بكونه مسحوراً أنه مجنون أزيل عقله بسبب السحر، فلذلك ترك دين آبائه، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه، فذلك مما لا ينكره أحد.

وبالجملة: فالله تعالى ما كان يسلط لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله، وأما الإضرار من حيث بشريته وبدنه فلا بُعد فيه، وتأثير السحر فيه ﷺ لم يكن من حيث إنه نبي، وإنما كان في بدنه من حيث إنه إنسان وبشر، فإنه ﷺ يعرض له من حيث بشريته ما يعرض لسائر البشر من الصحة والمرض والموت والأكل والشرب ودفع الفضلات، وتأثير السحر فيه من حيث بشريته لا يقدح في نبوته، وإنما يكون قادحاً فيها لو وُجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة، ولم يوجد ذلك، كيف؟! والله تعالى يعصمه من أن يضره أحد فيما يرجع إليها، كما لم يقدح كسر رباعيته يوم أحد فيما ضمن الله له من عصمته في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. وفي «كشف الأسرار»: فإن قيل: ما الحكمة في نفوذ السحر وغلبته في النبي ﷺ، ولماذا لم يرد الله كيد الكائد إلى نحره بإبطال مكره وسحره؟.

قلنا: الحكمة فيه الدلالة على صدق رسول الله ﷺ وصحة معجزاته، وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة؛ لأن سحر الساحر عمل فيه حتى التبس عليه بعض الأمر، واعتراه أنواع من الوجع، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك حتى دعا ربه، ثم دعا، فأجابه الله وبين أمره، ولو كان ما يظهر من المعجزات الخارقة للعادات من باب السحر على ما زعم أعداؤه لم يشتبه عليه ما عُمل من السحر فيه، ولتوصل إلى دفعه من عنده، وهذا بحمد الله تعالى من أقوى البراهين على نبوته، وإنما أخبر النبي ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ من بين نسائه بما كشف الله تعالى له من أمر السحر؛ لأنه ﷺ كان مأخوذاً من عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهذا السحر على ما روى يحيى بن يعمر قال: حُبس رسول الله ﷺ عن عائشة، فبينما هو نائم أو بين النوم واليقظة إذ أتاه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فهذا يقول للذي عند رأسه ما شكواه؟ قال: السحر، قال: من فعل به؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: فأين صنع السحر؟ قال: في بئر كذا، قال: فما دواؤه؟ قال: ينبعث إلى تلك البئر،

فينزح ماءها، فإنه ينتهي إلى صخرة رآها، فليقلعها، فإن تحتها كوبة؛ أي: كوزاً سقط عنقها، وفي الكوبة وتر فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر، فيحرقها بالنار فيبرأ إن شاء الله تعالى، فاستيقظ ﷺ وقد فهم ما قالا: فبعث علياً ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلى آخر ما تقدم.

٣ ـ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ بالوقف، ثم يكبر؛ لأن الوصل لا يخلو من الإيهام؛ أي: وقل يا محمد أعوذ برب الفلق من شر كل حاسد إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه ترتيب مقدمات الشر ومبادي الإضرار بالمحسود قولاً أو فعلاً، والتقييد[١] بذلك لما أن ضرر الحسد قبله إنما يحيق ويضر بالحاسد لاغتمامه بنعمة المحسود، قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد، ونظم الشاعر هذا المعنى، فقال:

قُلْ لِلْحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ طَعْنَةً ... يَا ظَالِمَاً وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ

وفي هذا المعنى قال بعضهم أيضاً:

أَلاَ قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِيْ حَاسِدَاً ... أَتَدْرِيْ عَلَىٰ مَنْ أَسَأْتَ ٱلأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَىٰ ٱللَّهِ فِيْ فِعْلِهِ ... لأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِيْ مَا وَهَبْ

فَكَانَ جَزَاؤُكَ أَنْ خَصَّنِيْ ... وَسَدَّ عَلَيْكَ طَرِيْقَ ٱلطَّلَبْ

وقال بعضهم:

اِصْبِرْ عَلَىٰ حَسَدِ ٱلْحَسُوْدْ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَٱلنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وفي «الكشاف»: فإن قلت: فلم عرَّف بعض المستعاذ. منه ونكَّر بعضه؟.

قلت: عرَّف النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة، ونكَّر غاسق؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات بمعنى الغبطة، والحسد الأسف على الخير عند الغير، وفي «فتح الرحمٰن»: تمني زوال النعمة عن مستحقها سواء كانت نعمة

---

(١) روح البيان.

دين أو دنيا، وفي الحديث: «المؤمن يَغِبط والمنافق يَحسُد»، وعنه ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وأول ذنب عُصِيَ الله به في السماء حسد إبليس لآدم، فأخرجه من الجنة، فطُرد وصار شيطاناً رجيماً، وفي الأرض قابيل لأخيه هابيل فقتله.

وقد أرشد الله[1] سبحانه وتعالى في هذه السورة رسول الله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشر وعلى الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره؛ وهو الغاسق والنفاثات والحاسد، فكأن هؤلاء ـ لما فيهم من مزيد الشر ـ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

قال بعضهم: إن الله تبارك وتعالى جمع في هذه السورة الشرور كلها وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أخس الطبائع وأقبح الصفات المذمومة، وهذه السورة من أنفع أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه من شر حاسد النعمة، وفي كشف ما يلتبس من القرآن كرر قوله: ﴿مِن شَرِّ﴾ أربع مرات؛ لأن شر كل واحد منها غير شر البقية عنها.

فإن قلت: أولها يشمل البقية، فما فائدة إعادتها؟

قلت: فائدتها تعظيم شرها ودفع توهم أنه لا شر لها لخفائه فيها.

ومعنى الآية: أي[2] ونستعيذ بك يا ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده بالسعي والجد في إزالة نعمة من يحسده، ويُعمِل الحيلة وينصب شباكه لإيقاع المحسود في الضرر بأدنى الوسائل ولا يمكن إرضاؤه، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة، وليس في الطوق دفع كيده ورد عواديه، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم، فهو القادر على رد كيده ودفع أذاه وإحباط سعيه، نسألك اللهم وأنت الوزر والنصير أن تقينا أذى الحاسدين، وتدفع عنا كيد الكائدين، إنك أنت الملجأ والمعين. آمين.

الإعراب

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿مِن شَرِّ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾ أيضاً، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما خلقه، ويجوز أن تكون مصدرية. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما قبله. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿شَرِّ﴾. ﴿وَقَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿غَاسِقٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ متعلق بـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿شَرِّ﴾. ﴿حَسَدَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿حَاسِدٍ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ الظرفية.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ الفلق الصبح، قال الزمخشري: الفلق والفَرَق الصبح؛ لأن الليل يفلق عنه ويفرق، وهو فَعَل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض، وفي المثل هو أبين من فَلَق الصبح، ومن فَرَق الصبح، ومنه قولهم: سطح الفرقان إذا طلع الفجر، وقال الشاعر:

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَقِبَا ... أَرْعَىٰ ٱلنُّجُوْمَ إِلَىٰ أَنْ قُدِّرَ ٱلْفَلَقُ

وقال الآخر يصف الثور الوحشي:

حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱنْجَلَىٰ عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ ... هَادِئَةٌ فِي أُخْرَيَاتِ ٱللَّيْلِ مُنْتَصِبُ

وقيل: الفَلْق شق الشيء وفصل بعضه عن بعض، تقول: فلقت الشيء فانفلق، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وهناك أقوال أخرى في المراد به يُرجع فيها إلى المطولات، كما ذكرنا أكثرها في مبحث التفسير، ولهذا ضربنا عنها صفحاً،

وتقدم هناك أن الأول أولى.

﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق الليل إذا اعتكر واشتد ظلامه، قال الشاعر:

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِيْ أَرَقَا إِذْ جِئْتَنَا طَارِقَاً وَٱللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا

﴿وَقَبَ﴾ دخل ظلامه في كل شيء يقال: وقبت الشمس إذا غابت، وفي الحديث: «لما رأى الشمس قد وقبت قال هذا حين حلها» يعني صلاة المغرب، وهناك أقوال أخرى ليس هذا موضعها كما مر بعضها هنالك.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: جمع نفاثة، كعلاَّمة صيغة مبالغة من النفث، وهو النفخ مع ريق يخرج من الفم، وهن السواحر اللاتي تنفث في العُقَد التي تعقدها، كما في «المختار»، وشبيه بالنفخ، وهو أقل من التفل، وقد نفث الراقي من بابي ضرب ونصر.

﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾: جمع عقدة، وهي الربطة التي تُعقد في الخيط والوتر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ والحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود عنه مطلقاً دينية كانت أو دنيوية، يقال: حسده يحسده من باب دخل، وقال الأخفش وبعضهم يقول: يحسِد ـ بالكسر ـ حَسَداً ـ بفتحتين ـ وحسادة بالفتح اهـ. «مختار». وفي «المصباح»: حسدته على النعمة، وحسدته النعمة حسداً بفتح السين أكثر من سكونها يتعدى إلى الثاني بنفسه وبالحرف إذا كرهتها عنده وتمنيت زوالها عنه اهـ.

فائدة: قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه:

أولها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

ثانيها: أنه ساخط قسمة ربه كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة.

ثالثها: أنه يعاند فعل الله تعالى.

رابعها: أنه يريد خذلان أولياء الله تعالى.

خامسها: أنه أعان عدو الله إبليس اللعين. انتهى.

وقال بعضهم: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا حزناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس الناقص بين ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿خَلَقَ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار لفظ ﴿شَرِّ﴾ أربع مرات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف.

ومنها: تخصيص بعض الشرور بالذكر في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ...﴾ إلخ، مع اندراجه فيما قبله من قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ فإنه عام يدخل تحته شر الغاسق وشر النفاثات وشر الحاسد؛ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة منه وأدعى إلى الإعاذة.

ومنها: إضافة الشر إلى الغاسق الذي بمعنى الليل لملابسته له بحدوثه فيه.

ومنها: تنكير ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لعدم شمول الشر لجميع أفراده.

ومنها: تعريف ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ إما للعهد، أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿حَاسِدٍ﴾ و﴿حَسَدَ﴾.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الفلق بعون الله وتوفيقه وقت المغرب من ليلة الأربعاء السابعة عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين، آمين.

سورة الناس

سورة الناس نزلت بعد سورة الفلق، وهي مدنية، وقيل: مكية، والأول أصح؛ لأنها نزلت بالمدينة سنة سبع بسبب أنه ﷺ سحرته اليهود.

والخلاف فيها كالخلاف الذي تقدم في سورة الفلق، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ وقد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة وما ورد في فضلها، فارجع إليه، وهي: ست آيات، والتي قبلها: خمس، فتكون الجملة إحدى عشرة آية عدد العقد والإبر الحاصلَين في السحر، وعشرون كلمة وتسعة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها ظاهرة؛ لاتحادهما في سبب النزول وفي الاستعاذة، وسميت بسورة الناس؛ لذكر لفظ الناس فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الناس محكمة كلها لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلۡ أَعُوذُ﴾؛ أي: أتحصن وألتجيء، والأمر فيه[1] للنبي ﷺ، ويتناول غيره من أمته، لأن أوامر القرآن ونواهيه لا تخص فرداً دون آخر غالباً.

وقرأ الجمهور[2]: بالهمزة في ﴿أَعُوذُ﴾، وقرىء بحذفها ونقل حركتها إلى اللام، وعبارة «البيضاوي» هنا: قرأ ورش في السورتين بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام. انتهى.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: بمالك الناس وخالقهم وموجدهم من العدم، وخصوا[3] بالذكر وإن كان رب جميع المخلوقات تشريفاً من حيث إنه تعالى أخدم لهم ملائكة قدسه، وجعل لهم ما في الأرض جميعاً، وأمدهم بالعقل والعلم، وكلفهم بخدمته، فإن قاموا بتلك الوظيفة كان لهم العز دنيا وأخرى، وإن لم يقوموا بها ردوا لأسفل السافلين، فلم يساووا كلباً ولا خنزيراً، وإذا علمت بذلك أنه رب الناس فهو رب غيرهم بالأولى، وقيل: خصوا بالذكر لمناسبته بالاستعاذة؛ لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس، فكأنه قال: قل أعوذ من شر الموسوس إلى الناس؛ أي: من شر ما يوسوس في صدورهم بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلٰههم وهو معبودهم، فإنه هو الذي يعيذ من شرهم.

والحاصل: أنه أمر رسوله أن يستعيذ بمن يربي الناس بنعمه ويؤدبهم بنقمه، وأصل الناس إما أناس حذفت الهمزة، أو نَوَس مأخوذ من ناس إذا تحرك خُص بالبَشَر، لأنه المتحرك الحركة المتعبد بها الناشئة عن رؤية وتدبر، تحركت الواو

---

(١) الصاوي. (٢) الشوكاني. (٣) الصاوي.

وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، أو من الأنس ضد الوحشة؛ لأنه يؤنس به أو من النسيان؛ لكونه شأنه وطبعه، كما قال بعضهم:

وَمَا سُمِّيَ ٱلإِنْسَانُ إِلاَّ لِنَسْيِهِ   وَمَا ٱلْقَلْبُ إِلاَّ أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

يقول الفقير[1]: ففي الالتجاء إلى الله في هذه السورة دلالة على ختم الأمر، فإن الله تعالى هو الأول الآخر، وإليه يرجع الأمر كله، وإن إلى ربك المنتهى، وفيه إشارة إلى نسيان العهد السابق الواقع يوم الميثاق، فإن الإنسان لو لم ينسه لما احتاج إلى العود والرجوع، بل كان في كنف الله تعالى دائماً.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾؛ أي: مالكهم ومدبر أمورهم، وواضع الشرائع والأحكام التي فيها سعادتهم في معاشهم ومعادهم، قرىء هنا بإسقاط الألف باتفاق القراء حذراً من التكرار، فإن أحد معاني اسم الرب في اللسان المالك، ولا ترد الفاتحة، فإن الراجح فيها عند المحققين هو المَلِك بحذف الألف لا المالك اهـ «روح».

بخلاف الذي في الفاتحة، ففيه قراءتان سبعيتان ثبوت الألف وحذفها كما مر هنالك، ومعنى المَلِك: المتصرف فيهم بأنواع التصرفات من إعزاز وإذلال وإغناء وإفقار وغير ذلك، وهو[2] عطف بيان جيء به لبيان أن ربِّيَّته سبحانه ليست كربِّيَّة سائر المُلاَّك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الشامل، وما ذكروه[3] في ترجيح المالك على المَلِك من أن المالك مالك العبد، وأنه مطلق التصرف فيه، بخلاف الملك، فإنه إنما يملك بقهر وسياسة ومن بعض الوجوه فقياس لا يصح ولا يطرد إلا في المخلوقين لا في الحق سبحانه، فإنه من البيِّن أنه مطلق التصرف، وأنه يملك من جميع الوجوه، فلا يقاس ملكية غيره عليه، ولا تضاف الصفات والأسماء إليه تعالى إلا من حيث أكمل مفهوماته.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾؛ أي: معبودهم المستولي على قلوبهم بعظمته، وهم لا يحيطون بكنه سلطانه، بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم، ولا يدرون من أي جانب يأتهم ولا كيف يسلط عليهم.

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.   (٣) روح البيان.

وهو عطف[1] بيان أيضاً كالذي قبله؛ لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، وأيضاً الرب قد يكون مَلِكاً وقد لا يكون ملكاً، كما يقال: رب الدار، ورب المتاع، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فبين أنه ملك الناس، ثم المَلِك قد يكون إلٰهاً وقد لا يكون، فبيَّن أنه إلٰه؛ لأن اسم الإلٰه خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، وأيضاً بدأ باسم الرب، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عُرف بالدليل أنه عبد مملوك، فذكر أنه ملك الناس، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إلٰه معبود.. بيَّن سبحانه أنه إلٰه الناس.

وعبارة «المراغي» هنا: وإنما قدم[2] الربوبية؛ لأنها من أوائل نعم الله تعالى على عباده، ثم ثنى بذكر المالكية؛ لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكراً، ثم ثلث بذكر الألوهية؛ لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة، وإنما قال: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ وهو رب كل شيء، وإلٰه كل شيء من قِبَل أن الناس هم الذين أخطؤوا في صفاته، وضلوا فيها عن الطريق السوي، فجعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم، ويلجؤون إليهم في دفع النقم، ويلقبونهم بالشفعاء، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ويرسمون لهم حدود أعمالهم، وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

والخلاصة: أنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم وهم أناس مفكرون وملكهم وهم كذلك وإلٰههم وهم هكذا، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وكرر لفظ الناس في ثلاثة مواضع[١]، ولم يكتف بضميرهم مع اتحاد اللفظين في اللفظ والمعنى، وهو معيب كالإيطاء في الشعر لمزيد[٢] الكشف والتقرير بالإضافة، ولإظهار شرف الناس وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، فإن ما لا شرف فيه لا يُعبأ به ولا يعاد ذكره، بل يترك ويهمل، كما قال الشاعر:

أَعِدْ ذِكْرَ نُعْمَانَ لَنَا إِنَّ ذِكْرَهُ ... هُوَ ٱلْمِسْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَضَوَّعُ

فلولا أن الناس أشرف مخلوقاته.. لما ختم كتابه بذكرهم، وكما أنه حسَّن[٣] التكرار للتلذذ وإظهار فضل المكرر في قول بعضهم:

مُحَمَّدُ سَادَ ٱلنَّاسَ كَهْلاً وَيَافِعاً ... وَسَادَ عَلَىٰ ٱلأَمْلَاكِ أَيْضاً مُحَمَّدُ

مُحَمَّدُ كُلُّ ٱلْحُسْنِ مِنْ بَعْضِ حُسْنِهِ ... وَمَا حُسْنُ كُلِّ ٱلْحُسْنِ إِلاَّ مُحَمَّدُ

مُحَمَّدُ مَا أَحْلَىٰ شَمَائِلَهُ وَمَا ... أَلَذَّ حَدِيثاً رَاحَ فِيهِ مُحَمَّدُ

وهذا على تسليم أن المراد بالناس في المواضع الثلاثة شيء واحد، وأما إن أريد بالناس الأول الصغار، وأضيفوا للرب لاحتياجهم إلى التربية أكثر من غيرهم، وبالثاني الشباب، وأضيفوا للملك لأن شأنهم الطغيان والطيش فيهم، فهم محتاجون لملك يسوسهم ويكسر هيجان شبوبيتهم، وبالثالث: الشيوخ، وأُضيفوا للإله لأن شأنهم كثرة العبادة لقرب ارتحالهم وقدومهم على ربهم وفناء شهواتهم، فهم أقرب من غيرهم للتعلق بالإله، فلا اتحاد في المعنى.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ متعلق بـ ﴿أعوذ﴾؛ أي: من شر الشيطان ذي الوسوسة، وهي الهمس والصوت الخفي، والوَسواس ـ بفتح الواو ـ اسم مصدر بمعنى الحديث، أي: الوسوسة يُطلق على نفس الشيطان الموسوس؛ لكثرة ملازمته للوسوسة، فهو على حد زيد عدل؛ أي: شر الشيطان الموسوس، ويُطلق أيضاً على ما يخطر بالقلب من الشر، فالكلام حينئذ على حذف مضاف؛ أي: من شر الشيطان ذي الوسواس، كما أشرنا إليه أولاً.

والحاصل[٤]: أن الوَسواس ـ بالفتح ـ اسم مصدر بمعنى الوسوسة، وهو:

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) الصاوي.
(٤) روح البيان.

الصوت الخفي الذي لا يُحَس فيحترز منه كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال بالكسر أيضاً، وقال الزجاج: الوسواس هو الشيطان؛ أي: ذي الوسواس، ويقال: إن الوسواس ابن لإبليس، والفرق بين المصدر واسم المصدر: أن الحدث إن اعتبر صدوره عن الفاعل ووقوعه على المفعول سمي مصدراً، وإذا لم يُعتبر بهذه الحيثية سمي اسم المصدر، ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه كرر لفظها بإزاء تكرير معناها، والمراد بالوسواس الشيطان؛ لأنه يدعو إلى المعصية بكلام خفيٍّ يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته، وذلك بالإغرار بسعة رحمة الله تعالى، أو بتخييل أن له في عمره سعة، وأن وقت التوبة باقٍ بعد، سمي بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة؛ لدوام وسوسته.

فقد أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخ، ولم يقل: من شر وسوسته؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه، وإنما وصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً.

فإن قلت: ما الحكمة في وصف الله تعالى في هذه السورة بنفسه بثلاث أوصاف، وجعل المستعاذ منه شيئاً واحداً، وفي السورة قبلها بعكس ذلك؛ لأنه وصف نفسه بوصف واحد، وجعل المستعاذ منه أربعة أشياء؟.

قلت: بأنه في السورة المتقدمة المستعاذ منه أمور تضر في ظاهر البدن، وهنا وإن كان أمراً واحداً إلا أنه يضر الروح، وما كان يضر الروح يُهتم بالاستعاذة منه.

فإن قلت: إن كان مقتضى الظاهر تقديم ما به الاهتمام؛ وهو الاستعاذة من شر الوسواس؛ إذ سلامة الروح مقدمة على البدن؟.

أجيب: بأن تقديم سلامة البدن وسيلة للمقصود بالذات، وهو: سلامة الروح.

وفي «آكام المرجان»: وينحصر ما يدعو الشيطان إليه ابن آدم في ست مراتب: المرتبة الأولى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذاك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تبعه، وهذا أول ما يريده من العبد، والمرتبة الثانية البدعة، وهي أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، فتكون كالعدم، والبدعة يظن صاحبها أنها صحيحة فلا يتوب منها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة

الثالثة، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابعة؛ وهي الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها كالنار الموقدة من الحطب الصغار، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة؛ وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عقابها فوات الثواب الذي عليه باشتغاله بها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة، وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه؛ ليفوِّته ثواب العمل الفاضل.

ومن الشيطان شيطان الوضوء، ويقال له الوَلَهان - بفتحتين - وهو شيطان يولع الناس بكثرة استعمال الماء، قال النبي ﷺ: تعوَّذوا بالله من وسوسة الوضوء، ومنهم شيطان يقال له: خنزب، وهو الملبس على المصلي في صلاته وقراءته، قال أبو عمر والبخاري - رحمهما الله تعالى -: أصل الوسوسة ونتيجتها من عشرة أشياء:

أولها: الحرص، فقابله بالتوكل والقناعة.

والثاني: الأمل فاكسره بمفاجأة الأجل.

والثالث: التمتع بشهوات الدنيا، فقابله بزوال النعمة وطول الحساب.

والرابع: الحسد، فاكسره برؤية العدل.

والخامس: البلاء، فاكسره برؤية المنة والعوافي.

والسادس: الكبر فاكسره بالتواضع.

والسابع: الاستخفاف بحرمة المؤمنين، فاكسره بتعظيمهم واحترامهم.

والثامن: حب الدنيا والمحمدة، فاكسره بالإخلاص.

والتاسع: طلب العلو والرفعة، فاكسره بالخشوع والذلة.

والعاشر: المنع والبخل، فاكسره بالجود والسخاء.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صفة للوسواس؛ لأنه بمعنى الموسوس؛ أي: من شر الشيطان الموسوس الذي عادته أن يخنس؛ أي: يتأخر ويختفي إذا ذكر الإنسان ربه، وهو صيغة مبالغة؛ أي: كثير الخنس؛ وهو التأخر من خنس يخنس - من باب دخل - أي: يتوارى ويختفي بعد ظهوره المرة بعد المرة، قال مجاهد: إذا ذكر الله خنس وانقبض، وإذا لم يُذكر انبسط على القلب، ووُصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء،

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ يعني: النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم، وقيل: ﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ اسم إبليس، كما تقدم في الوسواس، فالخناس هو الذي إذا ذكر العبد ربه تأخر واختفى وتوارى عنه، وإذا غفل عن ذكر الله بالقلب، ولو كان ذاكراً باللسان رجع إليه، فالذكر له كالقامع الذي يقمع المفسد، فهو شديد النفور منه، ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلاً، وعن بعض السلف: إن المؤمن يفني شيطانه، كما يفني الرجل بعيره في السفر، قال قتادة: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب، وقيل: كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس، وقيل: رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس وتأخر، وإذا غفل رجع، وهل المراد بما ذُكر الحقيقة؟ أو خرطوم الكلب والخنزير كناية عن قبحه وخبثه ونجاسته، ورأس الحية كناية عن شدة الأذية، ووضعه على الفؤاد كناية عن شدة التمكن؟ كل محتمل.

ويجوز أن يدخل الشيطان في الأجسام؛ لأنه جسم لطيف، وهو وإن كان مخلوقاً في الأصل من نار، لكنه ليس بمحرق؛ لأنه لما امتزج النار بالهواء صار تركيبه مزاجاً مخصوصاً كتركيب الإنسان، كما ورد في الحديث الصحيح أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم.

والمعنى: أي[1] ألجأ إليك رب الخلق ومالكهم وإلٰهم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء؛ لإنه يأتي من ناحية الباطل، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير إذا انجرَّت مع وسوسته، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال.

وهذه الأحاديث النفسية إذا سُلِّط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت، وسكن الموسوس عند إلقائها، وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس يذهب هباء إذا تنبهت النفس لأوامر الشرع، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ، وبعثك على فعل السوء، ثم ذكرته بأوامر الدين يخنس، ويمسك عن القول إلى أن تسنح له فرصة أخرى، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الوسواس الخناس بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ﴾ ويحدث حديثاً خفياً لا يُسمع له صوت ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في

---

(١) المراغي.

قلوب[1] الناس والبشر إذا غفلوا بقلوبهم عن ذكر الله تعالى، ولو ذكروا بألسنتهم، ولذا قال في «التأويلات النجمية» في تفسير الناس؛ أي: الناسي عن ذكر الله بالقلب والروح والسر نظير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بحذف الياء. انتهى.

وذلك لأن الوسوسة حالة في القلب[2]، فلا يطردها إلا الذكر الحال في القطر، فمن كان من أهل الذكر فلا تسلط للشيطان عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ولا يترك الإنسان الذكر اللساني إذا وجد الغفلة والوسواس في قلبه، بل يكثر الذكر ويديمه، فلعله يستيقظ قلبه ويتنور، قال بعض أهل المعرفة: الذكر اللساني كقدح الزناد، فإذا تكرر أصاب، قال بعضهم في ذلك:

أَطْلُبْ وَلاَ تَضْجَرَنْ مِنْ مَطْلَبٍ فَآفَةُ ٱلطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرَا
أَمَا تَرَىٰ ٱلْحَبْلَ لِتَكْرَارِهِ فِيْ ٱلصَّخْرَةِ ٱلصَّمَّاءِ قَدْ أَثَّرَا

ومحل الموصول الجر على الوصف[3]، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو النصب على الذم، فيحسن الوقف عليه، ذكر سبحانه وتعالى وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها؛ وهو صدور الناس، تأمل السر والحكمة في قوله: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: في قلوب الناس، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات عليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز، وهو بكسر أوله ما بين الباب والدار، ومن القلب تخرج الإرادت والأوامر إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، فالشيطان يدخل ساحة القلب وبيته، فيُلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو يوسوس في الصدور، ووسوسته واصلة إلى القلوب، وقال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلَّطه الله سبحانه على ذلك، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت.

وقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنه لا يوسوس في صدور الجن، قال في «آكام المرجان»: لم يرد دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي .اهـ.

---

(١) روح البيان. (٢) الصاوي. (٣) روح البيان.

ثم بيَّن سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان جني وإنسي، فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والجِنة ـ بالكسر ـ جماعة الجن، و﴿مِن﴾ بيان للشيطان الموسوس على أنه ضربان جني وإنسي، كقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ والموسوس إليه نوع واحد، وهو الإنس، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى، فشيطان الإنس يكون كذلك، وذلك لأنه يُلقي الأباطيل، ويُري نفسه في سورة الناصح المشفق، فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه، و﴿مِن﴾ علىٰ هذا بيانية مشوبة بتبعيض؛ أي: بعض الجنة وبعض الناس.

قال في «الأسئلة المقحمة»: من دعا غيره إلى الباطل، فإن تصوره في قلبه كان ذلك وسوسةً، وقد قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فإذا جاز أن توسوس نفسه جاز أن يوسوسه غيره، فإن حقيقة الوسواس لا تختلف باختلاف الأشخاص.

ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ متعلقة بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾ وتكون لابتداء الغاية؛ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجن أنهم يعلمون الغيب ويضرون وينفعون، ومن جهة الناس كالكهان والمنجمين كذلك، ويجوز أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بياناً للوسواس، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ فلفظ ﴿شَرِّ﴾ مسلط عليه، كأنه قال: من شر الوسواس الذي يوسوس؛ وهو الجنة، ومن شر الناس، وعليه فالناس لا يصدر منهم وسوسة، وقيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن الجنة والناس بتقدير العاطف كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس، وقيل: المراد بالناس الناسي، وسقطت الياء كسقوطها في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ثم بيَّن بالجنة والناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان، وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الإنس، وواحد الجنة: جني، كما أن واحد الإنس إنسي، وسيأتي بسط الكلام فيه، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا يكون إلا بالمعنى الذي قد قدمنا، ويكون هذا البيان يذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة، وفي ختم[1] القرآن بهذه السورة

---

(١) روح البيان.

إشارة حسنة، كأنه قيل: ما أنزلناه كاف، وما فرَّطنا في الكتاب من شيء فلا تطلب بعده شيئاً، بل اقتصر على العمل له واستعذ بالله من الشيطان والحاسد؛ لأن العبد إذا تمت نعمة الله عليه كثرت حساده إنساً وجناً، قال بعضهم: وفي بدء القرآن: بسم الله وختمه بالناس إشارة إلى أن الإنسان آخر المراتب الكونية؛ وذلك لأن ابتداء المراتب الكونية هو العقل الأول، وانتهاؤها هو الإنسان اهـ بتصرف.

قيل: عدد[1] حروف هذه السورة غير المكرر: ثلاث وعشرون حرفاً، وكذلك عدد الفاتحة بعدد السنين التي أُنزل فيها القرآن، وهو سر بديع، وأول القرآن باء البسملة، وآخره سين والناس، كأنه قيل: بس؛ أي: تم وكمل، أو حسب؛ أي: حسبك من الكونين ما أعطيناك بين الحرفين، وفي أسئلة[2] عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - أخبرني يا محمد ما ابتداء القرآن وما ختمه؟ قال: «ابتداؤه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وختمه: صدق الله العظيم»، قال: صدقت، وفي «خريدة العجائب» يعني: ينبغي أن يقول القارىء ذلك عند الختم، وإلا فختم القرآن سورة الناس، وفي «قوت القلوب» للشيخ أبي طالب المكي - رحمه الله تعالى -: وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① . . .﴾ وسورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله تعالى، وبلَّغ رسوله ﷺ، اللهم انفعنا وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين، واستغفر الله الحي القيوم.

الإعراب

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر تقديره: أنت يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا يعود على

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.

محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: بدلان، أو وصفان، أو عطفا بيانٍ لـ﴿رب الناس﴾، وكرر المضاف إليه إظهاراً لشرفه كما مر. ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ قال في «الكشاف»: يجوز فيه الحركات الثلاث، فالجر على الصفة والرفع والنصب على الذم. ﴿يُوَسْوِسُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يُوَسْوِسُ﴾. ﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَعُوذُ﴾ من عاذ إليه يعوذ ـ من باب قال ـ إذا التجأ إليه مما يخافه.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ الناس أصله إما أناس، فحذفت الهمزة، فصار ناس، أو نَوَس تحركت الواو وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، مأخوذ إما من ناس إذا تحرك، خص بالبشر؛ لأنه المتحرك الحركة التامة الناشئة عن فكر واختيار، أو من الأنس ضد الوحشة؛ لأنه يؤنس به، أو من النسيان؛ لكونه مطبوعاً عليه.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: وفي «السمين»: قال الزمخشري: الوسواس اسم مصدر بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر، فوسواس بالكسر كزلزال، والمراد به هنا الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشغله، أو أريد ذو الوسواس اهـ.

وفي «المصباح»: أنه يطلق أيضاً على ما يخطر بالقلب من الشر، وكل ما لا خير فيه، وفي «المختار»: الوسوسة حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً ـ بالكسر ـ ووسواساً ـ بالفتح ـ كزلزال وزلزال.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغة مبالغة من خنس يخنس ـ من باب دخل ـ خنساً ـ بالسكون ـ وخَنَساً ـ بالتحريك ـ وخنوساً، والخنس التأخر والتواري والاستتار، يقال: خنس عنه إذا تأخر وأخنسه غيره؛ أي: خلَّفه ومضى عنه، والخناس الشيطان؛ لأنه يخنس

إذا ذكر الله عز وجل، قال في «أساس البلاغة»: وخنس الرجل من بين القوم خنوساً إذا تأخر واختفى وخنسته أنا وأخنسته بأربع، وخنس إبهامه خفض، ومنه الخناس.

﴿مِنَ الجِنَّةِ﴾ الجنة: اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالياء، فيقال: جن وجني كزنج وزنجي، وغالباً يفرق بالتاء كتمر وتمرة، وزيدت التاء في الجنة لتأنيث الجماعة، سموا بذلك لاجتنانهم؛ أي: استتارهم عن العيون، وهم أجسام نارية هوائية يتشكلون بالصور الشريفة والخسيسة، وتحكم عليهم الصور، وتقدم ما فيهم اهـ من «الصاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه وتعظيمه في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وفي الآيتين بعدها.

ومنها: تخصيص الناس بالذكر في المواضع الثلاثة مع كونه رب جميع المخلوقات وملكهم وإلٰههم تكريماً لهم من بين المخلوقات حيث أخدمهم الملائكة، وأمدهم بالعقل والعلم وسائر أنواع الكرامات كما مر.

ومنها: تكرير لفظ الناس ثانياً وثالثاً؛ لإظهار شرف الناس وتعظيمهم، وللاعتناء بشأنهم، ولو قال: ملكهم إلٰههم لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يُوَسْوِسُ﴾ و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ و﴿ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في قلوبهم لعلاقة المحلية.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب[1]

* * *

(١) اللهم اجعلنا من المخلصين في أعمالنا، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن، وأبعد عنا شر

الموسوسين، وقنا عذاب الجحيم، ولا تفضحنا يوم العرض والحساب، وصل ربنا وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الذين ذادوا عن دينك بقدر ما غرستَ في قلوبهم من برد اليقين، وأثلجتَ صدورهم بمحبة هذا الدين، وعلى التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، وارض عنا معهم يا رب العالمين بمحض فضلك وجودك وكرمك وإحسانك وعن جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات يا رب العالمين، آمين آمين، ألف ألفي آمين.

إلى هنا تم تفسير سورة الناس بعون الله وتوفيقه أوائل ليلة الجمعة المباركة التاسعة عشرة من شهر صفر الخير من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة وبتمامه تم الكتاب الميمون، وكان تاريخ ابتدائه في اليوم الثاني من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤٠٦هـ ألف وأربع مئة وست سنوات، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وقد مكثت في تسويده مع ما تراكم عليّ من الشواغل والعوائق إحدى عشرة سنة وشهرين إلا ثمانية أيام، ولقد أجاد من قال:

وَقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فِـيْ أَمْـرٍ يُـحَـاوِلُـهُ وَٱسْـتَـعْـمَـلَ ٱلـصَّـبْـرَ إِلاَّ فَـازَ بِـٱلـظَّـفَـرِ

الخواتيم نسأل الله تعالى حسنها

الأولى: في الآداب التي تُطلب لقارىء القرآن عند قراءته، والتي تتعلق باحترام القرآن وتعظيمه:

فمنها: أن لا يمسه إلا طاهراً قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ومنها: أن التالي يتطيب لتلاوته ويستاك لها لقول يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طريق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما استطعتم.

ومنها: أن يستوي له قاعداً ولا يكون متكئاً.

ومنها: أن يلبس ثياب التجمل كما يلبسها للدخول على الملوك؛ لأنه مناج ربه.

ومنها: أن يستقبل القبلة؛ لأنها أشرف الجهات.

ومنها: أنه إذا تثاءب يمسك عن القراءة حتى يذهب تثاؤبه؛ لأنه من الشيطان.

ومنها: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء القراءة وإن لم يكن في أول سورة، ويبسمل إن كان في أول سورة، وإلا فيخيَّر.

ومنها: إذا أخذ في القراءة لم يقطعها لمكالمة أحد من غير ضرورة.

ومنها: أن يقرأه على تؤدة وترتيل وتدبر حتى يعقل ما يخاطب به ربه، فيرغب في الوعد ويرهب عند الوعيد.

ومنها: إذا انتهت قراءته يقول: صدق الله العظيم، وبلَّغ رسوله الكريم، وأنا على ذلك من الشاهدين.

ومنها: أن يقرأ القرآن على الترتيب ولا ينكس.

ومنها: أن يضع المصحف على مكان طاهر مرتفع أو في حجره.

ومنها: أن لا يمحو القرآن من اللوح بالبصاق، ولكن يغسله بالماء، ويشرب الغسالة بقصد الاستشفاء، أو يدفنها في مكان طاهر بعيد عن ممر الأقدام.

ومنها: أن لا يتخذ الصحيفة إذا بليت، بل يمحوها بالماء، ويفعل بها ما تقدم، أو يحرقها ويدفن رمادها في مكان طاهر.

ومنها: أن يُعطي عينيه حقهما من النظر في المصحف، ففي الحديث: أنه ﷺ قال: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه»، وقال ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً».

ومنها: أن لا يتأول القرآن بشيء من أمور الدنيا يعرض له، كقول الرجل إذا جاءه أحد: جئتَ على قدر يا موسى، وكقوله لضيوفه مثلاً: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

ومنها: أن لا يقرأ القرآن بألحان الغناء كلحون أهل الفسق.

ومنها: أن يجوف خطه إذا كتبه.

ومنها: أن لا يقرأه في الأسواق، أو في مواطن اللغط ومجمع السفهاء.

ومنها: أن لا يقصد بتلاوته سؤال الخلق.

ومنها: أن لا يحقر المصحف، فإنه ورد النهي عن تحقير المصحف والمسجد.

ومنها: أن لا يكتبه على الأرض ولا على حائط، كما يفعل في المساجد، ففي الحديث: مر رسول الله ﷺ بكتابته في أرض، فقال لشاب من هذيل: «ما هذا؟» قال: من كتاب الله كتبه يهودي، فقال: «لعن الله من فعل هذا، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه» ورأى عمر بن عبد العزيز ولده يكتب القرآن على حائط فضربه.

ومنها: إذا كتبه وشربه ينوي به الشفاء من كل داء وأذى وبلوغ الآمال من كل خير، فإن الله يؤتيه على قدر نيته.

ومنها: إذا ختم القرآن يقرأ من أوله قدر خمس آيات، فقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال لرجل سأله عن أفضل العمل، فقال: «عليك بالحال المرتحل» قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره، ثم يضرب في أوله كلما حل ارتحل».

ومنها: إذا ختم القرآن أن يجمع أهله ويدعو بخير الدارين، كما كان السلف

الصالح يفعلونه لإجابة الدعاء عند ختمه، كما هو مذكور في الأحاديث الصحيحة انتهى ملخصاً من «القرطبي».

الثانية: في آداب ختم القرآن:

روي عن ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان إذا انتهى في آخر الختمة إلى قل أعوذ برب الناس قرأ سورة الحمد لله رب العالمين وخمس آيات من سورة البقرة على عدد الكوفي، وهو إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ لأن هذا يسمى الحال المرتحل، ومعناه: أنه حل في قراءته آخر الختمة وارتحل إلى ختمة أخرى إرغاماً للشيطان، وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها، وورد النص عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ أن من قرأ سورة الناس يدعو عقب ذلك، فلم يستحب الإمام أحمد أن يصل ختمه بقراءة شيء من القرآن، وروي عنه قول آخر بالاستحباب، واستحسن مشايخ العراق قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً عند ختم القرآن إلا أن يكون الختم في المكتوبة، فلا يكررها.

وفي الحديث: «من شهد خاتمة القرآن كان كمن شهد المغانم حين تُقسم، ومن شهد فاتحة القرآن كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله تعالى»، وعن إبراهيم التيمي قال: من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن ختمه أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، قال: فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار، وعن الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: عند كل ختمة دعوة مستجابة، وإذا ختم الرجل القرآن قبَّل المَلَك بين عينيه، ومن شك في غفرانه عند الختم فليس له غفران، ونص الإمام أحمد على استحباب الدعاء عند الختم، وكذا جماعة من السلف، فيدعو بما أحب مستقبل القبلة رافعاً يديه خاضعاً لله تعالى موقناً بالإجابة، ولا يتكلف السجع في الدعاء، بل يجتنبه ويثني على الله تعالى قبل الدعاء وبعده، ويصلي على النبي ﷺ ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء؛ لأن ذلك أرجى للقبول.

وفي «شرح الجزري» لابن المصنف: ينبغي أن يُلح في الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة بالكلمات الجامعة، وأن يكون معظم ذلك أو كله في أمور الآخرة وأمور المسلمين وصلاح سلاطينهم وسائر ولاة أمورهم بتوفيقهم للطاعات وعصمتهم

من المخالفات، وتعاونهم على البر والتقوى، وقيامهم بالحق عليه، وظهورهم على أعداء الدين وسائر المخالفين، وقال الشيخ سلطان المزاحي في رسالته «الدر المصون»: ثم بعد ختم القرآن تدعو بما أردت ديناً ودنيا، وأولاه المأثور عن النبي ﷺ.

الثالث: في الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ عند ختم القرآن:

فمنها: ما روي أنه ﷺ أمر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يدعو عند ختم القرآن بهذا الدعاء، وهو: اللهم إني أسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ووجوب رحمتك وعزائم مغفرتك والفوز بالجنة والخلاص من النار.

ومنها: ما روي أنه ﷺ كان يقول عند ختم القرآن: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين».

ومنها: ما روي عنه ﷺ أنه كان يقول عند ختمه: «اللهم ارحمنا بالقرآن العظيم واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لنا حجة يا رب العالمين، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبداً ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا».

وكان أبو القاسم الشاطبي - رحمه الله تعالى - يدعو بهذا الدعاء: اللهم إنا عبيدك وأبناء إمائك، ماضٍ فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو نزلته في شيء من كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جنتك جنة النعيم،

ودارك دار السلام مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الرابعة: ترتيب السور على حسب النزول:

السور المكية

(١) اقرأ (٢) ن (٣) المزمل (٤) المدثر (٥) تبت (٦) الشمس (٧) الأعلى (٨) الليل (٩) الفجر (١٠) الضحى (١١) ألم نشرح (١٢) العصر (١٣) العاديات (١٤) الكوثر (١٥) التكاثر (١٦) الماعون (١٧) الكافرون (١٨) الفيل (١٩) الفلق (٢٠) الناس (٢١) الإخلاص (٢٢) النجم (٢٣) عبس (٢٤) القدر (٢٥) الضحى (٢٦) البروج (٢٧) التين (٢٨) قريش (٢٩) القارعة (٣٠) القيامة (٣١) الهمزة (٣٢) المرسلات (٣٣) قٓ (٣٤) البلد (٣٥) الطارق (٣٦) الساعة (٣٧) صٓ، (٣٨) الأعراف (٣٩) الجن (٤٠) يٓس (٤١) الفرقان (٤٢) الملائكة (٤٣) مريم (٤٤) طه (٤٥) الواقعة (٤٦) الشعراء (٤٧) النمل (٤٨) القصص (٤٩) بني إسرائيل (٥٠) يونس (٥١) هود (٥٢) يوسف (٥٣) الحجر (٥٤) الأنعام (٥٥) الصافات (٥٦) لقمان (٥٧) سبأ (٥٨) الزمر (٥٩) المؤمنون (٦٠) السجدة (٦١) الشورى (٦٢) الزخرف (٦٣) الدخان (٦٤) الجاثية (٦٥) الأحقاف (٦٦) الذاريات (٦٧) الغاشية (٦٨) الكهف (٦٩) النحل (٧٠) نوح (٧١) ابراهيم (٧٢) الأنبياء (٧٣) المؤمنون (٧٤) السجدة (٧٥) الطور (٧٦) تبارك (٧٧) الحاقة (٧٨) المعارج (٧٩) النبأ (٨٠) النازعات (٨١) الانفطار (٨٢) الانشقاق (٨٣) الروم (٨٤) العنكبوت (٨٥) المطففين.

السور المدنية

(٨٦) البقرة (٨٧) الأنفال (٨٨) آل عمران (٨٩) الأحزاب (٩٠) الممتحنة (٩١) النساء (٩٢) الزلزلة (٩٣) الحديد (٩٤) القتال (٩٥) الرعد (٩٦) الرحمٰن (٩٧) الإنسان (٩٨) الطلاق (٩٩) البينة (١٠٠) الحشر (١٠١) النصر (١٠٢) النور (١٠٣) الحج (١٠٤) المنافقون (١٠٥) المجادلة (١٠٦) الحجرات (١٠٧) التحريم (١٠٨) الجمعة (١٠٩) التغابن (١١٠) الصف (١١١) الفتح (١١٢) المائدة (١١٣)

براءة. انتهى من «الإتقان» للحافظ السيوطي.

الخامسة: في ذكر الاختلاف الواقع في عدد سور القرآن:

قال ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ جميع سور القرآن مئة واثنتا عشرة سورة، قال الفقيه في «البستان»: إنما قال إنها: مئة واثنتا عشرة سورة؛ لأنه كان لا يعد المعوذتين من القرآن، وكان لا يكتبهما في مصحفه، ويقول: إنهما منزلتان من السماء، وهما من كلام رب العالمين، ولكن النبي ﷺ كان يرقي ويعوذ بهما، فاشتبه عليه أنهما من القرآن، أو ليستا منه فلم يكتبهما في المصحف.

وقال مجاهد: جميع سور القرآن: مئة وثلاث عشرة سورة، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعد الأنفال والتوبة سورة واحدة، وقال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: جميع سور القرآن: مئة وست عشرة سورة، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعد القنوت سورتين إحداهما من قوله: اللهم إنا نستعينك إلى قوله: من يفجرك، والثانية من قوله: اللهم إياك نعبد إلى قوله: ملحق، وقال زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: جميع سور القرآن: مئة وأربع عشرة سورة، وهذا قول عامة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وهكذا في مصحف الإمام عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وفي مصاحف أهل الأمصار، فالمعوذتان سورتان من القرآن روى أبو معاوية عن عثمان بن واقد قال: أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر، وسأله عن المعوذتين أهما من كتاب الله؟ قال: من لم يزعم أنهما من كتاب الله، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وفي «نصاب الاحتساب»: لو أنكر آية من القرآن سوى المعوذتين يكفر. انتهى.

وفي «الأكمل» عن سفيان بن سخنان من قال: إن المعوذتين ليستا من القرآن لم يكفر لتأويل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كما في «المغرب» للمطرزي، وقال في «هدية المهديين»: وفي إنكار قرآنية المعوذتين اختلاف المشايخ، والصحيح أنه: يكفر. انتهى.

وأما جملة حروف القرآن فهي ألف ألف وسبعة وعشرون ألفاً بإدخال حروف الآيات المنسوخة، ونصفه الأول باعتبارها ينتهي بالنون من قوله: في سورة الكهف ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ والكاف أول النصف الثاني، وأما جملة عدد آياته فهي: ستة

آلاف وخمس مئة آية، نصفها الأول ينتهي بقوله في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ كما بسطنا الكلام على أمثال هذا في المقدمة.

السادسة: في جداول وضعناها على صورة الوفق المربع الذي أضلاعه ستة ووضعنا في الزاوية الأولى: الأرقام، وفي الثانية: أسماء السورة وفي الثالثة: عدد آياتها، وفي الرابعة: عدد كلماتها، وفي الخامسة: عدد حروفها، وفي السادسة: أن السورة مكية أو مدنية، والغرض منها: تسهيل حفظ هذه الأمور المهمة على من أراد حفظها على ظهر قلب، وهي هذه الخطوط المخطوطة في الصفحات الآتية، وهي تُغني عن الفهارس التي اعتادها الناس.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

جداول سور القرآن على ترتيب المصحف العثماني

(الرقم)	(اسم السورة)	(عدد آياتها)	(عدد كلماتها)	(عدد حروفها)	(مكية أو مدنية)
(١)	(الفاتحة)	(٧)	(٢٧)	(١٤٠)	(مكية)
(٢)	(البقرة)	(٢٨٦)	(٦١٢١)	(٢٥٥٠٠)	(مدنية)
(٣)	(آل عمران)	(٢٠٠)	(٣٤٨٠)	(١٤٥٢٥)	(مدنية)
(٤)	(النساء)	(١٧٦)	(٣٠٤٥)	(١٦٠٣٠)	(مدنية)
(٥)	(المائدة[1])	(١٢٠)	( )	( )	(مدنية)
(٦)	(الأنعام)	(١٦٥)	(٣٠٥٢)	(١٢٤٢٢)	(مكية)
(٧)	(الأعراف)	(٢٠٦)	(٣٣٢٥)	(١٤٣١٠)	(مكية)
(٨)	(الأنفال)	(٧٦)	(١١٣٠)	(٥٢٩٤)	(مدنية)
(٩)	(التوبة)	(١٣٠)	(٢٤٩٥)	(١٠٨٨٧)	(مدنية)
(١٠)	(يونس)	(١٠٩)	(١٨٣٢)	(٧٥٦٧)	(مكية)
(١١)	(هود)	(١٢٣)	(١٧٢٥)	(٦٦٠٥)	(مكية)
(١٢)	(يوسف)	(١١١)	(١٩٩٦)	(٧١٧٦)	(مكية)
(١٣)	(الرعد)	(٤٥)	(٨٥٥)	(٣٥٠٦)	(مدنية)
(١٤)	(إبراهيم)	(٥٢)	(٨٣١)	(٣٤٣٤)	(مكية)
(١٥)	(الحجر)	(٩٩)	(٦٥٤)	(٢٧٧٠)	(مكية)
(١٦)	(النحل)	(١٢٨)	(١٨٤١)	(٦٧٠٧)	(مكية)
(١٧)	(الإسراء)	(١١٠)	(١٥٣٣)	(٦٤٦٠)	(مكية)
(١٨)	(الكهف)	(١١١)	(١٥٧٧)	(٦٤٦٠)	(مكية)
(١٩)	(مريم)	(٩٨)	(٩٦٢)	(٣٣٠٢)	(مكية)

---

(١) سورة المائدة: عدد آياتها وكلماتها يحتاج إلى البحث عنه، ولم أجد من ذكر كلماتها وحروفها.

(٢٠)	(طه)	(١٣٥)	(١٣٤١)	(٥٢٤٢)	(مكية)
(٢١)	(الأنبياء)	(١١٢)	(١١٣٨)	(٤٨٦٠)	(مكية)
(٢٢)	(الحج)	(٧٦)	(١٢٩١)	(٥١٣٥)	(مكية)
(٢٣)	(المؤمنون)	(١١٨)	(١٨٤٠)	(٤٨٠٠)	(مكية)
(٢٤)	(النور)	(٦٤)	(١٣١٦)	(٥٩٨٠)	(مدنية)
(٢٥)	(الفرقان)	(٧٧)	(٨٧٢)	(٨٧٦٣)	(مكية)
(٢٦)	(الشعراء)	(٢٢٧)	(١٢٦٧)	(٥٥٤٢)	(مكية)
(٢٧)	(النمل)	(٩٤)	(١١٤٩)	(٤٧٦٧)	(مكية)
(٢٨)	(القصص)	(٨٨)	(١٤٤١)	(٥٨٠٠)	(مكية)
(٢٩)	(العنكبوت)	(٦٩)	(١٩٨١)	(٥٥٩٥)	(مكية)
(٣٠)	(الروم)	(٦٠)	(٨١٩)	(٣٥٣٤)	(مكية)
(٣١)	(لقمان)	(٣٤)	(٥٤٨)	(٢١١٠)	(مكية)
(٣٢)	(السجدة)	(٢٩)	(٦٨٠)	(١٥١٨)	(مكية)
(٣٣)	(الأحزاب)	(٧٣)	(١٢٨٠)	(٥٩٩٠)	(مدنية)
(٣٤)	(سبأ)	(٥٠)	(٨٨٣)	(١٥١٢)	(مكية)
(٣٥)	(فاطر)	(٤٥)	(١٩٧)	(٣١٣٠)	(مكية)
(٣٦)	(يس)	(٨٣)	(٨٢٩)	(٣٠٠٠)	(مكية)
(٣٧)	(الصافات)	(١٨٢)	(٨٦٠)	(٣٨٢٩)	(مكية)
(٣٨)	(صٓ)	(٨٦)	(٧٣٢)	(٣٠٩٩)	(مكية)
(٣٩)	(الزمر)	(٧٥)	(١١٩٢)	(٤٧٠٨)	(مكية)
(٤٠)	(غافر)	(٨٥)	(١١٩٩)	(٤٩٦٠)	(مكية)
(٤١)	(فصلت)	(٥٤)	(٧٩٩)	(٣٣٥٠)	(مكية)
(٤٢)	(الشورى)	(٥٣)	(٨٨٦)	(٣٥٨٨)	(مكية)
(٤٣)	(الزخرف)	(٨٩)	(٨٣٣)	(٣٤٠٠)	(مكية)
(٤٤)	(الدخان)	(٥٩)	(٣٤٦)	(١٤٣١)	(مكية)

(٤٥)	(الجاثية)	(٣٧)	(٤٨٨)	(٢١٩١)	(مكية)
(٤٦)	(الأحقاف)	(٣٤)	(٦٤٤)	(٢٥٩٥)	(مكية)
(٤٧)	(محمد)	(٣٩)	(٥٣٩)	(٢٣٤٥)	(مدنية)
(٤٨)	(الفتح)	(٢٩)	(٥٦٠)	(٢٤٣٨)	(مدنية)
(٤٩)	(الحجرات)	(١٨)	(٣٤٣)	(١٤٧٦)	(مدنية)
(٥٠)	(قٓ)	(٤٥)	(٣٩٥)	(١٤٩٤)	(مكية)
(٥١)	(الذاريات)	(٦٠)	(٣٦٠)	(١٢٨٩)	(مكية)
(٥٢)	(الطور)	(٤٩)	(٨١٢)	(١٥٠٠)	(مكية)
(٥٣)	(النجم)	(٦٢)	(٣٦٠)	(١٤٠٥)	(مكية)
(٥٤)	(القمر)	(٥٥)	(٣٤٢)	(١٤٢٣)	(مكية)
(٥٥)	(الرحمٰن)	(٧٧)	(٣٥١)	(١٦٣٦)	(مدنية)
(٥٦)	(الواقعة)	(٩٧)	(٣٩٨)	(١٧٠٣)	(مكية)
(٥٧)	(الحديد)	(٢٩)	(٥٤٤)	(٢٤٧٦)	(مدنية)
(٥٨)	(المجادلة)	(٢٢)	(٤٧٣)	(١٧٧٢)	(مدنية)
(٥٩)	(الحشر)	(٢٤)	(٧٤٥)	(٩١٣)	(مدنية)
(٦٠)	(الممتحنة)	(١٣)	(٣٤٨)	(١٥١٠)	(مدنية)
(٦١)	(الصف)	(١٤)	(٢٢١)	(٩٢٦)	(مدنية)
(٦٢)	(الجمعة)	(١١)	(١٨٠)	(٧٤٨)	(مدنية)
(٦٣)	(المنافقون)	(١١)	(١٨٠)	(٧٧٦)	(مدنية)
(٦٤)	(التغابن)	(١٨)	(٢٤١)	(١٠٧٠)	(مدنية)
(٦٥)	(الطلاق)	(١٢)	(٢٤٩)	(١١٧٠)	(مدنية)
(٦٦)	(التحريم)	(١٢)	(٢٤٩)	(١٠٦٠)	(مدنية)
(٦٧)	(الملك)	(٣٠)	(٣٣٥)	(١٣١٣)	(مكية)
(٦٨)	(القلم)	(٥٢)	(٣٠٠)	(١٢٥٦)	(مكية)
(٦٩)	(الحاقة)	(٥٠)	(٢٥٦)	(١٤٨٠)	(مكية)

(٧٠)	(المعارج)	(٤٤)	(٢١٦)	(٨٦٠)	(مكية)
(٧١)	(نوح)	(٢٨)	(٢٢٤)	(٩٢٩)	(مكية)
(٧٢)	(الجن)	(٢٨)	(٢٨٥)	(٨٧٠)	(مكية)
(٧٣)	(المزمل)	(٢٠)	(٢٨٥)	(٨٣٨)	(مكية)
(٧٤)	(المدثر)	(٥٦)	(٢٥٥)	(١٠١٠)	(مكية)
(٧٥)	(القيامة)	(٣٩)	(١٩٧)	(٦٥٢)	(مكية)
(٧٦)	(الإنسان)	(٣١)	(٢٤٠)	(١٠٥٤)	(مدنية)
(٧٧)	(المرسلات)	(٥٠)	(١٨١)	(٨١٦)	(مكية)
(٧٨)	(النبأ)	(٤٠)	(١٧٣)	(٧٧٠)	(مكية)
(٧٩)	(النازعات)	(٤٥)	(١٧٣)	(٩٥٣)	(مكية)
(٨٠)	(عبس)	(٤١)	(١٣٣)	(٥٣٣)	(مكية)
(٨١)	(التكوير)	(٢٩)	(١٠٤)	(٥٣٣)	(مكية)
(٨٢)	(الانفطار)	(١٩)	(٨٠)	(٨٢٧)	(مكية)
(٨٣)	(المطففين)	(٣٦)	(١٩٩)	(٧٨٠)	(مكية)
(٨٤)	(الانشقاق)	(٢٥)	(١٠٩)	(٨٣٠)	(مكية)
(٨٥)	(البروج)	(٢٢)	(١٠٩)	(٤٥٨)	(مكية)
(٨٦)	(الطارق)	(١٧)	(٧٢)	(٤٧١)	(مكية)
(٨٧)	(الأعلى)	(١٩)	(٧٢)	(٢٨٤)	(مكية)
(٨٨)	(الغاشية)	(٢٦)	(٩٢)	(٣٨١)	(مكية)
(٨٩)	(الفجر)	(٢٩)	(١٣٩)	(٥٩٧)	(مكية)
(٩٠)	(البلد)	(٢٠)	(٨٢)	(٣٢٠)	(مكية)
(٩١)	(الشمس)	(١٥)	(٤٥)	(٢٤٧)	(مكية)
(٩٢)	(الليل)	(٢١)	(٧١)	(٣٢٠)	(مكية)
(٩٣)	(الضحى)	(١١)	(٤٠)	(١٧٠)	(مكية)
(٩٤)	(الشرح)	(٨)	(٢٩)	(١٠٣)	(مكية)

(٩٥)	(التين)	(٨)	(٣٤)	(١٥٠)	(مكية)
(٩٦)	(العلق)	(١٩)	(٧٢)	(٢٧٠)	(مكية)
(٩٧)	(القدر)	(٥)	(٣٠)	(١٢١)	(مكية)
(٩٨)	(البيّنة)	(٨)	(٩٤)	(٣٩٠)	(مدنية)
(٩٩)	(الزلزلة)	(٩)	(٣٥)	(١٤٩)	(مدنية)
(١٠٠)	(العاديات)	(١١)	(٤٠)	(١٦٣)	(مكية)
(١٠١)	(القارعة)	(١٠)	(٣٦)	(١٥٢)	(مكية)
(١٠٢)	(التكاثر)	(٨)	(٢٨)	(١٢٠)	(مكية)
(١٠٣)	(العصر)	(٣)	(١٤)	(٦٨)	(مكية)
(١٠٤)	(الهمزة)	(٩)	(٨٤)	(١٦١)	(مكية)
(١٠٥)	(الفيل)	(٥)	(٢٣)	(٩٦)	(مكية)
(١٠٦)	(قريش)	(٤)	(١٧)	(٧٣)	(مكية)
(١٠٧)	(الماعون)	(٧)	(٢٥)	(١٢٣)	(مكية)
(١٠٨)	(الكوثر)	(٣)	(١٠)	(٤٢)	(مكية)
(١٠٩)	(الكافرون)	(٦)	(٢٦)	(٧٤)	(مكية)
(١١٠)	(النصر)	(٣)	(٢٣)	(٧٩)	(مدنية)
(١١١)	(المسد)	(٥)	(٢٣)	(٧٧)	(مكية)
(١١٢)	(الإخلاص)	(٤)	(١٥)	(٤٧)	(مكية)
(١١٣)	(الفلق)	(٥)	(٢٣)	(٧٤)	(مدنية)
(١١٤)	(الناس)	(٦)	(٢٠)	(٩٩)	(مدنية)

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

وهذا آخر ما بشرني الله سبحانه بانتهائه بعدما وفقني بابتدائه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والشكر له على ما حبانا شكراً يوافي ما أولانا، ويكافىء ما يزاد لنا، وأسأله أن يديم نفعه بين عباده، ويرد عنه جدل منكره وجاحده، ويطمس عنه عين كائده وحاسده، خصوصاً في هذا الزمان الذي بُدل نعيمه بؤساً، وعُدَّ جيِّده منحوساً، قد ملأ الحسد من أهله جميع الجسد، وقادهم الغرور بحبل من مسد، فما أحسن قول من قال:

إنْ يَسْمَعُوْا سُبَّةً طَارُوْا بِهَا فَرَحَاً ... مِنِّيْ وَمَا سَمِعُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوْا خَيْرَاً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا

أو من قال:

إِنْ يَعْلَمُوْا ٱلْخَيْرَ أَخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوْا ... شَرَّاً أَذَاعُوْا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوْا كَذَبُوْا

اللهم كما مننت علي بإكمال هذا التفسير المبارك، وأعنتني على تحصيله، وتفضلت علي بالفراغ منه بعد مدة مديدة، فامنن علي بقبوله، واجعله لي ذخيرة خير عندك بمنك وكرمك وجودك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيته في جمعه وكتابته من التعب والنصب، وانفع به من تلقاه بالقبول، وقصد الانتفاع منه من عبادك؛ ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد المهم من تأليفه، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، وتجاوز عني ما خطر لي من خواطر السوء مما يخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك من معاني كتابك، فإني لم أقصد في جمع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه فإن أخطأت فأنت غافر الخطيات، ومسبل ذيل الستر على الهفوات.

بِٱلذُّلِّ قَدْ وَافَيْتُ بَابَكَ عَالِمَاً ... إِنَّ ٱلتَّذَلُّلَ عِنْدَ بَابِكَ يَنْفَعُ

اِجْعَلْ لِيَا مِنْ كُلِّ خَطْأٍ مَخْرَجَا ... وَٱسْمَحْهُ لِيْ يَا مَنْ إِلَيْهِ ٱلْمَفْزَعُ

مَالِيْ سِوَىٰ قَرْعِيْ لِبَابِكَ حِيْلَةٌ ... وَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ

والمرجو ممن صرف وجهه إليه بعين الرضا والرغبة لديه أن يصلح خطأه وسقطته، ويزيل زلله وهفوته بعد المراجعة والتأمل والإمعان، لا بمجرد النظر والعِيان؛ لأن الإنسان مركز الجهل والخطأ والنسيان، ولا سيما حليف البله والبلاهة

والتوان؛ ليكون ممن يدفع السيئة بالحسنة، لا ممن يجازي بالسيئة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وَإِنِّـي وَإِنْ كُـنْـتُ أَخِـيْـراً زَمَـانُـهُ فَقَدْ جَمَعْتُ فِيْهِ مَا لَمْ يَجْمَعِ ٱلأَوَائِلُ

عَلَّمَنا الله وإياكم علوم السالفين، وجنبنا وإياكم زيوف الخالفين، وما أحسن قول من قال:

وَكُـلُّ خَـيْـرٍ فِـيْ ٱتِّـبَـاعِ مَـنْ سَـلَـفْ وَكُـلُّ شَـرٍّ فِـيْ ٱبْـتِـدَاعِ مَـنْ خَـلَـفْ

وأدبنا وإياكم بآداب الأخيار، وأذاقنا وإياكم كؤوس المعارف والأسرار، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين.

وما ألطف قول من قال في نداء ربه تعالى:

يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـا مَـنْ لاَ شَـرِيْـكَ لَـهُ يَا سَامِعَ ٱلصَّوْت يَا مَنْ جَلَّ عَنْ صَمَمِ
يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـاذَا ٱلْـجُـوْدِ يَـا أَمَـلِـيْ يَاذَا ٱلْجَلاَلِ وَيَاذَا ٱللُّطْفِ فِيْ ٱلأُمَمِ

اللهم ربنا يا ربنا تقبل منا أعمالنا، وأصلح لنا أقوالنا، وأفعالنا إنك أنت الكافي الحسيب، والقريب المجيب، وأحمدك يا ربي، لا أُحصي حمداً لك، وأشكرك لا أستقصي شكراً لك أنت كما أثنيت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وحبيبك محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين آمين يا رب ألف ألف آمين.

حَـمْـداً لِـرَبِّـنَـا عَـلَـىٰ جَـمْـعِـهِ ثُـمَّ غُـفْـرَانُـهُ لِـمُـؤَلِّـفِـهِ
وَلِـنَـاشِـرِهِ وَطَـابِـعِـهِ وَلِـقَـارِئِـهِ وَسَـامِـعِـهِ
وَلِـوَالِـدَيْـهِ وَكُـلٍّ مَـنْ إِلَـيْـهِ ٱنْـتَـمَـىٰ مِـنْ ذُرِّيَّـتِـهِ
وَلِـمَـشَـايِـخِـهِ وَكُـلٍّ مَـنْ أَسْـدَىٰ لَـهُ ٱلإِسْـعَـافَ فِـيْ تَـعَـلُّـمِـهِ
ثُـمَّ صَـلاَةُ ٱلـلَّـهِ عَـلَـىٰ حِـبِّـهِ مُـحَـمَّـدٍ وَآلِـهِ وَصَـحْـبِـهِ

آخر

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَا قَارِىءَ ٱلْخَطِّ وَٱلْعَيْنَانِ تَنْظُرُهُ   لاَ تَنْسَ صَاحِبَهُ بِٱللَّهِ وَٱذْكُرُهُ
وَهَبْ لَهُ دَعْوَةً لِلَّهِ خَالِصَةً   لَعَلَّهَا فِيْ صُرُوْفِ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعُهُ

شعر آخر

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَأْمُولُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ   إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ
أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ   فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ   عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ   وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

* * *

إِلَىٰ هُنَا وَقَفَتِ ٱلْحَدَائِقْ   مُبَشِّرَةً بَفَكِّ الدَّقَائِقْ
يَا لَهَا جَوْهَرَةٌ مَكْنُوْنَةٌ   فِيْ صُدْفِهَا دُرَّةٌ مَصُوْنَةٌ
وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِفْضَالِهِ   وَٱلشُّكْرُ لِلْمَوْلَىٰ عَلَىٰ إِكْمَالِهِ

الفهرس